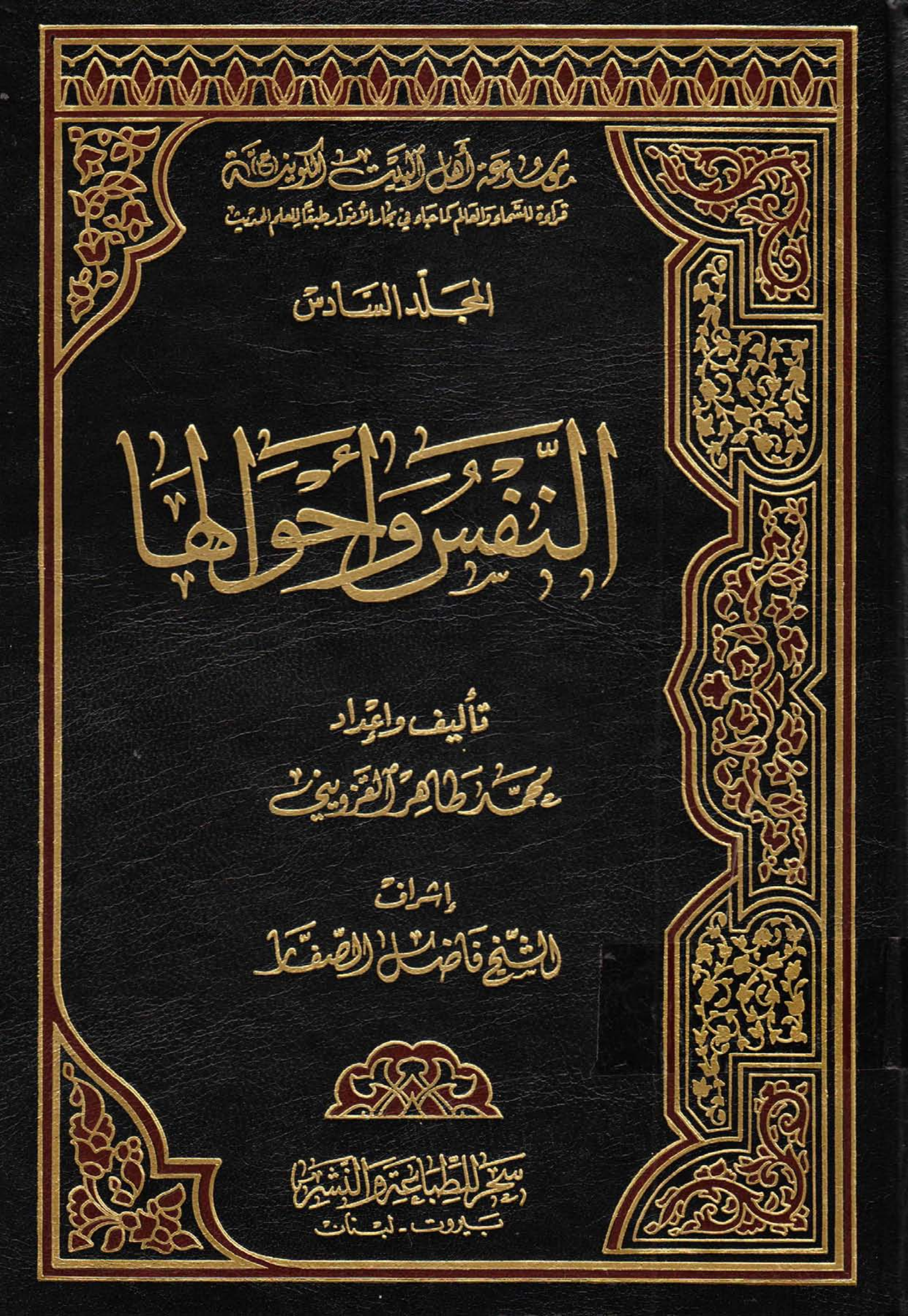


موسوعة أهل البيت (ع) الكونية
قراءة للسماء والعالم كما جاء في بحار الأنوار طبقاً للعلم الحديث
المجلد السادس
النفس وأحوالها
تأليف وإعداد
محمد طاهر القزويني
إشراف
الشيخ فاضل الصفار
سحر للطباعة والنشر
بيروت - لبنان



موسوعة أهل البيت (ع) الكونية

قراءة للسماء والعالم كما جاء في بحار الأنوار طبقاً للعلم الحديث

المجلد السادس

النفس وأحوالها

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م

مراكز التوزيع

لبنان : مؤسسة الفكر الإسلامي

ص ب ٥٩٥٣ / ١٣ بيروت ـ لبنان

هاتف ٢٢٣٦٨٣ ٣ ٠٠٩٦١ ـ ٦٤٨٢٧٠ ٣ ٠٠٩٦١

Email:Alfikr@ayna.com

سوريا : مكتبة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم

هاتف ٦٤١٧٩١٨ ١١ ٠٠٩٦٣ مقسم ١٠٩

إيران : مكتبة أهل البيت عليهم السلام

قم المقدسة ـ هاتف ٧٧٤٤٦٦٨

موسوعة أهل البيت (ع) الكونية

قراءة للسماء والعالم كما جاء في بحار الأنوار طبقاً للعلم الحديث

المجلد السادس

النفس وأحوالها

تأليف وإعداد

محمد طاهر القزويني

إشراف

الشيخ فاضل الصفار

سحر للطباعة والنشر

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسّلام على سيّدنا ونبينا محمّدٍ وآل بيته الطيبين الطاهرين.

عندما كنتُ أبحث في كتب علم النفس الحديث عن حقيقة النفس، كان هناك جدارٌ من الصمت يمنعني من تحقيق غايتي، فأعود وأسألُ نفسي لماذا الصمتُ في قضيةٍ هي الأكثر أهميةً وإلحاحاً بالنسبة إلى علم موضوعه النفس؟.

العلماء الذين خاضوا هذا السبيل بحثوا في كثير من الأمور المتعلقة بالنفس مثل: السلوك والغرائز والإدراك والإحساس، وتعمّقوا في قوى الإدراك والحس، لكنهم لم يبينوا لنا حقيقة النفس «مثالهم كمن يصف أشعة الشمس ويقول أنّها الشمس ذاتها أو من طُلب منه أنّ يقدم تعريفاً للإنسان فوصف شجاعته أو عضلاته أو شكله!».

لماذا يتحاشون الخوض في حقيقة هذا الأمر؟ هل لعدم أهميته؟ أم لأنّهم لا يعترفون بوجود النفس؟.

فإذا كانوا ينكرون وجودها فلماذا يطلقون على المعارف التي يتوصلون إليها ويحققون فيها عنوان (علم النفس)؟.

المدرسة السلوكية تستطيع أنّ تطلق على بحوثها (علم السلوك) من دون أنّ تقول أنّها تقدمُ تعريفاً للنفس، والمدرسة التحليلية تضع بحوثها في إطار (التحليل النفسي) ونجد أنّ أغلب مدارس علم النفس التجريبية، قد ركزت جهدها في جانب واحد من جوانب البحث النفسي، فالبنائية ركّزت على الإحساس، والشكلية على الإدراك، والربطية اهتمت بالتعلم والتذكّر، والتحليلية بالرغبة، والقصدية بالفاعلية القاصدة، والسّلوكية بالفاعلية الحركيّة الشخصية[1]. فهل يجوز لكل واحدة من هذه المدارس أنّ تقول أنها قدّمت تعريفاً كاملاً للنفس البشرية؟.

في الواقع تجري محاولات للتغطية على العجز في تقديم تعريفٍ منطقي للنفس، فيلجأ أصحاب العجز إلى الكفر بالنفس وإلى إنكار الروح للهروب من القضية برمتها، ولكن هيهات لا مهرب من الحقيقة؟.

فإما أنّ تقول الحقيقة بكامل أبعادها، أو تعترف بالعجز. لأنّك لا تستطيع أنّ تصف بعض الحقيقة وتدّعي أنك قلتها كاملة، لأنّ القارئ الحذق سيكتشف أنّ رأس الحقيقة مغيّب عن الأنظار! ولا أبعد مغالطةً من أنّ يقول المرء بأنّه يبحث في النفس التي يُنكر وجودها.

وإذا أردنا الإحاطة بشيء واسع وعميق يجب أنّ تكون لدينا القدرة على سبر تلك الأغوار المجهولة، وإذا لم تسعفنا قوانا على تحقيق مرادنا، فإنّه يجب أنّ نلجأ إلى قوةٍ أكبر وأعظم تكون قادرة على الإحاطة بتلك المنطقة المجهولة، ولّما وجدت أنّ جميع الكتب التي صادفتها تقف عاجزةً عن الإبحار معي في محيط النفس، توجهت نحو القرآن الكريم وأحاديث أهل البيت عليهم السلام وهنا وجدتُ ضالتي!.

---

(١) مدارس علم النفس: ١٤.

الفصل الأول

النفس

معرفة النفس

منذ ما يزيد على ألف وأربع مائة وإثنين وعشرين عاماً والقرآن يدعونا إلى معرفة النفس، والتدبر في نظام خلقتها، والتفكر في مداخلها ومخارجها، والغوص في أسرارها، فقد جعل القرآن هذا النوع من المعرفة موازياً لمعرفة الكون وأسراره العميقة، فقد جاء في الذكر الحكيم ﴿ ***سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم*** ﴾[1] وليست هذه المقارنة اعتباطية أو عبثية بل هي نتيجة طبيعية لإتحاد نظام الخلقة في إطار قانونٍ واحد ابتدعه خالقٌ واحد، فالنظام الذي خُلقت على أساسه النفوس هو ذات النظام الذي خُلق منه الكون، وذات القوانين التي تتحكم بالنفس البشريّة هي ذاتها تتحكم بمصير العالم بل الأعجب من ذلك وبسبب عمق الإرتباط والإتّصال بينهما، فإنّ الكون يتأثر بأحوال النفس البشريّة وبالعكس، فكيف تكون حالات النفوس يتأثر بها النّظام الكوني سلباً أو إيجاباً، وبالتالي فإنّ ذلك ينعكس على وضع الطبيعة، من هواء ورياح وأمطار وشمس وأرض، ألا ترون أنّ الهواء الذي يستنشقه الإنسان يساعد على نقل المكروبات بين الناس في أحيان؟ ألا ترون أنّ الرياح التي تنقل السحاب من مكان إلى مكان تدمّر المدن والقرى في أحيان؟ الجهلاء يحسبون أنّ ذلك يحدث عبثاً ومن دون تدبير وحكمة! ألا ترون إلى الأمطار التي تُسقي الأرض تتحول في أحيان إلى سيول تجرف ما في طريقها؟ ألاّ ترون إلى الأرض التي ينبت فيها الزرع ومنها غذاء الإنسان تغضب في أحيان فتزلزل ما عليها فيتحول إلى ركام؟ هل يُعقل أنّ مثل هذه الأحداث الكُبرى التي تقع في

---

(١) سورة فصّلت: ٥٣.

الحياة هي عبثية... إذن الحياة كلها عبثية! والنظام الكوني هو أيضاً عبثٌ في عبث!!

هل عاقلٌ من يعتقد بمثل هذه الأفكار الباطلة؟.

لقد جعل الله سبحانه وتعالى بتخويل وإرادةٍ منه جوهر الحركة نابعاً من النفوس البشريّة، وتتفاعل هذه الحركة مع حركة النظام الكوني بحيث كلّ واحدٍ منهما ينفعل بالآخر ويتأثر به، فظاهرة هطول المطر مثلاً تكون سبباً للحياة من خلال إرواء الأرض والزرع، ومرّة يصبح سبباً للموت عندما يتحول إلى سيلٍ جارف، فهل كان نظام الكون الذي ابتدعه الله سبحانه وتعالى أعمى بحيث لا يميّز بين قومٍ وقوم، وبين مدينةٍ ومدينة، وبين مطر الموت ومطر الحياة؟ حاشا لله ولنظامه المتقن من العمى والعبثية، لنقرء آية من القرآن الكريم: ﴿ *وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسك* ﴾[1].

إنّ مخالفة النفوس لقانون النظام الكوني يؤدي إلى خلخلة واضطراب في هذا النظام وعليه فلا ينبغي لبني البشر أنّ يأمنوا من العواقب الوخيمة التي ستلحق بهم نتيجة مخالفتهم لقانون الحياة، ونحن الآن أمام طريقين لا ثالث لهما، فإما أنّ نقول بشيوع الأمراض ومنها مرض (الإيدز) في العالم هو محض صدفة، أو نقول بأنّه كانت هناك أسباباً موضوعية لشيوعه بهذا الإتّساع بين الناس.

خبراء الصّحة يؤكدون أنّ الأمراض لا تصيب البدن إلاّ لأسباب موضوعية، ونتيجة خللٍ في نظام الحماية داخل الجسم الشبري، فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لبدن الإنسان فكيف الأمر بالنسبة لبدن المجتمع؟ أليس إنتشار مرض الإيدز بين أفراده هو نتيجة لمخالفة نظام الحماية؟ إنّ قانون الحياة الذي

---

(١) سورة النساء: ٧٩.

سنَّةُ الله سبحانه وتعالى هو بمثابة نظام الحماية لبدن الإنسان والمجتمع، وإنَّ مخالفته يستدعي عواقب وخيمة على كليهما.

إنَّ هذه المخالفات تم اباحتها والتشريع بقانونيتها، فقد أصدرت المجالس التشريعية بتلك البلدان قانوناً يُبيح زواج الشذوذ الجنسي، على الرغم من تحذيرات الخبراء، أنَّ الشذوذ سبب رئيسي لشيوع مرض (الإيدز) فهل هناك قانوناً مخالفاً للطبيعة أكثر من هذا القانون، إننا لا نشاهد خرقاً للعقل والمنطق من جانب واحد من الكرَة الأرضية، بل نلاحظ فروقاً لكلَّ القيم والمقدرات العقليَة والإنسانيَة والدينية في كلَّ ارجاء هذا الكوكب الذي تنشبُ فيه الحروب الطاحنة، فتؤدي بحياة ملايين الناس، ومجاعةٌ تأكل عُمر آلاف الآلاف من الأفارقة، واستعمارٌ ينهب ثروات الشعوب المستضعفة، والعنصرية جعلت من بعض البشر غنماً، ونظام اقتصادي عالمي يثري فيه الغني ثراءاً فاحشاً ويجوع فيه الفقير إلى حد الثمالة، والظلم يعبث بمقدرات الناس ويبث خيوطه في كلِّ مكان... عالمٌ مليءٌ بالفساد والرجس!!.

للخروج من هذه العتمة وإعادة بناء حياة كريمة لهذا الإنسان الذي يعيش على هذا الكوكب، هناك طريق وحيد هو العودة إلى النفس، وكما ذكرنا سابقاً فإنَّ (جوهر الحركة تنقدح أولاً من النفوس) وكلَّ تغيير في الحياة إيجاباً كان أو سلباً فإنَّ مصدره هي هذه النفوس، وقد بيَنت هذه الحقيقة آيةَ عظيمة هي: ﴿ *إنَّ الله لا يغيّر ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم* ﴾[1] فقد علَق الله سبحانه وتعالى مصير الأقوام والشعوب والأمم مسلمة وغير مسلمة بنسبة التغيير التي تحدثها في أنفسها، فإنَّ كان التغيير سلبياً فإنَّ مستقبلها سيكون أسوداً، وإنَّ كان إيجابياً فسيكون مصيراً وادعاً.

---

(١) سورة الرعد: ١١.

وحينما نقول بأنّ جوهر الحركة تنقدح من النفوس، فإننا لا ندعي خروجها عن دائرة الأمر الإلهي، بل نؤكد أنّ حركتها في إطار نظام شرعه الله في الدنيا، وصفته أنّه يمنح الحرية للنفوس باتباع أي سبيل شاءت، ولكن بسبب الطبيعة الترابطية والمتداخلة لهذا النظام، فإنّ أية حركة للنفس وأي تحول فيها ستُحسب خطوة إمّا في الإتجاه الصحيح أو في الإتجاه الخطأ، ومن البديهيات أنّ من يسير في الإتجاه السليم سيجني ثمرة أتعابه، وأنّ من يسير في الإتجاه الخاطئ فلا يلومنّ إلاّ نفسه عندما يرى حصيلة عمله أمامه. فالإنسان يجب أنّ يعرف ما أودع الخالق جلّ وعلا فيه من طاقات، وعليه أنّ يسعى بهذه الطاقات نحو الكمال.

يقول المفكر الإسلامي الشهيد السيد حسن الشيرازي في تفسير للآية: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾[1].

فزودناه بكل الطاقات التي تؤهله للقيام دور الإنسان، عبر رحلة البلورة والنضوج، في الحياة الدنيا زودناه بكل الطاقات: الفكرية والروحيّة والعضلية التي يجمعها إطار اسمه (الشباب) ومن أبرز تلك الطاقات:

أوّلاً: الطاقة الفكريّة القادرة على التلقي والهضم والانتاج المسماة بالذاكرة.

ثانياً: الطاقة الروحيّة الموحية بالأمل عبر العقبات والنكسات، لمواصلة السير التكاملي، ويمكن التعبير عنها بـ (الطموح).

ثالثاً: الطاقة الروحية التضحوية التي تلخص الإهتمام في الهدف، وتقلص الإهتمام بكلّ شيء دونه. ويعبر عنه بـ (الإيثار) بمحتواه الواسع.

رابعاً: الطاقة الجسدية على احتمال الخطوب برحابه، ويصح التعبير عنها بـ (الصمود) أو بـ (الصبر).

---

(١) سورة التين: ٤.

فالله تعالى خلق الإنسان من أول ما خلقه ـ مزوداً بهذه الطاقات ـ التي تمكنه من ممارسة الحياة، بالشكل المناسب لنداءات الحياة[1].

ولعل أبلغ كلام يوضح حقيقة الترابط بين النفس والنظام الكوني، وتأثير الإنسان على هذا النظام ما جاء على لسان أمير البلاغة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «أتحسب نفسك جرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر». فقد اختصرت هذه العبارة الصغيرة معنى الوجود البشري نسبةً لخلق العالم، وكأنَّ الإمام عليه السلام كان يريد القول: كيف تحسب نفسك أيّها الإنسان صغيراً وتجعل الآلة هي العامل المحرِّك للتاريخ؟ أو تعتبر رأس المال هو المحرِّك للشعوب؟ بينما أودع الله قوّة عظيمة في نفسك تستطيع بها تغيير وجه الكون؟. فمنذ سجود الملائكة لك أيها الإنسان!!.. ومنذ سخر الله لك الشمس والقمر والكواكب أيّها الإنسان...! ومنذ أن ذللّ الله لك الأرض كي تطأها أيّها الإنسان..! ومنذ أطعمك الله من لحوم الحيوانات وذللّ لك ظهورها كي تركبها، ومنذ أنّ سخر الله لك شجر الأرض ونباته من دون عناء أو شقاء تأكله، ومنذ أنّ وهبك الله عقلاً نيّراً تستضيء به من ظلام الجهل، ومنحك الحريّة في أنّ تفعل ما تشاء فيما سخّر لك إياه من شجرٍ أو دواب أو حتى كواكب. بعد هذا كله تقول أنّ الآلة، أو المال، أو... هي عوامل التغيير في الحياة!!.

---

(١) خواطري عن القرآن : ٣ / ٣٨٩ - ٣٩٠ .

حقيقة النفس

النفس: هي الذات الإنسانية التي تتشعب منها الروح والجسد، وفي اللغة النفس: هي ذات الشيء، فإنّك عندما تقول هذا نفس الشيء، فإنّك تقصد ذاته أو عينه، وعندما تطلب من عمر أنّ ينادي لك زيداً، فإنّك تريد زيداً بروحه وجسده، فلو مات زيدٌ في الأثناء لما تمكن عمر من مناداة جسده بمفرده ولا روحه بمفردها، لأنّ حقيقة نفس زيد نابعة من إتحاد جسده مع روحه.

ولقد ذهب العلماء الماضون إلى مذاهب متعددة في النفس، فمنهم من اعتبرها في الرّوح، ومنهم من عدّها هي الدم الذي يجري في العروق، ومنهم من قال أنّها هي القلب، ومنهم من وصفها بأنّها هي المزاج المتولّد من الأخلاط الأربعة في البدن، ومنهم من ألمح إلى أنّها الدماغ، ومنهم من اعتقد أنها الماء، ومنهم من ذهب إلى أنّها الحرارة الغريزية، وبعضهم اعتبرها صورة نوعيّة قائمة بمادة البدن.

ولقرب اتصال هذا الموضوع بعالم الغيب، فإننا نرى من الضروري الاعتماد على مصادره لحلّ هذا اللغز الذي تحير فيه العلماء مدةً تزيد على آلاف السنين، فلنعرض هذهِ المشكلة على القرآن الكريم ونستطلع رأيه في هذا المجال الحيوي والحساس من عالم المعرفة، فنلقي نظرة على الآيات التي تتحدث عن عالم النفس.

سنجد أنّ معظم الآيات القرآنية التي أتت فيها كلمة النفس إستهدفت معنى الذات البشرية، وقليل منها أشار إلى الروح فقط أو إلى البدن، لكنّ أغلبها تطرق إلى معنى الذات الإنسانية، ومنها هذه الآيات:

١ - ﴿ لا تكلّف نفس إلاّ وسعها ﴾[١] فالتكليف لايقع إلاّ على الذات الكاملة، فمن الروح الحثّ على أداء الفعل ومن البدن السعي.

٢ - ﴿ ثمّ توفى كلّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[٢] وثواب ما تكسبه النفس يقع على الروح والجسد، لأنّ الروح تتألم بالنار عن طريق الجسد.

٣ - ﴿ كلّ نفس ذائقة الموت وإنّما توفّون أجوركم يوم القيامة ﴾[٣] فالرّوح تذوق ألم نزعها وإنتقالها للعالم العلوي عن الجسد، والبدن يموت بتفسخه.

٤ - ﴿ وكتبنا عليهم فيها أنّ النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن ﴾[٤] فالقصاص لا يُجرى بحق بدن القاتل فقط ولا من روحه فحسب، بل من كليهما، وعندما يعدمون الجسد، فإنّ هدفهم هو نزع الروح منه.

٥ - ﴿ يوم تأتي كلّ نفس تجادل عن نفسها ﴾[٥]. فالرّوح تتحدث عبر العقل، والبدن ينطق عبر اللسان.

٦ - ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفس واحدة ﴾[٦] بدأ الخلق بتسوية البدن، ثمّ نفخ الروح فيه، وكذلك يكون البعث.

٧ - ﴿ ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها ﴾[٧] التسوية للبدن والإلهام للرّوح.

٨ - ﴿ اقرء كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾[٨] القراءة تكون من جانب البدن، والمحاسبة من جانب العقل والرّوح.

---

(١) سورة البقرة: ٢٣٣.

(٢) سورة البقرة: ٢٨١.

(٣) سورة آل عمران: ١٨٥.

(٤) سورة المائدة: ٤٥.

(٥) سورة النحل: ١١١.

(٦) سورة لقمان: ٢٨.

(٧) سورة الشمس: ٧ - ٨.

(٨) سورة الإسراء: ١٤.

٩ - ﴿ قل لله كتب على نفسه الرّحمة ﴾[1] لو قلنا أنّ النفس شيءٌ كالرّوح، فإنّ ماهيتها ستكون من ماهية الباري عزّ وجلّ، لأنّ الله سبحانه وتعالى وكما في الآية يُبيِّن أنّ له نفساً، تشبه نفس الإنسان، وهذا كلامٌ باطل والشرك فيه واضح، والمراد بالنفس الإلهية في الآية الكريمة هي الذات المقدسّة للباري عزّ وجلّ، كما أنّ المقصود بالنفس البشرية هي الذات الإنسانية، فنفس الله هي ذاته المقدّسة، ونفس الإنسان هي ذاته البشرية.

١٠ - ﴿ فأسرّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ﴾[2] الأسرار في القلب والبوح بها عن طريق اللسان.

١١ - ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلاّ ما شاء الله ﴾[3] النفع والضرر يصيبان البدن والرّوح على حدٍ سواء.

١٢ - ﴿ وإذا النفوس زوّجت ﴾[4] اتصالٌ للأبدان والتقاءٌ للأرواح.

١٣ - ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاّ بشق الأنفس ﴾[5] الإرهاق للبدن والملل للروح.

١٤ - ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ﴾[6] فالنار تُحرق البدن وتتألم الروح من ذلك، ولو كانت الرّوح منفكةً عن الجسد لِما كانت قد تألمت أو احترقت بالنّار، لأنّ الأرواح لا تحترق بهذه النيران.

---

(١) سورة الأنعام: ١٢.

(٢) سورة يوسف: ٧٧.

(٣) سورة الأعراف: ١٨٨.

(٤) سورة التكوير: ٧.

(٥) سورة النحل: ٧.

(٦) سورة التحريم: ٦.

١٥ ـ ﴿ فَضَّلَ اللهُ المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ﴾[1] فجهاد النفس على نوعين: جهاد الروح والعقل ضد الأهواء الشيطانية، وجهاد بالبدن عبر القتال في سبيل الله.

١٦ ـ ﴿ والمطلّقات يتربّصن بأنفسهنّ ثلاثة قروء ﴾[2] لو كانت النفس شيئاً نظير الرّوح، فما علاقة ذلك الشيء بانتظار المرأة المطلقة ثلاثة قروء؟ إلى هذا يؤكد أنّ النفس المقصودة هي الذات البشرية، وهذه الآيات هي غيض من فيض كثير، أوضح فيه الباري عزّ وجلّ أنّ النفس البشرية هي الذات الإنسانية المتكونة من الروح والبدن، ولو أردنا لأكتفينا ﴿ فقل سلام عليكم كتب ربّكم على نفسه الرّحمة ﴾[3] كدليل ناصع وحجة دامغة، ولو كانت النفس جوهراً مشابهاً للرّوح، فأين تذهب إذن عند خروج الرّوح من البدن؟ فلقد تظافرت الأدلة على أنّ الذي يخرج من الإنسان هي روحاً واحدة لا أكثر ولا أقل!.

من خلال هذا البحث حول حقيقة النفس والتي استعرضنا فيه ما ورد في القرآن الكريم من آيات، والتي توصلنا من خلالها إلى أنّ كلمة النفس تعني الذات البشرية.

هذا وقد أشار العلاّمة المجلسيتدّسّ في البحار إلى آراء العلماء والحكماء في هذا الخصوص حيث ذكرتدّسّ في موضوع النفس مايلي:

اسم النفس مشترك بالإشتراك اللفظي بين معانٍ: منها ذات الشيء (فعل ذلك بنفسه)، ومنها الأنفة (ليس لفلان نفس)، ومنها الإرادة (نفس فلان في كذا)، ومنها العين قال ابن القيس:

يتقي أهلها النفوس عليها فعلى نحرها الرقى والتميم

(١) سورة النساء: ٩٥.

(٢) سورة البقرة: ٢٢٨.

(٣) سورة الأنعام: ٥٤.

ومنها مقدار دبغة من الدباغ، تقول: أعطني نفساً أي قدر ما أدبغ به مرة، ومنها العيب (إني لا أعلم نفس فلان) أي عيبه، ومنها العقوبة ﴿ **ويحذركم الله نفسه** ﴾[١]، ومنها ما يفوت الحياة بفواته كنفس الحيوان ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾[٢] وهذهِ هي المبحوث عنها المختلف فيها.

واعلم أنّ الاحتمالات التي اقتضاها التقييم بمناسبة إما جوهر مادي، أو جوهر مجرد، أو مادي وعرض، أو مجرد وعرض أو مادي ومجرد وعرض.

المذهب الأوّل: الجوهر المادي: قال به جماعة من المعتزلة وكثير من المتكلمين، ثمّ اختلفوا على مذاهب:

ذهب جمهور المسلمين إلى أنّه مجموع الهيكل المحسوس، وهذا كما ترى ليس هو جوهر فقط بل مضاف إليه عرض، لأنّ الجسم كذلك، واختاره القزويني، قال: لإجماع أهل اللغة أنهم عند إطلاق نفسه يشيرون إليه، واتّفاق الأمة على وقوع الإدراكات بالبصر عليه، ونصوص القرآن أيضاً واردة فيه مثل: ﴿ **إنّا خلقنا الإنسان من نطفة** ﴾[٣]، ﴿ **خُلِقَ من ماء دافق** ﴾[٤] ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين** ﴾[٥]. ﴿ **إنّي خالق بشراً من صلصال** ﴾[٦]، وإنه هو الذي يميت ويقبر في قوله ﴿ **ثمّ أماته فأقبره** ﴾، فمن يخرج عن هذهِ النصوص إلى غير مدلولاتها كيف يكون مسلماً؟! وقد أجمعت الأمة على أنَ من رأى هذهِ البينة وحلف أنه ما رأى إنساناً حنث، ولكن اختلف في أنّ الإنسان هل هو هذهِ الجملة، أو شيء له هذه الجملة؟ قال: الأقرب الثاني. والفائدة في الملك إذا جاء فيها فإنّه

---

(١) سورة آل عمران : ٢٨ .

(٢) سورة آل عمران: ١٨٥.

(٣) سورة الإنسان: ٢.

(٤) سورة الطارق: ٦.

(٥) سورة المؤمنون: ١٢.

(٦) سورة الحجر: ٢٨.

ليس بإنسان، وكذا المصوّر لها من خشب وغيره، وإنما جرى إسم الإنسان على الهيكل تبعاً لذلك الشيء الذي له الهيكل آدم عليه السلام وأولاده، وهذا الذي قرّبه مخالف لما صوّره.

قال الباقلاني: هو الجزء الهوائي، وهو النفس المتردد في المخارق، وإنّه متى انقطع انقطعت الحياة، فالنفس هو النفس.

قلنا: قد أسلفنا أنّ التلازم لا يستلزم الاتحاد. قيل: هو الجزء المائي لأنه سبب النمو فالنفس كذلك، قلنا: وهذا من موجبتين في الشكل الثاني، فهو عقيم ولا ينحصر النمو في الماء، فإنّه يوجد في الشمس والهواء.

قال ابن الأخشيد: إنّه جسم منبث في الجملة وفيه ما فيما قبله.

قالت الصوفيّة: إنّه جسم لطيف كهيئة الإنسان ملبس كالثوب على الجسد، وكأنّهم نظروا إلى الأفعال الصادرة عنه، وإلى أنه إذا قطع بعضه لم يمت، فجعلوه شيئاً ملازماً للجملة، وهذا خرص محض.

وقالت المرقونية: إنّه ثلاثة جواهر: نور وظلمة وثالث بينهما، وهو الفاعل.

قالت الصابئة: هو الحواس الخمسة لأنّه شاعر وهذه مشاعر، وهو من موجبتين في الثاني: ويلزمهم أنه متى ذهب الإنسان لبطلان المركب ببطلان جزئه والحس يكذبه[1].

وقال أكثر المحققين كأبي الحسين البصري، وجمال الدين الحليّ، وكمال الدين البحراني، وسالم بن عزيزة السوراوي: إنّ الإنسان أجزاء اصلية في البدن باقية من أول العمر إلى آخره، لا يجوز عليها التبدل والتغيير، لا مجموع البدن لأنّه دائماً في التبدل والاستخلاف مع بقاء النفس والباقي غير الزائل، ولو كان هو جملة البدن لزمه الظلم، حيث إنّ المعدوم منه لا يمكن

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨ / ٩٢ - ٩٥ .

إعادته، لما عرفت من إمتناع إعادة المعدوم فلا يصل إليه ما يستحقه، ولأنّا متى استحضرنا العلوم وجدناها في ناحية صدورنا، فلو كان محل علومنا شيء خارج عن شيء من أجسامنا لزم قيام صفاتنا بغيرنا، ولأنّ الإنسان لو كان مجرداً كما قيل، لزم أنّ لا يعلم الإنسان الآخر، لأنه لو علم الإنسان الآخر علم ذلك المجرد وهو ظاهر البطلان، ولأنّا نعلم هذا الإنسان، والإنسان المطلق جزء منه، فلو لم نعلم الجزء لم نعلم الكلّ، وينعكس إلى أنّا لما علمنا الكل علمنا الجزء، والمجرد لا يعلم فليس بجزء، ولأنّا ندرك الألم بأجسامنا عند تقربنا إلى النار مثلاً ونحكم عليها به، والمحكوم عليه هو الإنسان فهو معلوم والمجرد غير معلوم[1].

قال جمهور الفلاسفة، ومعمر بن عياد السلمي من قدماء المعتزلة، والغزالي وأبو القاسم الراغب، والشيخ المفيد، وبنو نوبخت، والأسواري، ونصير الدين الطوسي: إنّه جوهر مجرد عن المكان والجهة، والمحل متعلق بالبدن تعلق العاشق بمعشوقه، والملك بمدينته، ويفعل أفعاله بواسطته، وإنّ النفس تدرك حقائق الموجودات، وجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات. وإنّ النفس الفلكيّة تفيض إلى الأشخاص، كالشمس تدخل عند طلوعها كلّ كوّة، بل قال الغزالي: لا هو داخل البدن ولا خارج عنه ولا متّصل به ولا منفصل عنه، لأنّ مصحح ذلك الجسميّة والتميز المنفيّان عنه، كما أنّ الجماد لا عالم له ولا جاهل، لنفي المصحح عنه وهو الحياة.

احتجوا على إثبات المجرد بأنّ هنا معلومات بسيطة كالوحدة والنقطة، فالعلم بها بسيط، إذ لو تركب. فإنّ تعلق جزؤه به أجمع ساوى الجزء الكل، ولزم وجود العلم قبل وجوده، وإنّ تعلّق ببعضه لزم تركب ما فرض بساطته، وإنّ لم يتعلق بشيء ظهر أنّه ليس بعلم، إذ الكلام في باقي الأجزاء كالكلام

---

(١) بحار الأنوار : ٥٨ / ٩٥ - ٩٦ .

فيه، فعند الجمع بينهما إنّ لم تحصل هيئة جديدة كان العلم المفروض محض ما ليس بعلم، وإنّ حصلت الهيئة المفروضة علماً، فإنّ كانت من الجزئين فالتركيب في فاعلهما، وإنّ حصلت عندهما قائمة بها فالتركيب في قابلهما لا فيهما، إذ لو كانت مركبة عاد الكلام في أجزائها، فمحل هذه المفروضة علماً هو النفس وهي بسيطة، لأنها لو تركبت، فإنّ حلّ العلم، البسيط في مجموعهما انقسم العلم إذ الحال في أحد الجزئين، فإنّ كان هو النفس فالمطلوب، وإنّ كان هو جزؤها فالجزء الآخر خالٍ منه، فلزم أنّ نعلم شيئاً ونجهله في وقت واحد. فظهر أنّ المحل وهو النفس بسيط ولا شيء من الجسم والجسماني ببسيط ، ينتج من الشكل الثاني أنّ محل العلم ليس بجسم ولا جسماني.

وقال المجلسي تتئُ في الجواب:

أما المقدمة الأولى: وهي أنّ هنا معلوماً بسيطاً فمسلّم، أما الباقيات فممنوعات.

أما الثانية: فلأنّ الجزء يجوز مساواته للكل في التعلّق وإنّ لم يساوه في الحقيقة كالأدلة، المتواترة على شيء واحد، وإنّ واحدها تعلّق بما تعلّق به مجموعها. وفيه نظر، لأنّ الجزء الثاني من العلم إنّ زاد المعلوم به انكشافاً تعلق بغير ما تعلّق به الأوّل، وإنّ لم يزد كان وجوده مثل عدمه، والأصوب في المنع أنّ قولهم: إنّ لم يتعلق الجزء بشيء ظهر أنّه ليس بعلم، فعند الجمع إنّ لم يحصل هيئة كان المفروض علماً محض ما ليس بعلم وإنّ حصلت منه.. الخ.

نفي كل مركب فيقال: في الحيوان مثلاً ليس بمركّب، لأنّ جزؤه إمّا حيوان فيتقدم الحيوان على نفسه وساوى الجزء الكل، أو ليس بحيوان فبعد الجمع بالجزء الآخر إنّ لم تحصل هيئة كان الحيوان محض ما ليس بحيوان،

وإنَّ حصلت فهي بسيطة لأنَّه لو كان لها جزء عاد التقسيم المذكور، فيكون التركيب في فاعلها أو قابلها لا فيها؛ وليس لهم عن هذه المعارضة مذهب.

وأمَّا الثالثة: وهو أنَّه يلزم من بساطة الحال بساطة المحل، فلأنَّا لا نسلِّم أنَّ العلم على هيئة الحلول والصورة، وإنَّما هو إدراك ووصول ونظر إلى المعلوم، ولو سلِّم لم يلزم من بساطة الحال، بساطة المحل، فإنَّ النقطة والوحدة موجودتان في الجسم المركَّب، نعم إنما يلزم ذلك إذا كان الحلول على نعت السريان، ولم يقم على السريان في محل النزاع برهان.

ويلزم مما قالوا: كون النفس جسماً أو جسمانية لأنَّها تعلم المركَّب في صورة المركَّبة مركَّبة، فيلزم كون محلِّها مركباً لامتناع حلول المركَّب في البسيط، وهذه معارضة أخرى لا محيص عنها.

وأمَّا الرابعة: فنمنع إنقسام كلّ جسم وجسماني، لما ثبت في الكلام جواهر لا تقبل الانقسام.

المذهب الثاني: أنَّها عرض فذهب جالينوس إلى أنَّه المزاج الذي هو اعتدال الأركان، وهذا نظر إلى فوات الحياة بفواته وقد سلف جوابه.

وقيل: إنَّه تشكيل البدن وتخطيطه، وهذا قول سخيف جداً منقوض بمقطوع اليد مثلاً، فإنَّ فوات تخطيطها يلزم منه عدم النفس، لعدم الكل بعدم الجزء.

وقيل: إنَّه الحياة، وهذا مأخوذ من التلازم بينهما، وقد عرفت أنَّه لا يوجب الإتحاد.

وقيل: أنَّه النسبة الواقعة بين الأركان في الكميَّات والكيفيات.

أما تركّبه من الجسم والمجرَّد، أو من العرض والمجرَّد أو من الجسم والعرض والمجرَّد، فقال سديد الدين محفوظ: لا أعلم به قائلاً إلاَّ تفسير

الفلاسفة لحقيقة الإنسان، بأنّه الحيوان الناطق يقتضي كون الإنسان عبارة عن البدن والنفس معاً، لأنّ الحياة جنس حلته أعراض والناطق هو النفس، فعلى هذا يكون الإنسان مركّباً من هذهِ تركيباً ثلاثياً، وهذا مذهب التاسع والعشرون.

والثلاثون: قال بشر بن معتمر وهشام النوطيّ: إنّه الجسم والرّوح الذي هو الحياة، وإنّهما الفاعلان للأفعال، وعلى هذا قيل: في الإنسان نفس وروح فإذا نام خرجت نفسه، وإذا مات خرجتا معاً، وهذا يؤدي إلى أنّ النفس والرّوح غير الإنسان.

وذكر المجلسي تدّس خاتمة للموضوع جاء فيها:

قوله ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه»[1] قال بعض العلماء: الرّوح لطيفة لاهوتية في صفة ناسوتية، دالّة من عشرة أوجه على وحدانيّة ربّانية:

١ ـ لمّا حرّكت الهيكل ودبرته علمنا أنّه لابدّ للعالم من محرك ومدبّر.

٢ ـ دلّت وحدتها على وحدته.

٣ ـ دلّت تحريكها للجسد على قدرته.

٤ ـ دلّ إطلاعها على ما في الجسد على علمه.

٥ ـ دلّ استواؤها إلى الأعضاء على استوائه إلى خلقه.

٦ ـ دلّ تقدمها عليه وبقاؤها بعده على أزله وأبده.

٧ ـ دلّ عدم العلم بكيفيتها على عدم الإحاطة به.

٨ ـ دلّ عدم العلم بمحلها من الجسد على عدم أينيته.

٩ ـ دلّ عدم مسها على امتناع مسّه.

١٠ ـ دلّ عدم إبصارها على استحالة رؤيته[1].

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/١٦٤/ح٣٠١.

هذا ما أورده العلاّمة المجلسي﵀ في البحار حول النفس وحقيقتها وماهيتها.

أمّا في الختام فإننا نشير إلى ما ذكره علماء النفس حول موضوع حقيقة النفس.

حيث يقولون: إنّها هي المظهر الروحي الأول في الإنسان ووضعوا لها تعريفاً قالوا فيه: هي جوهر لا مادي، له قوّة تسيّر البدن، والهيمنة على كلّ الجوارح والحواس، وهي ترتبط ارتباط مجهول النوعية (لا يعرف إذا كان ارتباط حلول أم ارتباط تعلّق أم ارتباط هيمنة) بحيث إذا زال هذا الإرتباط تعطلت الحياة في الكائن الحيّ، والإنسان يتألف من قوى مختلفة من نفس وقلب وعقل وحواس، ولها ارتباط متسلسل فيما بينها بحيث أنّ كلّ واحدة منها آمرة للتي بعدها وخادمة للتي قبلها. مثلاً ترغب النفس بفعل شيء، فتطلب من القلب تنفيذه، فيرسل القلب الطلب إلى العقل يستشيره ليبين له ضرره من نفعه، وبعد أنّ يستلم القلب مشورة العقل إما أنّ يأخذ بها أو يهملها، ويصدر أمره للعقل بالفعل الذي يريده، فتستجيب الحواس لأمر سيّدها العقل وتنفذ المطلوب.

فانظر كيف أنّ الطلب يكون من النفس، والأمر يكون من القلب، والمحاكمة تكون من العقل، والتنفيذ يكون من الحواس، ومن مجموع القوى الأربعة يتألف الإنسان في شكله المعنوي.

هذا هو رأي علماء النفس وهو دلالة واضحة على ما أورده القرآن الكريم من أنّ النفس البشرية هي الذات الإنسانية.

---

(١) بحار الأنوار : ٥٨ / ٩٧ - ١٠٠ .

المنظومة النفسيّة

عالم الوجود كتابٌ مفتوح قدّر الله عزّ وجلّ فيه مقادير الأشياء، وجعلها تدور في نظام شامل ودقيق، وانبثقت عن هذا النظام منظومات تختص بكلّ مفردة من مفردات هذا الوجود، فإذا قلنا بأنّ الكون يتبع نظاماً شديد الدقّة، فإنّه يتعين علينا أنّ نقول بأنّ المنظومة الشمسية تنقاد إلى قوانين تسير بنفس الإتجاه مع النظام الكوني من دون تقاطع أو تضارب، ومثل هذه الأنظمة تتحكم أيضاً بالحياة على الكرّة الأرضية، فمثلما تنقاد الكرّة الأرضيّة إلى النظام الكوني، فإنّه تتحكم فيها العشرات من الأنظمة التي تدبر شؤون هذا الكوكب، فللحيوانات نظامها الخاص بها والذي لم ولن يتغير حتى قيام يوم الساعة، وللنباتات أيضاً نظام تختص به دون سائر المخلوقات، وهكذا النظام لم ولن يتغير حتى نهاية العالم، ولعالم الجماد أيضاً نظام خاص به لم يتغير منذ خلقت الموجودات، وطبيعة هذه الأنظمة أنّها ثابتة في الأشياء، فلا يستطيع الحيوان مثلاً أنّ يتعلم القراءة والكتابة، ولا يتمكن الجماد مثلاً أنّ يغير حاله فيصبح طائراً أو إنساناً... وهكذا، فكل هذه الموجودات تعيش في إطار منظومة من القوانين الدقيقة والمهيمنة التي تسير شؤونها وتنظم العلاقة فيما بينهما.

ومثلما نؤمن بوجود مثل هذه المنظومة بالنسبة لبدن الإنسان وسلامته الصحيّة، فإننا نعتقد بأنّ هناك منظومة من القوانين مختصة بشؤون النفس أيضاً، فعندما تهاجم الجراثيم عضواً من البدن فإنّ النظام الصحي سيستنفر كل قواه في سبيل حماية البدن ودفع المعتدين، والمنظومة النفسية هي أيضاً تعلن حالة الطوارئ لدى تعرضها لهجوم من قبل جراثيم الصفاة السيئة،

وتصدر هذه الإشارة الحمراء عادةً من جانب العقل للتنبيه على حدوث خللٍ ما في المنظومة النفسية، ولكن بسبب انشغالاتنا الذهنيّة والبدنيّة، فإننا سنكون غافلين عن الإشارات التنبيهية للعقل، فلا ننتبه إليها ولا نسمعها بشكل جيد، والنفس لا تعير أهميتها اللازمة لأجل إدراكها بشكل جيد والتحقيق بشأنها.

على خلاف البدن الحسيّ الذي يصدر الإشارة الحمراء لمجرد تعرضه لهجوم من قبل الجراثيم أو غيرها، فالإنسان يشعر بحقيقة هذه الإشارة لأنّه يراها بعينه، أو يحس بوجعها في صدره، أو أنّه يشاهد أعراضها في جسمه، أمّا في حالة الإصابة بالأمراض النفسيّة فإنّه عادةً ما لا يأبه بها الإنسان ولا يعيرها أدنى أهمية، على الرغم من إنها أخطر على حياته من تلك الأمراض الجسدية، لو نأخذ مثلاً على الإشارات العقلية الباطنيّة: لو اقترف الإنسان عملاً ظالماً تجاه رفيقه أو قريبه أو أي أحدٍ من الناس، فإنّه سيشعرُ بوخز الضمير، هذه الإشارة هي من نوع الإشارات العقلية التي تنبه المرء وتحذّره من السقوط في متاهةِ رذيلة من الرذائل أو خصلةٍ من الخصال الفاسدة، وإنّ تكرار ذلك الفعل سيؤدي إلى ضمور ذلك الشعور، واستفحال تلك الصفة إلى درجة تغلبها على مقادير الإنسان، فهي مستحكمة فيه ومتغلغلة في دمّه، وهناك إشارات عقلية أخرى تحث الإنسان على تنمية الخصال الحسنة في داخله: كالإشارة التي تقول لك: «ارحم الفقير المسكين» فهذه الإشارة قبل أنّ تكون وظيفة دينية أو إنسانية هي في الواقع حاجة عقلية، لأنّ العقل بحاجة إلى تنمية هذه الصفة في ذات الإنسان، وكل الصفات السيئة والحسنة التي يقوم الإنسان في تنميتها عبر سلوكه، وكلّ الإشارات العقلية التي ذكرناها، تلك الكاشفة عن تغلغلِ معادي في داخل النفس، أو تلك التي تستحث على تنمية الخصال الطيبة، هي اشارات غير ملموسة باليد ولا تشاهد بالعين، وإنما يتم الإحساس بها عن طريق القلب.

والملاحظة تقول أنّ كلّ إنسان يتعرض يومياً إلى نوع من الإشارة الخفية من جانب العقل تقول له مثلاً: «إنّ تصرفك كان خاطئاً» وهذه الإشارة بمفردها تستدعي من الإنسان التفكير والتريث والتحقيق في الأمر، ولكن القليل من الناس هم الذين يتأملون في كلامهم وأفكارهم وأفعالهم، ويحاسبون أنفسهم على أفكارهم وتصرفاتهم اليوميّة، وإنّ الذي يراقب نفسه يجد أنّ هناك من يحدثه من باب خفي، فإذا أحسنت فرح ويجلب لك السرور، وإذا أسأت فإنه سيغضب ويعاتبك وسترى أنّ غضبه بادٍ على ملامح وجهك وباقي أعضاء بدنك، الناس يسمونه الضمير وهو العقل الذي يُثيب ويعاقب، فثوابه الرضا وعقابه الإنزعاج، وليس منّا من لم يجرّب نفسه في فرحٍ غامر غير مبرر، أو بإنزعاجٍ وضجر من غير دليل، فكليهما ينبعان من أصل واحد هو العقل.

وطبقاً لما سبق أنّ هناك منظومة قوانين تحكم النفس الإنسانية، وهي متداخلة ومتفاعلة فيها بينها، فالاختلال في جزء من هذا النظام يؤدي إلى الإختلال في أجزاء أخرى، أو قد يؤدي إلى تخريب النظام بشكل تام، وذلك ويشبه سيطرة مرض نفسي عضال على شخصية إنسان، مما يؤدي إلى تدمير جميع أجهزة المقاومة في ذاته، ويقوده في النهاية إلى الانتحار، صحيحٌ أنّ هذا الشخص لم يبتلى إلاّ بمرض نفسي وحيد، ولكن بسبب انتشار هذا المرض في كلّ أجزاء نفسه، فإنّه لم يعد بعد ذلك قادراً على مواجهته ويصبح بالتالي بما يشبه مرض (الإيدز) الذي يهاجم جهاز المناعة لدى الإنسان، وبسبب ذلك تهجم عليه كافة الأمراض والأوبئة فتدمره وتنهي حياته، وكذلك المرض النفسي قد يجر المرء إلى أمراضٍ أخرى تكون السبب في تحطيم شخصيته وتدمير حياته المعنوية.

ويمكن أنّ نعتبر شيوع بعض الأمراض النفسية الخاصة في أوروبا مثلاً أو في أفريقيا ولا نرى مثل هذه الأمراض في بلدان أخرى إلاّ نادراً، كدليل على وجود منظومة نفسية تشترك فيها فئة كثيرة من النّاس تتماثل صفاتهم وعاداتهم عندما يتبعون سبلاً وحيدةً مشتركة في العيش، إنّ أسلوب المعيشة في أوروبا يختلف عما هو في أفريقيا، لذلك فإنّ الصفات والأمراض النفسية تختلف بين القارتين، ومن هذا نقول: أنّ شعوب تلك البلدان وبسبب اتصافها بأسلوب واحد للعيش، فإنّ كلها مبتلية بأمراض نفسية مشتركة (كالإنعزالية بالنسبة للأوروبيين) فالإنسان الأوروبي الذي يعيش في بلدٍ مثل السويد، فإنّ الأمراض النفسية التي قد يصاب بها تشبه إلى حدٍ بعيد الأمراض التي قد يصاب بها الأوروبي الذي يعيش في النرويج، وهذا يدلّ على وجود نظام خاص حتى بالنسبة للأمراض النفسيّة التي تصيب الإنسان، ولولا هذا لما أصيب أفراد تختلف مناطقهم بنفس الأعراض والأمراض فقط لأنّ طريقة عيشهم كانت متشابهة.

ولابدّ أنّ نقول بأنّ المنظومة النفسية تختلف نوعاً ما عن الأنظمة التي تحكم حياة الحيوان والنبات والجماد، وذلك لأنّ المنظومة التي وضعت للنفس البشرية إنّما هي شرّعت على أساس قانون حق الإختيار، فبموجب هذا القانون بمقدور الإنسان أنّ يتعامل بحرية مطلقة مع الأشياء، وأنّ يتصرف بحريةٍ مطلقة بشكلٍ حسن أو شيء، بل له الهيمنة بما فضّله الله على سائر المخلوقات فهو يتصرف بها كيف يشاء، فله أنّ يقتل الحيوانات أو يدمّر الجبال أو يطمر البحار أو يحرق النبات، حتى بمقدوره أنّ يدمر الأرض بأسلحته النووية! على عكس الحيوانات والجماد اللذين يتحركان في إطار قانون ثابت ولا يستطيعان تغييره، وفي الواقع أنّ حريّة الإختيار التي يتمتع بها الإنسان تتساير مع باقي الأنظمة الكونيّة الأخرى ولا تتضارب معها، ففي إطار هذه

الأنظمة يملك الإنسان حق انتخاب الطريق الذي يرغب فيه إلاّ أنّ منحه هذا الحق لا يعني أنه سيأمن نتائج أعماله السيئة حتّى في الدنيا، لأنّ الذي يهلك الحرث والنسل ويقتل الحيوان ويحرق النبات، فإنّه لن يحصل على لحم يأكله أو زرع يطعمه، فلكل عمل سيء نتيجة سيئة، ولكلّ عملٍ حسن جزاءٍ حسن مثله، وهذا قانون للدنيا وللآخرة.

إذن فالحياة تكون طبيعية وسليمة عندما تتفق المنظومة النفسية مع المنظومة الكونيّة وإلى حدوث أي خللٍ أو تنافر في العلاقة بين هاتين المنظومتين يؤدي إلى عواقب غير محمودة على طرفي المعادلة.

ومن أهم المؤشرات التي تقودنا إلى المنظومة النفسية هي إمكانية تقسيم البشر إلى فئات متعددة، وعلى أساس هذا التقسيم نجد أنّ أفراد تلك الفئة يشتركون في صفات محددة ولهم سلوك منفرد، ويتصرفون إزاء الأحداث بشكل متقارب وتتشابه إلى حدّ بعيد انفعالاتهم النفسية، ونجد أنّ لديهم إحساساً مشتركاً تجاه الكثير من القضايا، ولنا أنّ نأتي بتقسيم ديني كمثال على ذلك، فالدين يصنّف الناس إلى فئتين رئيسيتين هما: فئة المؤمنين وفئة الكافرين، ومن الممكن أيضاً أنّ ندخل في تصنيف علمي ونقسم الناس إلى علماء وجهلاء، وإذا أردنا الخوض في التفصيل سنجد أنّ لدى فئة المؤمنين صفاتاً مشتركة، فالمؤمن في قارة آسيا لديه نفس الإحساس والشعور والهواجس ما لدى الإنسان المؤمن في القارة الأمريكية ما خلا القضايا التفصيلية والجزئية، وسنجد أنّ هذين الفردين يميلان إلى الحفاظ على قيم الأسرة، ومشاعرهم متساوية إزاء ضرورة الإلتزام بالطقوس الدينية والعبادية، والإعتناء بتربية خاصة للأبناء، وكذا الحال بالنسبة إلى فئات المجتمع الأخرى المتوحدة في قيم ثابتة.

ولو عدنا إلى حقيقة النفوس لوجدنا أنها مخلوقة من مواد مشتركة، إنّ كان في القسم الروحاني والعقلي أو في الجانب البدني، لذلك نرى وبشكل واضح أنّ حاجات البدن بالنسبة لجميع البشر متشابهة ومشتركة، وكذلك بالنسبة للحاجات الروحيّة والعقليّة، ونلاحظ هذا التشابه في الصفة والمعنى في علم التاريخ أيضاً عندما يقولون أنّ التاريخ يُعيد نفسه، ففي الواقع أنّ التاريخ لا يرجع إلى الوراء ولكن النفوس البشريّة التي تتصف بصفات مشتركة تتقدم على نفس الأفعال، وتتخذ ذات القرارات، وتتصرف بتصرفات مشابهة لسلوك أقوام سابقة، ولو لم تكن منبع تلك التصرفات مشتركة في جوهر واحد لما كانت تتشابه أفعالهم.

وتفترض نظرية المنظومة النفسية وجود نوعٍ من التوازن في وجدان الإنسان قائمٌ على غرائز متشابهة وعلى عقل يتمتع بقوى متماثلة بالنسبة لجميع الأفراد، وكلّ ذلك متصلٌ بالسلوك يؤثر عليه ويتأثر به، فالغرائز هي التي تدفع باتجاه تلبية الشهوات الروحيّة والحاجات البدنية والعقل يقوم بالسيطرة والتحكم، والسلوك هو نتيجة إنفعال الغرائز مع العقل، فإذا كانت الغلبة للعقل فإنّ سلوك الإنسان سيكون عقلائياً متزناً، وستجد أنّ جميع هؤلاء الأشخاص الذين يتبعون هذا السلوك يشتركون في معظم صفاتهم النفسيّة.

من هنا نصل إلى أنّ أي فعل يقدم عليه الإنسان وأي تصرفٍ يتصرفه له تأثير على التوازنات القائمة في صراع الهوى مع العقل، فقد تقود بعض السلوكيات غير السويّة إلى عادات وصفات غير سويّة أيضاً، وذلك بعد انطباعها في القلب، وكذلك الحال بالنسبة للقرارات التي يتّخذها العقل لها نفس التأثير في هذه التوازنات، فإما تؤدي إلى سيطرة متزايدة على الأهواء، وإما تؤدي إلى افساح المجال لها كي تتحكم وتسيطر على مقدرات الإنسان.

وأمّا بالنسبة للسلوك فإنّه ينطبع في مخيلة الإنسان ويتحول فيما بعد ويصبح عادةً يعتادها، وتتحول العادة بالاستمرار عليها إلى إحدى صفات الإنسان (فالكريم مثلاً هو من اعتاد فعل الكرم).

وإذا افترضنا سيطرة الأهواء على مقدرات الإنسان، فإنّ لهذه السيطرة وفق نظرية المنظومة النفسية تبعات على العقل والسلوك، ويصل الحال في بعض الأحيان إلى أنّ الأهواء تغلق على الإنسان جميع منافذ العقل، فلا يسمع ولا يعي ولا يميز بين المعقول وغيره. ونرى مثال ذلك في القرآن الكريم وهو يصف حالة أهل السعير ﴿***لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير***﴾(١) فبسبب سيطرة الأهواء على عقولهم فهم لا يتمكنون من سماع صوت الحق أو إدراك المعقول، وذلك ليس بسبب عطلٍ في آلاتهم السمعيّة والبصريّة، وإنّما لوجود خللٍ في عملية التفكير والاستنتاج لديهم.

ونخلص من كل ما مرّ لدينا بنتيجة أساسية وهي أنّ الصفات التي هي حصيلة اعتياد السلوك على تصرفٍ معين في زمن سيطرة العقل أو الهوى، فإنّ إنطباعها في الشخصية يسبب قائمة من التبعات، إحداها: تأثير هذه الصفات على مستوى قوة الأهواء والعقل، فإنّ كانت الصفات نابعة من الأهواء فإنها ستكون بمثابة الجنود الذين يؤمنون حماية أفضل لسلطة الهوى، والعكس أيضاً صحيح بالنسبة للعقل.

والملاحظ أنّ كل صفة من صفات الخير والشر تتعلق بصفةٍ أخرى من سنخها، فإذا انطبعت الصفة الأولى في ذات الشخصية فإنها ستجلب معها الصفة الثانية المتعلقة بها، وللتمثيل على ذلك نقول: (إنّ صفة الصدق تجلب معها صفةً أخرى وتثبتها في النفس وتقويها وهي الشجاعة) فلا يكون الصادق صادقاً إلاّ مع شجاعة في صفته، وكذلك الكذب لايكون إلاّ مع الجبن، وبهذا

---

(١) سورة الملك: ١٠.

يظهر لدينا نظاماً نفسياً لحل مفردةٍ من مفرداته تؤثر في الأخرى بشكل موجب أو سالب، فصفة الحسد مثلاً تجلب الحقد كما نقرأ ذلك في غرر الحكم للإمام علي ﷺ: «الحقد شيمة الحسدة»(1) ويعد أيضاً أنَّ هناك صفاتاً حسنة تمنع صفاتٍ سيئة، فمن كانت صفته الكرم فإنّه يعدم الحقد في نفسه، كما عن ذلك الإمام علي ﷺ إذ قال: «لا يكون الكريم حقوداً»(2). وأيضاً نجد أنّ عادة الفضول تلازم الأحمق، كما في حديث الإمام علي ﷺ: «الحُمق يوجب الفضول»(3).

وهكذا نجد أنّ صفات الخير والشر تستدعي صفاتٍ وعاداتٍ من سنخها، وهو ما يؤكد لنا وجود نظام محصنٍ للنفس، فإذا اخترت فيروس أو مكروب نفسي داخل هذا النظام فإنّه سيضرب عدة مناطق فيه ولا يكتفي بمنطقةٍ واحدةٍ دون أخرى.

وحدة النفوس

لقد خلق الله عزّ وجلّ الناس من نفس واحدة ﴿ *وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمُستقرّ ومستودع* ﴾(4) وقيل في تفسير المستقر والمستودع أنّ هما: الروح الذي يستقر في مستودع البدن في خلقة متشابهة متكررة في نظام ثابت في بطن الأم، إذ يخلق الإنسان في ظلمات ثلاث وفي أطوار وأحوال مختلفة، وما من إنسان إلاّ ويمر عبر هذا النفق الذي يبدأ من النطفة ثمّ العلقة ثمّ المضغة، وهكذا يكبر فتتشابه آلامه وأحزانه، وأفراحه وأتراحه، وجوعه وشبعه، وموته

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم : ١ / ٢٧ / ح٤٧٧.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٣٤٨ / ح١٣٠

(٣) المصدر نفسه ١ /٤٦ /ح٩٧٩.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٩٨.

وحياته، وأكله وشربه، ونومه ويقظته ، وحبه وبغضه ، وايمانه وكفره ، وكرمه وبخله، وشجاعته وجُبنه، فمنذ خلق الله عزّ وجلّ آدم عليه السلام وحتى اليوم ما زال الإنسان يتألم عندما يتعرض جسده للحريق، ويحزن عندما يفقد عزيزاً، ويفرح عندما يحقق نجاحاً أو مكسباً، وما زال يأكل الطعام مثلما كان يأكله أبوه آدم عليه السلام وهو مازال يشرب الماء كما كان، وهو لا يزال مواظباً على نومه ويقظته... وهكذا تجد الناس يتشابهون في الصفات والأفعال، وذلك لأنّ الله سبحانه وتعالى خلقهم في أجساد متشابهة، وعقول متساوية، وقلوب متكافئة، ومنحهم فرصاً متساوية، ويتقاربون بالإدراك ويتحابون بالأرواح، وأنّه عزّ وجلّ عندما خلق من كلّ شيء زوجين اثنين، لذلك فإنّ الإنسان يكون مخيراً بين أمرين بين الشجاعة والجبن، وبين الإيمان والكفر، وبين الحب والبغض، وبين الظلم والعدل، فكل من ينتمي إلى فئة الإيمان فقد شابههم بالصفات والأفعال، وكذلك من انتمى إلى فئة الكفار فهو أيضاً شابههم بالصفات والأفعال، وأما من انتمى إلى أهل الباطل فصفاته تشابههم وأفعاله تماثلهم، ومن هذا التشابه في الصفات والأفعال يتكرر التاريخ، فما وقع في زمنٍ معنى قد يقع في زمنٍ متأخر، وذلك بسبب تشابه صفات أهل الحق الحاليين بصفات أهل الحق الماضيين، وتشابه أفعال أهل الباطل الحاليين بأهل الباطل الماضيين، فلا عبرة في تغيير الزمان والمكان، لأنّ الإنسان هو نفسه (خُلق من نفس واحدة).

ومثلما بيّنا في نظرية «النفوس منابع الحركة والتغيير»، فإنّ هذه النفوس هي ذاتها التي تغير وجه التاريخ وليس أدوات الإنتاج أو رأس المال، فإننا نشاهد وبعد مضي آلاف السنين من خلق الإنسان الأول، وعلى الرغم من كلّ التطور العلمي والتكنولوجي الذي حدث في العالم إلاّ أنّ الإنسان بقي على نفس عاداته وتقاليده وتصوراته وتصرّفاته، فإذا كنّا قد قرءنا في التاريخ عن

أشخاص كانوا جبارين وظالمين، فإننا نشاهد الآن في هذه الحياة أمثالاً لهم، وإذا كانت الحروب والنزاعات العسكرية هي سمة التاريخ الماضي، فإنّ هذه السمة لم تتغير في هذا العصر، فنحن نشهد مثل هذه النزاعات حتى في أوروبا التي تعتبر نفسها أم الحضارة، وقد وقعت فيها أبشع المجازر الوحشيّة وهي التي لم ترتكب حتى في العهد القديم، فما وقع من مجازر بحق المسلمين في البوسنة والهرسك أو في كوسوفو أو حتى في الشيشان قلّ نظيره في التاريخ القديم.

علماء الإجتماع الحديث عادةً ما يصفون الإنسان القديم بالدموية والوحشيّة والتخلف، وأنّ العلم الحديث تمكّن من تغيير هذا الوحش إلى إنسان أليف! وهو كلام يرفضه الواقع وحقائق التاريخ الناصعة، فالحرب العالمية الثانية وقعت في أوج الثورة العلمية والصناعيّة في القرن العشرين، وقد راح ضحيتها أكثر من خمسة وعشرين مليون إنسان، وهو رقم لم تشهده الحروب السابقة منذ بدء الخليقة، فهل قلّب العلم الحديث الوحش إلى إنسانٍ أليف أم بالعكس؟.

نحن لا نريد التقليل من أهمية العلم ودوره في الحياة، ولكننا نرفض المغالاة في تكبير حجمه واعطائه وزناً أكبر من قابليته، مع إننا نؤمن بأنَه لو كانت حياتنا قائمة على أسس علمية وعقلية لكانت أفضل مما عليها الآن، ولكن الواقع يناقض ذلك بشدّة ويبين أنّ النفس الإنسانية هي أساس التغيير في الحياة وليس العلم أو غيره، لأنّ النفس يمكن أنّ تستفيد من العلم ليس في خدمة العقل أو الأهداف الخيّرة بل من أجل شهواتها وأهوائها... وأسألكم ماذا استفاد سكان هيروشيما ونكازاكي الذين أبيدوا بصورة بشعة من العلم الذي طوّر القنبلة الذريّة؟ فالنفس هي التي تتحكم بمقدّرات العالم وافق ذلك العلم أو خالفه! فلينظر كلّ إنسان إلى تصرفاته وأفعاله هل كلها نابعة من

العقل؟ هذا السؤال مصيري لأنّه يكشف حقيقة تدخل البُعد النفسي في تصرفاتنا وأفعالنا، فلنسأل إذا كان العقل يحكم بمساوئ وضرر التدخين على الصحّة البدنيّة، فلماذا يستمر الإنسان على هذه العادة؟ أليس هي النفس تأمره بذلك؟.

فالتشابه القائم بين حاجات الناس وبين الأدوات التي يستخدمونها للوصول لتلك الحاجات، ينتج عن ذلك تشابهاً في أسلوب العمل والنتيجة، وأنّ هذا التشابه يدلّ على وجود نظام دقيق يحكم تصرفَات الإنسان وتصوراته ويقيدها بنمط معين وروتيني يمارسه أغلب الناس لتحقيق غاياتهم، فالطفل يولد ولديه حاجة الغذاء فيلبيها عن طريق الرضاعة، وعندما تزداد حاجاته ورغباته وشهواته هنا يأتي الدين ليضع حدوداً على تلك الطرق، فمن التزم فإنّ فعله سيتشابه مع الذين التزموا معه، أمّا إذا لم يلتزم فصفته ستكون مشَابهة لصفات غير الملتزمين، وعلى هذا الأساس يمكن تمييزهم وتصنيفهم، فميلان النقص نحو فئةٍ بعينها مثل فئة (المنافقين) لا يكون ذلك من دون سبب، وإنّما هناك صفات متشابهة بين هذه النفس وبين فئة المنافقين، وعلى أساس هذا التصنيف يمكننا أنّ نجري دراسة علمية حول كل فئة من تلك الفئات في صفاتها وحالاتها وتصرفاتها وأمراضها النفسيّة، لأنّ كل فئة من هذه الفئات تمتاز بصفات معينة تختلف عن سائر الفئات والمجموعات الأخرى.

النفس والأمراض الجسديّة

المرض النفسي يشبه (الفايروس) المخرّب الذي يفتك بالجانب القيادي لدى الإنسان مثله مثل الجراثيم التي تفتك بالمنظومة الصحية للبدن وتتلف أجزاء منها، كذلك المرض النفسي يفعل بالمنظومة النفسية إذ يدمر الجانب الحيوي من الإنسان ويفقده بعض خصاله القيادية التي تميزه عن سائر المخلوقات من نباتات وحيوانات وجمادات، ولعظمة ارتباط النفس بالبدن فإنّ الأمراض التي تصيب النفس تترك آثاراً سيئة على البدن، إذا لم نقل أنّها تؤدي إلى إصابات بدنية مزمنة، وقد أثبت الطب الحديث المنبع النفسي للعديد من الأمراض، وقد يكون هذا الطب بحاجة إلى خطوات علميّة متقدمة كي يحقق المزيد من الإكتشافات في هذا الشأن.

لكننا وبدليل من الغيب نؤمن بأنّ النفس هي منبع رئيسي للأمراض البدنية، مستندين في ذلك على هذه الآية العظيمة: ﴿ .. ***وما أصابك من سيّئةٍ فمن نفسك***... ﴾[1] وقد يفسّر المفسرون (السيئة) بأنّها الذنب أو المصيبة، إلاّ أنّ معناها أشمل وأوسع من ذلك، فهي تعني كلّ سيئة تسوء الإنسان وتجلب له الأذى النفسي أو العقلي أو الجسدي، ومن ذلك الأمراض الجسدية التي تحدث نتيجة خللٍ في النظام الصحي للبدن.

وعلاوة على الآية التي ذكرناها فهناك الكثير من الروايات والأحاديث التي تؤكد المعنى الذي ذهبنا إليه، وأنّ أغلب الأوجاع والأمراض التي تصيب الجسد منبعها النفس، وذلك لعمق الارتباط وقوة الإتصال فيما بينهما، فالنفس للجسد بمثابة القائد والمحرّك، فلو أصاب المحرّك عطبٌ فإنّ السيارة لن

---

(١) سورة النساء: ٧٩.

تقوى على الحركة، وكذا الحال إذا تلقت بعض خلايا الدماغ ضربةً فإنـها ستصيب الأعضاء التابعة لها بالشلل التام، وعُرف سابقاً أنّ الجيش الـذي يُقتل قائده في المبارزة مع الأعداء سيُهزم، ومن هـذه الأمثلة نريد التأكيد على أنّ كـلّ شـيء يتـأثر بمركـزه، ولأنّ النفـس (ونقصد بذلـك العقـل والقلـب والرّوح) هي مركز الحياة الإنسانية، فإنّ كل ما يصيبها ينعكس سلباً أو إيجاباً على البدن. وفي اختبارات علميّة أجريت على مرضى إحـدى المستشفيات الأمريكية، تبين أنّ المرضى الذين يتمتعون بنفسية ايجابية ومعنويات عاليـة تكون أبدانهم أكثر استجابة للعلاج؛ وأكدت هـذه الدراسة أيضاً أنّ الدعاء يعتبر عـاملاً مساعداً للشفاء من الأمراض الجسدية، في حين كان يعد هـذا الكلام في يوم من الأيّام نوعاً من الخرافة، وليست قليلة هي الكتب التي انتشرت في المكتبات حول (التداوي بالإيحاء النفسي) فقد نجحت هذه الطريقة في التخفيف من أمراض مستعصية، حتى ولو قال البعض بمحدودية هـذه الأساليب في الإستشفاء من الأمراض، فإنهم لا يستطيعون أنّ ينكروا التأثير النسبي لها، ولا يستطيعون أيضاً أنّ ينكروا تـأثير الرياضـات الروحيّـة مثـل (اليوغا) على تنظيم الدورة الدمويّة وعموم الصحة في البدن، وهذا الأعـتراف النسبي وحده يكفي لإثبات قوة ارتباط النفس بالبدن وامكانية تأثير أحدهما في الآخر.

ومثلما قلنا بالتـأثير الإيجـابي الـذي تتركـه الأدعيـة والإيحـاء النفسـي والمعنويات العالية في شفاء المرضى. فإنّه يمكننا أيضاً أنّ نقول بالتأثير السلبي للأحوال السيئة التي تمرّ بها النفس على وضع المصابين وعلى أبدانهم.

فقد جاء في كتـاب طبـي مـايلي: (فحـين نخجـل أو نرتبـك مثـلاً تؤثـر الأعصاب في الأوعيّة الشعريّة وتجعلها تنبسـط فيزيد الدّم بها ويتورد الوجه، وكذلك ضربات القلب تزيد وقت التهيج والانفعال، وحيث يشتد خوفنا كثيراً

ما تؤثر الأعصاب في زيادة افراز غدد العرق، فتسيل قطراته من الجسم مع كونه لا يشكو الحر، وقد يحدث الإغماء بسبب الصدمات العظيمة التي تفاجئ المخ، وحيث يكون الشخص حزيناً أو غاضباً فيمكنه أنّ ينقطع عن الأكل أيّاماً دون أنّ يحس بالجوع، وبعكس ذلك حين يكون مسروراً فإنّ قابليته للطعام تكون جيدة)[1] لذلك فإنّ أية حالة تتصف بها النفس تكون ذات تأثيرات مضاعفة على الجسد، فنحن نقرء في كتب الطب أنّ الإنفعالات النفسية تؤدي إلى تحريك الغدد الموجودة في الجسم وإلى افرازها للهرمونات والمواد الأخرى التي لها دور رئيسي في إدارة النظام الصحي للبدن، وإنّ افراز المزيد من هذه المواد في وقتٍ لا يكون الجسم بحاجة إليها سينجم عن ذلك أضراراً بالغة تصيب البدن، مثل زيادة افراز حمض الكلوردريك يصيب المرء بقرحة المعدة.

ولابدّ أنّ نعرف بأنّ مجموعة الغدد التي تعمل في داخل الإنسان تلعب دوراً حيوياً في حياته، وذلك لأنّ توقف إفرازها أو زيادته أو نقصانه يفيد الخصائص الجسمانية والنفسية عند الفرد، ولنعرف بأنّ نقص إفراز الغدة الدرقيّة يؤدي إلى ضعف عام لدى الشخص فيصبح بطيئاً في حركاته، وبطيئاً في تفكيره، ويصعب عليه تركيز انتباهه على موضوع ما، ويكون عادةً سريع النسيان ويعتريه الخجل بشكل مفرط، أما زيادة افرازها فإنها تؤدي إلى عصبية في مزاج الشخص، وأنّ يكون شديد الحساسية، ويتصف سلوكه بالقلق والإضطراب، وتظهر علامات ذلك في الطفولة بالمشاكسة والعناد، وأما في الكبر فمن علائمه عنفٌ في السلوك وصلابة في الرأي، ولا بدّ أنّ نعرف أيضاً بأنّ هذه الغدد التي لها دور رئيسي في حياة الإنسان تتلقى الأوامر من جانب العقل والدماغ.

---

(١) المرشد الطبي الحديث: ٤٣.

النفس أمّارة أم مطيعة؟

ثار جدلٌ طويل عريض بين العلماء حول لمن الأفضلية: للإنسان أم للملائكة؟ فبعضهم ذهب إلى أنّ الملائكة هم أفضل خلق الله بسبب طاعتهم وعدم مخالفتهم لأمر الله بينما الإنسان يذنب مرة ويطيع أخرى، واحتج آخرون بأنّ الإنسان لولا وسوسة الشياطين لعبد الله وأطاعه ولم يعصه في شيء كما تفعل الملائكة، وفي وسط هذه المعمعة يبرز حديث الإمام علي عليه السلام في الرواية التالية: «عن عبد الله بن سنان، قال: سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقلت: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال: قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: إنّ الله عزّ وجلّ ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقله شهوته، فهو خير من الملائكة، ومن غلب شهوته عقله فهو شرّ من البهائم»[1].

فالإنسان المؤمن وفق هذا الحديث هو أفضل من الملك، ويُثاب على أعماله بالجزاء الأوفى بالجنة، ويتنعم بدنه ونفسه وروحه وعقله بنعيم أبدي، وهنا نسأل ونقول إذا كانت النفس أمارة بالسوء وأنّها سبب ابتلائه، وهي التي تورده في مهاوي الذنوب، كيف يمكن لهذه النفس التي كلها شرّ تتنعم في الجنّة؟.

إنّ هذا السؤال بحد ذاته يكشف أنّ النفس الأمارة بالسوء هي إحدى الحالات التي يمكن أنّ تكون عليها النفس، لأنّه إذا قلنا أنّ نفس الإنسان أو ذاته تأمره بفعل السوء إذن هو مجبر على فعل السيئات ونتيجة لذلك يسقط الثواب والعقاب، لأنّ الإنسان مجبر على فعل السيئات وذلك بسبب النفس

---

(١) بحار الأنوار: ٥٧ / ٢٩٩.

الأمّارة، بينما لدينا أحاديث أخرى تُبين وتؤكد أنّ النفس جوهرة ثمينة. مثل هذا الحديث المنقول عن الإمام علي: «إنّ النفس لجوهرة ثمينة من صانها رفعها، ومن ابتذلها وضعها»[١] فإذا كانت النفس سيئة بل هي أمّ الشرور أو كما وصفها بأنها الأمارّة بالسوء فكيف تصبح جوهرة ثمينة؟.

فإذا قلنا بأنها أمّ السيئات وهي شريرة على الدّوام إذن ينبغي أنّ تُلقى في نهاية المطاف في نار جهنم؟ لأنّ الذي يتطاول على الله ويأمر بعصيانه لا يستحق الجنّة!.

ونحن لا نريد هنا تنزيه النفس عن الخطايا فهذا خلاف ما ذهب إليه القرآن وخاصة في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾[٢]. ولكننا نريد التأكيد أنّ الأمر بالسوء هي حالة من حالات النفس وهي ليست ثابتة أو جبرية، لأنّ الإنسان يستطيع أنّ يمسك زمام رغبات النفس وأهوائها بقيادة العقل، وعلى أثر ذلك تكون هذه النفس عزيزة وكريمة عند الله كما في الحديث الشريف عن الإمام علي: «ليس على وجه الأرض أكرم على الله سبحانه من النفس المطيعة لأمره»[٣] فإذا قلنا أنّ النفس هي أمّ السيئات وأمّ الشرور فكيف تكون هذه النفس مطيعة؟ فمعنى الأمارّة بالسوء هنا هو أنها تميل نحو الأهواء والرغبات مشروعة كانت أم غير مشروعة.

وقد وضع الله سبحانه وتعالى في مقابل ميلانها هذا نحو السيئات. وضع العقل لكي تتحقق العدالة ويمسك العقل بزمام النفس، فالعقل يردع الأهواء من التحكم في مقدرات النفس. ونقرأ في القرآن الكريم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١ / ٢٢١ / ح١١٨.

(٢) سورة يوسف: ٥٣.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢ / ١٣٧ / ح٧٩.

﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾[1] وفي تفسير هاتين الآيتين جاء عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنهما قالا: بيّن لها ما تأتي وما تترك. فإذا كانت النفس سيئة وشريرة فما ضرورة أنّ يبين لها ما تأتي وما تترك أو يكشف لها طريق التقوى والفجور ما دامت هي ملازمة للطريق المعوج؟ إذن هي مختارة بين أنّ تنقاد إلى رغبات نصفها الأرضي والمادي أو تتبع نصفها الثاني وهو العقلي الروحاني، فالفجور من الأول والتقوى من الثاني.

طبائع النفس

ومن طبع النفوس أنّها خُلقت (طليقة) حرّة في تفكيرها مخيرةَ في تصرفاتها تفعل ما تشاء، وإذا فسح المرء المجال لها فإنّها ستأخذه إلى فضاءِ لا محطة فيه، فهي تطير بأجنحة خيالها إلى آخر العالم غير خائفة ولا وجلة مما يعترضها ولا تفكر بعاقبة أمرها، فخيالها غير محدود وهي حرةً في الدخول في كافة الموضوعات المحظورة، وهي على الرغم من عجزها عن الوصول إلى تلك الحقائق إلاّ أنها تقتحم أبواب الخيال المغلقة برسم لوحةٍ جميلةٍ أو قبيحةٍ على تلك الحقيقة المتخيلة، والنفس تقود الإنسان إلى فعل كلّ مالا يخطر على باله وكل مالم يفكر بفعله في يومٍ من الأيّام، فالإنسان الذي يعتقد بسوء فعل في أحد أيّامه تجدهُ في يومٍ آخر يقوم بذلك الفعل ليس لأنّ السيء أصبح حسناً ولكن النفس جوزت فعل السيئات ولجمت لسان العقل عن النطق في ذمها أو في انتقادها. ومما ورد في السنّة الشريفة عن الإمام علي عليه السلام قوله: «النفوس طلقة ولكن أيدي العقول تمسك أعنّتها عن النّحوس»[2] وفي حديثٍ ثانٍ قال

---

(١) سورة الشمس: ٧ ـ ٨.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٠٩/١ / ح٢٠٧٠.

الإمام علي عليه السلام: «العلم قائد، والعمل سائق، والنفس حرون»[1] والحرون: نوع من الخيل صعب الركوب، فالنفس طلقة ولا تنقاد بسهولة لصاحبها.

ومن طبع النفس أنّها تبقى شابة على الرغم من تقادم العمر، وكبر السن، ووهن البدن. وأول من أشار إلى هذه الحقيقة هو الدين، فهناك بعض الأحاديث المنقولة عن رسول الله صلى الله عليه وآله: تبين ذلك ومنها:

«نفس ابن آدم شابة ولو التقت ترقوتاه من الكبر، إلاّ من امتحن الله قلبه للتقوى وقليل ما هم»[2].

وفي حديث آخر، قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «قلب الشيخ شاب في حب اثنتين: في حب الحياة وكثرة المال»[3] ونحن نجد أنّ كبار السّن تضعف أبدانهم وتنحل قواهم البدنيّة إلاّ أنّ رغباتهم وطموحاتهم وآمالهم وأهواءهم تبقى على قوتها وشبابها، لذلك لا عجب أنّ تشاهد في الحياة شيخاً عجوزاً يتصابى ويتصرف كما يفعل الشباب، وأنّ نفسه تميل للأشياء كما تميل نفوس الشباب وأشد في أحيان.

ومثلما كل شيء يميل إلى ما يحب ويهوى، فإنّ النفس أيضاً بطبعها ميالةَ إلى ما تهوى وتحب، ولكنها أميل نحو الجانب الأرضي والمادي وهو ما يتضارب مع الجانب العقلي من ذاتها، لأنّ أهواء النفس التي تأتي أيضاً من جانب الأفكار السلبية فإنّها غير محدودة، وقد تقود الإنسان إلى خاتمة لا تحمد عقباها، وهنا نجد توصيات دينية وأخرى عقليّة بضرورة مراقبة الإنسان لنفسه لكي لا تأخذ بيده إلى طريق شاذ، فإنّ أكثر الشاذين في المجتمعات

---

(١) بحار الأنوار: ٧٥ / ٤٥ .

(٢) كنز العمال: ٣/٩٧ / ح٥٦٧١.

(٣) سنن ابن ماجة : ٢ / ١٤١٥ / ح٤٣٣٣.

العربيّة والغربية هم من أولئك الذين تركوا قياد أمرهم لأهواء أنفسهم تجرهم إلى طريق اللذة وهو طريق الهلكة.

وللنفس عادات ضارية فإذا تحكمت فلن يسهل بعد ذلك تركها، فيكون المرء عبداً مطيعاً لعاداته لا يستطيع مخالفتها ولا الخروج عن دائرتها، لأنّها استحكمت في ذاته وتمكنت من إرادته، وعلى الرغم من معرفته بضررها النفسي والبدني إلاّ أنه يستمر عليها وذلك لقوّة سيطرتها على نفسه، فقبل أنَ يسقط المرء بين مخالب هذه العادات عليه أنّ يتوخى الحذر ويحسب ألف حساب لكل خطوةٍ يخطوها.

وفي حديثٍ للإمام علي عليه السلام: إذ يقول: «أيّها الناس تولوا من أنفسكم تأديبها، واعدلوا بها عن ضراوة عاداتها»[1].

وتميلُ النفس أيضاً إلى اللعب واللهو والإنفلات من عالم الواقع والمثاليات، فأصعب ما يكون على المرء هو عندما يفكر في واقعه المؤلم دون أنَ يجد حلاً لمعضلاته، أو عندما يجد المفارقة بين عالم المثاليات وعالمه الواقعي الذي لا يستطيع أنّ يفتخر به، وبدل أنّ يرهق المرء رأسه بالتفكير وقد يصيبه الدوّار بعد ذلك، فإنّه أميل إلى ترك الأمور على عواهنها ليتخذ طريق اللعب واللهو، ويتناسى واقعه المؤلم ويهرب من المثاليات التي يؤمن بها. وتحثه على تغيير واقعه، فلكل إنسان سببٌ في نزوعه إلى اللهو واللعب، ولكن السبب الرئيسي المشترك فيما بينهم هو الهروب من الواقع، فعندما تسأل شارب الخمر لماذا يفعل ذلك؟ يقول لك: من أجل الهروب من المشاكل ونسيان المصائب، وهو لا يدري بفعله هذا أنه لم يعالج مشكلته فحسب بل أضاف عليها مشكلةً جديدة.

---

(١) نهج البلاغة : الحكمة ٣٥٩/٥٣٨.

وبالطبع إنّ من يكرس عمره للعب واللهو لا يملك الفرصة المناسبة لتعليم نفسه وتأديبها بل ستقوده حالته تلك إلى حيث الغفلة والسهو، فهو مشغول عن عالم الواقع بخيالات وأوهام لا طائل منها، وهو أيضاً غافلٌ عن حقيقة وجوده وجدوى حياته وهدف بقائه، وهو يتصرف بعبثية تامة من دون حسيب أو رقيب، فهو لذلك جاهلٌ لموقعيته في الحياة وغافلٌ عن أداء تكليفه، وهو لا يخرج من محطة غفلة حتى يسارع إلى أخرى.

والنفس بطبعها تميل إلى الخطيئة وذلك بفعل الهوى ووسواس الشيطان، وتسرعُ في الطريق إليه متخطية الحواجز والعثرات غير آبهة بالمخاطر، وهي تفسح للعقل بالحجج والمبررات كي لا يعترض على سلوكها، ولكنها ترغبهُ باللذة والشهوة كي يتجاوز عن خطئها.

والنفس تأخذ من الدنيا صفتها، فهي تنظُر إلى الأمور بمنظار مادي حسي، ذلك فما يكون أقربُ إلى حسّها فهو الأقرب إلى وجودها، وهو الأدنى من فهمها وإنّ كان مخالفاً للعقل، بينما هي تستبعد حقائق الغيب وإنّ كانت قريبة إلى العقل والفطرة، فهي لا تأخذ بما هو عقلي بل بما هو حسي، لأنّ الذي تحسّه أقرب إلى فهمها وإدراكها، لذلك فإنّ من طبيعة النفس أنّها طويلة الأمل، وذلك لأنّها تأخذ بالقريب العاجل وتترك البعيد الذي قد يحلّ في أي وقت من الأوقات. فالعقل يأمر بالاستعداد للموت والنفس تخالف ذلك وتقول: أنّ هناك أملاً بالبقاء أطول وأكثر، وهذا الأمل نابع من الطبيعة الدينوية الحسيّة التي يكون فيها الإنسان منشغل الذهن بالعالم الحسيّ دون العالم العقلي، فلكثرة إنشغالاته بذلك العالم تجده ينزعج عندما تثار أمامه مسألة هي الأكثر واقعية في الحياة وهي (مسألة الموت).

وهنا نصل إلى فكرةٍ مفادها أنّ الإنسان بعيد عن الحق بمقدار بعده عن العالم العقلي.

ومن طبع النفس أنّها قليلة الصبر في مواجهة المشاكل والآلام والمصائب، كثيرة التأفف والتأوه، فكلما دخل صاحبها في عسر أذلتهُ بكثرة التوجع والتألم، وقادته من أجل لذاتها وشهواتها إلى طريق لا يرغب فيه. فهي لا تطيق قليلاً من العسر، فإنّ أصابها فقر جزعت وتململت وحرضت صاحبها على اقتحام الممنوع، وإنّ أصابتها مصيبة بكت ونحبت وتألمت كثيراً.

فهي غير قنوعة ترغب بالكثير وتأبى بالقليل، فإذا أصابت لذةً أو شهوةً فإنها لا ترضى باليسير من ذلك وإنّما ستسعى لتحصيل المزيد، فلا يحدها الطمع عند حدود معينة ولا يوقفها الأمل عن الاسترسال في جني الأهواء واللذات، فالنفس تتعجل قطف ثمار العمر قبل نفاذه، وهي توسوس للمرء بأنّك إنّ لم تجمع الكثير من المال فقد تصاب بنكسة أو أنّ الفقر سيهجم عليك فيأكل لحمك وعظمك، وهكذا يصاب المرء بالهلع والخوف نتيجة فكرة شيطانية تقول له حاذر الفقر، فتراه يهلك نفسه في الجد والعمل من أجل كسب المزيد من المال والثروة لكي يدفع عن نفسه شر الفقر، وهكذا يبقى هذا الكابوس يعذب الإنسان طيلة عمره، فلا هو الذي سعد بأمواله وثرواته ولا هي فسحت له المجال كي يفكر بشؤونه وأمواله وينقذ ما أمكن إنقاذه، فكروا للحظة بوضع شخصين أحدهما مليونيراً لديه مخاوف دائمية من ضياع أمواله ورجلٌ فقير مقتنعٌ بما قسمه الله له من رزق. من هو الأكثر بينهما شعوراً بالإطمئنان؟.

حالات النفس البشريّة

تتقلب النفس البشرية بين ثلاث حالات رئيسية:
الحالة الأولى: هي النفس الأمّارة بالسوء.
الحالة الثانية: هي النفس اللوّامة.
الحالة الثالثة: هي النفس المطمئنة.
وما من إنسان في هذه الدنيا إلاّ وينتمي إلى واحدة من هذه الفئات الثلاث.

فعلامة الإنسان الأول: هو أنّ يجعل عقله في خدمة أهوائه وشهواته فهو يتبع الجهل.

وأما علامة الثاني: فهو يخطأ ويصيب ويميل نحو العقل مرة وأخرى نحو الهوى. وأما علامة الثالث: فهو الذي أخضع رغباته وشهواته لقيادة العقل.

ويمكن أنّ نستفيد من هذا التصنيف في مجالات متعددة ومختلفة، ففي مجال علم الجريمة فإنّ الفئة الأولى هي الأكثر عُرضة لإرتكاب المخالفات القانونية، وذلك لأنّ من يُخضع العقل للرغبة واللذّة فقد يرتكب أيّة حماقة في سبيل تحقيق تلك الرغبة.

والتغيير يحدث لدى الناس على الرغم من تشابه ذواتهم، ذلك لأنّ درجة ميولهم ورغباتهم ومستوى استجابتهم لتلك الميول والرغبات متفاوتة بين فردٍ وآخر، وعلى هذا الأساس يختلف الناس بعضهم عن البعض الآخر، فمنهم من تكون رغباته شديدة إلى الحدّ الذي يعجز عن مقاومتها، بينما نجد أنّ شخصاً آخراً تكون رغبته الجنسية مثلاً أقلّ حرارةً من الشخص السابق، فإنّ مستوى استجابة الفرد الأول للحاجة تختلف بطبيعة الحال عن مستوى

استجابة الثاني، وبالطبع فإنَّ هذه الوضعية كلها تنعكس سلباً أو إيجاباً على الحالة النفسية للشخص، وقد يأتي أحدهم ويقول: لا يجوز لأحد أنَّ يحاسبني على تلبية حاجات غريزتي الجنسية، أولاً: لأنَّها تمثل حاجة فطريَّة، وثانياً: لا أستطيع مقاومتها وذلك بسبب شدّتها وقوّتها! وهذا كلامٌ باطل!.

لأنَّه مع إيماننا بأنَّ الغريزة الجنسيَّة هي حاجة فطريَّة لدى الإنسان، وأنَّه يجب أنَّ يلبي المرء هذه الحاجة بالصورة المشروعة، فإننا نؤمن أيضاً بأنَّ لدى الإنسان القدرة على التحكم بقوة وضعف هذه الغريزة وباقي الغرائز الأخرى أيضاً، لأنَّ من يثير حواسه الظاهرية والباطنيَّة بأنواع من المهيّجات لهذه الغريزة فإنَّه يساعد على تأججها ويقظتها، وعلى عكس ذلك يفعل من يغض الطرف عن المثيرات الحسيَّة، وعندما يصل المرتاض (باليوغا) وغيرها إلى درجة التحكم العقلي بدورته الدموية وبمستويات ضربات قلبه كيف لا يستطيع التحكم بإحدى غرائزه؟ وعندما نشاهد كيف أنَّ الإنسان الصائم يتحكم بغريزة الجوع لديه وهي واحدة من أقوى الغرائز لدى الإنسان، كما اعتبرها الكثير من علماء النفس، ندرك أنَّه يمكن السيطرة على هذه الغرائز.

من هنا نصل إلى أنَّ لكل فرد من أفراد البشرية طريقته الخاصة في التعامل مع المثيرات الحسيَّة، وبمقدار تعدد هذه الطرائق بنفس المقدار، هناك إختلاف بين أبناء البشر في كفاءاتهم الشخصيَّة وقدراتهم العقلية واستجابتهم الغريزية، إلاّ أنَّ العقيدة الإسلامية وضعت أمامنا تصنيفاً كُلياً في هذا المجال، وهو يضم كافة الاختلافات الإنسانية، ويحددها في إطار وصفٍ دقيق لحالات النفس وإنفعالاتها تجاه المؤثرات الحسيَّة الداخلية والخارجية، وهذه الحالات هي:

١ ـ حالة انقياد النفس للهوى (وهي الأمّارة بالسوء).

٢ ـ حالة تذبذب النفس بين العقل والهوى (وهي اللوّامة).

٣ ـ حالة إنقياد النفس للعقل (وهي المطمئنة).

أولاً: النفس الأمّارة بالسوء

النفس تتأثر بمحيطين: محيط العالم الخارجي ومحيط العالم الداخلي، ففي محيط عالم النفس الداخلي هناك وقائع كُبرى تحدث كل يوم في أعماق النفس البشرية والكثير من الناس عنها غافلون، ولا يشعرون بالحرب التي تقع بين جنود العقل وجنود الهوى داخل قلوبهم، وهم لذلك في غفلةٍ عن أمرهم وعن معرفة أنفسهم على حقيقتها وإدراك ما حولها، ولعلّ ما يزيد من هذا الغموض هو تقمص الهوى لرداء العقل والصلاح، فالنفس لهذا السبب لا تشعر بوجود التناقض الداخلي والصراع الأبدي الذي يستمر مع الإنسان إلى آخر يومٍ من حياته.

والإنسان أنانيٌ بطبعه لذلك فمن الطبيعي أنّ ينقاد إلى غرائزه وشهواته لأنّ في تلبيتها تحقيق للأنانية، وحتى العقائد السماويّة لم تلغ دور الغرائز في الحياة وتأثيرها على شخصية الإنسان، وهذه العقائد عندما شوقت الإنسان إلى فعل الخيرات والصالحات، فإنّها ربطت ذلك بثوابٍ كبير يحصل عليه المرء بعد أدائه للفعل الحسن، ونحن نعرف بأنّ الثواب السماوي المذكور قد تعلّق أولاً بتلبية غرائز الإنسان وشهواته وأهوائه، وقد تم تصوير ذلك في القرآن الكريم وفي الكتب السماوية وما ينتظر الإنسان المؤمن من لذاتٍ في الجنّة بأحسن التشبيهات وأروع الصور، فكيف أصبح الإفراط في هذه اللذات في الدنيا محرماً بينما في الجنة ثواباً؟.

المشكلة هي أنّ اللذات في الدنيا محدودة وقدرات الإنسان على تحقيقها هي أيضاً محدودة، كما أنّ طرق تلبيتها صعبة للغاية، والمفروض أنّه مع هذه الوضعية المتأزمة كلها ينبغي أنّ يسلك الإنسان طريق الحق والعدل لتحقيق تلك اللذات من دون الإعتداء على حقوق الآخرين، لأنّ جميع البشر هم في

المواقع يتنافسون على تحقيق اللذة، فإذا لجأ المرء إلى أسلوب غير شرعي لتحصيلها فإنّه قد تعدّى على حق إنسان آخر، فالمنافسة ينبغي أنّ تكون شريفة وعادلة وعلى مقتضى قوانين واضحة، تُنظّم طرق استغلال اللذات المحدودة بشكل يرضي العقل ويرضي الغريزة في نفس الوقت.

وذلك لأنّ هناك من لديه المال الوفير وهو محروم من لذّة أخرى كالراحة أو السلامة، وآخر يحصل على مقدار هائل من لذة الأكل والطعام لكنه يعجز عن توفير اللذة الجنسية، وقد يكون الحرمان بسبب خللٍ بدني أو بسبب عجزه عن تحصيل اللذة بالطرق الشرعية، وهنا قد يتوسل المرء إلى الطرق غير الشرعية لتحقيق الرغبة، على الرغم من مخالفة ذلك للعقل وللنظام العام، وعندما يصل الإنسان إلى هذا المستوى يصبح مقوداً من قبل هواه وهذا هو حالة (النفس الأمّارة بالسوء). وقد تطرقنا في مقدمة موضوع الإصلاح النفسي إلى بعض خصائص النفس الأمّارة بالسوء بتفصيل أكثر.

ثانياً: النفس اللوّامة

في إطار الصراع بين الهوى والعقل للإستيلاء على القلب تظهر في الوسط قوة يستخدمها كل من العقل والهوى أحسن استخدام في سبيل تحقيق غاياتهما، وهذه القوة هي قوة (النفس اللوامة) وعملها يقوم على أساس تقويم العون لقائدها العقل أو الهوى، وذلك لبسط نفوذه الكامل على القلب، ولأنّ أسلوب عملها وطريقتها واحدة إنّ كانت تعمل لحساب العقل أو إلى جانب الهوى، لذلك نحن جعلناها قوةً متفردةً ويمكن تجزءتها والفصل بين تلك المساندة للعقل والأخرى المساندة للهوى، لكن طبيعة عملها في الحالتين متشابهة لأنها تقوم بمحاسبة المرء وتلومه على سلوكه وتصرفاته، فإذا

كان الهوى مسيطراً على القلب وبّخ الإنسان على فعل الخير وتضييع فرصة الشهوة واللذّة، بينما لو كان العقل هو المتحكم بالقلب فهو الذي سيوبّخ المرء على فعل السيئات. فالنفس اللوّامة إذن تقف في موقع الوسط ما بين التحولات النفسيّة وقلما تجد من الناس من لم يشهد مثل هذه التحولات في داخله، فهذه التحولات قد تكون جزئية وآنية بمعنى أنّ يتحول المرء من سلوك سيء إلى سلوك حسن، أو تكون تحولات كلية بمعنى أنّ يكون التغيير شاملاً من الكفر إلى الإيمان، أو من الفسق إلى التقوى أو بالعكس، وهي تحولات تقع على عقائد الإنسان الراسخة في قلبه، وعند وقوع مثل هذه التحولات الكليّة أو الجزئية تبدأ النفس اللوّامة بعملها الشاق، فهي تلوم الإنسان على أفعاله السابقة وتؤنبه على سلوكه الماضي، وهي تفعل ذلك من أجل ترسيخ التحول الجديد الذي حدث في داخله لا فرق أنّ تكون مطيعة للهوى أو للعقل، فإنها تستخدم نفس الأسلوب في الملامة من أجل تثبيت التغيير الجديد، ولا يتلخص عمل هذه النفس بما ذكرنا فقط بل هي تقوم أيضاً بمحاسبة المرء على سلوكه وتصرّفاته التي تخالف التغيير الجديد الذي حصل في داخله حتى تمنعه من الإنجرار وراء القوة المعادية لها.

وما من عملٍ يقوم به الإنسان إلاّ ويحس بتشجيع أو تأنيب في داخله، فإذا كان العمل حسناً صدر التشجيع من جانب العقل والتأنيب من جانب الهوى والعكس بالعكس، ومن ذلك يتبين أنّ النفس اللوّامة هي بالأساس قوّة يستخدمها كل من العقل والهوى في سبيل تثبيت سلطتهما على القلب، فتصبح سمة الذات البشرية، لذلك نجد المرء فيها متردد بين العقل والهوى، فمثلما يقوم العقل بإرشاد الإنسان، ويقوم الهوى بدور الوسوسة قبل تنفيذ المرء للفعل، نجد أنّ النفس اللوّامة أو المحاسبة تتدخل عقب القيام بالفعل وتستخدم التوبيخ كوسيلة لمنع تكرار الفعل.

وتصور علماء النفس خطأ أنَّ هناك قوةً تابعة للعقل تقوم بمحاسبة المرء على فعل السيِّئات وأطلقوا عليها (تأنيب الضمير)، بينما القوَّة التي تلوم الإنسان وتحاسبه لا تأتي من جانب العقل فقط كما بيَّنا، وأنها لا تختص بالمحاسبة على الأفعال السيئة بل هي تشمل اللوم على الأفعال الحسنة أيضاً، وذلك إذا كانت الملامة صادرة من جانب الهوى.

فالنفس اللوَّامة تقف في الوسط ما بين النفس المطمئنة والنفس الأمَّارة بالسوء، فهي تلوم على الخير وعلى الشَّر، وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم: ﴿ *ولا أقسم بالنفس اللوّامة* ﴾[1] وقيل: أنَّها ستلوم الإنسان يوم القيامة على ما قدَّم من أعمال، فإنَّ كان مؤمناً تلومه على قلة عمله، وإنَّ كان كافراً فإنَّها تلومه على أفعاله السيئة.

ثالثاً: النفس المطمئنّة

لقد بحث العلماء منذ قديم الأيام عن إكسير السعادة، وفتّشوا عنه في كلِّ كهفٍ ومغارة، ونبشوا عن هذه الكلمة بين لغات الماجنيين وحروفهم المسمارية لعلهم يجدون المعنى الحقيقي لها، أو لعلهم يتوصلون إلى تعريف مقنع يُفضي بهم إلى المعرفة الكاملة بما تنطوي عليه هذه الكلمة من خبايا وأسرار، ونقبّوا عنها أيضاً بين الكتب والأفكار فلم يعثروا على حقيقة واحدة هي: (السعادة جوهرة ثمينة يفتش عنها كلّ الناس ولا يجدونها).

ونحن أيضاً سنسعى بقدر امكاناتنا الضئيلة أنَّ نفتش عن هذه الجوهرة الثمينة، فنسأل أنفسنا أولاً ماهي السعادة؟ هل تعني خلو الحياة من المشاكل؟ أم تعني خلوها من الآلام؟ أو تعني خلوها من الأمراض؟ أم أنها تعني اكتساب القدرة والسلطة؟ أو أنها جمع الثروات الطائلة؟ أو أنَّها تعني

---

(١) سورة القيامة: ٢ .

اكتساب محبة الآخرين ومودتهم؟ أو أنها تعني مساعدة الآخرين والعطف على الضعفاء منهم؟ أو أنّها تعني كسب رضا أفراد الأسرة والأقرباء؟ أو أنها تعني العيش بسلام وأمان؟ أو أنها تعني أنّ يحقق المرء كل أهدافه وطموحاته؟ أو أنّ يلبي كلّ رغباته وشهواته أم أنّ تحقيق كلّ هذه الأمور يعني السعادة؟.

بالطبع إنّ تحقيق كل هذه الأمور هو ما يصبوا إليه كل إنسان ويتمناه، وهو بالضبط يعني السعادة ولكن بالله عليك من يستطيع تحقيق كلّ رغباته في هذه الدنيا؟.

فلنفترض أنّ هذا الإنسان قادر على حيازة كافة القدرات والرغبات والشهوات بما في ذلك الثروة والسلطة والوجاهة والعلم والقدرة البدنية والنفسية، بأنّ يكون معافى من جميع الأمراض البدنية والنفسية على طول خط الحياة، وهذا مستحيل! فلو افترضنا محالاً أنها تحققت فهل هذا يعني أنّ الإنسان حقق السعادة؟.

إنّ فكرة الخشية من الموت وحدها قادرة على تنغيص حياة ذلك الإنسان وتقلب حياته إلى جحيم وإنّ كان يحوز على كل تلك القدرات التي ذكرناها، ولنا أنّ نتتبع محدوديات الإنسان على الرغم من امتلاكه لقدرات واسعة، حتى رئيس أعظم دولة في العالم وهي الولايات المتحدة الأمريكية على الرغم من أنه يتمتع بأوسع القدرات إلاّ أنه يظل عاجزاً عن تحقيق رغبة صغيرة، وهي أنّ يسير في الشارع كباقي الناس من دون حماية أو رجال أمن وذلك خوفاً من تعرضه لعملية اغتيال، انظروا إلى أنّ حق السير في الشارع والركوب في الحافلات العامة هو حق يتمتع به أبسط إنسان في الولايات المتحدة نجد أنه يعجز عن تحقيقه رئيس هذا البلد، ولو أراد هذا الرئيس القيام بنزهة في إحدى الحدائق العامة عليه توفير عشرات المسلحين لحمايته، لأنه قلّ ما تجد في

تاريخ الولايات المتحدة رئيساً لم يتعرض لمحاولة اغتيال فاشلة أو ناجحة، وهو ما يبين أنّ الإنسان حتى وإنّ حصل على أعلى القدرات فإنّه لا يستطيع أنّ يهرب من فكرة الموت. ولنعد إلى ذلك الرجل الأسطوري الذي يتمتع بكافة القدرات الجبّارة ونسأله هل يتمكن من تحقيق كل رغباته وأمانيه؟ ولا بد أنّ نعرف أنّ رغبات الإنسان غير محدودة بالزمان والمكان والواقع، فقد يتخيل المرء شيئاً غير موجوداً على الكرّة الأرضية ويود أنّ يحوز عليه!! فهل يستطيع ذلك الإنسان أنّ يلبي كل رغباته من هذا النوع؟.

بالطبع كلا. لأنه مع ذلك لابدّ أنّ تتوفر لديه قدرات خارقة لتحقيق تلك الرغبات والأماني، وأنّ ما نشاهده في الأفلام السينمائية من تلك القدرات الهائلة التي يتمتع بها السحرة ما هي إلاّ مثالاً لرغبات الإنسان الكامنة في داخله بأنّ تكون القدرة لديه على فعل أي شيء، فكل واحد منا وفق هذا المعنى يريد أنّ يصبح ذلك الساحر العظيم الذي نشاهده في الأفلام.

مع العلم إننا كبشر فشلنا في تحقيق واحدة من أهم رغبات الإنسان، وهي المتعلقة (بالخلود في الحياة) والكثير من هؤلاء البشر على استعداد أنّ يتقبلوا كلّ منغصات الحياة الأخرى، كالمرض والفقر وغيرها مقابل الخلود في الحياة الدنيا، وليست أمنية الخلود هي الوحيدة التي يقف أمامها الإنسان عاجزاً بل هناك عدداً لا يحصى من الأماني تبقى عالقة في الخيال دون أنّ ترى الواقع، منها الأماني الروحيّة والنفسية، كتمني الأب أنّ تكون علاقته حسنة مع ابنه. وكانوا قد سبقونا إلى القول (ليس كل مايتمناه المرء يدركه) فإذا كانت الأماني هي حاجات مكبوتة في خيال الإنسان، فإنّ عجزه عن إدراكها دليل على عجزه عن تحقيق السعادة. فالسعادة إذن ليست من جنس الدنيا وإنّما هي صفة لجنّة الخلود، تلك الجنة التي فيها كلّ ما تشتهيه الأنفس وتلتذ به، وكلما لا يخطر على بال بشر وكلما يتمناه يجده حاضراً أمامه بلمح البصر، تلك الجنّة

الخالدة والخالية من الآلام والمشاكل النفسية والأوجاع البدنية والأمراض ، تلك الجنّة التي صفتها الأمن والطمأنينة والسلام، فلا تعب ولا شقاء ولا عذاب، ولا حزن ولا قلق ولا اكتئاب، تلك الجنّة التي لا تُنغص فيها فكرة الموت سعادة الإنسان كما في هذه الدنيا، فالسعادة على ما قلنا هي كلمة من كلمات عالم الآخرة، وهذا هو السبب بعينه في إخفاق العلماء عن الوصول إليها.

متطلبات السعادة:

١ ـ الخلود.

٢ ـ امتلاك القدرة على فعل كلّ شيء بما في ذلك تحقيق الرغبات والشهوات.

٣ ـ امتلاك ناصية العلوم.

٤ ـ أنّ تُبنى العلاقات الإنسانية على أساس المحبّة والوئام.

٥ ـ تحقيق اللذة بعيداً عن المنغصات الفكرية والنفسية.

٦ ـ أنّ يكون المرء سالماً من جميع الأمراض البدنية والنفسية.

وما من واحدة من المتطلبات المذكورة متوفرة لشخصٍ ما في عالمنا هذا!!.

إذن لابدّ أنّ نبحث عن معنى آخر للسعادة، وهو المعنى الذي يتلائم مع هذه الحياة، ويتفق مع مشاكلها وآلامها وأحزانها وتعاستها ومصائبها، المعنى الذي يأخذ بنظر الاعتبار كلّ مساوئ هذه الدنيا من آلام وأوجاع، المعنى الذي يجعل الإنسان يحافظ على شخصيته واتزانه العقلي والنفسي، وهو يواجه صور الحياة المُرّة كموت الأحبَة وآلام الأمراض بإرادة صلبة وقويَة، المعنى الذي يساعد الإنسان على العبور من كافة الأزمات والعقبات والصعاب وهو يظلُ إنساناً كريماً عزيزاً، فإذا كان طبع هذه الدنيا الألم والوجع، فالطريقة

الصحيحة ليست أنّ نضحك على هذا الإنسان ونكذب عليه وندّعي بأنّه لا وجود للألم كما تفعل الحضارة الحديثة التي تغذّي الإنسان البسيط بفكرة (الإفراط في اللذّات والشهوات) وعندما يتألم هذا الإنسان البسيط نتيجة افراطه بهذه اللذات، نجد أنّ هذه الحضارة بدل أنّ تقدم له العلاج تدعوه بشكل فاضح إلى الإدمان على المخدرات والمسكرات كحلٍ للتخفيف من آلامه... وهيهات!!.

بينما الفكرة الإسلامية تضع الإنسان أمام واقع حياته والآلام التي سيواجهها في هذا الطريق، إلاّ أنها في نفس الوقت تعطيه البرنامج الحيوي الذي يؤهله لتحمل كافة الآلام والأوجاع البدنية والنفسية وعوامل النقص الأخرى.

وليس المفروض بك أنّ تعمل كما يقول المتفائلون (اضحك للدنيا تضحك لك) لأنّ هناك أوقاتاً يعجز فيها الإنسان عن الضحك مثلاً في حالة موت حبيب، وقد يعجز الإنسان عن الضحك لسنين طويلة نتيجة المشاكل التي يعاني منها، فالضحك هنا ليس دواءاً لحل هذه المشاكل العويصة، وقد يتطلب الأمر على العكس من ذلك أنّ يبكي المرء لأنّ البكاء في كثير من الأحيان يساعد الإنسان على تفريغ الهموم والآلام الداخليّة كما إنّه يُجلي القلب.

فالإسلام يربي الإنسان على كيفية مواجهة المشاكل والمصائب والآلام ويحثه على التحمل والصبر وينمّي لديه العزم والإرادة، أضف إلى ذلك أنّ فكرة الثواب بحد ذاتها تساعد الإنسان كثيراً على تحمّل المصائب والمشاكل الكبيرة، فإنّ ما يخفف عن الإنسان المتألم أنّ تقول له بأنّ جائزة كبيرة ستحصل عليها لو صبرت وتحملت الألم الذي في نفسك أو في جسدك، فهو سيصب تفكيره على تلك الجائزة والثواب ويتلهى عن الألم الذي في داخله،

أما لو قلت له بأنّك إدعو الله لعله يفكّ معضلتك ويعينك في مشكلتك أو مرضك، فإنّ دعاءه سيقوّي الأمل في نفسه بإمكانية الشفاء إضافة إلى إنه سيساعده على تحمل الآلام.

وأما بالنسبة للبرنامج العملي فإنّ الإسلام يحث الإنسان على الحياة البسيطة غير المتكلفة، وهو بمعنى أنّ (لا تملكك الأشياء) وأنّ تكون لديك القدرة على مواجهة كلّ عناصر الضغط المحيطة بك داخلية كانت أو خارجية، فالمال يضغط عليك بأن تكون عبداً له وأنّ تعمل ليل نهار من أجل جمعه وتكديسه، حتى ترى نفسك في النهاية أنك ضيّعت عمرك وأتلفته في جمع الأموال من دون أنّ تسعد به (وهو حال البخيل) والشهوة تضغط عليك بأنّ تكون عبداً لها، والأصدقاء يضغطون عليك بأنّ تخضع لرغباتهم، والمجتمع يضغط عليك بأنّ تنقاد لعرفه وتقاليده، وهكذا يجد المرء نفسه بين شبكةٍ من الضغوط التي لو انقاد لواحدةٍ منها فإنها ستفقده إرادته على اتخاذ القرار السليم، لأنّ المرء إذا انقاد إلى شهوة حب المال فإنّ البخل سيحرمه من السعادة به، وإذا تحكمت شهوة الغضب فيه فإنّها ستُزيل الحكمة من تصرفاته، وإذا مال الإنسان للعرف السيء فإنّه سيظلم عقله.

إنّ عدم الخضوع لعوامل الضغط الداخلية والخارجية هو الذي ينميَ شخصية الإنسان، ويمنحه الإتزان في الحياة، فمثل هذا الإنسان لا تتأثر مواقفه ولا تتغير حسب تقلب المصالح والأهواء، وأنّ الشهوات لا تعميه عن رؤية المعقول واللا معقول، وأنّه لا يسمح للغضب أنّ يعمي عينيه عن رؤية الحق والباطل، وأنّه لا يتنازل عن كرامته وعزّته من أجل بطنه، وأنّ لا يخضع قيمه الروحية للذة الجسد والمادة، فهو يملك الأشياء إلاّ أنّها لا تملكه!.

وقد يسأل أحدهم ويقول: إنّ حياة هذا الإنسان مليئة بالصراع والمواجهة فأين السعادة في ذلك؟.

كما أسلفنا من ذي قبل فإنه لا أحد في هذه الدنيا يمكن أنّ يمتلك كلّ شيء في أنّ واحد، وإنّ عدم امتلاك الأشياء هو بمثابة عدم تحقق السعادة، ولأنّ هذه الحياة مليئة بالمشاكل والآلام، وأنّ الطريق الصحيح ليس هو الهروب منها بل هو في مواجهتها والتخفيف من حدّتها.

ويقول علماء النفس: أنّ ما يُنغص على الإنسان حياته هي مجموعة من المخاوف التي تتعلق بصلب حياته، فهذا الإنسان الضعيف لديه مخاوف من احتمال نضوب أمواله، فيعجز عن توفير لقمة العيش، وذاك لديه مخاوف من علاقته مع زوجته وأولاده وأنّ هذه العلاقة إذا لم تكن سوية فإنها قد تؤدي إلى الإنفصال وتشتت العائلة، وآخر لديه مخاوف من السراق والمجرمين، وشخص آخر لديه مخاوف من احتمال فقدان وظيفته، وآخر يخشى من الإصابة بالمرض أو يهجم عليه الموت، وهكذا الإسلام يأتي ويضع حلاً لكلّ هذه المخاوف جملةً واحدة، ويعالجها داخل الإنسان وذلك من خلال برنامجه التربوي والسلوكيّ، وكذلك من خلال القاعدة التي ذكرناها (ليس المهم أنّ تملك شيئاً بل المهم أنّ لا يملكك شيء) فلو اعتقد المرء بأنّ الله هو رازقه فهو لن يهاب من نضوب ماله، ومن كان سلوكه متّفقاً مع الأخلاق الإسلامية فلا يخاف على مصير أسرته من الضياع، ومن كان يرى بأنّ الأمراض تذيب الذنوب والخطايا كما تذيب الشمس الجليد فإنّه سيصبر على الألم، ومن كان عمله صالحاً ويرى أنّه مقبلٌ على حياة النعيم في الآخرة فإنّه لا يهاب الموت، بل ويقدم عليه بكلّ شجاعة واقتدار.

ولّما يتجرد الإنسان من كلّ متعلقات الدنيا، فإنّه سيشعر باطمئنان كامل لأنّه تخلص من جميع هواجسه ومخاوفه وعالجها في اللاشعور. لذلك لا يوجد ما يضغط عليه ويزعج نفسه المطمئنة المذكورة في القرآن الكريم ﴿ ***يا أيّتها النفس المطمئنّة ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة فادخلي في عبادي وادخلي***

جَنَّتِي﴾[1] وقد يتخيل بعض الناس أنّ المؤمنين هم الأكثر حاجةً لحالة الإطمئنان، بينما هي في الواقع حالةٌ يحتاجها جميع الناس خاصة في هذا الزمن الذي تتقاذف الإنسان أمواج الفتن والمحن وتحيط به براكين الهواجس والمخاوف، فكلما تعقدت الحياة كانت ضغوطها متزايدة على هذا الإنسان، وكلما ارتفعت ناطحات السحاب كلما هو أصبح أصغر وأصغر، وكأن المفروض أنَ يكون الإنسان خادم هذه الآلة العظيمة وليس هي التي تخدمه، وقد يتحول هذا الإنسان الذي خُلقت السماوات والأرض من أجله مجرد قطعة صغيرة في مصنع كبير، فهو يهرول صباحاً ومساءاً لتوفير لقمة عيشه.

هذا الإنسان هو أكثر ما يكون بحاجة إلى من يطمأنه على حياته ورزقه ومماته، وهو بحاجة إلى من ينبهه إلى أنك ترهق نفسك في طريق نهايته سراب، ويوضح له الطريق الذي يوصله إلى معين الماء، فيروي روحه ومعنوياته بماء الحياة، إنّ الهرولة وراء السلع الإستهلاكيّة يُرهق الروح ويجعلها تتعلق بتوافه الحياة، وهي في ذات الوقت تقتل عقل الإنسان وتغيبه عن الوجود، حتى لا يجد المرء فرصةً للتفكير في حاله كمن يركض وراء سراب كلما اقترب منه لم يجده شيئاً مذكوراً. وهكذا يكون الركض وراء شهوات الحياة كلما أخذت منها شيئاً ازددت جوعاً إليها.

بينما المؤمنون الذين هم أشدُ بلاءً وعناءً في الدنيا، فعلى الرغم من كل المعاناة التي يواجهونها إلاّ أنهم أشدُ ثباتاً واستقراراً من الناحيّة النفسيّة، وكلما اشتدّ عليهم البلاء ازدادوا اطمئناناً بما وعدهم به ربّهم، فمن أين يحصل المؤمنون على الإطمئنان؟.

الإطمئنان يأتي من العلم!! ولكن ليس أيّ علم! ذلك العلم الذي يبصّر الإنسان بحقيقة نفسه وبفلسفة الحياة ويكشف للإنسان الأشياء على حقيقتها،

---

(١) سورة الفجر: ٢٧ ـ ٣٠.

ومن تلك المعرفة يستشف المؤمن أنَ هذه الدنيا زائلة وأنّها بمثابة جسر للعبور إلى عالم آخر، ومن تلك المعرفة يكتشف المؤمن أنّه عبدٌ لخالق عظيم يستوجب منا العبادة، ومجموعة تلك المعارف التي يصل إليها الإنسان المؤمن تجلب له الإطمئنان في القلب، ومن دونها يبقى القلب مضطرباً بالشكوك والأوهام ومتردد بين الحقيقة والسراب.

فالنفس المطمئنة على ما ذكرنا تقابل النفس الأمّارة بالسوء، فتلك تبعث الاطمئنان والسكينة في الفرد بينما هذه تجلب الإضطراب والقلق إليه، والله يتعهد المؤمنين ويريهم سبيل الحق وينزل السكينة عليهم ليزدادوا اطمئناناً بما وعدهم به، فهو سبحانه لا يفعل ذلك تحيزاً وإنّما هم الذين اختاروا هذا الطريق المليء بالأشواك في الظاهر، وهم الذين اقتنوا هذه البضاعة التي لم يأبه لها الآخرون وهي بضاعة المعرفة، فالله لم يعطهم الأموال ولا القصور، ولم يُثبتَ قلوبهم بالذهب والجواهر كما يفعل الملوك والسلاطين مع حاشيتهم والمقربين لديهم، وإنّما هو ثبت قلوبهم بالمعرفة الحقيقية، معرفة سر الوجود وخلق الكون والحياة الأخرى، فهم استغنوا بهذه المعرفة عن الهرولة وراء الذهب والفضة لأنَ ما لديهم أثمن بكثير، بينما الذين يركضون وراء الدنيا فصارت أكبر همهم، هؤلاء تركوا وراء ظهورهم كثيراً من المعارف التي تُثَبِت إيمانهم وتقوّي قلوبهم، لأنّهم اعتبروها شيئاً من البطر والترف الفكري، وحيثما تتابعهم الفتن وتحتوشهم الأفكار الضالة يسقطون الواحد تلو الآخر في منزلقاتها لايعرفون طريق الهُدى فيتبعونه ولا مُرشداً ينقادون إليه.

إذن... الاختيار السليم هو الذي يضع الإنسان على الطريق السليم، ولكل طريق من هذه الطرق مزايا، ومزية طريق الإيمان هي المعرفة، وبها يستقيم القلب، ويتقد الفكر، ويصح العمل، وهذه كلها ثمار عدم الإسراف في الشهوات واللذّات، وعدم الخضوع لسلّطان الهوى، فمن أزاح عن عقله

وسواس الهوى أزال الغبار عن عيني بصيرته، فهو يرى الأشياء على حقيقتها من دون رتوش خارجية أو داخليّة.

ولمواجهة الظروف الصعبة ومقاومة الابتلاءات والمحن، فإنّ المؤمن يكون أكثر حاجةً للمعرفة، فهو مثلاً لاعتقاده الراسخ بأنّه سيكون هناك يوماً للقيامة وللحساب والكتاب لذلك فهو يصبّرُ نفسه على الابتلاءات والمصائب ولا يقترب من المحرمات، بينما مسألة الحساب بالنسبة للآخرين هي مجدر فكرة ضبابية وليست يقينية في قلوبهم، لذلك فهم غافلين عنها ولا يعيرونها تلك الأهمية التي تستحقها، وهم يعتقدون بأنّ التفكير في ذلك يسدّ شهية الإنسان عن الطعام، بينما هذه المعلومة هي يقينية بالنسبة للنفس المؤمنة وهي تعينها على تحقيق أفضل انجاز في هذا الطريق، ولو أجرينا تحقيقاً حول النتائج التي تتركها صعوبات الحياة ومشاكلها على شخصية النفس المؤمنة والنفس الأمّارة بالسوء فماذا ستكون النتيجة؟.

بالطبع نقصد (بالنفس الأمّارة) هي غير المؤمنة فلو أنها ابتليت بالفقر مثلاً ماذا يحصل لها؟ إنها ستفقد اتزانها العقلي والنفسي، وبدل أنّ تتخذ طريق الصبر نجدها تتبع أساليب مخالفة للعقل والأخلاق لتلبية حاجاتها وللخلاص من الفقر كالإختلاس وغيره، وأنّ مجرد شعورها بالضغط المادي يؤدي بها إلى هيجانات نفسية وانفعالات غير شعورية، تقودها إلى اتخاذ قرارات غير سليمة والإصابة بأمراض نفسية مستعصيّة.

بينما النفس المؤمنة تواجه ذات الضغوط وتتعرض لنفس الصعاب إلاّ أنها تبقى متزنة محافظة على قيمها ومبادئها، ومصدر هذه القوة ينبع من إيمانها الذي يلهمها فعل الخيّرات والصبر على المشقات، ومن الطبيعي فإنّ الله سبحانه وتعالى يعين من يدعوه، وإعانته تكون عن طريق ﴿ ***هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض وكان الله***

عليماً حكيماً ﴾[1] فالله يعين عبده المؤمن بإنزال السكينة على قلبه، هذا القلب الذي هو محل الإضطراب والصراع بين قوى العقل والهوى يصبح للسكون والطمأنينة وراحة الضمير. وهذه الطمأنينة تمنح الإنسان المؤمن فرصة اضافية لزيادة إيمانه من خلال التفكر في الخلق والتدبر في الكون، وفي المقابل نجد أنَ صاحب النفس الأمّارة يزداد كفراً وفسقاً كُلّما لبى رغبةً من رغبات نفسه السيئة، فهي لا تشبع ولا ترتوي جشعةً لا تقبل بالقليل، كُلما إزدادت غطرسة وسلطة إزداد صاحبها جهلاً وبُعداً عن الإيمان وإزداد قلبه اضطراباً وتوتراً.

وعلى النقيض من ذلك فإنّ صاحب النفس المطمئنة قد حسم الصراع في داخله لصالح العقل مقابل الهوى واستثمر نتائج هذا الحسم، فقد اقتبس من العقل اتساع الحكمة، وقوة الإرادة، وثبات الفكرة، وصلابة الرأي، وحُسن العمل... فهو سعيد لأنّه يشعر بالرضا عن نفسه وفكره وتصرفاته، لأنَ كلَ واحدة منها مكملة للأخرى بتوافق مُحكم، بينما صاحب النفس غير المطمئنة تتضارب أفكاره مع أفعاله وتتناقض مبادئه مع تصرفاته، لأنّه لا يستند على ميزان واحد ومبدأ واحد على توجيه تصرفاته، وإنّما الهوى هو الذي يوجهه ويُسيره، فيؤدي ذلك إلى صراعٍ داخلي لدى هذا الإنسان بين مبادئه وسلوكه، وينجم عن ذلك عدم رضا الشخص عن نفسه وعن تصرفاته، وهذه هي المرحلة الأولى من الحياة التعيسة. فمن يريد أن يحقق الاطمئنان في داخله عليه أولاً أنَ يحسم الصراع في قلبه لصالح العقل؛ لأنّه من العقل تأتي الطمأنينة.

---

(١) سورة الفتح: ٤.

الإصلاح النفسي

ماذا ستفعل لو حذّرك أحدهم من السقوط في بئر عميقة؟ بالطبع إنّك ستكون ممتناً إليه لأنّه قد أنقذك من الموت أو الإصابة بجروح، وماذا سيكون ردّ فعلك إذا نبّهك أحدهم من عواقب الاستمرار على عادةٍ غذائية سيئة تسببُ لك سوء التغذية أو القرحة أو غيرها؟ بالطبع ستشكره على تحذيراته! وماذا سيكون موقفك لو نصحك أحدهم بالإقلاع عن عادةٍ خُلقية سيئة مثل (التقليل من حدة غضبك) قد تثور في وجهه وتوبخهُ بأنَ (الأمر لا يعنيك) وأنت لا تعلم بأنّ العادة السيئة التي حذّرك منها الرجل لا تضر بدنك فحسب بل تؤدي بك إلى أمراض نفسية هي أشد فتكاً وألماً.

وماذا لو حذرك أحدهم من مغبة الإنقياد لشهوة المال؟ ستعتبر الأمر مثالي وأنّه يخالف الطبيعة البشرية وأنّ هذا النوع من الكلام هو أشبع ما يكون بموعظة دينية. وأنت لا تعلم أنّ سيطرة هذه الشهوة على مقدرات الإنسان قد تقودهُ إلى ارتكاب الجرائم مثل: السرقة والإختلاس والإرتشاء وغيرها... إذن مثلما الغذاء الفاسد يضر بدنّك، كذلك الأغذية الفاسدة التي تغذي بها نفسك مثل (الشهوات والأهواء المتحررة) هي أيضاً تضرّك وتفسدُ تفكيرك وعقلك وتكون السبب في مرض قلبك.

وقد وضع علم النفس الإسلامي قائمة أمام الإنسان بالمحظورات التي ينبغي عليه اجتنابها حتى لا يُصاب بالأمراض النفسية، واقترح عليه مشروعاً تربوياً يكفل في حالة تطبيقه بناء شخصيةٍ مثالية فذة، فعلم النفس الإسلامي لا يعتني فقط بعلاقة الإنسان بربّه فحسب بل هو معني بشكل أساسي في تكوين شخصية راقية له، ويتوقف نجاح هذا المشروع على إرادة المرء وما يبذله من

جهدٍ وتحدي في سبيل تنفيذه، فهذا البرنامج يضعنا على الطرق الصحيحة التي تنتهي إلى خاتمة واضحة هي الشخصية الفذة والحياة المطمئنة والمبادئ الثابتة.

والهدف الأول سيكون صيانة النفس وحمايتها من الهوى ليكون هذا البرنامج التربوي مثل درعٍ واقي يحمي النفس من سهام الهوى ونباله الفتاكة، فالنفس مثل البدن بحاجة للحماية من الأمراض والأوبئة التي تضرب العقل وتشل الإرادة وتعكر الأخلاق، فالغرض هو حماية العقل من كلَ (الفيروسات) التي قد تتغلغل وتربك عملية التفكيرفيه وحماية القلب من الجراثيم الخُلقية التي قد تأخذ لها حيزاً هناك، ويعتمد برنامج الإصلاح النفسي هذا على عدّة أنظمة هي:

أولاً: المعرفة النفسيّة

ليس المطلوب أنَ تعرف أسماء الكواكب أو المجرّات في الفضاء الواسع! وليس المطلوب أنَ تعرف أسماء الأسماك في قاع المحيطات! وليس المطلوب أنَ تتعرف على أسماء الحشرات! لكن المفروض أولاً أنَ تعرف نفسك والقدرات الكامنة في داخلك، وأنَ تتعرف على نقاط الضعف في شخصيتك، والصفات التي تميزك عن الآخرين ومستوى ذكاءك وفهمك واستيعابك للعلوم والمعارف، ومدى تحملك للمشاكل وصلابتك على مواجهة الصعاب، ودرجة اصرارك على تحقيق أهدافك الكُبرى، ونوع المهارات التي تتمتع بها، والمهارات التي يمكن أنَ تحوز عليها بالتدريب والمران، وأنَ تعرف نقطة ضعفك تجاه أي من الغرائز المعروفة: الغريزة الجنسية... أم غريزة الجوع... أو غيرها؟ وأنَ تعرف أيضاً القدرات البدنية التي لديك وكذلك نقطة الضعف الجسدية. فإنَ هذه المعرفة هي التي تساعدك على تحديد هويتك ومن ثمَ

الإنطلاق في أول درجةٍ من سُلَم تكوين الشخصية الراقية والفذة التي يطمح إلى تحقيقها أي إنسان في كل وقت.

وأنَّ تتوفر لديك فرصة ثمينة لإعادة بناء حياتكُ بشكل جديد وفق المعايير العلمية والدينية، فما عليك إلا استغلال هذه الفرصة وسترى، بعد ذلك أنَّ النجاح الذي تحققه في حياتك الاجتماعية والمهنية إنّما هو نتيجة لتلك الفرصة التي أفدت منها ورممت من خلالها بعض نقاط الضعف في شخصيتك والتي عادةً ما تكون السبب في فشلك في الحياة.

إنَّ تضييع فرصة ثمينة لإعادة تقييم الشخص لنفسه ستعود عليه بالخسران والفشل المتكرر، ففي بعض الأحيان تتكرر التجربة الفاشلة لدى الشخص فيُلقي باللائمة على الظروف والزمان، بينما كان بمقدوره من خلال إعادة تقييمه لأفكاره وسلوكه، يستطيع وبسهولة اكتشاف نقطة الضعف التي تسبب له ذلك الفشل المتكرر، إذن معرفتنا بأنفسنا تساعدنا على تشخيص المشكلة وتفيدنا في حياتنا العامة والاجتماعية.

ولابدَّ أنَّ تتوفر لدينا الشجاعة الكافية للاعتراف أمام أنفسنا بنقطة الضعف التي شخصناها، بأنّها هي السبب وراء تلك المشكلة العالقة أو ذلك الفشل المتكرر، ونسعى بكل ما أوتينا من قوّة أنَّ نستأصل تلك الغدّة السرطانية التي تنغصُ علينا عيشتنا، ولا ينبغي أنَّ نكتفي بالمعارف التي تتصل بشخصيتنا فقط، بل المفروض أنَّ نزيد من معلوماتنا حول عدونا الأساسي وعدو عقلنا ألا وهو (الهوى) وإن كنا سنبين في موضوعات لاحقة الدور الذي يلعبه الهوى في الحياة الشخصية للإنسان وصراعه مع العقل، إلاّ إننا سنكشف هنا الأساليب التي تنفذ منها مكروباته وتسيطر على قلب الإنسان، تلك الأساليب الخبيثة التي بمكرها تسحق إرادة العقل على المواجهة، وتقوم

النفس الأمّارة بتنفيذ هذا الدور الخبيث، وهنا ينبغي أنّ يتنبه الإنسان ويعرف هذه الأساليب بشكل جيد لكي لا يسقط في متاهاتها، فمن أساليبها:

١ ـ إنّها تتملق كالمنافق، فإذا أرادت شيئاً توددت وتلطفت وتصنّعت المعروف، وهدفها الإغواء، ومرادها ايقاع المرء في حبائلها، وقد جاء في حديث الإمام علي عليه السلام: «النفس الأمّارة المسوّلة تتملّق تملّق المنافق، وتتصنّع بشيمة الصديق الموافق»[1].

٢ ـ إنّها مخادعة وماكرة: فهي لا تظهر عداءها صراحةً وتعود على نفسها بأساليب ملتوية لكي لا ينكشف أمرها. وفي حديثٍ آخر للإمام علي عليه السلام بيّن صفتها وقال: «كن أوثق ما تكون بنفسك، أخوف ما تكون من خداعها»[2].

٣ ـ إنّها متسلطة: فإذا استولت النفس الأمّارة على مقدرات القلب ستستعبدة وتذله بالطاعة وتملي عليه من الأفكار ما يكون خلاف القول والعلم. وفي هذا قال الإمام علي عليه السلام: «النفس الأمّارة المسوّلة إلى أنّ يقول... حتى إذا خدعت وتمكنت تسلّطت تسلّط العدوّ، وتحكمّت تحكّم العتوّ، وأوردت موارد السوء»[3].

٤ ـ إنّها خائنة: فهي تأمّل الإنسان بالنصر والغلبة لكنها تقحمه في الهلكة، وتمنّيه بالشهوة واللذة، لكنها تجره للمرض والخيبة، ففي حديث للإمام علي عليه السلام قوله: «إنّ النفس الأمّارة بالسوء والفحشاء، فمن ائتمنها خانته، ومن استنام إليها أهلكته، ومن رضي عنها أوردته شر المورد»[4].

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم : ١ / ١١٤ / ح٢١٢٨.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم : ٢/ ١٠٦ / ح٣٩.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم : ١١٤/١ / ح٢١٢٨.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم : ١ / ٢٢١ / ح١١٥.

ومن عرف عدوه بهذه الصفة ينبغي أنّ يكون نبهاً ومتيقظاً، لأنّ الغفلة منه تساوي خسارة نفسه وحجب الرؤية عن عقله، لأنّ هدف النفس الأمّارة ليس حرف السلوك إلى الوجهة السيئة فقط بل الهدف ايضاً إرباك العقل بمجموعة من الأفكار والأوهام التي ترتدي لباس العلم، وتتزين بثوب العصرنة، وتتلون بلون التحضر، وهي في طبعها من كل هذه الأمور غريبة وبعيدة.

ثانياً: المراقبة النفسيّة

من العجب أنّ القرويين من المزارعين والرعاة يراقبون خيولهم وأبقارهم كي لا تُصاب بمرض أو مكروب، وكذلك يفعل ابن المدينة عندما يراقب سيارته ويتعهدها بالصيانة من زيت المحرّك وغيره كي لا تُصاب بعُطل، بينما لا يُراقب الإنسان نفسه ولا يتعهدها بالصيانة والحماية مع أنها أولى من كلّ شيء آخر بالحماية والرعاية، وقد يفسرُ البعض معنى الاهتمام بالنفس ورعايتها أنّ يوفروا وسائل الرفاهية والراحة لها، وأنّ يقدّموا لها أفضل الطعام، ويشتروا لها أفخر الملابس، ويسكنوها أفخم القصور، ونتيجة لتصورهم هذا فهم يعتقدون إذا وفروا لقمة العيش لأبنائهم فقد أدّوا حق الأبوّة.

بينما حاجات الإنسان لا تتوقف عن البطن فقط، بل لعقل الإنسان أيضاً حقّ مثلما لبطنه، ولقلبه حقّ مثلما لغريزته، لذلك فإنّ تلبية حاجات العقل والقلب هي من أهم الواجبات التي ينبغي أنّ يضطلع بها الإنسان الصالح في هذه الحياة، ومراقبة هذه الحاجات بدقة لكي لا يتم التفريط في جانب دون الآخر، لأنّ المستفيد من ذلك لن يكون أحدٌ سواه، فكم سيجني الإنسان من إصلاح نفسه وعقلنة سلوكه وتطهير قلبه من الأغلال والأحقاد؟ وعلم النفس

الإسلامي عندما يحثّ على إتباع السلوك السليم فغرضه إصلاح حياة الفرد والمجتمع، وبناء هذه الحياة على أسس عقلانية قويمة.

فهذه الحياة لا تنصلح بالأماني والأحلام، وإنّما بالسعي والمثابرة على طريق تحقيق الأفضل، وبإمكانك أنّ تطلق العنان لنفسك، تفعل ما يحلو لها في هذه الحياة، ولكن تأكد بأنّ المتضرر الأول والأخير لن يكون سواك، فواحدة من سنن الكون والحياة هي من يزرع بذوراً صالحة يحصدُ ثمراً صالحاً، وبالطبع هذا المثل ينطبق أيضاً على شخصية الإنسان، فلا أحد يخرج من بطن أمه عظيماً أو بطلاً أو عالماً، ولا أحد يصبح كذلك بفعل سحر ساحر، إنّما يصل إلى تلك المرتبة الراقية من زرع في نفسه بذرة العلم والبطولة ونمّاها بماء الجهد والمثابرة حتى أصبح ذلك عالماً وهذا بطلاً، فلنزرع البذور الصالحة حتى تعطينا الثمرة الصالحة، وعملية بناء الذات لا تتم بين ليلة وضحاها، وهي ليست يسيرة كما الهدم (لأنّ صعود الجبل ليس كنزوله).

ولكن اللذة الحقيقية يتذوقها الإنسان عندما تطأ قدمه حافة القمة، وقتها تكون كل الأشياء تحت اختياره، لأنّه حاز على شيءٍ إذا تسلط عليه فإنّه سيحكم العالم بأسره ويملكه ذلك الشيء (النفس)، فالعالم لا يصبر عالماً إلاّ بعد مكابدةٍ وعناءٍ وشقاء، فهو تخلى عن راحته وأحلى سنين عمره طالباً للعلم، ولا يصبح الزعيم زعيماً إلاّ بعد سنين يقضيها في المنافي والمعتقلات وذلك في سبيل قضيته العادلة، فهؤلاء لم يحققوا أهدافهم إلاّ بعد تضحيات قدموها من أنفسهم وراحتهم... لكن السؤال المهم هو: هل سنين الشقاء التي قضاها هؤلاء الرجال في السجن والإرهاق كانت أعظم أم لحظة الوصول إلى القمّة (لحظة تحقيق الهدف الكبير)؟!.

إنّ قيادة النفس في الظروف الحرجة والصعبة تتطلب من المرء نظراً ثاقباً وقلباً صبوراً لمراقبة التحولات والتقلبات التي تحدث في داخله، فكل واحد فينا

يتصور أنّه لم يتغير فيه أي شيء منذ عشرات السنين، وأنّ الذي يحدث هو مجرد تقدّم في العمر وضخامة في البدن، وقليل هم الذين يلاحظون التغييرات النفسية التي تحدث في داخلهم، فهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدل على أنّ التحولات النفسيّة تقع بشكل هاديء وبطيء ومن دون ضوضاء، وعليه فإنّ المرء عند ذلك سيكون بحاجة إلى مراقبة مشددة لنفسه حتى يتمكن من ملاحقة التغييرات التي تحدث في داخله.

والمراقبة تكون لثلاثة أشياء:

أ ـ الاعتقادات:

فهي المثال الذهني لشخصيتنا، وإليها يرجع القلب في إصدار أحكامه وتصريحاته وأفعاله، وإنّ حدوث التغيير فيها كفيل بإحداث انقلاب في شخصية الإنسان، وتترسخ هذه الاعتقادات في الجانب الأعمق من العقل وهو (القلب) والمرء يتصرف بإزائها تصرفاً لا شعورياً، وتنشأ هذه الإعتقادات نتيجة تآلف أفكار راسخة في الذهن تتأبد لدى الإنسان عن طريق العلم والتجربة، وتكون هذه الاعتقادات على رأس كلّ الأفكار الثانويّة، ومن خلالها يصدر المرء أحكامه عليها، لذلك فإنّ الناس لا يؤمنون بسرعة بأية فكرةٍ تمر أمام أذهانهم أو لمجرد سماعهم لها، فهم سيضعونها أمام محكمة اعتقاداتهم الراسخة فإن وافقت تلك الاعتقادات قبلتها عقولهم وإلا فستضرب عرض الحائط، إلاّ إذا كانت الأفكار الجديدة بالقوة التي تستطيع معها إزالة الاعتقادات الراسخة السابقة وهذا نادر الحدوث، لأنّ الاعتقاد الراسخ لا يبطله إلاّ اعتقاد راسخ مثله، والفكرة المجردة لا ترقى إلى مثل هذا المستوى، ومن هذا الباب فإنّ الانقلاب الذي يحدث في اعتقادات الشخص يستتبعه تغيير في نمط شخصيته، ولأجل اهتمامنا بموضوع مراقبة التغييرات

الطارئة على شخصية الإنسان وتقلبات أحواله النفسية، ينبغي أنَ نركز على هذا القسم بالذات لأهميته ولكونه يمثل رأساً لكل التحوّلات الأخرى، وينبغي أنَ نعرف أيضاً أنَ الاعتقادات على نوعين:

أ ـ ذات منشأ عقلي.

ب ـ منشأها الوهم والظن.

ومن المفيد جداً أنَ نميز نوعية الاعتقادات الراسخة في قلوبنا. هل هي من النوع العلمي الأول أم من النوع الوهمي الثاني؟ ومن الصعب جداً التمييز بين الصنفين ليس بعجز العلم عن الفصل بينهما بل بسبب وجود توهم لدى الأشخاص، بأنَ جميع اعتقاداتهم ذات منشأ علمي وعقلي، ويبقى الدليل العلمي هو الحد الفاصل الذي يضع الإنسان أمام الحقيقة الناصعة التي لا مفرّ منها. ومن هنا تأتي أهمية المراقبة النفسية للكشف عن السير التصاعدي والتنازلي للإعتقادات الراسخة في قلب الإنسان.

ب ـ المنطوقات:

مراقبة الإنسان لكلامه ستدله على حقيقة قلبه، فإذا تعذر عليه كشف الإعتقادات في عقله الباطن، فإنّه يستطيع أنَ يعرف ذلك عن طريق ما يأتي على لسانه من آراء وأفكار، وكذلك سيعرف درجة صفاء قلبه وخلوه من الأحقاد والأضغان، لأنَ اللسان هو آلة القلب ومن يريد أنَ يرى ما في قلبه عليه أنَ يراقب ما يجري على لسانه، والأفكار التي يؤمن بها الإنسان قد لا تكون يقينية إلى حدٍ كافي وغير واضحة بالنسبة لسائر الأشخاص، كمن يؤمن بفكرةٍ بسبب كثرة ترددها على مسمعه من قبل محدثيه ولكنه عندما يبوح بها ستكون سمة شخصيته، وعلى أساس هذه السمة يصدر الناس أحكامهم على الفرد، ويوصينا علم النفس الإسلامي بعدم الإكثار من الكلام لأنه سيحملنا

تبعاته، وأول تأثيرات ذلك ما يقع على قلب الإنسان نفسه، فالكلمة التي ينطقها المرء ومنشأها الوهم والظن ترهق الذاكرة بكثير من الخزعبلات التي ذات تأثيرات مباشرة على شخصية الإنسان، وبدل الثرثرة في الكلام يوصينا علم النفس الإسلامي بالاستزادة من التفكير قبل التفوه بكلمة، لأنَّ الإنسان مسؤول عما ينطق به، فمن الكلام ما أودي بحياة صاحبه، وكم من الكلمات التي زرعت الحقد والكراهية وفجّرت النزاع والاختلاف بين أفراد العائلة الواحدة، فاللسان مسؤول أمام المجتمع وأمام المبادئ وأمام الحياة. وكلّ شيء ينطق به الإنسان يُسجّل نقطةً لصالحه أو ضده، لأنَّ كل كلمةٍ منطوقةٍ ستترك أثراً إيجابياً أو سلبياً في هذا الوجود، وكلّ شيء مؤثر في الوجود فيه روح وحياة، والكلمة التي تمارس دور البناء في الحياة ليس من العدل أنّ توضع بنفس الميزان التي توضع فيه الكلمة ذات الدور الهدّام وشتان بين عمليتي الهدم والبناء، لهذا كان لزاماً على المرء أنّ يراقب ما يتفوّه به لكي لا يخرج من فمه ما يكون سبباً للهدم، انظر مثلاً كيف سيستفيد الزوج أو الزوجة من تمتعهما بهذه الخصلة خاصة إذا عرفنا أنّ أكثر المشاجرات التي تحدث بين الزوجين هي نتيجة التفوه بكلمات في حالة الغضب خارجة عن سيطرة الإنسان وقديماً قيل: (لسانك حصانك، إنّ صنته صانك، وإن هنته هانك).

ج ـ السلوك:

لكي يصلح المرء نفسه، عليه أنّ يبدأ أولاً باعتقاداته ثمّ بلسانه وثالثاً بسلوكه والمراقبة المشددة من جانب العقل على النفس وقوّاها هو الذي سيعين الإنسان على سد نواقصه، فإذا كان الهدف هو أنّ يعيش الإنسان في حياة هادئة وهانئة، فإن الطريق لذلك لايكون بإطلاق العنان للأهواء والشهوات وإنّما عن طريق ضبط السلوك بموازين قيميّة ثابتة تكفل للفرد وللآخرين

جميع حقوقهم في ظل حياة سعيدة، لأنَ سعادة الآخرين ولا سيما المقربين منهم هي مرتبطة بشكل أو بآخر بسعادتك، فإذا كانت تصرفاتك تبعث على الأمل والتفاؤل فستشعر أنَ الجو الذي حولك سيتصف بذلك، ومن المؤكد أنَ ينعكس سلوكك على الاخرين. فلو تصورنا حياةً حرةً للإنسان يفعل ما يحلو له من دون ضابطة أو قيمة من المؤكد أنَ الفوضى ستسود العالم، لأنَ كل واحد من هؤلاء البشر سيتعدى على حقوق الآخرين من أجل تحقيق أنانيته.

وللسلوك تأثير غير مباشر على قلب الإنسان وعلى أفكاره، واعتقاداته الراسخة، فهو يُثبّت تلك الاعتقادات ويمنحها توهجاً اكثر من ذي قبل، فالإنسان الذي يقدم على ارتكاب جريمة السرقة مندفعاً باعتقاد زائف هو أنَ كلَ الناس سُرَاق وأنهم غصبوا حقه في الحياة، فإنَ ارتكابه للجريمة سيثبّت لديه هذا الاعتقاد ويقويه، وكذلك بالنسبة إلى مرتكب الخطيئة فهو يبرر خطيئته بأمرٍ ما، وعندما يقدم على العمل يكون تبريره أكثر وضوحاً وثباتاً أمام قلبه.

ثالثاً: المحاسبة النفسيّة

كل إنسان مسؤول أمام عقله وأمام الآخرين وأمام الحياة، ولكل حي في هذا الوجود له حقٍ عليك، حتّى الماء والتراب والهواء لهم حقٌ عليك، فمن الأول: تروي عطشك، ومن الثاني: طعامك، (إذا النبات ينمو في التراب) ومن الثالث: تتنفس فلهم عليك حق الحياة. لذلك فأنت مضيٌ بالمحافظة على سلامة المياه والتربة والهواء من التلوث، لأنَ سلامة بدنك من سلامتها، فمثلما تعتني ببدنك ينبغي أنَ تعتني بها وتحافظ عليها، وهناك أشياء أخرى هي أيضاً ذات حقٍ عليك بالرعاية والصيانة وهما روحك وعقلك، وهو أنَ

تصونهما من المساوئ والأخطاء، لأنّ كل خطأ يرتكبه الإنسان يكتب على صفحةٍ من قلبه فيغلق منفذاً من منافذ نور العقل، فإذا أصلح المرء نفسه أضاء العقل مرةً أخرى الأرجاء المغمورة من المعرفة بنوره الوهّاج، ولكي يبقى العقل هكذا متوهجاً بالنور والمعرفة يتوجب على الإنسان أنّ يحافظ على قلبه سليماً من أية أخطاء أو كتابة سوء. ولدينا في القرآن الكريم: ﴿... *إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ*﴾[1] والقلب السليم لا يحصل اعتباطاً بل هو نتيجة لمجاهدات نفسيّة أحد مراتبها هو أنّ يقوم الإنسان بمحاسبة نفسه على ميلانها نحو الهوى ويعاقبها على ارتكابها للأفعال السيئة، لأنّ الاسترسال مع الخطأ يتحول إلى عادة ومن اعتاد على سيئةٍ زال قبحها في نفسه، حتى تتدرج به إلى أنّ يراها حسنةً وليست قبيحة، وهذه مرحلة متقدمة من الحجاب الذي يضرب على العقل فيمنع من الرؤية السليمة، بينما من يحاسب نفسه على الخطيئة يُبقي على قبحها في نفسه، وهو بذلك يفتح الطريق سالكاً كي يرى العقل بشكل جيد حقيقة ذلك الفعل، حتى تتهيأ الفرصة للإرادة للتعبير عن نفسها وتمنع تكرار الفعل السيء، فالمحاسبة النفسية هي عملية يقوم بها الإنسان لخدمة عقله بالدرجة الأولى. وللمزيد من التوضيح نقول: أنّ هناك صراعٌ دائميٌ بين العقل والهوى على تفسير الحسن والقبح بالنسبة للفعل، فإذا عزم المرء على القيام بفعلٍ حسنٍ بضغطٍ من العقل، قال الهوى: بأنّ هذا الفعل سيء لأنّه يضرّ بالمصلحة والأنا مثلما ينوي أحدهم على فكِ شجارٍ وقع بين اثنين خاطبه الهوى وقال له: لا تفعل فقد يصيبك ضررٌ من ذلك، وبالعكس إذا نوى المرء على القيام بفعلٍ سيء بضغطٍ من الهوى خاطبه العقل وقال له: بأنّ هذا فعلٌ مشين ونحن هنا قد بسطنا المسألة إلى حدٍ كبير، وفي الواقع هي معقدة

---

(١) سورة الشعراء: ٨٩.

ومتشابكة وتجري العملية كلها خلال ثواني معدودة والناس فيها منقسمين: فمنهم من يؤيد العقل برأيه ومنهم من يؤيد الهوى وهنا يقع الإلتباس والتوهم، فمن ينقاد للهوى يتوهم وقوفه على جادة العقل لأنّه لا أحد في هذا العالم يعترف بمخالفة العقل والمنطق بتصرفاته.

وهنا يأتي دور القيم والمبادئ التي نؤمن بها، فهي في الواقع بمثابة الميزان الذي نشخص بها الحسن والقبح من الأفعال، وعلى أساس هذه الموازين يمكن أنّ نحاسب أنفسنا ونعاقبها على ما تجترحه من أخطاء، ونحن بمحاسبتنا الذاتية لا نقدم خدمةً لتلك الموازين والقيم الساميّة بقدر ما نقدم مثل هذه الخدمة لعقلنا الذي لا شك ستحجب عنه الرؤية بالاسترسال مع الأخطاء الذهنية والكلامية والفعلية.

رابعاً: التربية النفسيّة

المراحل الثلاث الأولى التي ذكرناها مُسبقاً تصبُ في خدمة الهدف الأساسي ألا وهو (تزكية النفس) وإصلاحها، فمعرفة المرء بنفسه تساعده على تكوين نظرةٍ عامة عن أحوالها، والمراقبة لها تعينه على تشخيص نقطة الضعف في شخصيته، ومحاسبتها تجعله يشعر بالندم، ومن خلال المرحلة الأخيرة وهي تربيته لنفسه سيوقف مسلسل الضعف في شخصيته ويصقل الإرادة في داخله حتى يتمكن من تنمية الصفات الحسنة في داخله، فالتربية النفسية إذن. هي تشبه عملية البناء من حيث النتائج والصعوبات في نفس الوقت، فلا بد أولاً أنّ تتوفر لدى الفرد المؤهلات الكافية التي تعينه على بناء شخصيته وفق الموازين الثابتة والقيم السامية التي تحدد الإطار العام لسلوكه الحسن، والمُلفت أنّ البناء الوحيد الذي يقيمه الإنسان بمحض إرادته ومن دون تدخل الآخرين

هو بناء شخصيته، فقد يحصل المرء على مساعدة فكرية أو معنوية من شخصٍ خبير، إلاّ أنّ الإنسان هو بذاته الذي يضع أول لبنة في هذا البناء العظيم، فكم من البشر الذين تربوا في أحضان العظماء ولكنهم لم يتقبسوا شيئاً من عظمة مُربيهم، لأنّ التحول في عملية البناء قد ينقلب في أحيان من عملية البناء إلى الهدم، فالأحمق مثلاً هو في سيرٍ نزولي تجاه بناء شخصيته لأنّه يريد أنّ يفعل حسناً لنفسه فيسيء إليها بجهله.

المهم أنّ التحولات جارية على شخصية الإنسان إما نحو الأعلى أو باتجاه الأسفل، فإذا كان المرء مُريداً لهذه التحولات وهي منسجمة مع قيمه ومبادئه فمن المؤكد أنّها تصبُ في عملية البناء، أما لو كانت من خارج السلطة الشعورية للإنسان فإنها ستكون هدّامة، ومن الضروري هنا معرفة الضابط الذي نقيس به تلك التحولات الجارية على شخصيتنا، هل هي تحولات مستقيمة أو غير مستقيمة؟ فكل عاقل ينبغي أنّ يعرف هذا الطريق الذي يسلكه يوصله إلى هدفه أم لا؟. فمن الناس من يعرف الهدف وفي زحمة الطريق يسلك طريقاً آخراً وينشغل عن هدفه الرئيسي، ومن الناس من كان مشغولاً بأهدافٍ صغيرة ثمّ يتوجه إلى هدفٍ كبير ويختار بموجبه الطريق الذي يوصله إلى ذلك الهدف، والمراد من هذا الكلام كله هو القول بأنّ (لكل هدفٍ طريق) فإذا عرفنا الهدف فإنّه سيوضح لنا الطريق الذي يتعين علينا سلوكه، ولا يجوز لنا بعد ذلك أنّ نسلك طريقاً آخراً لأنّه سيبعدنا عن هدفنا الأساسي، وكذلك الحال لمن يريد أنّ يبني شخصيته على أسس قويمة، فإنّه يتعين عليه أنّ ينظر إلى هدفه الأعلى ثمّ يسلك الطريق الذي يوصله لذلك الهدف، والمعرفة بالهدف تعين الإنسان على تشخيص هل هو على السكة الصحيحة أم لا؟.

وللمثال على ذلك نقول: بأنَ الإسلام حدد لنا هدفاً راقياً ينبغي أنَ نصل إليه وهو تحقيق الشخصية النموذجية أي (الشخصية الإيمانية) ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف علينا أنَ نسلك طريقاً واحداً لا غير هو (طريق الله) والصفات التي يُفترض أنَ نتحلى بها هي أيضاً واضحة ومعروفة مثل التواضع، والتعاون، والتآخي، والكرم، والشجاعة، والصبر. وقد وضع الإسلام الحنيف حداً لكل واحدة من هذه الصفات، فلو تجاوز الشخص هذا الحد سيعتبر ذلك خروجاً عن إطار الشخصية الإيمانية، فالعقيدة هنا وضعت أمام الإنسان تصوراً عن الشخصية النموذجيّة وبيّنت له في نفس الوقت الطريق الذي يوصله لهذا الهدف، ومن اليسير بعد ذلك اكتشاف وعلاج أي انحراف عن السكة الصحيحة. والسؤال الآن هو: ماذا يفعل المرء إذا اكتشف أي انحراف في سلوكه عن الوجهة التي حددتها له عقيدته؟.

إنَ اكتشاف المرء لمستوى معين من الانحراف في سلوكه هو بحد ذاته يساعده على العودة إلى السكّة الصحيحة بمقدار درجة الإنحراف التي كان عليها، ويدعو الإسلام هنا كمرحلةٍ أولى إلى صيانة الفرد لنفسه وحماية عقله من الأمراض والصفات السيئة، ويحثه أيضاً على تقوية إرادته وشحذ همته لسحق كافة (الفيروسات) النفسية التي تتغلغل إلى العقل وتربك جهاز التفكير فيه، فهناك علاقة متعاكسة بين القوة التي يتمتع بها العقل وبين قوة (الفيروسات) النفسية والشهوية، فإذا كانت قوة العقل تعادل ما نسبته ٨٠٪ فإن قوة الفيروسات النفسية ستكون بنسبة ٢٠٪ ونحن نحاول من خلال عملية الإصلاح النفسي أنَ نرفع من مستوى قوة العقل والحزم إلى أعلى نسبة ممكنة، وذلك حتى لا ندع مجالاً لتلك المكروبات النفسية بالتأثير على شخصية الفرد وعلى مستوى تفكيره. ويعتمد نظام التربية النفسية على قاعدتين:

القاعدة الأولى: العلم

وهو النور الذي يخترق العقل به عالم المجهولات، وبه يتمكن من مواجهة المتغيرات والمتوقعات والظروف الصعبة، فللعلم دور أساسي في بناء شخصية الإنسان وتقويمها على أساس منطقي.

القاعدة الثانية: التزكية

فالعلم وحده لا يكفي لبناء شخصية متعادلة، بل العلم إلى جانب التزكية بإمكانهما خلق الشخصية المثالية التي يطمح إليها كلّ إنسان، لأنّ العلم هنا يأخذ دور التوجيه بالنسبة لعقل الإنسان، بينما التزكية تُنقي قلبه من الصفات السيئة، والعلم أيضاً سلاح يكون مدمراً إذا سقط بأيدي أشخاص نفوسهم خبيثة.

وهناك أمورٌ تساعد الإنسان على إصلاح نفسه منها:

١ ـ القناعة:

ودورها تخفيف الضغط من جانب الهوى على العقل والروح، فالقنوع قد عالج مشكلته النفسية من الجذور لذلك سيكون أكثر اطمئناناً وراحة من ذلك الذي لا يقنع بالقليل، والمفارقة أنّ الأول اكتفى نفسياً وليس مادياً بالذي يملكه، فهو لا يهلك نفسه لأجل الحصول على الرفاهية الماديّة لأنه أقنع نفسه بالكفاية، أما الآخر فهو لم يقتنع بالإكتفاء لذلك فهو يعمل ليل نهار لكي يحقق ذلك الإكتفاء ولن يصل إليه، لأنّ النفس لا تشبع حتى مع الكثير، وهكذا تكبر طموحات الإنسان تكبر وتكبر من دون توقف، لأنّه يعيش في دوامة الحاجة، وهو باستمرار يعيش في وضعٍ قلق لأنّ طموحاته لم تتحقق.

بينما الإنسان القنوع فهو كما ذكرنا قد عالج مشكلته الماديّة من الناحية المركزية، من ناحية الجهاز القيادي والإداري في شخصيته، فهو لا يقول أنَ الإمكانات المالية والماديّة هي التي تحل مشكلته أو هي التي توفر له حياة راقية ومرفهة، ولكنه يؤمن بأنَ الامكانات التي لديه وهي على بساطتها تكفيه لتضاء يوم آخر من هذه الحياة، وبالطبع مستحيل أنَ يؤمن إنسان عابد للشهوات بمثل هذه الفكرة التي تعني القناعة، لأنَ هدف هذا الإنسان هو تحقيق اللذة فكيف يمكنه أنَ يقنع بالنزر القليل منها؟.

والإنسان بطبعه الإنساني لا يميل نحو هذه الفكرة، فكل إنسان يسعى في الحياة إلى تحقيق الراحة والرفاهية لنفسه وأنَ يقتنص ما أمكن من اللذات والأهواء من دونها لا يمكن أنَ تتحقق السعادة، فمن أين جاءت فكرة القناعة؟.

في البداية لابدَ أنَ نعرف حقيقة جوهرية وهي أنَه ليس كل فقير قنوع، فكثير من الفقراء يعيشون حياة البذخ والإسراف على الرغم من امكاناتهم الضئيلة، مثل ذلك الفقير الذي يتكاسل عن العمل، أو ذلك العامل الذي يقصد أرقى مطعم في البلد، ويدفع مرتبه الأسبوعي دفعة واحدة ويعيش باقي أيامه في وضع ضنك، فهؤلاء ليسوا من أهل القناعة وإن كانوا فقراء.

وفكرة القناعة هي مقتبسة من العقائد الدينية، فقد جاء حث مباشر من جانب العقيدة الإسلامية بضرورة الصبر مع العدم، وجاءنا تحذير آخر من جانب الدين من مغبة الإفراط في اللذات والشهوات، لأنها ستكون مصدر عزاء الإنسان وعذاباته النفسية، لأنَ الشهوات والرغبات تقف دائماً أمام سمو الإنسان وتعاليه في شتّى المجالات العلميّة والروحيّة.

٢ ـ لا تحطّم نفسك من أجل الدنيا:

إنَ الصدام الـذي يحدث بين الناس على توفير الموارد والإمكانات له عواقب وخيمة على شخصية الإنسان، لأنّه ينميّ لديه صفات سيئة تقلب حياته إلى جحيم، تصور إنك ستأخذ انطباعاً سوداوياً عن الناس من حولك هؤلاء الذين يتنافسون معك للحصول على تلك الموارد، ستتخيلهم وكأنهم ذئاب يريدون أنَ ينهشوا لحمك ويشربوا من دمك!! كيف ستكون علاقتك معهم؟ على أقل التقادير أنها ستكون باردة إذا لم نقل أنها ستكون علاقة شبه صرامية، فلو تمكنا من نزع الكوامن الداخليّة المؤدية لمثل حالة الصدام هذه، فإننا سنكون قد نجحنا في نزع فتيل حربٍ تقع بين الأفراد يومياً ونرى آثار دمارها في الشارع وفي المقهى وفي السوق وفي كلّ مكان، وهي لا زالت حرباً مستعرةً بين الأفراد والجماعات على ملذات الدنيا.

والدين الإسلامي عندما يدعو أفراده المؤمنين إلى عدم التعلق بالدنيا، فإنّه في الواقع يحاول أنَ ينزع من قلوبهم الكوامن الداخلية المؤدية لإنحراف السلوك، فالدين هنا يعالج من الجذور مشكلة الإنسان مع نفسه ومشكلته مع المجتمع، وفي المقابل نجده يحث الإنسان أيضاً على الإيثار والتعاون ومساعدة الآخرين، فبعد ما قلع الدين من قلب هذا الإنسان بذور الصدام والحرب زرع مكانها حب الناس والتضحية في سبيلهم وإعانتهم على فعل الخيرات، والإحسان للسيء فما عدا تأثير مثل هذه القيم العظيمة على تقوية أواصر الأمة الواحدة، فإنها في الواقع تساعد الإنسان على بناء شخصيته على أحسن وجه ممكن، وإذا أردنا أنَ نعرف كيف، فلنفكر قليلاً بحياة وسلوك شخصين أحدهما مبغضٌ للناس جميعاً والآخر محباً لهم ومن أيهما ستنتفع الحياة؟.

٣ ـ الإستعانة بالله:

دائماً ما يكون المرء بحاجةٍ إلى دعم معنوي تنشط من خلاله إرادته على تحقيق الأهداف الكُبرى ومواجهة الظروف الصعبة التي تزخر بها الحياة، والإحباطات ولحظات الفشل التي تضرب صميم الإنسان وتقوّض بواعث الحياة والإستمرار لديه، هنا يكون الإنسان بحاجة إلى من يتكلم معه وينصحه بضرورة التحدي والإستمرار وعدم الاستسلام للظروف والمشاكل التي يواجهها، إنّ المرء عندما يستمع إلى مثل هذا الكلام وهو في حالة إحباط شديدة، فإنّه سيستعيد ولو شيئاً قليلاً من معنوياته التي فقدها عند صراعه مع المشاكل والصعاب، لا سيما إذا كان الناصح هو محل ثقةٍ واطمئنان من قبل المرء فإنّ تأثير كلامه سيكون مضاعفاً، فكيف سيكون هذا التأثير إذا شعر المرء أنّ هذا النداء يأتي على لسان ربّه من السماء؟.

بالطبع ما من أحد في هذه الدنيا إلاّ ويتكلم مع ربّه في وقتٍ من الأوقات مسلماً كان أو مسيحياً أو يهودياً أو غير ذلك، فهو عندما يقرء القرآن الكريم أو التوراة أو الإنجيل فإنّه يريد أنّ يستمع إلى كلام الرب وإلى أوامره ونصائحه، وعلاوة على القوة التي تزخر بها كلمات الكتاب المقدس، فإنّ المرء عند تلاوته لآيات الرحمن سيستعيد قسماً من القوة التي فقدها في مجابهته لظروف الحياة الصعبة، وسيتجدد الاستعداد لديه لمواصلة مسيرة الجهاد في الحياة والتغلب على كل المعوقات التي في الطريق، لأنّ تلك الآيات تبعث الأمل في قلب الإنسان وتشحذ إرادته. وليس القرآن وحده الذي يحقق مثل هذا الإنجاز وإنّما الدعاء وطلب العون من الله سبحانه هو أيضاً يمنح الإنسان الثقة بنفسه، وأنه قادر على اجتياز هذه الصعاب والعثرات. هذا

علاوة على ما نؤمن به بأنّ المولى عزّ وجلّ يتدخل أيضاً لصالح العبد عندما يطلب العون منه لنجاته.

وكلّما فصّلنا في الحديث عن موضوع الإصلاح النفسي نجد أنفسنا مضطرين للإشارة إلى مصير من لا يسعى في صلاح نفسه وتربيتها ويهملها ويجعلها نهباً للأهواء والشهوات، فمن لا يصلح نفسه فقد:

١ ـ أضاعها:

لقد وصف الإمام علي ﷺ في أحد أحاديثه النفس «بأنّها جوهرة ثمينة من صانها رفعها ومن ابتذلها وضعها»[1]، ولكنّ الذي لا يعرف قدرها ولا ثمنها كيف سيعطيها منزلتها؟ فهو قد يبيعها بثمن بخس! أو أنه قد يتلفها أو يرميها مع القاذورات؛ لأنّ الذي لا يعرف قدر نفسه لا يعرف أيضاً كيف يحافظ على هذه المنزلة، لذلك لا فرق لديه أنّ يرفعها مع منزلة العظماء أو يضعها موضع الأشقياء، والفارق بين المنزلتين هو مثل الفرق بين موقفين أحدهما شجاع ونبيل والآخر جبان وذليل فليس بمقدرو الجبان أنّ يتخذ موقفاً شجاعاً لأنّه لا يعرف قدر نفسه، ولا أنّ يتخذ الشجاع موقفاً جباناً لأنّه يعرف قدر نفسه ومنزلتها فهو لا يهينها بالتصاغر والجبن، وإذا استولت إحدى الصفات السيئة على قلب المرء فإنها ستجره إلى أرذل الأعمال وتهدر عزته وتهين كرامته، لأنّه على طول خط حياته سيشعر أمامها بالضعف والنقص، فإصلاح النفس هنا يساعد الإنسان على إصلاح نقطة الضعف في داخله وتحويلها إلى عنصر قوة، أو أنه بتعبير آخر (ملَك نفسه).

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/٢٢١/ح١١٨.

وفي حديث للإمام علي عليه السلام يقول فيه: «من أصلح نفسه ملكها»[١] وأيضاً عنه عليه السلام: «من لم يسس نفسه أضاعها»[٢] وأيضاً عنه عليه السلام: «من أهمل نفسه أفسد أمره»[٣].

٢ ـ أهلكها:

كمن يسير في طريق وهو لا يعلم نهايته الهلكة، هذا هو حال من أهمل نفسه وعجز عن إصلاحها فهي تقوده إلى طريقٍ معوّج تصدمه العثرات وتكسره الصدمات، ويتلقى الضربات من كل جهة دون معرفة منه، أنّ نفسه التي بين جنبه هي المصدر لكلّ هذه الآلام والصدمات، فهي التي أوردته هذه المهالك وهي التي دفعته لاجتراح هذه المسالك. وهو قد خضع إليها من دون تفكير أو روية كمن سلّم قيادة نفسه لمجنون لا يعقل ولا يدرك فدفعه إلى الهاوية. وقد جاء في الحديث الشريف ما يؤكد ذلك، حيث قال عليه السلام: «من أصلح نفسه ملكها»[٤]، و «من أهمل نفسه أهلكها»[٥].

٣ ـ أرهقته:

فإذا عجزت عن إصلاح نفسك، أرهقتك في مطالبها ورغباتها وشهواتها لأنّها (قليلة الشبع) فإذا بنيت لها طلباً أمرتك بآخر حتى لا تعطيك فرصةً للتفكير في مصيرك وحالك، وما يمكن أنّ تفعله لتغيير نمط حياتك لأنها

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم : ٢ / ١٥٥ / ح١٣٩.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم : ٢ / ١٧٨ / ٥٤٨.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم : ٢ / ١٩٨ / ح٩٠١.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم : ٢ / ١٥٥ / ح١٣٩.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم : ٢ / ١٥٥ / ح١٤٠.

تقتحمك في دوامة الإرباك والقلق والشرود الذهني عندما ستشعر أنّ هناك باباً واحداً مفتوحاً أمامك فإذا أغلق فكأنما أطبقت الدنيا في وجهك نور الأمل، فهي تُشغلك في المشاكل والأزمات حتى لا يتسنى لك التفكير في ترتيب وضعك.

وقد جاء في الحديث الشريف «من سامح نفسه فيما يحب أتعبته فيما يكره»[١].

٤ ـ غلبة الهوى:

إن من لا يسعى في صلاح نفسه أتاح الفرصة لهواه كي يتغلب على عقله وإرادته، لأنّ العجز أمام فساد النفس يصب في خانة قوة الهوى المسيطر والفارض لشروطه على الإنسان، وكلما كبر العجز ازداد الهوى قوة فوق قوته وانحسرت في مقابل ذلك قوة الإرادة.

وفي الحديث الشريف: «من لم يتعاهد النقص من نفسه غلب عليه الهوى، ومن كان في نقص فالموت خيرٌ له»[٢].

٥ ـ ظلمها:

فمن أهمل نفسه فقد ظلمها، وهذا هو أول الظلم الموصوف في القرآن الكريم وهو أنّ يظلم الإنسان نفسه، وهو ظلم يتضاعف بالتدريج ويكبر في النفس حتى يقود الإنسان إلى ظلم الآخرين والتعدي على حقوقهم، فمن حق النفس على الإنسان أنّ يصونها ويحفظها ويزكيها ومن لم يفعل ذلك فقد قصّر في حق نفسه، ومن لا يستوفي حق نفسه كي يُعطي حقوق الآخرين؟

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم :٢ / ٢١٣ / ح١١٢٨.

(٢) بحار الأنوار: ٦٧ / ٦٤ .

وقد بين الإمام علي عليه السلام ذلك بقوله: «لا تُرخَّصوا لأنفسكم فتذهب بكم الرّخص مذاهب الظَّلمة، ولا تداهنوا فيهجم بكم الإدهان على المعصية»[1].

٦ ـ فساد الدين:

يضفي الدين حالة من التوازن النفسي على شخصية الإنسان من خلال ما يشرعه من أحكام غايتها الأولى منفعة الإنسان، فهي تعينه على تحكيم سيطرته على أهوائه وشهواته، ونحن قد بينا من ذي قبل النتائج المهلكة لسيطرة الهوى على مقدرات الإنسان، ونأتي هنا للتأكيد بأنَّ الدين هو الذي يضع المكابح أمام تلك الأهواء من أجل الإرتقاء بالحياة الفردية والاجتماعية لهذا الإنسان. وفي البداية يرفع الدين من قدر الإنسان وينزهه عن القيام ببعض السلوكيات التي بها هلاكه، فهو مثلاً يحرِّم عليه شرب الخمر والغاية واضحة هي المحافظة على سلامة العقل، فما من حكم في الدين إلا وله أثر في بناء شخصية الإنسان وتقويم حياته الاجتماعية.

لذلك فإنَّ الإنسان المؤمن عادةً ما يكون متميزاً على الرغم من موارده الضعيفة، وذلك لأنّه يقتبس قوته من الدين، فمفاهيم الدين هي لمنفعة الإنسان بالدرجة الأولى وغايتها هي إيصال الإنسان إلى أعلى درجة من التكامل والسمو، ومن يفشل في عملية إصلاح نفسه ويعجز عن سد منافذ تغلغل الهوى إلى ذاته، فإنّه سيخلق تناقضاً بين الاعتقادات الراسخة في قلبه أو (مفاهيم الدين) وبين سلوكياته المخالفة لهذه الاعتقادات والمفاهيم. ولن يخلوا هذا التناقض من أثرٍ على شخصية الإنسان وما يسفر عنه من خلل في حالتي التوازن والإستقرار التي كان يتمتع بهما في وقت سابق.

---

(١) نهج البلاغة : خطبة ٨٦ / ١١٧.

فقد نُقل عن الإمام علي ﷺ أنّه قال: «لا تُرخّص نفسك في مطاوعة الهوى وإيثار لذّات الدنيا، فتفسد دينك ولا يصلح، وتخسر نفسك ولا تربح»[1].

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩ / ح٢٤٨.

الفصل الثاني

النفس في التصوّر الإسلامي والتصوّرات البشريّة

النفس في التصوّر الإسلامي

إذا أردنا إعادة كل مخلوق من جنس مادي إلى عناصره الأوليّة، فإننا نكون بحاجة إلى تقنيات عالية وأجهزة متطورة لإكتشاف تلك العناصر، ولكننا سنكون بحاجةٍ إلى تقنيات أكثر تطوراً، إذا كان ذلك المخلوق من جنسٍ أرقى من المادة، وعندما يعجز العلم عن اكتشاف مجاهيل هذا البدن المادي فإنّه أعجز عن اكتشاف مخلوقٍ من جنس أرقى مثل الروح، وهذا العجز لا يبرر إنكار وجود هذا المخلوق لأنّ هناك دلائل منطقية أخرى غير المجهر والمختبر تدلّنا على وجوده، فإننا لا نستطيع من خلال المجهر أو غيره اكتشاف وجود الله أو الروح ولكن هناك شواهد عقليّة تؤكد وجودهما، كأثر الروح في البدن وأثر الله سبحانه وتعالى في خلقه، وعدم مشاهدتنا لله وللروح لا يبرر إنكارنا لهما لأنّ القصور هو في أبصارنا وفي حواسنا الأخرى، والروح التي هي من عالم الغيب لا يمكن اخضاعها للمجهر أو للمختبر، من أجل حل لغز وجودها، فتلك الأجهزة قد تنفع مع الوجودات الماديّة ولكنها ستكون عاجزة أمام الوجودات الروحانيّة.

ولا يحق لرواد المدرسة التجريبية أو الحسيّة أن يحتكروا العلم لأنفسهم ويكفرون بكل الموجودات فقط لأن مجهرهم لم يكتشفها، فهناك منطقة واسعة في داخل بدن الإنسان المادي مازالت مجهولة إذ لم يكتشفها المجهر ولا أي جهاز متطور آخر، فقبل مدة قليلة، اكتشفوا وجود شبكة عصبية في المعدة يشبه عملها عمل المخ. إنّ عدم اكتشاف مثل هذا الجهاز الحساس في المعدة يؤدي إلى الإلتباس بالنسبة إلى إطلاق الأحكام المتعلقة بأمراض المعدة أو بطبيعة عملها، وقد يؤدي ذلك الإلتباس والأخطاء التي تكون مسببة إلى وفاة

الكثير من النّاس. ولا زالت مناطق كبيرة من الدماغ البشري مجهولة على أكبر العلماء ومخفية عن أغلب أرقى الأجهزة الحديثة، من هنا نصل إلى أن الأجهزة الحديثة قاصرة عن الوصول إلى كافة الحقائق المتعلقة بالإنسان والكون.

وعلى الرغم مما يملكه العلم الحديث من أجهزة متقدمة، فإنه لا زال الأطباء والعلماء يخطأون في أحكامهم تجاه كثير من المسائل، ويخطأون في تشخيص المرض أيضاً، ويبدأ العلم الحديث يصحح الكثير من الاعتقادات لدى أصحاب المدرسة التجريبية، ويبدأ النفسانيون يُخطأ أحدهم الآخر ويأتي بدلائل تدحض آراء ومعتقدات رواد هذه المدرسة أو تلك ممن كانوا يعتبرون أفكارهم هي العلم بعينه، فأصبحت اليوم خرافه يتناقلوها طلبة العلوم على أساس أنّها جزء من تاريخ علم النفس.

وإنّ تناقض واختلاف علماء النفس فيما بينهم وابطال مكتشفات العلم الحديث للعديد من أفكارهم وآرائهم، لهي الشاهد على أن المنهج الذي يسار عليه أولئك والذين يعدونه هو الطريق العلمي الفريد الذي يمكن من خلاله إثبات صحة الأفكار والمعتقدات، إنّه غير كافي للتوصل إلى الحقائق العلمية، وحينما يعترف هذا المنهج بعجزه عن كشف حقيقة الروح، فإنّه لا يمكن أن نعتبره هو المنهج الأوحد للتوصل إلى الحقائق الكليّة وذلك بسبب قصوره.

وعلى هذا فلا يجوز لمن يطلقون على أنفسهم بعلماء النفس الحديث أن يقمعوا الأفكار والآراء المخالفة لتوجهاتهم وآرائهم على أساس أنّها غير علميّة، بينما أفكارهم يتم تعديلها وتصحيحها باستمرار من قبل المكتشفات العلمية الحديثة، فهم يكفرون بآراء الدين حول النفس لأنّها لم تخضع لطريقتهم في البحث العلمي أو أنها لم تمر تحت المجهر، والحال أن أفكار السماء كانت مصدر إلهام ومعرفة على مرّ العصور والأجيال، وإنّ إنكار

هؤلاء للمبادئ المقدسة التي جاءت بها الرسالات السماوية لا يستدعي بالضرورة انكارهم لعلميتها. فقد أثبتت المكتشفات العلمية جدوى العديد من التصورات الدينية بشأن النفس البشرية، فمن اختبارات أجرتها أرقى الجامعات الأمريكية على المرضى في المستشفيات تبين أنّ الذين يتمتعون بالإيمان ويبتهلون إلى الله بالدعاء للشفاء من المرض، لديهم استعداد أكبر للشفاء من الذين لا يمارسون الدعاء ويجحدون بربهم. ونحن نعرف تماماً في ديننا الإسلامي أنّ للدعاء تأثيرات روحيّة على الإنسان وبما له من قدرة إيحائية وتغييرية على الصعيد الروحي، فبعد آلاف السنين من وصية الرسول ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام لنا بممارسة الدعاء يكتشف العلم الحديث اليوم صوابية هذا الرأي بما يحتوي من تأثير على النفس البشريّة، وهو ما يكشف بطلان وخرافية آراء ومعتقدات بعض المحققين في علم النفس.

ولنقرأ ما كتبه الدكتور (فاخر عاقل) وهو يصف حالة أولئك المترددين والمشككين في النفس فهو يقول: «بالرغم من احتفاظ هذا العلم باسم (علم النفس) فإنّ العلماء لا يعتبرون أنفسهم مهتمين بدراسة شيء منفصل عن الجسد، وحتى لو كانت النفس موجودة فعلاً (ويقصد الروح) فإنّ عدم رؤيتهم إياها يبعدها عن ميدان البحث العلمي، وذلك لأنّ العلماء يعجزون عن بحث أي شيء لا يقع تحت حسّهم أو لا يمكن أن يؤتى به إلى ميدان الحس بواسطة اللغة أو بعض الآلات كالمجهر أو كالفانومتر أو آلة التصوير أو غيرها...» [١] وبعد هذا التشكيك بحقيقة الروح كيف يمكننا أن نثق بقدرة الوسائل والطرق التي أوردها الكاتب للوصول إلى أم الحقائق وإلى جوهر الموضوع الذي نحن بصدده؟ فكيف يمكننا إذن أن نكتفي بالوسائط التي ذكرها هؤلاء النفسانيون للوصول إلى الحقائق العلمية؟ فهم عندما يعترفون

---

(١) مدارس علم النفس: ٢٠٤.

بعجز وسائلهم عن الوصول إلى الحقيقة الكبرى وهي الروح، فكيف لنا أن نتبع نفس الأسلوب؟ وبالطبع نحن نحترم كلّ ما توصل إليه العلم الحديث من نتائج في مضمار العلوم الإنسانية وغيرها، وفي نفس الوقت لا ننكر أهمية إستخدام المجهر والأجهزة الأخرى للتوصل إلى الحقائق العلميّة إلاّ أننا نقر في الوقت نفسه أنّ هذه الآلات لا تكفي بمفردها لتكشف لنا الغموض في هذا العالم، ومعظم البشرية تؤمن بوجود الله على الرغم من إنه لا يمكن الاستدلال بالمجهر أو آلة التصوير عليه.

والدين الإسلامي هو دين العقل ويحترم العلم ويقدّر العلماء، ويدعو أتباعه المؤمنين إلى طلبه وإن كان في الصين لا سيما المعارف المتعلقة بالنفس، واعتبر هذا النوع من المعرفة هو الأساس لكافة المعارف الأخرى، من هذا الباب يستطيع الإنسان أن يبني لنفسه بيتاً من السعادة، أو بيتاً للشقاء إذا جهل حقيقة نفسه، فما ينفع الإنسان علم الرياضيات أو الفلك أو.. إذا كان قلبه تعيساً محملاً بالأمراض والعقد النفسية التي هي أكثر إيلاماً ووجعاً من الأمراض الجسدية، فالإنسان قد يصبر على أوجاع البدن ولكنه قد ينتحر نتيجة للأمراض النفسية التي تجلب له التعاسة والشقاء، فلو تصوّرنا إنساناً فقير الحال غني النفس وإنساناً آخراً غني المال فقير النفس من الذي سيكون بينهما أكثر سعادة الأوّل أم الثاني؟.

إنّ الذي يجيب على هذا السؤال هو الحديث الشريف التالي: «القناعة مال لا ينفد»[1] فإذا عرفنا معنى القناعة أنّها غنى النفس ندرك أنّ الإنسان الفقير ذو النفسية الغنية يملك كنزاً كبيراً، إلاّ أنه لديه مشكلة واحدة هي قلة ماله، أما الثاني فهو يحوز على حسنةٍ واحدة وهي كثرة ماله إلاّ إنه في المقابل لديه مشكلة كبيرة بل هي أم المشاكل وهي نفسه المريضة، فالثري الذي يتصف

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة ٥٥٩/٤٧٥.

بالبخل أمواله لا تسعدهُ بل ستكون وبالاً عليه لأنّها ستخرّب علاقاته مع المحيطين به، ففي الوقت الذي يستطيع فيه الفقير ذو النفسية الغنية أن يحل مشكلته عن طريق القناعة بينما يستطيع الثري أن يحل مشكلة أمراضه النفسية عن طريق المال، وليس المراد من هذا الكلام هو الإساءة إلى الأثرياء ووصمهم بالأمراض النفسيّة لأن الثراء ليس جرماً يرتكبه الإنسان، وإنّما غايتنا من سرد المثال هو تبيان قيمة المعرفة النفسية ودورها في إتزان الشخصية، وعجز المال عن حل المعضلات المتعلقة بصميم الحياة البشرية، فالذي يعرف نفسه يستطيع أن يميز بين صفاته الإيجابية وصفاته السلبية، وهذه هي الخطوة الأولى نحو تكريس الإيجابيات وقمع السلبيات، بينما الذي لا يعرف نفسه سيسقط في متاهة الإفراط والتفريط، وتهجم عليه المشاكل والأزمات دون أن يتمكن من علاجها أو التخفيف من حدّتها، وأوّل ما ينبغي أن نعرفه عن أنفسنا بأنها تمثل جوهر الحركة في هذا العالم الكبير، فهي الأصل لكل تحولٍ وتغير يحدث في هذه الحياة، وذلك أنّ الله سبحانه وتعالى عندما استخلف الإنسان على الأرض سخّر له كل ما فيها وما يحيطها من شمس ساطعة وقمر منير وكواكب سابحة وحيوانات سائمة وبحارٍ واسعة وأمطار غزيرة، لذلك فإنّ أية حركةٍ تنشئ من النفس لها أثر في الحياة. وقد فصلنا الحديث مسبقاً في هذا الشأن إلاّ أنّ ما يهمنا الآن هو أن النفس التي لها مثل هذه المنزلة ومثل هذا الدّور في الحياة. ألا تستحق منا أن نكرس لها الوقت الكافي من أجل التعمق في شؤونها، ونستغل كافة القدرات الخفيّة التي لديها حتى نرفعها إلى منزلتها الحقيقية التي منحها الله إياها؟.

لقد قرن الله عزّ وجلّ معرفته بمعرفة النفس بما لها من مقام ومنزلة. فقد جاء في الحديث الشريف المروي عن الرسول ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف

ربّه»[١] ومما يُفهم من هذا الحديث الشريف أنّ من لا يعرف نفسه لا يعرف ربّه، فما سر هذه العلاقة؟ وما فلسفة هذا الارتباط؟.

السر يكمن في القرب ﴿ ***ونحن أقرب إليه من حبل الوريد...*** ﴾[٢] فلا أقرب من الله إلى الإنسان شيئاً فهو الذي ينفعنا، وهو الذي يضرّنا، وهو الذي يرزقنا، وهو الذي يمنعنا، وهو الذي يحيينا ويميتنا، فمن عرف نفسه بالعجز ﴿ ***قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً إلّا ما شاء الله*** ﴾[٣] يعرف ربّه بالقدرة والاستطاعة، ومن عرف نفسه بالجهل ﴿ ***تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنّك أنت علّام الغيوب*** ﴾[٤] عرف ربّه بالعلم والحكمة، ومن عرف نفسه بالضلالة ﴿ ***من يَهد الله فهو المهتدي ومن يُضلِل فلن تجد له وليّاً مرشداً*** ﴾[٥] يعرف ربّه بالهداية، ومن يعرف نفسه مخلوقاً ﴿ ***قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب*** ﴾[٦] عرف أنّه له خالقاً، ومن عرف نفسه مذنباً ﴿ ***قال ربّ إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له...*** ﴾[٧] عرف ربّه تواباً، ومن عرف نفسه بخيلاً ﴿ ***ومن يبخل فإنّما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء*** ﴾[٨] عرف ربّه كريماً... وهكذا ترى أنّ هذه العلاقة الصميمية بين النفس وربّها أصبحت محور الحياة في الدنيا والآخرة. لذلك فإنّ أية معرفة بالمخلوق تستوجب بنفس المقدار معرفة الخالق لعمق الإتصال والإرتباط بينهما.

---

(١) عوالي اللآلي: ٤ / ١٠٢.

(٢) سورة ق : ١٦ .

(٣) سورة الأعراف: ١٨٨.

(٤) سورة المائدة: ١١٦.

(٥) سورة الكهف: ١٧.

(٦) سورة الكهف: ٣٧.

(٧) سورة القصص: ١٦.

(٨) سورة محمد: ٣٨.

فمن يريد التحقيق في مجال النفس لا يجوز له أن يكتفي بدراسة السلوك فقط بل ينبغي عليه أيضاً أن يبحث عن النصف الثاني المختفي من المعرفة، وهو المتعلق بتأثير النظام الكونيّ على النفس البشرية، ولتوضيح ذلك نقول: بأنّ النفس مخلوقة في إطار نظام كوني دقيق، وأنّ أفراد هذا النظام ينفعل ويتأثر أحدهما بالآخر، وباعتبار أن النفس هي من أفراد هذه المنظومة ومتأثرة بها، فإنّه لا يجوز الفصل بينهما. إذن ينبغي علينا اكتشاف منظومة القوانين التي شرّعها الباري عزّ وجلّ لتنظيم الحياة الدنيا، لأنّ هذه المنظومة تعمل كقوانين المرور التي تنظم السير، وجهل الناس بهذه القوانين يؤدي إلى الاصطدامات وإلى حوادث فجيعة، وكما نلاحظ ذلك فيما يحدث بين بني البشر على الكرة الأرضية من حروب ونزاعات لا مبرر لها، وتفشي الأمراض والأوبئة، واتساع ظاهرة الجفاف والمجاعة ـ هذه الأمور وغيرها تحدث بسبب جهل الإنسان بمنظومة القوانين التي تحكم الحياة الدنيا.

في البداية لا بد أن نعرف أنفسنا، ومن هذه المعرفة سننطلق لإكتشاف العالم، فمن لا يعرف نفسه لا يعرف كيف يطوّرها وينميّها، والأمّة التي لا تعرف نفسها لا تتقدم! انظروا إلى الأمم التي لديها عقدة الشعور بالنقص والضعف، فإنّها تتشبه بالأمّة المتقدمة عسى ولعلّ أن يلحقها شيء من تقدم تلك الأمّة (مثلما تتشبه الدول المستعمَرة بالدول المستعمِرة) وتقلدها في موضة اللباس والشعر غافلة من أن لكلّ أمة مرض ولكل نفس علاج، فلا تعالج أمة بدواء أمّة أخرى ولا تتعافى نفس بعلاج نفس أخرى، ومن لا يعرف نفسه أنّها مريضة كيف يبحث لها عن علاج؟ ومن لا يعرف نفسه أنّها جوهرة ثمينة كيف لا يهملها في الطرّقات؟ ومن لا يعرف نفسه عزيزة كيف لا يهينها بالتفاهات؟ ومن لا يعرف نفسه طاهرة نقيّة كيف لا يلوثها بالذنوب والخطايا؟ ومن لا يعرف قدر نفسه كيف سيعرف قدر الناس؟.

التصوّر البشري حول النفس

لقد اتسعت دائرة الإختلاف بين مدارس علم النفس بخصوص البحوث النفسيّة إلى درجة الإصطدام والتشكيك بمفاهيم ومكشفات بعضها الأخرى، فمن ناحيّة نجد أنّ معظم المدارس الحديثة في علم النفس والتي يمكن أن نطلق عليها بالتجريبية ترفض كلّ ما توصل إليه الفلاسفة السابقون، والآراء التي أدلوا بها بشأن النفس على أساس أنّها لم تخضع للتجربة العلميّة على الرغم من أن جميع المدارس الحديثة تنطلق في متبنياتها من الأسس الفكريّة التي رسخّها الفلاسفة الماضون.

المدرسة الوظيفيّة

فالمدرسة الوظيفية تتبنى ثلاثة طرق للإستنتاج العلمي، إحداها مقتبس من فكرة الفلاسفة الأقدمين وأمّا الطرق الثلاث فهي:

أولاً: الطريقة الفيزيولوجيّة

وهي التي تتبع حركات البدن وتخلص إلى استنتاجات معرفيّة بهذا الشأن، فلكي نعرف الجواب لسؤال كيف ينبغي دراسة وظيفة عضلات العين وتركيبها، وكذلك التركيب الكيماوي للعين وأثره في العملية البصرية؟ وإذا تساءلنا عن كيفية استجابتنا للمؤثر؟ فالمدرسة الوظيفية تجيب أنه من اللازم التعرف على مراكز الحس والأعصاب الحسيّة بنوعيها المعروفين بالجوابذ والنوابذ. وهي الأعصاب التي تنقل الأثر إلى الدماغ بسرعة تعادل ٢٠٠ قدم في

الثانية، وإذا أُثير سؤال آخر حول كيف يغضب الإنسان؛ فإن المدرسة الوظيفية ستدعونا لمعرفة ذلك عن طريق التعرّف على الغدد الصم وعلى هرموناتها وعلى الوظائف الحشوية والدور الذي تلعبه في الإنفعالات، وكذلك على فاعلية الكظرين، ولكن الإشكال الكبير الذي تتوقف عنده المدرسة الوظيفيّة والمشكلة العويصة التي لا تستطيع لها حلاً هي: أنّ كلّ الفاعليات التي ذكرناها والتي تجري في البدن كلها تنتهي عند الدماغ، وهنا النقطة الحساسة التي تعجز المدرسة الوظيفية عن حلّها، فهي لا تستطيع أن تجيب عن سؤال هام ومصيري ماذا يحدث في الدماغ وكيف يتسلم الدماغ الصور التي ترسلها إليه شبكية العين؟ وكيف يحلّلها ويحفظها؟ وكذا الحال بالنسبة إلى باقي العمليات العصبية التي ترد إلى الدماغ؟ وقد يتبادر إلى الذهن أنّ الطريقة التي تتبعها المدرسة الوظيفية وكأنّها تجري بالمقلوب، فبدل أن تبتدأ عملية البحث من الدماغ الذي هو مركز إتخاذ القرار ومركز الإحساسات والشعور نجدها مقلوبة لدى المدرسة الوظيفية، فهي تنطلق من المؤثرات والأعضاء الحسيّة، وعندما تصل إلى الدماغ تتوقف حتى يتراءى للقارئ أنّ العملية البصرية تقوم بها العين فقط وليس العقل، وبالطبع إنّ المدرسة الوظيفية وأغلب المدارس التجريبية في علم النفس تنفي وجود شيء إسمه (العقل).

ويعترف الوظيفيون بأن الطريقة الفيزيولوجية لا تكشف كما يراء معرفته من عمليات الإدراك والتعلم والتفكير، وذلك بسبب القصور في فهم الدماغ وطريقة عمله.

ثانياً: الطريقة الإستبطانيّة

وهي التي يعتمد فيها الوظيفيون على دراسة التأمّل الباطني وتحليل الذات، وذلك في سبيل تقييم أفعال الإنسان النابعة من النفس. ويوردون المثل التالي لتوضيح الصورة: إذا كنت مع صديق على مدخل مدينة في سيارة، وقد

وقف الصديق عند مفترق الطرق، فكر قليلاً ثم أخذ الطريق الذي إلى يمينه وسألته عن السبب، فقال: إنه قدّر أن الطريق الموجود أمامه يقود إلى مركز المدينة، وأنّ المواصلات ستكون مزدحمة إذا سلك هذا الطريق، وأنّ الطريق الموجود إلى اليمين يوصله إلى هدفه من ممرات جانبية، وبذلك يوفر في الوقت والجهد. وهكذا فإن صديقك قد أعطاك صورة استباطنية كما جرى في نفسه، ولكن المشكلة هنا أنه لا يمكن الاعتماد كليّاً على ما يُدلي به الأفراد من آراء بهذا الشأن، وذلك لأن القرارات التي يتخذها المرء ليست علمية ومنطقيّة بشكل دائم، فقد يكون هدف ذلك الصديق من تحويل وجهته إلى الطريق الآخر هي رغبة في نفسه القيام بنزهة في حديقة عامة، ولهذا فإنّ بقية مدارس علم النفس كالسلوكيّة تشكك بعلمية هذه الطريقة بسبب مسحتها الشخصيّة، وتقول: بأن علم النفس ينبغي أن يكون موضوعياً لا أثر للشخصية فيه، والمعروف أنّ الطريقة الإستبطانية هي واحدة من الطرق الأساسية التي كان يعتمدها الفلاسفة القدماء التي تتبدء منهم المدارس الحديثة وتعتبر نتاجاتهم غير علمية.

ثالثاً: طريقة الشروط المتنوّعة

وهي عملية إخضاع الفرد للظروف المتنوعة والمتغيرة لمعرفة تصرفاته إزاءها، وهي طريقة عامة للعلوم التجريبية وقد تمّ تكييفها لتتلاءم مع علم النفس أيضاً.

المدرسة البنائيّة

وجاءت المدرسة البنائية لتعلن أنّ المدرسة الوظيفية تنقصها أساليب إضافية للبحث باعتبار أنه لا يمكن دراسة وظيفة أي عضو في الجسم دراسة متعمقة من دون معرفة بناء العضو نفسه. وادّعت المدرسة الجديدة أنّها هي التي تقدم الأساس العلمي، وإذا استمرّ الحال مع المدرسة الوظيفية، فإن علم النفس سيبقى متأملاً، ويقول (فونت): وهو أحد رواد هذه المدرسة «على علم النفس أن يبحث ما نسميه بالخبرة الداخلية وأعني بها إحساسنا الخاص ومشاعرنا الخاصّة، وذلك تمييزاً لها عن الخبرة الخارجيّة التي تكوّن موضوع العلوم الطبيعية» ولكن عندما لاحظ أن الخبرة الشعورية لها أصل خارجي أيضاً استبدل كلمة الخبرة الداخلية بالمباشرة، وذلك لأننا نستشعر الأشياء الخارجية عنا كما نستشعر أفكارنا وعواطفنا الداخلية، وحسب تحليل (فونت) فقد كانت عناصر الخبرة الشعوريّة مؤلفة من صفتين أساسيتين:

أ ـ الإحساسات.

ب ـ المشاعر.

ولم تكن تستطيع المدرسة البنائية من النهوض بأفكارها من دون مساعدة العلوم الأخرى، كعلم الفيزيولوجيا الذي أوضح الكثير مما كان خافياً مثل معرفة الألوان والطعوم والإحساسات الجلديّة، وفي مرحلة التجريب تأكدت الحاجة لفهم الخبرة الشعورية لتقصي المعلومات المتعلقة بالإحساسات الجسدية، فالإنفعال مثلاً هو خبرة مؤلفة من مشاعر وإحساسات جسدية، وهو يعرف الإرادة: بأنّها نمط زمني معين من الإنفعال يتّصف بتغيير شعوري قاطع في زمن التصميم، بينما المشهور هو أن الإرادة تصميم يتّصف بتغيير شعوري

قاطع في زمنٍ معين وليس إنفعالاً، كما يقول (فونت) لكن من المؤكد أن فونت لن يأخذ بالتعريف الثاني، لأنّه لو أخذ بذلك سيثور أمامه سؤال كبير هو من هو المصمم؟ وسيعجز عن الإجابة لأنّه لن يجد أمامه جواباً غير العقل وهي الكلمة التي لا يريد أن يبوح بها.

المدرسة الربطيّة

وظهرت للوجود أيضاً المدرسة الربطية التي صبّت اهتمامها في قضايا التعلم وبدأت عملها بإثارة الأسئلة حول: كيف نتعلم؟ وكيف نعتاد على عادة حسنة أو قبيحة؟ وكيف نتعرف على وجهٍ ما؟.

وكيف تتطبع المشاهد في ذاكرتنا؟ وكيف نستطيع أن نتقن عملاً ونؤديه بمهارة؟ واستفادت هذه المدرسة في مبدئها الأساسي على مقولات فيلسوف كبير هو (أرسطو) الذي ألمح إلى وجود رابطة عميقة بين المعلومات التي نتذكرها على أساس التشابه أو التضاد أو صلة الإقتران، وهو هنا في مقام توضيح وشرح عملية التذكر، لكن المدرسة الربطية استفادت من هذه الفكرة لإعطاء تفسير لكيفية التعلم ، وتساءلت الربطية من أين تأتي الأفكار التي تستعمل في التفكير؟ وأجابوا عن ذلك بأنها تأتي من الخبرة الحسية الماضية بواسطة ربط الإحساسات التي حصلت معاً في قتال مباشر بعضها ببعض. وحدد (هوبس) وهو أحد المنظرين لهذه الفكرة العملية برمتها تحت تسمية الحركة، وقال: بوجود عمليتين في إطارها هي الإحساس والاستدعاء، وأكد ذلك بالقول: إنّ الشيء الخارجي يؤثر في الحواس من خلال ما نسميه اليوم بالمؤثر الضوئي، أو الصوتي، أو الكيماوي، أو غير ذلك. وحركة المؤثر تنتقل إلى العضوية عبر عضو حسي، وحينما يتوقف المؤثر فإنّ الحركة الداخلية لا

توقف بل تستمر ولكنها تتلاشى رويداً رويداً، وأنّ الحركة الأصلية هي الإحساس، والحركة المتبقية هي الصورة المختلفة عن ذلك، لكن (هوبس) لم يبين أنّ الصورة المتخلفة أين تذهب، هل تتمركز في مكان معين أم إنها تتلاشى؟ فإذا كان الجواب هو أنها تبقى ثابتة ومتمركزة فألا يكون المكان الطبيعي لها هو الدماغ؟ وإذا كان الجواب بأنها تتلاشى وتنعدم من الشعور فكيف إذن تعود طبق الأصل إلى مخيلة الإنسان مع الإقتران بالمؤثر او من دونه؟ وتلى (هوبس) في المدرسة الربطية (جون لوك) الإنجليزي الآخر الذي أتى بنظرية الترابط المعي، وقال: إنّ كلّ الأفكار البسيطة مشتقة من الخبرة وغالباً من الخبرة الحسيّة الصادرة جزئياً عن العالم الخارجي وكذلك عن عملياتنا العقلية ذاتها، ونحن قادرون على أن نوقف بين الأفكار البسيطة التي تشكل العناصر وتؤلف منها أفكاراً مركبة لا حد لتنوعها، وساهم رجال آخرين في تدعيم الربطية ومنهم جورج بركلي وكذلك هيوم وبراون، ولكن أتى من بعدهم رجال مثل (الكسندر بين) وهو بريطاني أيضاً شككوا بالأفكار الرئيسية التي تعتمد عليها الربطية وذلك من جانب علمي، وقد أوضح ألكسندر بين تصوراته في عدة نقاط:

١ ـ إنّ الخطوة الأولى في بناء المعرفة من الخبرة الحسيّة ليست الإقتران بل التمييز، تمييز عنصر من المجموعة، ذلك بأنّ هذا العنصر إذا لم يتميز لا يمكن أن يتراكب مع غيره من العناصر.

٢ ـ الإرتباطات لا تتكون بالإقتران وحده بل بإدراك الشبه والإختلاف، وكذلك إدراك السبب والنتيجة والفائدة وغير ذلك من الصلات أيضاً.

٣ ـ ليس كل شيء مشتق من الخبرة، وذلك باعتبار أن الطفل يملك بعض الارتكاسات المحددة ورصيداً كبيراً من الحركات العضوية التي تكون المادة الخام للسلوك الحركي.

ودخلت الربطية حياةً جديدة مع (ابنغها ولسن) الذي كتب تقريراً عن أعماله الخاصّة بالتذكر وحاول على عكس الربطيين القدامى أن يبدأ من الأسباب المعروفة والشروط المحدودة مع ملاحظة النتائج في عملية التذكر، بينما كان الربطيون القُدامى يبدأون من النتائج للكشف عن الأسباب، وبشكلٍ عام، فإنّ المدرسة الربطيّة دخلت كل هذه المعمة لتقول لنا: أنّه لا وجود لشيء اسمه (ذاكرة) وإنّما هناك عملية تذكر تجري على أساس الإحساس والإستدعاء، وأن الأفكار والصور التي نتذكرها هي غير موجودة في مكان يسمّى الذاكرة، وإنّما هي تُستدعى عن طريق الإقتران بمؤثرات خارجية تنتقل عبر الحس، وقد دحضت المكتشفات العلمية الحديثة هذا الرأي وأثبتت وجود الذاكرة في الدماغ، ولنا أن نشير فقط إلى حالة من يفقدون الذاكرة كدليل على بطلان تلك الإدعاءات، فإنّ من يفقد الذاكرة ينسى جميع الصور التي كانت في ذهنه حتى إنّه في أحيان لا يتعرف على أقرب المقربين إليه ولكنّ عقله يبقى سالماً، ويعمل بشكل طبيعي فإذا كانت فكرة الربطية سليمة حول التعلم بأنّه نتيجة الربط بين الإحساس والاستدعاء فلماذا يعجز من يفقد الذاكرة عن استدعاء الصور والمشاهات الماضية؟ ولماذا بقي عقل الرجل سليماً مع أنهم يقولون بأن الإحساس والاستدعاء هما ينبوعا الأفكار والإحساسات والخبرة الشعورية؟.

المدرسة السلوكيّة

وظهرت إلى الحياة بعد ذلك المدرسة السلوكية على يد (واطسون) والذي نسف بآرائه ومعتقداته كلّ متبنيات المدارس التي سبقته، وقال: إنّ كل ما قام به فونت وغيره من التجريبين في جهدهم لجعل السيكولوجيا علماً لا

يعدو في كونه استبدال كلمة (روح) التي كـانت مستعملة في الفلسفة الوسيطة بكلمة (شعور) وهم في هذا استبدلوا كلمة مجردة بأخرى مجـردة أيضـاً، وكانت الثورة تعتمل في صدر واطسون ضد النظام القائم في علم النفس، ولقد حدد واطسون آراءه وأفكاره في الكتاب الـذي نشره عـام ١٩١٤ تحت عنوان (السلوك مدخل إلى علم النفس المقارن) إذ يقول فيه: «علم النفس كما يراه السلوكي، فرع موضوعي وتجريبي محض من فروع العلوم الطبيعية، هدفه النظري التنبؤ عن السلوك وضبطه، وليس الاستبطان قسماً هاماً من طرائقه، كما أن القيمة العلمية للمعلومات التي يحصل عليها ليست متوقفة على إمكان تفسيرها بالشعور، ويبدو أن الوقت قد حان ليتخلص علـم النفس من كلّ إشارة إلى الشعور ومن ملاحظة الحالات النفسيّة. إنّ من الممكن كتابة علـم النفس دون الإشارة إلى الشعور والحالات النفسـية والنفـس وفحـوى الخبرة والإرادة والتصوّر وما إلى ذلك. إنّ من الممكن كتابته ضمن حدود (المثير والإستجابة، وتكوين العادات). وإن القصد الرئيسي من كلّ هذا العمل هو التعرف الدقيق على تكيف الإنسان والمؤثرات، وسبب ذلك هو معرفة الطرائق العامة والخاصّة لضبط الشعور، مع إنه بادئ الأمر ندد بكملة الشعور واعتبرها مجـردة، وقال بالنص: (يبدو أن الوقت قد حان ليتخلص علم النفس من كلّ إشارة إلى الشعور) فيعود في نفس الفقرة وينقض نفسه ويتكئ مرّة أخرى على مصطلح الشعور، وحتى بالنسبة للمصير والإستجابة التي أخذ بهما واطسون فإنهما حصيلة جهود المدارس السابقة.

وفي جانب آخر نجد أن المدرسة السلوكيّة أخذت بنظرية شخصٍ لا ينتمي إليها ولا يعترف بمفاهيمها ولا يعتبر نفسه من الباحثين في الشؤون النفسـية. لأن

اختصاصه بالأساس هو في مجال الفيزيولوجيا وهو (بافلوف) ونظريته المعروفة (الإرتكاس الإشراطي). وكان بافلوف (١٨٤٩ - ١٩٣٦) روسي المولد وابناً لقسيس، وكان على مشارف دراسة اللاهوت لكنه اهتمامه العلمي لم يلبث أن نقله إلى دراسة الطبّ والاهتمام بالفيزيولوجيا بصورة خاصة، وكان يشرف على إدارة مختبر فيزيولوجي في معهد الطب التجريبي في بطرسبورغ، وقد خصّص الإثني عشر عاماً الأولى من حياته في المختبر لدراسة الغدد الهضمية وأعصابها وإرتكاساتها، وفي عام ١٩٠٢ لاحظ (بالصدفة) تغييراً في سلوك الكلب الذي كان يجرب عليه، وفي إطار تلك التجارب جمع بافلوف لعاب ذلك الكلب من غدده اللعابيّة، وكان يقدم للكلب طعامه يستثير سيلان لعابه، فلاحظ أن اللعاب بدأ بالسيلان عند الكلب المجرب عليه سابقاً قبل وضع الطعام في فمّه، لقد كان السيلان يبدأ عند رؤيته الوعاء المحتوي على الطعام أو عند اقتراب المساعد الذي يجلب الطعام أو حتى عند سماع الكلب خفق نعلي المساعد في الغرفة المجاورة، وفي بداية عمله سأل بافلوف زملاءه عن المفاهيم التي يستعملونها في وصف نتائجه، فاقترحوا ما يلي: (الرغبة - التوقع - خيبة الأمل). لكنه أبى استخدام مثل هذه التعابير العلمية وفضّل استخدام تعبيرات أكثر غموضاً، فأطلق على تجربته والنظرية المستخلصة منها (الإرتكاس الإشراطي) والمُضحك أن بافلوف هو ألد أعداء المدارس النفسيّة، وكان يقول دائماً في آخر محاضراته «وختاماً علينا أن نؤمن بأن فيزيولوجيا أرفع قسم من الجملة العصبية للحيوانات المتقدمة لا يمكن أن تدرس بنجاح إلاّ إذا تخلينا كلية عن إدعاءات علم النفس الباطلة» واستخلص من تجاربه السابقة أن مفتاح فهم السلوك في يد علم الفيزيولوجيا وليس علم النفس.

وعلى الرغم من معاداته للنفسانيين إلاّ أنّ واطسون والسلوكيين من خلفه تلقفوا النظرية التي ابتدعها (بافلوف) وقد تكون هذه هي النظريّة الأكثر

جدارة لأنها في الواقع تلبيَ رغبات واطسون بإعلان الحرب ضد جميع مدارس علم النفس التي سبقته، وسلاحه الذي يعتمد عليه في حربه هي نظرية بافلوف، ومن المدهش أن واطسون الأمريكي لم يقتبس نظرية بافلوف إلاَ بشكل متدرج، فهو في عام ١٩١٤م أشار إلى طرائق بافلوف قائلاً: أنَها مفيدة في التجريب على الحيوان ولكن مستواها دون مستوى تلك الطرق الأخرى. وفي عام ١٩١٩م أحلها مكاناً عظيماً في قائمة طرائقه السيكولوجية لدراسة الإنسان والحيوان على حد سواء، وفي سنة ١٩٢٤ قال: بأنَ الإرتكاس الإشراطي هو مفتاح تكوين العادات كلَها، وذلك بالرغم من عدم قناعته التَامة بهذا القول وفيما بعد تبنى أتباع واطسون النظريَة إلى أقصى حد، واعتبروا الإرتكاسات الإشراطية هي النظريَة الوحيدة التي تُعطي تفسيراً لكيفية التعلم.

الإرتباك الذي يظهر من علاجات واطسون الفكريَة نجده أيضاً في معالجته لمسألة الذاكرة، فهو عندما يريد التحدث عن التذكر يقول: «السلوكي لا يستعمل كلمة (ذاكرة) مطلقاً، وذلك باعتقاده بأنَه لا محل لها في سيكولوجيا موضوعية» وهو يأتي في مناسبة ثانية ويستعمل الكلمة أثناء حديث علمي حول المهارات والحقائق، ثم ينتهي الأمر به إلى القول بأن «الذاكرة بالمعنى السلوكي هي كل إظهار للتنظيم اليدوي أو اللغوي أو الحشوي الذي يبدو جاهزاً قبل وقت التجربة» وبهذه العجالة يغير واطسون وجهته ويستعمل كلمات قد منع أتباعه من استعمالها.

ونعود هنا إلى نظرية بافلوف لنكتشف بأنَه أدخل عليها تعديلات لكي تبدو أكثر علمية وأكثر فائدة، فنسب للدماغ وظيفتين:

الأولى: وظيفة حسيّة.

الثانيّة: وظيفة حركيّة.

فبالنسبة إلى الوظيفة الحركيّة: فيكون عمل الدماغ فيها منحصراً في الإرتكاسات الإشراطية، وتضيف النظرية بأن كلّ سلوك مكتسب بما في ذلك سلوك الإنسان المعقد لا يخرج عن الإرتكاسات الإشراطية. وهنا نريد أن نسأل بافلوف ونقول له كيف تحولت هذه النظريّة التي كان يعتبرها واطسون رئيس المدرسة السلوكية أنّها تصلح للتجريب على الحيوان فقط وأنها دون مستوى الطرائق الأخرى؟ كيف تحولت بين ليلة وضحاها إلى نظرية لتحليل العمليات العقلية برمتها؟.

إنّ علماء النفس الذين اصطلحوا لهذه النظريّة عناوين مثل الرغبة والتوقع وخيبة الأمل لم يكونوا يتوقعون بأن يصل الحال لأن يجعلوا منها معياراً لتفسير العمليات العقليّة المعقدة، فلو كان بافلوف قد أخذ برأي هؤلاء العلماء وسلّم بمصطلحات التوقع والرغبة لنجح في تقديم فكرة مفيدة وعلمية، ولكنه أغرقها بالمصطلحات الهلامية ،ورفع من مستواها بالمنطاد، وبطريقة اصطناعيّة عندما فسّر من خلالها مجريّات العملية العقليّة، ولم يفلح بتقديم الأدلّة الموضوعية على ذلك، لأن عمليات التوقع والرغبة وخيبة الأمل هي بعض العمليات البسيطة التي يقوم بها العقل والقلب علاوة على عشرات العمليات الأخرى وعلى رأسها التفكير، والعمليات التي ذكرناها وهي التوقع والرغبة وخيبة الأمل من غير المعقول أن يأخذا مكان العقل.

ونجد أيضاً في تعريف واطسون لوظائف الدماغ يقول: بأن كل سلوك مكتسب بما في ذلك سلوك الإنسان المعقد، والمعروف أنهم يقولون كلّ معرفة مكتسبة، ولكنه استبدل كلمة السلوك مكان المعرفة، وذلك في سبيل التغطية

على خللٍ هام ومصيري، وهو متعلق بالصفات الوراثيّة التي تنتقل من الآباء والأجداد إلى الأبناء ومن دون حاجة إلى ارتكاسات اشراطيّة ولا هم يحزنون، والمسألة الوراثية التي تنقض هذه النظرية قد أثبتت صحتها مكتشفات العلم الحديث في قسم الفيزيولوجيا، وفي آخر المطاف نسأل السلوكيين سؤالاً واحداً: فهم الذين يقولون بأن العمليات العقلية هي مجرد وظيفة سلوكية تؤديها أعضاء البدن الحسية، وأن الأفكار والصور هي ناتجة عن عملية اقتران بين هذه الأعضاء الحسيّة والعضلية على أساس المؤثر والإستجابة، وقال بافلوف بهذا الشأن: «أنّ النوم يمنع عملية القرن» فنسأله إذا كانت عملية الاقتران متوقفة بالنسبة للنائم، فكيف يمكن تفسير الرؤيا التي يراها النائم خلال نومه ولا سيما الأحلام الفكرية والمعقدة التي فيها نقاشات منطقيّة ولا أعتقد أنّه لم تصادف أحدنا مثل هذه الأحلام، ولو مرّة في العمر؟ والأعظم من ذلك هو كيف يمكن تفسير إنفعال البدن بمثل هذه الأحلام كالذي يرى نفسه يضاجعُ في الرؤيا امرأة فيصبح مُجنباً، فهو لم يتأثر بمؤثر خارجي وإن احساسهُ غلب سلوكه، وهو ما يدحض ما تقول به السلوكيّة بأنّ المعرفة ناتجة عن حركة عضوية في البدن بطريقة المؤثر والإستجابة.

المدرسة الشكليّة

وقد اهتم روادها بمسألة الشكل أو الهيئة مترجمة عن كلمة (كشتالت) الألمانية التي تعني بالعربيّة (الشكل) فهذه المدرسة تعرف أيضاً بإسم مدرسة الكشتالت. وهي قد برزت إلى الوجود على يد عدّة من الشباب الألماني، وحاولت هذه المدرسة أن تعطي جواباً لأسئلة كانت حائرة لدى الباحثين في علم النفس، حول كيفية درج صفات الشكل في قضايا علم النفس، فقالت

مدرسة الكشتالت: إن التفريق بين العناصر والكل على الشكل الذي كان يجري عليه تفريق خاطئ، وأن الدراسة الحقيقية يجب أن تتبنى البحث في صفات الكليّات وليس في العناصر القديمة، وأن السؤال الحقيقي الذي يستوجب الإجابة عليه هو: ماهي الشروط التي يحدث فيها شكلٌ ما؟ مثلاً مسألة تعبير الوجه عن الإنفعالات، فقد كان علماء النفس الذين سبقوا المدرسة الشكلية كانوا يوجهون عنايتهم في دراستهم لهذا الموضوع إلى كلّ عضو على حدّة وبشكل منفصل متبعين سبيل الطريقة التحليلية، وهكذا درسوا إرتفاع الحاجب وهبوطه، واتساع العينين وإطباقهما، وفتح الشفتين، معتقدين أن كلّ تفصيل من هذه التفصيلات قد يعني حالة عاطفية، فإذا جمعت مع بعضها حصلنا على تعبير عن حالة انفعالية معقدة، أما الكشتالتي فيتناول هذا الموضوع بشكل آخر مبتدئاً بتصور أن الوجه يجب أن يعتبر كلاً مع أخذ الأجزاء بنظر الاعتبار، ولكنه يأخذ بالأجزاء من حيث علاقتها بالكل، لأنّه التعبير الظاهري لجزء ما يمكن أن يتغير في صورةٍ ما إذا تغيرت بقية أجزاء الوجه وبقي هو ثابتاً لم يتغير، وبنفس الإتجاه يرى الكشتالتي بأننا لا نحصل على صورة حقيقية لطبع شخص ما عن طريق تعداد صفات شخصيته وقياسها، ذلك لأنّ مثل هذا التعداد عاجز عن اراءتنا أي هذه الصفات مركزي أساسي في شخصية هذا الفرد وأيها ثانوي لا أهمية كبيرة له، وتعتقد الكشتالتية أيضاً بأن الشخصية ليست مجرد مجموع صفات ولكنها مجموع منتظم ثم أن المجموع المجرد، أو المجموع المحض، مجموع يكون فيه كل جزء مستقلاً عن الأجزاء الأخرى، وهو فقط واحد من العناصر التي تؤلف المجموع، ومثل هذه المجموعات المجردة موجودة في الرياضيات. وتضيف الكشتالتية أنّه في عالم المحسوسات ليس من السهل القول بأن المجموع هو عدد من العناصر الحرّة المستقلة المنفصلة.

ولقد ركّز الشكليون تجاربـهم على عملية الرؤية، وقدّموا في هـذا المجال نظريّة هامّة تتعلـق بـالصورة والخلفية، فـهم يعتبرون أن التفريق بـين الصـورة والخلفية، أساسي تماماً في عمليـة الرؤيـة، فعـادة مـا تكـون الصـورة موحـدة الأجزاء وتبدو ذات شكل وحدود بينما تبدو الخلفية مساحة لا حدود لها، ولذلك فالصورة أقدر على اجتذاب الإنتباه من الخلفيّة. ويعتقد الشكليون أن الصورة والخلفية ليست خاصة بالرؤية ولكنها عامة بالنسبة لكلّ الحواس، فصوت الطبـل أو جعجعة الطاحون صورة خلفيتها مجموع الضجيج الأقل وضوحاً والشيء المتحرك على الجلد صورة خلفيتها مجمـوع الإحساسـات الجلدية.

ويعلق الكشـتاليون أهمية بالغة على مسألة الشكل المغلق وتفوقه على غيره في استرعاه الإنتباه، ويقولون: بأننا إذا رسمنا صـورة وتركنا فيها ثغرة أو بضع ثغـرات، فإننا ميالون إلـى التجاوز عن تلك الثغرات، حيث ننظر إلى الصورة أو على الأقل ميالون إلى اعتبارها غير هامّـة، نعم في بعض الأحيان النـادرة قد يحدث العكس، وقد تحتـل هـذه الثغـرات مركـز الأهميـة إلاّ أن الغالب أن تكون النزعة الطبيعة نحو إغلاق الثغرات. ويفسر الشكليون ذلك بأن العمليات الدماغيّة تسد هذه الثغرات، لأنّ الثغرة توجد حالة من التوتـر في المتوازن أمّا إغلاقها فيعيد التوازن، ويعتقد الشكليون بـأن عمليـة التلقـي في الدماغ ميالة إلى التوازن أو على الأقل إلى حد أدنى من التوتر.

وعلى الرغـم من موافقتنا للشكليين حول وجود نـوع مـن التـوازن في الدماغ إلاّ أننا نتحفظ على المثل الـوارد والـذي يخالف أكثر الأمثال شعبية وصيتاً، وهـو مثـل الأستاذ مع طلابه عندما رسـم نقطةً سوداء على صفحة بيضـاء، وسألهم مـاذا يشـاهدون قـالوا جميعـاً أنهم يشـاهدون نقطـةً سـوداء،

فاعترض عليهم قائلاً: بأنكم تخليتم عن مشاهدة الصفحة البيضاء وتعلقتم بالنقطة السوداء الصغيرة؟ ولكننا مع ذلك نؤمن مع الشكلية بوجود نوع من التوازن في العمليات العقليّة، ولكن للأسف لم تستطع الشكلية أن تُنهي نظريتها بشكل علمي سليم، تُجيبنا عن هذا السؤال:

كيف يتحقق مثل هذا التوازن في الدماغ؟ هل تقوم به أجهزة الأعصاب الحسيّة؟ إذا كان كذلك فالبهائم أيضاً لديها أجهزة استجابة حسيّة، فلماذا ينعدم لديها مثل هذا التوازن العقلي؟.

ويعتمد تفسير الشكليين لقضايا التعلم على نظرية (التبصر)، فهم يعتبرون أن التبصر أساسي في عملية التعلم، وقد أصرّ (كولر) وهو أحد منظري الشكلية على كون الحيوان قادراً منذ البدء على إعمال النظر في مجموع الوضع على أساس أن له قدرة على التبصر تمكنه من حلّ المشكلة دون أن يلجأ لجوءاً أعمى إلى طريقة (المحاولة والخطأ) وذلك حين تكون عناصر الوضع ممكنة الرؤية. وحينئذ يكون السؤال عن قدرة الحيوان على التوفيق بين هذه العناصر، أي قدرة الحيوان على رؤية نمط الوضع وقال (كوفكا) وهو زميل (لكولر): «أن التعلم كله عبارة عن تبصر» ويورد كولر عدّة أمثلة لتوضيح نظريته فهو يقول: إذا وُضع كلبٌ في باحةٍ لا يعرفها من قبل وكان في هذه الباحة حاجز طويل، وإذا وضعنا طعاماً أمام الكلب من الجهة الأخرى للحاجز، وكان الكلب أمام منتصف الحاجز، فإنه كما وجد (كولر) ينتقل حالاً إلى الطرف الثاني من الحاجز ماراً بنهايته ويحصل على الطعام. ويستنتج كولر أن الكلب يستطيع أن يبصر الطريق إلى الطعام مع أن هذا الطريق ليس مباشراً، وقام كولر بمحاولة أخرى على شمبانزي وهو يصف تجربته بقوله: إذا كان الشمبانزي في قفصه ووضعنا موزة على مسافة بعيدة جداً بحيث لا يستطيع الوصول إليها مباشرة، وإنّما يستطيع التوصل إليها عن

طريق جذب خيط مربوط بها، وموضوع على أرض القفص فإن القرد في المعتاد يجذب الخيط حالاً، أمّا إذا كان على أرض القفص عدد من الخيوط متجهة نحو الموزة جميعها ولا يتصل بها إلاّ خيط واحد، فإنّ القرد كثيراً ما يخطئ فيجذب خيطاً غير الذي يتصل بها. فيقول كولر: إنّ الإنسان في مثل هذه الحال لن يجد صعوبة في التعرّف على الخيط الموصول بالهدف حالاً، ويعلل كولر فشل القرد بسبب تعقد الصورة البصرية مما يجعل النمط صعب الإدراك بالنسبة إليه، وإذا طلبنا من كولر أن يجلب حيواناً يكون نظره أقوى من الإنسان وليس لديه تعقد في الصورة البصرية، وفي مقابل ذلك يجلب شخصاً آخراً ذو نظر ضعيف ويعيد نفس هذه التجربة عليهم مرات وكرّات، فهل سيتعلم ذلك الحيوان ذو النظر النافذ من تجربة المحاولة والخطأ أو غيرها أن يتعلم كيف ينتخب ذلك الخيط المتصل بالموزة من دون سائر الخيوط؟ وهل سيفشل ذلك الإنسان العاقل ذو النظر الضعيف عن تمييز الخيط المتصل بالموزة عن سائر الخيوط؟ فالإدراك هنا للعقل وآلة البصر هي مجرد وسيلة لنقل المعلومات إلى العقل لكي يقوم بتحليلها وتفكيكها، ولو شاهد الحيوان ملايين المرات عملية حسابية بسيطة فإنه لا يستطيع أن يجريها ولو لمرةٍ واحدة.

وفي إطار تبنيها للأفكار والأساليب الجديدة هاجمت المدرسة الشكلية نمط التفكير لدى المدارس التجريبية التي سبقتها، فقد ثارت الكشتالتية ضد التحليل واعتباره الطريقة الأساسية لعلم النفس، وقال الكشتالتيون: «أن التحليل في علم النفس، سواء في ذلك تحليل السلوك أو تحليل الخبرة لن يؤدي بنا إلى خير كثير» واعتقدت الكشتالتية أو المدرسة الشكلية أن فكرة الإرتباط من حيث الأصل فكرة خاطئة، وكرهت الشكلية الإرتكاس الإشراطي للمدرسة السلوكية واحتجت بشدّة على مفهومي المؤثر والإستجابة لديها، وهي ترفض أيضاً تحليل السلوك إلى وحدات من المؤثر والاستجابة، وهي

تحتج على فكرة الرابط بين المؤثر والإستجابة سواء أكان مردّ الرابط إلى الطبيعة أو الإكتساب، كما أنها تنتقد فكرة (وسبنسر) التي تبناها الكثير من السلوكيين تلك الفكرة التي تقول: بأن الغريزة ليست إلاّ سلسلة من الأفعال المنعكسة (الإرتكاسات).

ودحضت المدرسة الشكلية وبالتجربة العملية ما ذهب إليه (ثورندايك) وقوانينه بالنسبة للمحاولة والخطأ، وهي من النظريات الرئيسية التي يعتمد الكثير من علماء النفس عليها وهذه التجربة هي: لندرب حيواناً على إيجاد طعامه في علبة من علبتين مدهونتين باللون الرمادي ولكنّ لون أحداهما أدكن من لون الأخرى، ولنرمز إلى العلبتين الموضوعتين أمامه بالرمز (آ) للعلبة ذات اللون الفاتح و(ب) لذات اللون الداكن، وبعد أن نعلّم الحيوان الذهاب إلى العلبة (ب) للحصول على طعامه، نرفع العلبة (آ) ونستبدلها بالعلبة (جـ) المدهونة بلون رمادي أدكن من لون (ب) فهل يحتفظ الحيوان بالرابط الذي كان أنشأه فيذهب إلى العلبة (ب) في طلب طعامه؟. الواقع أنّه سيذهب إلى العلبة (جـ) أي أنه يذهب إلى العلبة الأدكن، وذلك لأنّه تعلم أن يستجيب إلى الوضع العام وضع (القاتم ـ الداكن)، فإذن هو لم يتعلم الإستجابة إلى لون رمادي خاص به بل هو تعلّم الإستجابة إلى وضعٍ عام، وذلك بالذهاب إلى الأدكن، ويخلص الشكليون من هذه التجربة إنّ القول بخطأ نظرية ثورندايك وقوانينه.

مدرسة التحليل النفسي

وهي مدرسة تخرجت من الطب العصبي ورمت بنفسها في أحضان المدارس النفسية، وذلك بعد اكتشاف هام في هذا المجال إذ فهم الأطباء على أساسه أن هناك أشخاصاً مصابين بأمراض عصبية دون أن تكون ناجمة عن آفات دماغية، وهو ما شجع بعضهم وعلى رأسهم فرويد للتحول من دراسة الأعصاب إلى دراسة الحياة النفسية للأشخاص حتى يجد مبررات المرض. وفي هذا الاتجاه اكتشف طبيب فرنسي يُدعى (شاركو) أنّ الأشخاص الممكن تنويمهم تنويماً عميقاً يمكن أن يصابوا بنوبات هستيرية، ولقد استخدم (شاركو) هذه الملاحظة في فهم الهستريا وفي معالجتها وفي التصرّف على طبيعة النوم (المغناطيسي) الذي اعتبره حالة مرضية خاصة من حالات العضوية. وردّت على تلك الأقوال مدرسة (نانسي) التي قالت: بأن النوم (المغناطيسي) المعتدل أمر يمكن أن يحدث لكل الأشخاص الأسوياء، وذلك لأنّه ليس إلاّ حالة انفعال وقلق منشؤها الإيحاد، وقد استعملته هذه المدرسة في معالجة الحالات العصبيةّ، وكان من بين الأشخاص الذين تتلمذوا على يد (شاركو) شخص يدعى (سيجموند فرويد) وقد كان معجباً بطريقة شاركو لمعالجة الهستريا كما أن دهشته كانت عظيمة حيث سمع شاركو يؤكد أنّه في حالة من حالات الأمراض العصبيّة لابدّ من وجود اضطراب في الحياة الجنسيّة للمريض، وقد كان فرويد يقول لنفسه متعجباً: «إذا كان ما يقوله شاركو صحيحاً فلِمَ لا يستفيد من هذه الحقيقة في نظريته وعلاجه؟».

وفي سنة ١٨٨٦ عاد فرويد إلى فيّنا وهو يحمل معه هم دراسة الحالات العصبية عامة والهستريا خاصة مستعملاً أسلوب التنويم المغناطيسي، وبعد

محاولات من الفشل والصواب قرر فرويد العودة إلى باريس من أجل التعرف أكثر على طريقة التنويم المغناطيسي من مدرسة نانسي المنافسة للدكتور شاركو ولكنه أيضاً لم يستفد من معارف تلك المدرسة، ولكنه قرر في النهاية العدول عن أسلوب التنويم المغناطيسي والإكتفاء بالتحدث مع المريض، وهي طريقة اكتشفها طبيب نمساوي يُدعى (جوزف بروير) وهو زميل فرويد وهذه الطريقة هي عبارة عن مزيج من التنويم والتحدث، وهو أن يقوم سالمريض بالتحدث عن مصاعبه الذاتية وأزماته العاطفية والنفسيّة، وقد ظهر لفرويد وبروير أن الحوادث المخجلة والإضطرابات العاطفيّة المماثلة يكبتها المريض كبتاً شديداً يجعلها لا شعورية أو منسية في حالة اليقظة وفي حالة النوم يمكن بعثها من جديد، ولم يستمر بروير على الطريقة الجديدة التي ابتكرها وتركها لفرويد وحده، وقد كان سبب غضب بروير واشمئزازه من هذه الطريقة: هو أن واحدة من مريضاته التي عالجها وقتاً طويلاً وشارفت على الشفاء أعلنت له أنها لا تستطيع تركه لأنّها أحبته حباً شديداً، الأمر الذي أزعج بروير وجعله يعلن أنه لا يجوز للطبيب أن يستعمل هذه الطريقة الخطرة، ولم يمض وقت طويل حتى وقع فرويد في المشكلة ذاتها، ولكنه لم ينزعج من الأمر وانتهى بفكرة مرادها أن تلك النسوة لم يعشقنه لشخصه بل انهن يتخذنه بديلاً عن موضوع حبهن الأول والفاشل.

وبعد أن بقي فرويد وحده رأى أن يترك طريقة التنويم المغناطيسي ويتابع طريقة التحدث، وقد استفاد أيضاً من التنويم في طريقتي الإضطجاع والاسترخاء في أسلوبه الجديد وهو التحدث، فبدلاً من تنويم المريض والإيحاء له، فإنه اكتفى بمطالبته أثناء اضطجاعه واسترخائه أن يتحدث عن متاعبه وأسبابها والإفصاح عن كل ما يرد على خاطره. وقد سمى هذه الطريقة بـ (الترابط الحر) مع أن المريض ليس محرراً تماماً بل هو مقيد

بالحديث عن متاعبه النفسيّة فقط، ورغماً عن أن هذه الطريقة الجديدة أبطأ من القديمة، فإنها نجحت مع عدد أكبر من المرضى وهي في رأي فرويد ادعى للتنفيس، وجعل فرويد يفكر فيما يوصله إلى اللاشعور مباشرة، وقد انتهى بعد التفكير والإختبار إلى أنّ أحلام المريض كفيلة بإعلان لا شعوره، وعندئذ أخذ فرويد يطالب مريضه باستحضار حلمه الذي رآه في الليلة الماضية وبالتطواف بواسطة الترابط الحرّ في آفاق كل جزء من أجزاء هذا الحلم والتعليق عليه. ويبدأ المحلل بالبحث عن التفاصيل والذكريّات التي لها معنى والتي تشكل المركب النفسي الذي يسبب الاضطراب، وما زالت هذه الطريقة تمثلُ جزءاً مهماً من عملية التحليل النفسي، وقد وضح فرويد ملاحظاته عن الأحلام ونظرياته فيها في كتاب (تفسير الأحلام) الذي نُشر في عام ١٩٠٠م، وبعد عهدٍ قصير نشر كتاباً جديداً وبالألمانيّة عام ١٩٠١م، وقد أطلق عليه «علم النفس المرضي للحياة اليومية» ولكن أخطر ما توصل إليه فرويد من تحليلاته النفسية هو مبالغة لأهمية العامل الجنسي، فهو يقول: أن الرغبات المكبوتة والمركبات النفسية التي كانت تظهر في تحليل الأعراض العصبية والأحلام والهفوات والمزاج كانت في الأعم الأغلب ذات طبيعة جنسية. وقال فرويد: أن الرغبات الجنسية المكبوتة موجودة في الأسوياء أيضاً، وهي سبَب كثير من تصرفاتهم التي تبدو للوهلة الأولى وكأن لا علاقة لها بالحياة الجنسية، واعترض علماء نفس عاصروا فرويد مبالغته في تضخيم العامل الجنسي، وكما أن بعضهم وصف آراء فرويد بأنها مبالغات ووقاحات، وعلى رغم ذلك فإن فرويد لقى نصيباً من الشُهرة والإعجاب وهو ما قرّب الكثير إليه من الدارسين في المجال النفسي، وعلى هذا الأساس انعقد أول مؤتمر للمعلنين النفسيين سنة ١٩٠٨م ولكن سرعان ما تفتت هذه الدائرة وانقسمت إلى اتجاهات مختلفة،

فقد انفصلت جماعة السويسريين كما سار بعض أصدقاء فرويد وأتباعه باتجاه مغاير، وهكذا فلم يطل عام ١٩١٣م حتى تكونت عدّة مدارس للتحليل النفسي منها مدرسة (آدلر) و(يونغ) وهما قد قللا من أهمية الرغبة الجنسية في الأمراض العصبية خاصة والحياة عامة، ومن خلال الإستفادة من الترابط الحر وتحليل الأحلام نجح فرويد في معالجة بعض المصابين بالأمراض العصبية مثل حالات الشلل الهستيري والمخاوف العصبيّة والغيبوبة والكبت بأنواعه المختلفة، ولكن كثيراً ما كان يحدث أن يعود المرضى الذين اعتقد فرويد أنهم شفوا بالكامل، ولكن بعد فترة تعاودهم نفس الوساوس والأمراض، وهو أمرٌ واجهه معظم أطباء الأمراض العصبية، فخرج بنتيجة أنه لم يتعمق في التحليل تعمقاً كافياً، وأنه إنما وصل إلى القشور الخارجية للمرض ولم يصل إلى لبه، ولذلك فلا بدّ من التوغل من جديد في حياة المريض وتحليلها، وعدم الاكتفاء بالمركبات الجديدة التي ليست إلاّ نتائج لمركبات سابقة ما زالت باقية في عقل المريض الباطن وقد سببت له اضطرابات جديدة.

وفي هذا الشأن توصّل فرويد إلى عدّة استنتاجات غير منطقية وليست ذات قيمة علميّة ومنها إدعاءاته حول وجود رغبة جنسية مبكرة لدى الأطفال، فهو يقول في إحدى كتاباته: «لقد لاحظنا في البدء أنّه لا بدّ من تتبع الأعراض الحاضرة بالرجوع إلى الماضي، ثم رأينا أنّه لا بدّ من الرجوع إلى الطفولة بل إلى سنيها الأولى، إلى الهجمات الخيالية. وقد تلا هذا قناعتنا بأنّ هذه الخيالات يراد بها إخفاء فاعليات العشق الذاتي أيّام الطفولة الباكرة، وقد ظهرت الآن كل الحياة الجنسية للطفل من وراء هذه الخيالات...».

ولكننا نعتقد بأن فرويد نفسه هو الذي غرق في بحر الخيالات غير العلمية، وهنا نسأل فرويد كيف تكون للطفل رغبة جنسية في الوقت الذي لم

تتكـامل فيـه قـواه الحسيَة والإدراكيَـة؟ فـالطفل لا يعـرف معنـى الرغبـة ولا مدلولاتـها الحسيَة ولا النفسيَة، فكيـف تنشـط رغبـة لـدى الشـخص مـن دون شعور من قبله بوجودها؟ وينتقد نفسانيون آخرون فرويد على فرضياته الكثيرة التي لـم يتمكـن من الاستدلال عليها بشـكل علمـي، فـهو يقـول: «أن قتـل الإنسان والده أمر فظيع شنيع والقوانين تعاقب عليه بـأقصى أنـواع العقوبـات، وهـذا يعني: أن الرغبـة في اقتراف هـذا الجرم شديدة قويـة كـل القـوة» علـى أساس مبدأ يؤمـن بـه فرويـد وهـو (الممنوع مرغـوب) وتحت هـذا المبدأ يؤكـد فرويد أيضاً أن الصلة الجنسية بين الأقربين جريمة نكراء أخـرى وهـي أصبحـت كذلك، لأنّ البشر يشعرون بأقوى الميل إلى ذلك العمـل الشـائن، ولـهذا سنّوا له أقسى العقوبات كما يقول فرويد، وهذه افتراضات نظريـة يقـول فرويـد: أنـه استشفها من تحليله النفسي لعدد من مرضـاه الذيـن عـانوا مـن مشـاكل عاطفيـة وجنسية في بدايات نضجهم الجسدي والنفسي، ويقول فرويد: إنّـه ومـن خـلال تحليلاته النفسية وجد أن هناك العديد من الفتيات واجهن صدمـات عاطفيـة في طفولتـهن، وتذكـرن أنـهن هوجمـن أو أغريـن مـن قبـل آبائـهن أو أعمامـهن أو إخوانهن الأكبر سنا، فتتبع بعض هذه الحالات ووجد أنها خيالية. ولقـد أربكـه هذا الاكتشاف بعض الوقت ولكنه ما لبث أن علله بأنّـه ما يشبـه بحلـم اليقظـة أو تخيـل مـن تخيـلات الطفولـة أو الشـباب البـاكر، واعتـبر أن هـذا التخيـل الطفولي إنّما اشتمل على تمنٍ طفولي من قبـل المريضـة، ويـأخذ علمـاء نفـس آخرون علـى فرويـد أن أفكـاره واسـتنتاجاته تتعلـق كثـيراً بخـبرات الطفولـة الباكرة، بينما من المستحيل أن يتذكر الرجل البالغ الكبـير أو المرأة التي بلغـت من العمر كل خبراتها الحسيَة والشعورية والتي حدثت لها في الطفولة الباكرة.

وقد كانت لفرويد مساهمات نظرية عالية المستوى في قضايا علم النفس لا سيما نظريته المتعلقة بالصراع النفسي بين الهي والآنا، ومن أجل إعطاء وجهة

مختصرة حول أعمال فرويد نكتفي بما قاله الدكتور فاخر عاقل وهو من روّاد علم النفس في العالم العربي بشأن فرويد فهو في كتابه مدارس علم النفس يؤكد «ولو كان علينا أن ندلي برأينا في سيكولوجية فرويد لقلنا بأننا لا نستطيع أن نعتقد بأن سيكولوجية فرويد صحيحة صحة مطلقة، بل إننا لا نعتقد أنّها تقف في مصاف النظريّات العلمية الكبرى التي تنظم المعرفة وتقود إلى اكتشافات جديدة»[1].

(١) مدارس علم النفس: ٢٠٦.

المدرسة القصديّة

وهي التي تعتبر القصد هي الحقيقة الأساسية التي ينبغي ان يجيب عنها علم النفس، كما أن القصد يشتمل على حقيقتين أولهما: التنبؤ عن نتاج عمل ما، وثانيهما: هي الرغبة في هذا النتاج. ويوردون أمثلةً على ذلك بقولهم قد يتنبأ طيار واقع في ورطة بأنه سوف يصطدم بشجرة، ولكن هذا ليس قصده بالطبع، والرضيع الجائع يبكي ويخبط يميناً وشمالاً دون أن يكون لديه بالضرورة أي تنبؤ عن الوضع الذي يقصده، من هنا فإن القصدية تعني أولوية التوجه نحو الشيء والبحث عنه لا أولوية التنبؤ، وفي أحيانٍ تستبدل كلمة قصد بكلمة يونانية تعني الإلحاح، وقد تكوّنت المدرسة القصدية سنة ١٩٠٨م (وليم مكدوكال) الذي كان منشغلاً بعلم النفس الاجتماعي، فقد كان كل همه تقديم أساس سيكولوجي للعلوم الاجتماعية، ومن هذا الباب انتقد السيكولوجيا التي وجِدها مستعملة في العلوم الإجتماعية، كما احتج على الصفة العقلية وحيدة الجانب في علم النفس الذي كان سائداً في زمانه، ونشر كتاباً تحت عنوان (مدخل إلى علم النفس الاجتماعي) ويبدو أن (مكدوكال) هو الأوّل من علماء النفس اللذين اهتموا بعلم الإجتماع، وفي كتابه هذا يذكر مكدوكال: «أن قوى النفس التي هي منابع الطاقة والتي تعين الغايات، وتحافظ على كل نشاط بشري، والتي ليست العمليات العقلية إلاّ خدم ووسائل وآلاتها، إن هذه القوى هي ما يجب تحديده بوضوح، وما يجب إيضاح تاريخه في الجنس البشري وفي الأفراد، قبل أن يستطاع بناء العلوم الإجتماعية على أساس سيكولوجي متين ولكن علماء النفس أهملوا على العموم هذه المشاكل ذات الأهمية الإجتماعية البالغة».

ولكن مكدوكال يختلف مع علماء نفس آخرين بشأن الغرائز، فهو يحتج على مقولة (وليم جيمس) بشأن الغرائز التي يقول فيها: «لا شيء أشيع من القول بأن الإنسان إنما يختلف عن المخلوقات الدنيا بالفقدان الكامل تقريباً لكل ما يسمى بالغرائز، والإفتراض بأن هذه الغرائز إنّما تعمل في الإنسان تحت امرة العقل. إننا لا نحب أن ندخل في نزاع حول الكلمات ولكن حقائق الأمر واضحة كل الوضوح، أنّ الإنسان يملك عدداً من النزعات المختلفة لا يملكه أي حيوان آخر» ولكن مكدوكال اعتبر غرائز الإنسان تمثل الدوافع الأولى لديه، ولاحظ أيضاً أن الذوق العام كثيراً ما يربط بين الغريزة والهيجان، فالخوف مثلاً يتحدث عنه كغريزة أو كهيجان حتى لقد خيّل إليه أن لب الغريزة هو والإنفعال، وأن النّاس لا يكادون يفرقون بين الإنفعال، وبين العنصر الملح النازع المتّجه إلى هدفٍ ما وهو يضيف: أن في الخوف نزوع إلى الهرب، وفي الغضب نزوع نحو الحاق الضرر بالخصم، فالغريزة كما يراها مكدوكال هي عقلية وحركيّة في الوقت نفسه وليس هذا فقط بل إنها من الوجهة الحسيّة لا تقتصر على مجرد تلق منفعل للمؤثر بل تتجاوز ذلك في الانتباه إليه وتفهمه وتدركه.

فالغريزة لدى مكدوكال هي دافع ابتدائي أساسي: وهي منبع فطري للعمل وليست مجرد ارتباط غير متعلم بين مؤثر ما وحركة ما بل هي في نظره تحلل إلى أقسام رئيسية هي:

١ ـ هي من جهة التلقيّ استعداد فطري لملاحظة مثير يستثير الفاعليّة.

٢ ـ أما من الناحية التنفيذية فهي استعداد فطري للقيام بحركات معينة أو لإحداث بعض التغييرات في الوضع.

٣ ـ الإنفعال موجود بين الجانبين: جانب التلقي وجانب التنفيذ، ولذلك فهو قلب الغريزة جميعها.

ونحن إذ نتفق مع مكدوكال في إثبات وجـود الغريـزة، فإننـا قـد نتفـق ونختلـف معه بخصوص التفاصيل ومنـها مـا يقولـه: «إنّ السـلوك لا يندفـع باعتبارات عقلية محضة بـل بـالحب والكـره والاهتمـام والحمـاس والمنافسـة وغيرها من العواطف التي تتصف بالصفتين الإنفعالية والاندفاعية المشـتقتين في الأصل عن الغرائز». ولكننا نعتقد على عكس هذا بأن سلوك الإنسان يندفـع في معظـم الأحيان باعتبارات عقليّة محضـة، وقـد تـبرز هـذه الصفـة بشـكل واضح لدى الأشخاص المبدئيين أو المصلحين الذين يضبطون إنفعالاتـهم علـى أساس العقل، وفق ما يأمرهم به المبدأ، وهم لا يفعلون حسب ما تُملي عليـهم انفعالاتـهم العاطفيـة والحسيّة، ولذلـك فإنّ الصلحـاء اشـتُهروا بكظـم الغيـظ والعفو عن النّاس، فهيجان الغضب لديهم يدفعـهم لتصرّفـات أنانية للانتقـام لكنّهم من قوة عقلهم يتحكمون بغضبهم، لذلـك فـإن ضعيـف العقـل هـو من يكـون سـريع الإنفعـال والعكس أيضـاً صحيـح، ولكـي لا يتصـور أن حـالات الأنبياء والصالحين هي حالات شذوذ عن الطبع الإنساني، فإننـا نؤكـد أن هـذه الصفـة متوفرة لـدى كثير من النـاس ولكنـها هـي أكثر وضوحـاً لـدى الأنبيـاء والصالحين، وذلك بسبب سيطرتهم الكاملة على الأنـا الـذي يدفـع المرء لفعـل ما هو لمصلحته الخاصة دون رعايةٍ لقيم أو مبادئ عقلية أو سماويّة.

وبعد أن قدمنا عرضاً مختصراً عن مفاهيم القصدية والمدارس التجريبية الأخرى في علم النفس نحصل من خلال ذلك إلى عدّة نتائج ملموسة:

١ ـ إنّ رفض المدارس التجريبية لأعمال وأفكـار الفلاسفة الأقدمين علـى أساس أنّهم اكتفوا بالطريقة الاستبطانية كوسيلة للوصول إلى المعارف، وجدنـا أن أغلـب هـذه المدارس تلجأ إلـى ذات الطريقـة للإسـتدلال علـى أوكارهـا واستنتاجاتها.

٢ ـ من خلال ما بيّناه من تعارض بين أفكار ونظريات هـذه المدارس التجريبية، وما أشارت إليه كتب علم النفس يتبـين أن نظرياتهم في هذا الحقل كانت فرضيات قابلة للأخذ والردّ، وأنّها ليست علمية بدرجة أكيدة لأنّه لو كانت حصيلة تلك الإستنتاجات معادلات كالمعادلات الريّاضية مثل ١+١=٢ فإنّه مع هذا الحال لن يجرء أحد على التشكيك بتلك النتائج. ونحن نرى أنّ كل واحدة من تلك المدارس كانت عند أول نشأتها تعلن ثورة على المداس الأخرى.

٣ ـ وحتى التجارب التي أجريت معظمها على البهائم لم تكن تنجح لو أنها أجريت على الإنسان، فكيف يمكن الوثوق بنظريات مصدر إلهامها تجارب أجريت على مخلوقات غير عاقلة وغير مدركة؟.

٤ ـ لقد عدلّت المكتشفات الحديثة في مجال الفيزيولوجيا والوراثة وغيرها الكثير من تلك الفرضيات التي كانت تعتبرها المدارس التجريبية في علم النفس أنها علمية ولا يجوز معارضتها، وواحدة من تلك المسائل هي (الذاكرة) .

٥ ـ إنّ المذهب التجريبي عندما ينفي وجود النفس، فإنّه في الواقع ينفي ضرورة وجود علم بإسم (علم النفس)، لأنّه على حسب ما تدعي تلك المدارس التجريبية أنّها لا تبحث في شيء منفصل عن الجسد اسمه نفس، فدراستهم منصبّة على هذا الجسد وعلى وظيفة أعضائه، وهذه مهمة يضطلع بها علم الفيزيولوجيا الذي يبحث في شؤون البدن فلا حاجة بعد ذلك لعلم يكرر نفس الوظيفة التي يؤديها علم الفيزيولوجيا!! بينما الأصح هو أن لهذا العلم (علم النفس) هويته المنفردة به والتي يتميز بها من دون سائر العلوم الأخرى![1].

---

(١) راجع كتاب (مدارس علم النفس) للدكتور فاخر عاقل .

الفصل الثالث

الرّوح والجَسد

حقيقة الرّوح

لقد تلكأ العلماء والمفكرون في طرق هذا المبحث للعثرات التي في طريقه، وانقطاع السبل بهم، إذ لا إشارة سماويّة تلهمهم ولا نوراً أو ضياءً يرشدهم، فلا يبقى لديهم عند الخوض في هذه الغمرات غير الحدس والخيال والأوهام، وهذه كلها لا تُغني عن الحق شيئاً ولا يمكن أن نعتد بها كأدلةٍ علمية على حقيقة الروح، فقد اعتبرها بعض فلاسفة اليونان أنّها بخار، وعدها آخرون أنها حرارة تحرك البدن، وتخيلها قوم آخرون بأنها أثير، أما الفيلسوف طاليس فقد تصوّرها بأنها تمثل أصل الحركة، ووصفها آخرون بأنها تمثل الإدراك.

أما علماء الإسلام فهم أيضاً قد اختلفوا في حقيقة الروح وماهيتها، فقد قال الرازي: بأنها سبب الحياة، وقال آخر: بأن الروح هي الدّم الذي يجري في العروق، وقال ثالث: بأنها جزء لا يتجزأ من الدماغ، ومنهم من قال: بأنَ الروح عبارة عن أجزاء ناريّة مختلطة بالأرواح القلبيّة والدماغية وتلك الأجزاء الناريّة هي المسماة بالحرارة الغريزية وهي الإنسان، وبعضهم قال: إنَ الأرواح عبارة عن أجسام نورانية سماوية لطيفة الجوهر على طبيعة ضوء الشمس، وهي لا تقبل التحلل والتبدّل ولا التفرق ولا التمزق، ومنهم من وصف الرّوح بأنها ريح تجري بين مخارق الإنسان، وما زال الإختلاف بين المفكرين والفلاسفة بشأن الرّوح سائراً إلى يومنا هذا، فلكل واحدٍ منهم مذهب ورأي في ماهيتها لا سيما رجال الفكر المادي هم أيضاً عجزوا عن فهم الروح فأنكروا وجودها وأراحوا أنفسهم من عناء التحقيق في هذا المجال، وبسبب عجز العلم عن اكتشاف حقيقة الرّوح سحب معظم علماء النفس أنفسهم من الولوج في هذا الموضوع الشائك، واكتفوا أيضاً بإنكار وجود

الرّوح للتخلص من القضيّة برمتها، وقد أوقعتهم هذه النتيجة في إشكالات جديدة لم يتمكنوا من الردّ عليها.

فهم عندما أنكروا الرّوح من البديهي أيضاً أن ينكروا وجود خلقٍ آخر مثل (الجن) هذا المخلوق الذي ذكره القرآن الكريم في أكثر من آية. وآمن بوجوده مليارات البشر وشعر بهذا الوجود الملايين منهم إذ انتشرت قصصهم في كلّ مكان، وتحول بعضها إلى أفلامٍ سينمائية، وقد يستطيع أبناء المدارس الحديثة في علم النفس من تكذيب بعض هؤلاء الذين شعروا بوجود مخلوق آخر مثل الجن، إلاّ أنهم لا يستطيعون تكذيب ملايين الناس، ولا يقدرون أيضاً أن ينتزعوا هذه الحقيقة التي عجز العلم عن اثباتها من عقول مليارات البشر الذين يؤمنون بوجود الرّوح والجن والملائكة.

إنّ القول بعدم وجود الروح هو لا يقل ضُعفاً عن الآراء المختلفة والمتضاربة التي أدلى بها العلماء السابقون من روحانيين وماديين بشأن ماهيتها، وكان حريٌ بالجميع أن يذعنوا إلى حقيقة عجزهم عن الولوج في هذا الميدان وسبر أغوار الروح، لأنّها من السماء والسابح في فضائها لا يصل منتهاها، وقد نستشف هذا العجز من خلال تباين آراء العلماء حولها، فلا أكثر موضوعٍ بحثه الأقدمون من علماء اليونان والصين والفرس والإسلام أكثر من موضوع الرّوح. وقد كشف المؤرخون أنّه كان لكل واحدٍ من هؤلاء العلماء رأيٌ في مسألة الرّوح وعلى مستوى تعداد آرائهم كان هناك تباينٌ في أفكارهم.

ومردّ هذا الاختلاف يعود بنظرنا إلى سكوت الغيب عن هذه المسألة بالذات، فقد جاء في الذكر الحكيم ما يلي: ﴿ ***ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً*** ﴾[1] فليس لنا سبيل إلى معرفة ماهية الروح

---

(١) سورة الإسراء: ٨٥ .

بعد سكوت الغيب عن ذلك، وليس هناك منعٌ مـن الخوض في هـذا المجال بـل قد تكون الإثارة القرآنية نفسها دعوة للإنسان للبحـث والتحقيـق في هـذا المجال باعتباره من البحوث المصيرية.

وترشـدنا هـذه النقطة إلى أن كافـة العلوم والمعارف لـها اصـل سـماوي فنحن نعتقد جازمين بـأنّ الغيـب هـو منبـع العلـوم والمعـارف، فما من علـم إلاّ وقد أنـزل البـاري عزّ وجلّ كليّاته مـع نبـي أو وصـي أو إمـام، فعلـم الجـبر والكيمياء هما من معدن علـم الإمامة، هـذا بالنسبة للإسلام، وأمّا بالنسبة للأنبياء السابقين فقد كان الله العزيـز يلهمـهم بعـض العلـوم الدنيويـة مع علـم الرسالة. ولنقرء في القرآن الكريم ﴿ *علّم الإنسان ما لم يعلم* ﴾[1] وهـو علـم يشـمل كافة المعارف الدينية والدنيوية، ولو كان الموضوع يسع لأوردنا ما يثبت المنبع السماوي لكلّ علـم من العلـوم، ولصححنـا الصـورة الظلمائيـة لكتـب علـم الإجتماع والتـاريخ عـن الإنسـان القديـم إن يقارنونه مـن حيـث الفـهم والعلـم ببهيمة الحيوان، بينما حتى اليوم يعجز العلم الحديث عن كشف بعض الألغـاز المتعلقة بعلوم الفراعنة السابقين.

بينما ذلك الإنسان نفسه عمّر الأرض بنفس المقدار الذي خربـها الإنسـان الحديث بصناعاته الحديثة وليس (ثقـب الأوزون) إلاّ مثلاً واحداً علـى مقـدار التخريب الذي تتعرض له الكرّة الأرضيّـة وجوّهـا علـى يـد الإنسـان الحديـث. وقد جاء في ذكر تلك الأقوام في القرآن الكريم مـايلي: ﴿ *أولـم يسـيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوّة وأثاروا الأرض وعمّروها أكـثر مما عمّروها وجاءتهم رسلهم بالبيّنـات..* ﴾[2] فمـع هبـوط آدم عليه السلام إلـى الأرض نزلـت

---

(١) سورة العلق: ٥.

(٢) سورة الروم: ٩.

معه كل المعارف المتعلقة بالزراعة، وعلّم الرب نبيه إدريس ﷺ الخياطة، وعلّم سليمان ﷺ كيفية استغلال المعادن والحديد ومنذ ذلك الوقت نشأت صناعة الصلب والحديد، وكل الأديان السماويّة قبل الإسلام تعترف بهذه الحقائق وقد سجلتها في كتبها التاريخية.

ونجد العديد من آيات الذكر الحكيم تصرح وتوضح بما فيه الكفاية أن مصدر كلّ العلوم هو الله سبحانه وتعالى ومنها هذه الآيات ﴿ ***الرحمن علّم القرآن خلق الإنسان علّمه البيان*** ﴾[1] فعلم اللغة والبيان والكلام من الله سبحانه وتعالى، وفي آيةٍ أخرى بيّن أنه سبحانه علّم الإنسان الكتابة بالقلم وعلمه مالم يعلم ﴿ ***الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم*** ﴾[2] وفي آية أخرى علّم (عزّ وجلّ) آدم ﷺ علم الأسماء ﴿ ***وعلّم آدم الأسماء كلّها...*** ﴾[3] وشهد نبي الله يوسف ﷺ بأن الله علّمه علم تفسير الأحلام ﴿ ***ربّ قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث*** ﴾[4] وفي آيةٍ أخرى بيّن الباري عزّ وجلّ أنه علّم نبيه سليمان ﷺ علم الصناعة الحربية ﴿ ***وعلّمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون*** ﴾[5].

إن المدهش حقاً ومنذ خلق الإنسان الأول وسكوت الغيب والسماء عن بيان حقيقة الروح، لا زال العلماء يبحثون عن إجابة شافية لهذا السؤال المحيَر ما هي الرّوح؟ ولعل الإعجاز الغيبي يكمن في هذا الجزء المتبقي من عالم المعرفة، إذ كيف يعجز الإنسان طوال آلاف السنين الماضية من تلمس حقيقة الروح؟ وليس من شك أن هذا المبحث كان مثار إهتمام ونقاش الفلاسفة

---

(١) سورة الرحمن: ١ - ٤.

(٢) سورة العلق: ٤ - ٥ .

(٣) سورة البقرة: ٣١.

(٤) سورة يوسف: ١٠١.

(٥) سورة الأنبياء: ٨٠.

الكبار لا فرق أن يكونوا متدينين أو غير متدينين لكنهم لم يحققوا إنجازاً في هذا الطريق.

والمتفق عليه بين رجال التفسير أن القرآن الكريم بدليل الآية الكريمة ﴿ *ويسألونك عن الرّوح قل الروح من أمر ربّي* ﴾[1] لم يُبين ما هية الروح بل كشف عن حقيقة حدوثها وأنها خُلقت من الأمر الإلهي بقول ﴿*كن فيكون*﴾ وفي ذلك ردٌ على من قال بأزلية الروح وأنها غير مخلوقة.

ولقد ذهب بعض العلماء إلى بيان معاني أخرى للروح، فمنهم من قال: بأنّ الرّوح هي جبرائيل عليه السلام، ومنهم من قال: أنّها روح القدس، ومنهم من قال: أنّها روح عيسى عليه السلام ومنهم من قال: أنّها القرآن بدليل الآية ﴿ *وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا* ﴾[2] بينما المراد بالروح في هذه الآية بشكل خاص هو جبرائيل عليه السلام الذي ينطق الوحي على لسانه، ومنهم من قال أنّ الروح هو: خلقٌ ليس بالملائكة على صورة بني آدم يأكل وله يد وأرجل ورأس، وقال آخر: بأنّه يشبه الإنسان وليس بإنسان.

وعلى الرغم من اعتقادنا بوجود عدّة معاني لكلمة الرّوح الواردة في القرآن الكريم ولكن لكلّ واحدة من تلك المعاني قرينة في الآية التي تذكر الروح فتصرفها عن المعاني الأخرى، ففي بعض الآيات تأتي كلمة الروح لتشير إلى جبرائيل عليه السلام أو روح القدس، إلاّ أننا نعتقد بأن الروح المقصودة في الآية الكريمة من سورة الإسراء ﴿ *ويسألونك عن الروح*... ﴾ إنّما المراد بها حسب ما جاء في أسباب النزول وكذلك الروايات الواردة في شأنها هي الروح الإنسانية، فقد جاء في أسباب النزول ما يبين أن أصحاب الديانات السابقة من اليهود والمسيح كانوا جاهلين بحقيقة ماهية الروح، ويعرفون حسب ما جاءهم

---

(١) سورة الإسراء: ٨٥.

(٢) سورة الشورى: ٥٢.

من العلم عن طريق أنبيائهم أنّ نبي الإسلام هو أيضاً لن يتكلم عن ماهية الروح، لذلك اتخذوا هذا اللغز كبرهان لإختبار النبيّ محمد ﷺ فإن أجاب عن حقيقة الروح فهو مدعٍ للنبوة وإن سكت فهو نبي صادق، لأنّ ذلك يتوافق مع ما جاءهم من دلائل نبوة الرسول الأكرم، فقد جاء في كتاب أسباب النزول «إن اليهود اجتمعوا فقالوا لقريش حين سألوهم عن شأن محمد وحاله، سلوا محمداً عن الرّوح وعن فتيةٍ فقدوا أولّ الزمان، وعن رجلٍ بلغ شرق الأرض وغربها، فإن أجاب في ذلك كلّه فليس بنبي وإن لم يجب في ذلك فليس نبياً، فإن أجاب في بعض ذلك وأمسك عن بعضه فهو نبيّ فسألوه عنها، فأنزل الله تعالى في شأن الفتية ﴿*ام حسبت انّ اصحاب الكهف*﴾[1] - إلى آخر القصة، ونزل في الروح قوله تعالى: ﴿... *ويسئلونك عن الرّوح..*﴾[2]».

«وفي رواية أخرى مشابهة نقلها صاحب البحار عن مجمع البيان: «أن اليهود قالت لقريش: سلوا محمداً عن الروح، فإن أجابكم فليس بنبي وإن لم يجبكم فهو نبي، فإنّها نجد في كتبنا ذلك، فأمر الله سبحانه بالعدول عن جوابهم»[3]

وفي رواية ثالثة أعرض الإمام الباقر ﵇ عن بيان ماهية الروح حينما سأله أحد الصحابة «عن زرارة قال سألت أبا جعفر ﵇ عن قول الله ﴿ *ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي*﴾ قال: خلقٌ من خلق الله، والله يزيد في الخلق ما يشاء»[4] وفي روايةٍ رابعة تم التأكيد على أن المراد بالرّوح في الآية المذكورة هي الروح الإنسانية «عن أبي بصير عن أحدهما ﵉ قال: سألته عن

---

(١) سورة الكهف : ٩ .

(٢) أسباب النزول: ٢٢٠ - ٢٢١.

(٣) بحار الأنوار: ٥٨ / ٢ .

(٤) بحار الأنوار: ٥٨ / ٤٢.

قوله ﴿ *ويسألونك عن الروح...* ﴾ ما الروح؟ قال: التي في الدوابّ والناس، قلتُ: وما هي؟ قال: هي من الملكوت، من القدرة»[١].

وفي صفة الروح قال الإمام الصادق ﷺ: «والروح جسم رقيق قد أُلبس قالباً كثيفاً»[٢] ولكن هذا الجسم الرقيق يعمل كمولد للطاقة يعتمد البدن في حركته ونشاطه عليه، والروح هي من جنس الريح من حيث الحركة والوزن، فالآية: ﴿ ... *ونفخت فيه من روحي..* ﴾[٣] فالنفخ هنا لا يكون إلاّ لمن جنسه من الريح، وأن الروح تفعل في البدن كما تفعل الريح للأرض من أنها تطيبهُ، فقد جاء في رواية الإمام الصادق عليه السلام عندما سأله هشام بن الحكم عن «هل توصف الروح بخفة وثقل ووزن؟ قال الإمام عليه السلام: الروح بمنزلة الريح في الزق إذا نفخت فيه امتلأ الزق منها، فلا يزيد في وزن الزق ولوجها فيه ولا ينقصها خروجها منه كذلك الروح ليس لها ثقل ولا وزن قال: فأخبرني ما جوهر الريح؟ قال: الريح هواء إذا تحرّك سُميّ ريحاً، فإذا سكن سُميّ هواءاً وبه قوام الدنيا، ولو كف الريح ثلاثة أيّام لفسد كلّ شيء على وجه الأرض ونتن، وذلك أن الريح بمنزلة المروحة تذب وتدفع الفساد عن كلّ شيء وتطيبه، فهي بمنزلة الروح إذا خرج من البدن نتن البدن وتغيّر، تبارك الله أحسن الخالقين»[٤].

وعن محمّد بن سلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلَ: ﴿ *ونفخت فيه من روحي* ﴾ كيف هذا النفخ، فقال: «إنّ الروح متحرك كالريح

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨ / ٤٢ .

(٢) بحار الأنوار: ٥٨ / ٣٤.

(٣) سورة الحجر : ٢٩، سورة ص: ٧٢ .

(٤) بحار الأنوار: ٥٨ / ٣٤ .

وإنّما سمي روحاً لأنّه اشتق إسمه من الريح، وإنّما أخرجه على لفظة الريح لأنّ الروح مجانس للريح»[١].

«وعن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عزّ وجلّ «فإذا سويته ونفخت فيه من روحي...» قال: إن الله عزّ وجل خلق خلقاً وخلق روحاً، ثم أمر ملكاً فنفخ فيه فليست بالتي نقصت على قدرة الله شيئاً، هي من قدرته»[٢] وقد يكون المراد من الخلق الأول الذي ذكره الإمام هو (البدن).

وبشكل موجز نستطيع أن نستخلص من كلّ ما مرّ لدينا حقيقة هامة هي: عجز الإنسان والعلم عن كشف ماهيّة الروح، لا سيما بعد سكوت الغيب عن ذلك إلاّ أنه يمكن اكتشف أحوالها وصفاتها من خلال آثارها في الحياة وفي البدن، وأمّا بالنسبة لأولئك الذين يدعّون بأنّ الإنسان هو هذا الجسم وليس غيره ولا يوجد شيء اسمه روح، فنحن نحتج عليهم بعدّة أمور من أهمها:

أولاً: هناك تحولات تجري في داخل الإنسان، وتشمل عامة بدنه حتى تصل إلى أصغر عضو فيه ألاّ وهي (الخليّة) فهناك ملايين الخلايا التي تلقى حتفها وتموت أثناء حياة المرء، فإذا كان الإنسان هو هذا الجسم، فالجسم متبدل ومتغير بموت الخلايا، فلماذا إذن لا يتغير الإنسان ولا تتبدل صفاته وعاداته وحبّه وكرهه وغضبه وحزنه ونمط تفكيره؟ وإذا كانت الحياة تشع من هذا الجسم والخلية على اعتبار أنهما مصدر الحياة، فلماذا يموت الإنسان إذن وتتلف الخليّة؟ أليس ذلك يدلنا على وجود شيء فوق الجسم يمنحه الحياة ولا يتبدل مع تبدلّه ولا يتغير مع تغيره؟.

ثانياً: لقد اكتشف العلماء والجرّاحون أنّه لو فقد الإنسان خلايا النطق في دماغه، فإنّ ذلك سيؤدي إلى عجزه عن الكلام، ويقولون: إنّه بالإمكان

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨ / ٢٨ .

(٢) بحار الأنوار: ٥٨ / ٣٢ .

الاستفادة من خلايا عصبية مجاورة لتلك المخرَبة لكي تؤدي دورها وعملها على حسب الطريقة (الوظيفية التعويضية) فإذا كانت الخلايا السالفة في الدماغ هي وحدها المسؤولة عن النطق، فكيف يمكن الاستعانة بخلايا أخرى لكي تقوم بهذه المسؤولية؟ فمن أين حصلت الخلايا الجديدة على القدرة التي تمكنها من القيام بأعمال الخلايا القديمة والتالفة بنفس المستوى والنتيجة؟ وأنّ الذي فقد قدرته على النطق كيف يتكلم مرةً أخرى من دون الإعتماد على قوّة الروح التي حفظت طريقة النطق في ذاكرتها واستفادت من الخلايا الجديدة لتعويض خسارة الخلايا التالفة من قبل؟

ومن الضروري هنا أن نشير إلى ما ذكره العلاّمة المجلسي ﺗﺪﺋﺮ في موضوع حقيقة الروح وذلك من خلال عرضه لتفسير الآيات المتعلقة بهذا الشأن، وما أورده من آراء للعلماء والحكماء في هذا الخصوص في تفسير الآية ﴿*ويسألونك عن الرّوح قل الروح من أمر ربّي وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً*﴾[1] يقول: ﴿*ويسألونك عن الرّوح*﴾ قال الطبرسي: (روّح الله روحه) ، اختلف في الروح المسؤول عنه على أقوال: أحدها: أنّهم سألوه عن الروح الذي في بدن الإنسان ما هو ولم يجبهم، وسأله عن ذلك قوم من اليهود، عن ابن مسعود وابن عباس وجماعة، واختاره الجبائي، وعلى هذا فإنما عدل النبي ﷺ عن جوابهم لعلمه بأن ذلك ادعى لهم إلى الصلاح في الدين، ولأنّهم كانوا بسؤالهم متعنتين لا مستفيدين، فلو صدر الجواب لازدادوا عناداً، وقيل: أن اليهود قالت لقريش، سلوا محمداً ﷺ عن الروح فإن أجابكم فليس بنبي، وإن لم يجبكم فهو نبي، فإنا نجد في كتبنا ذلك. فأمر الله سبحانه بالعدول عن جوابهم وأن يكلمهم في معرفة الرّوح إلى ما في عقولهم ليكون ذلك علماً على صدقه ودلالة لنبوته ﷺ.

---

(١) سورة الإسراء: ٨٥.

وثانيها: أنّهم سألوه عن الرّوح: أهي مخلوقة محدثة أم ليست كذلك؟ فقال سبحانه: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ أي من فعله وخلقه، وكان هذا جواباً لهم عما سألوه عنه بعينه، وعلى هذا فيجوز أن يكون الروح الذي سألوه عنه هو الذي به قوام الجسد على قول ابن عباس وغيره، أم جبرئيل على قول الحسن وقتادة أم ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه لكل وجه سبعون ألف لسان يسبح الله تعالى بجميع ذلك على ما رويَ عن عليّ عليه السلام، أم عيسى عليه السلام فإنّه سميَ بالروح.

وثالثها: أن المشركين سألوه عن الروح الذي هو القرآن كيف يلقاك به الملك؟ وكيف صار معجزاً؟ وكيف صار نظمه وترتيبه مخالفاً لأنواع كلامنا من الخطب والأشعار؟ وقد سمّى الله سبحانه القرآن روحاً في قوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾[1] فقال سبحانه: قل يا محمد إنّ الروح الذي هو القرآن من أمر ربيَ أنزله عليَ دلالة على نبوّتي وليس من فعل المخلوقين، ولا مما يدخل في إمكانهم وعلى هذا فقد وقع الجواب أيضاً موقعه، وأمّا على القول الأول فيكون معنى قوله (الروح من أمر ربي) هو الأمر يعلمه ربيَ ولم يطلع عليه أحد.

واختلف العلماء في مهيّة الروح، فقيل: إنه جسم رقيق هوائي متردد في مخارق الحيوان، وهو مذهب أكثر المتكلمين، واختاره المرتضى (قدس الله روحه). وقيل: هو جسم هوائي على بنية حيوانيّة في كل جزء منه حياة، عن عليّ بن عيسى، قال: فلكل حيوان روح وبدن، إلاّ أنّ منهم من غلب عليه الروح، ومنهم من غلب عليه البدن، وقيل: إن الروح عرض، ثم اختلف فيه، فقيل: هو الحياة التي يتهيأ بها المحل لوجود العلم والقدرة والاختيار وهو

---

(١) سورة الشورى: ٥٢.

مذهب الشيخ المفيد أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان (رض) والبلخي وجماعة من المعتزلة البغداديين، وقيل: هو معنى في القلب، عن الأسواري. وقيل: إنّ الروح الإنسان، وهو الحيّ المكلف عن ابن الأخشد والنظام.

وقال بعض العلماء: إنّ الله خلق الرّوح من ستة أشياء: من جوهر النور، والطيب، والبقاء، والحياة، والعلم، والعلّو، ألا ترى أنّه ما دام في الجسد كان الجسد نورانياً، يبصر بالعينين، ويسمع بالأذنين، ويكون طيباً فإذا خرج من الجسد نتن البدن ويكون باقياً، فإذا فارقه الروّح بلى وفنى، ويكون حيّاً وبخروجه يصير ميّتاً ويكون عالماً فإذا خرج منه الروح لم يعلم شيئاً، ويكون علوياً لطيفاً توجد به الحياة بدلالة قوله تعالى في صفة الشهداء: ﴿ ***بل أحياء عند ربّهم يرزقون*** ﴾[1] وأجسادهم قد بليت في التراب.

وقوله: ﴿ ***وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً*** ﴾ قيل: هو خطاب للنبيﷺ وغيره إذ لم يبين له الروح ومعناه: وما أوتيتم من العلم المنصوص عليه إلاّ قليلاً: أي شيئاً يسيراً، لأن غير المنصوص عليه أكثر، فإن معلومات الله تعالى لا نهاية لها، وقيل: خطاب لليهود الذين سألوه، فقالت اليهود عند ذلك: كيف وقد أعطانا الله التوراة؟ فقالت التوراة في علم الله قليل.

وقال الرازي: للمفسرين في الرّوح المذكورة في هذه الآية أقوال وأظهرها أن المراد منه الروح الذي هو سبب الحياة، ثم ذكر رواية سؤال اليهود وايهام النبيﷺ قصة الروح وزيّفها بوجوه ضعيفة ثم قال: بل المختار عندنا أنّهم سألوه عن الرّوح وأنّهﷺ أجابهم عنه على أحسن الوجوه. وتقريره أنّ المذكور في الآية أنّهم سألوه عن الروح، والسؤال عنه يقع على وجوه كثيرة

---

(١) سورة آل عمران: ١٦٩.

أحدها: أن يقال: ما هيّة الروح أهو متحيز، أو حال في المتحيز، أو موجود غير متحيز ولا حال في المتحيز؟ وثانيها: أن يقال: الأرواح قديمة أو حادثة؟ وثالثها: أن يقال: هل تبقى بعد موت الأجساد أو تفنى؟ ورابعها: أن يقال: ما هي حقيقة سعادة الأرواح وشقاوتها؟[1].

ثم نقل العلاّمة المجلسي تتئ عن الرازي: قال في شرح مذاهب القائلين بأن الإنسان موجود في داخل البدن: اعلم أنّ الأجسام الموجودة في هذا العالم السفلي، إمّا أن يكون أحد العناصر الأربعة أو يكون متولّداً من إمتزاجها، ويمتنع أن يحصل في البدن الإنساني جسم عنصريّ خالص، بل لابد وأن يكون الحاصل جسماً متولداً من امتزاجات هذهِ الأربعة، فنقول: أما الجسم الذي تغلب عليه الأرضيّة فهو الأعضاء الصلبة الكثيفة كالعظم والعصب والوتر والرباط والشحم واللحم والجلد، ولم يقل أحد من العقلاء الذين قالوا: إنّ الإنسان شيء مغاير لهذا الجسد، بأنّه عبارة عن عضو معيّن من هذهِ الأعضاء وذلك لأن هذهِ الأعضاء كثيفة ثقلة ظلمانيّة، فلا جرَم لم يقل أحد من العقلاء بأنّ الإنسان عبارة عن أحد هذهِ الأعضاء، وأمّا الجسم الذي تغلب عليه المائية فهو الأخلاط الأربعة ولم يقع في شيء منها أنّه الإنسان إلاّ في الدّم، فإن فيهم من قال: إنّه الروح بدليل أنّه إذا خرج لزمه الموت، أما الجسم الذي تغلب عليه الهوائية والناريّة فهي الأرواح، وهي نوعان: أحدهما: أجسام هوائية مخلوطة بالحرارة الغريزية، متولّدة إمّا في القلب أو في الدماغ، وقالوا: إنّها: هي الروح الإنساني ثم اختلفوا، فمنهم من يقول: الإنسان هو الروح الذي في القلب، ومنهم من يقول إنه جزء لا يتجزأ في الدماغ، ومنه من يقول: الروح عبارة عن أجزاء ناريّة مختلطة بهذه الأرواح

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨ / ١- ٤.

القلبيّة والدماغيّة، وتلك الأجزاء النارية هي المسماة بالحرارة الغريزية وهي الإنسان، ومن الناس من يقول: الروح عبارة عن أجسام نورانية سماوية لطيفة الجوهر على طبيعة ضوء الشمس، وهي لا تقبل التحلل والتبدّل ولا التفرق والتمزّق، فإذا تكّون البدن، وتم إستعداده وهو المراد بقوله: ﴿ **فإذا سوّيته** ﴾ نفذت تلك الأجسام الشريفة السماوية الإلهية في داخل أعضاء البدن نفاذ النار في الفحم، ونفاذ دهن السمسم في السمسم، ونفاذ ماء الورد في جسم الورد، ونفاذ تلك الأجسام السماوية في جوهر البدن هو المراد بقوله: ﴿ **ونفخت فيه من روحي** ﴾[1] ثم إنّ البدن ما دام يبقى سليماً قابلاً لنفاذ تلك الأجسام الشريفة فيه بقيّ حيّاً، فإذا تولد في البدن أخلاط غليظة منعت تلك الأخلاط الغليظة من سريان تلك الأجسام الشريفة، فانفصلت عن هذا البدن فحينئذٍ يعرض الموت، فهذا مذهب قوي وقول شريف يجب التأمل فيه، فإنّه شديد المطابقة لما ورد في الكتب الإلهيّة من أحوال الموت والحياة، فهذا تفصيل مذاهب القائلين بأنّ الإنسان جسم موجود داخل البدن، وأمّا إن الإنسان جسم موجود خارج البدن فلا أعرف أحداً ذهب إلى هذا القول.

وأمّا القسم الثاني: وهو أن يقال: الإنسان عرض حال في البدن فهذا لا يقوله عاقل، لأنه من المعلوم بالضرورة أن الإنسان جوهر لأنّه موصوف بالعلم والقدرة والتدبير والتصرف، وكل من كان هذا شأنه كان جوهراً، والجوهر لا يكون عرضاً، بل الذي يمكن أن يقال له عاقل هو الإنسان بشرط أن يكون موصوفاً بأعضاء مخصوصة وعلى هذا التقدير فللناس فيه أقوال:

---

(١) سورة الحجر: ٢٩.

القول الأول:

أن العناصر الأربعة إذا امتزجت وانكسرت سورة كل واحدة منها بسورة أخرى حصلت كيفية معتدلة هي المزاج، ومراتب هذا المزاج غير متناهية فبعضها هي الإنسانية، وبعضها هي الفرسيّة، فالإنسان عبارة عن أجسام موصوفة بكيفيات مخصوصة متولَدة عن امتزاجات أجزاء العناصر بمقدار مخصوص، وهذا قول جمهور الأطباء ومنكري بقاء النفس، ومن المعتزلة قول أبي الحسن البصري.

والقول الثاني:

أن الإنسان عبارة عن أجزاء مخصوصة بشرط كونها موصوفة بصفة الحياة و العلم والقدرة، والحياة عرض قائم بالجسم، وهؤلاء أنكروا الروح والنفس وقالوا: ليس ههنا إلاّ أجسام مؤتلفة موصوفة بصفة الحياة، وبهذه الأعراض المخصوصة وهي الحياة والعلم والقدرة، وهذا مذهب أكثر شيوخ المعتزلة.

والقول الثالث:

أن الإنسان عبارة عن أجسام مخصوصة بأشكال مخصوصة وبشرط أن تكون أيضاً موصوفة بالحياة والعلم والقدرة، والإنسان إنّما يمتاز عن سائر الحيوانات بشكل جسده وهيئة أعضائه وأجزائه، إلاّ أن هذا مشكل، فإن الملائكة قد يتشبهون بصور الناس، فهنا صورة الإنسان حاصلة مع عدم الإنسانيّة، وفي صورة المسخ معنى الإنسانية حاصلة مع أن هذهِ الصورة غير حاصلة، فقد بطل اعتبار هذا الشكل والصورة في حصول معنى الإنسانية طرداً وعكساً.

وأمّا القسم الثالث: وهو أن يقال: الإنسان موجود ليس بجسم ولا جسماني، وهذا قول أكثر الالهيين من الفلاسفة القائلين ببقاء النفس المثبتين للنفس معاداً روحانيّاً وثواباً وعقاباً روحانيّاً، ذهب إليه جماعة من علماء المسلمين مثل الشيخ أبي القاسم الراغب الأصفهاني، والشيخ أحمد الغزاليّ، ومن قدماء المعتزلة معمر بن عباد السلميّ، ومن الشيعة الملقب عندهم بالشيخ المفيد.

واعلم أن القائلين بإثبات النفس فريقان: الأوّل هم المحققون منهم قالوا: الإنسان عبارة عن هذا الجوهر المخصوص، وهذا البدن آلته ومنزله ومركبه، وعلى هذا التقدير فالإنسان غير موجود في داخل العالم، ولا في خارجه وغير متصل بالعالم ولا منفصل عنه، ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف، كما أن إله العالم لا تعلق له بالعالم إلاّ على سبيل التصرف والتدبير.

والفريق الثاني الذين قالوا: النفس إذا تعلقت بالبدن اتّحدت بالبدن، فصارت النفس عين البدن والبدن عين النفس ومجموعهما عند الإتحاد هو الإنسان، فإذا جاء وقت الموت بطل هذا الإتحاد وبقيت النفس وفسد البدن، فهذا جملة مذاهب الناس في الإنسان، وكان (ثابت بن قرة) يثبت النفس ويقول: إنها متعلقة بأجسام سماوية نورانية لطيفة غير قابلة للكون والفساد والتفرق والتمزّق، وأن تلك الأجسام تكون سارية في البدن وهن موجودات داخل البدن، وأما إن الإنسان جسم موجود خارج البدن فلا أعرف أحداً ذهب إلى ذلك.

ثم ذكر العلاّمة المجلسي ﷺ حججاً عقلية طويلة الذيل على إثبات النفس ومغادرتها للبدن.

منها: أن النفس واحدة ومتى كانت واحدة وجب أن تكون مغائرة لهذا البدن، ولكل واحد من أجزائه، أما كونها واحدة فتارة ادّعى البداهة فيه، وتارة استدلّ عليه بوجوه منها:

أنّا إذا فرضنا جوهرين مستقلين يكون كل واحد منهما مستقلاً بفعله الخاص، امتنع أن يصير اشتغال أحدهما بفعله الخاص به مانعاً لاشتغال الآخر بفعله الخاص به، وإذا ثبت هذا فنقول: لو كان محل الإدراك والفكر جوهراً، ومحل الغضب جوهراً آخر، ومحل الشهوة جوهراً ثالثاً، وجب أن لا يكون إشتغال القوّة الغضبيّة بفعلها مانعاً للقوّة الشهوانية من الاشتغال بفعلها ولا بالعكس، لكن التالي باطل فإن اشتغال الإنسان بالشهوة وانصبابه إليها يمنعه من الاشتغال بالغضب والانصباب إليه. وبالعكس، فعلمنا أن هذهِ الأمور الثلاثة ليست مبادئ مستقلّة بل هي صفات مختلفة لجوهر واحد، فلا جرم كان إشتغال ذلك الجوهر بأحد هذهِ الأفعال عائقاً له عن الاشتغال بالفعل الآخر.

ومنها: أن حقيقة الحيوان أنّه جسم ذو نفس حساسة متحركة بالإرادة، فالنفس لا يمكنها أن تتحرك بالإرادة إلاّ عند حصول الداعي، ولا معنى للداعي إلاّ الشعور بخير يرغب في جذبه أو بشر يرغب في دفعه، وهذا يقتضي أن يكون المتحرك بالإرادة هو بعينه مدركاً للخير والشر، والملذ والموذي، والنافع والضار، فثبت بما ذكرنا أن النفس الإنسانية شيء واحد، وثبت أن ذلك الشيء هو المبصر والسامع والشام والذائق واللامس والمتخيّل والمتفكر والمتذكي والمشتهي والغاضب، وهو الموصوف بجميع الإدراكات لكل المدركات وهو الموصوف بجميع الأفعال الاختيارية والحركات الارادية.

وأمّا المقدمة الثانية: فهي بيان أنّه لما كانت النفس شيئاً واحداً وجب أن لا يكون النفس هـذا ولا شيئاً من أجزائه، وأمّا امتناع كونها جملة هذا البدن فتقريره: أنّا نعلم بالضرورة أن القوة الباصرة غير سارية في كل البدن، وكذا القوّة السامعة وكذا سائر القوى كالتخيل والتذكر والتفكّر، والعلم بأن هذه القوى غير سارية في جملة أجزاء البدن علم بديهي بل هو من أقوى العلوم البديهيّة، وأمّا بيان أنّه يمتنع أن يكون النفس جزء من أجزاء البدن: فإنّا نعلم بالضرورة أنّه ليس في البدن جزء واحد هو بعينه موصوف بالإبصار، والسماع والفكر والذكر بل الذي يتبادر إلى الخاطر أن الإبصار مخصوص بالعين لا بسائر الأعضاء، والسماع مخصوص بالأذن لا بسائر الأعضاء، والصوت مخصوص بالحلق لا بسائر الأعضاء، وكذلك القول في سائر الإدراكات وسائر الأفعال، فأمّا أن يقال: إنّه حصل في البدن جزء واحد موصوف بكل هذه الإدراكات وكل هذه الأفعال، فالعلم الضروري حاصل أنّه ليس الأمر كذلك، فثبت بما ذكرناه أن النفس الإنسانية شيء واحد موصوف بجملة هذه الإدراكات وبجملة هذه الأفعال، وثبت بالبديهية أن جملة البدن ليست كذلك، وثبت أيضاً أن شيئاً من أجزاء البدن ليس كذلك، فحينئذ يحصل اليقين أن النفس شيء مغائر لهذا البدن ولكل واحد من أجزائه وهو المطلوب[1].

حيث يقول ﷺ: أنا لمّا تأمّلنا في أحوال النفس رأينا أحوالها بالضد من أحوال الجسم وذلك يدلّ على أن النفس ليست جسماً، وتقرير هذه المنافاة من وجوه:

---

(١) بحار الأنوار : ٥٨ / ١١ - ١٥ .

الأوّل:

أن كل جسم حصلت فيه صورة فإنّه لا يقبل صورة أخرى من جنس الصورة الأولى إلاّ بعد زوال الصورة الأولى عنه زوالاً تاماً، مثاله: أن البصر إذا حصل فيه شكل التثليت امتنع أن يحصل فيه شكل التربيع والتدوير إلاّ بعد زوال الشكل الأول عنه. ثم إنا وجدنا الحال في قبول النفس لصور المعقولات بالضد من ذلك، فإن النفس التي لم تقبل صورة عقليّة البتة يعسر قبولها لشيء من الصور العقلية، فإذا قبلت صورة واحدة كان قبولها للصورة الثانية أسهل، وإذا قبلت الصورة الثانية صار قبولها للصورة الثالثة أسهل، ثم إن النفس لا تزال تقبل صورة بعد صورة من غير أن تضعف البتة بل كلما كان قبولها للصور أكثر، كان قبولها للصور الآتية بعد ذلك أسهل وأسرع. ولهذا السبب يزداد الإنسان فهماً وإدراكاً كلما إزداد تخريجاً وارتياضاً للعلوم، فثبت أن قبول النفس للصورة العقليّة على خلاف قبول الجسم للصورة وذلك يوهم أن النفس ليست بجسم.

والثاني:

أن المواظبة على الأفكار الدقيقة لها أثر في النفس وأثر في البدن، أما أثرها في النفس فهو تأثيرها في إخراج النفس عن القوة إلى الفعل في التعقّلات والإدراكات، وكلّما كانت الأفكار أكثر كان حصول هذه الأحوال أكمل، وذلك غاية كمالها ونهاية شرفها وجلالتها، وأمّا أثرها في البدن فهو أنّها توجب استيلاء اليبس على البدن واستيلاء الذبول عليه، وهذه الحالة لو استمرت لانتهت إلى الماليخوليا وموت البدن، فثبت بما ذكرنا أن هذه الأفكار توجب حياة النفس وشرفها، وتوجب نقصان البدن وموته، فلو كانت النفس

هي البدن لصار الشيء الواحد بالنسبة إلى الشيء الواحد سبباً لكماله ونقصانه معاً ولحياته وموته معاً وإنَّه محال.

والثالث:

أنا شاهدنا أنَّه ربما كان بدن الإنسان ضعيفاً نحيفاً، فإذا لاح نور من الأنوار القدسيَّة، وتجلى له سر من أسرار عالم الغيب، حصل لذلك الإنسان جرأة عظيمة وسلطنة قوية ولم يعبأ بحضور أكبر السلاطين ولم يقم له وزناً، ولو أن النفس شيء سوى البدن، والنفس إنما تحيى وتبقى بغير ما به يقوى البدن ويحيى لما كان الأمر كذلك.

والرّابع:

أن أصحاب الرياضات والمجاهدات كلما أمعنوا في قهر القوى البدنية وتجويع الجسد قويت قواهم الروحانيَّة وأشرقت أسرارهم بالمعارف الإلهية، وكلما أمعن الإنسان في الأكل والشرب وقضاء الشهوات الجسدانية صار كالبهيمة، وبقي محروماً عن آثار النظر والعقل والفهم والمعرفة، ولو أن النفس غير البدن لما كان الأمر كذلك.

والخامس:

أنَّا نرى النفس تفعل أفاعيلها بآلات بدنية فإنها تبصر بالعين وتسمع بالأذن، وتأخذ باليد وتمشي بالرجل، أمَّا إذا آل الأمر إلى التعقّل والإدراك، فإنها مستقلة بذاتها في هذا الفعل من غير إعانة شيء من الآلات، ولذلك فإنَّ الإنسان يمكنه أن لا يبصر شيئاً إذا غمض عينيه، وأن لا يسمع شيئاً إذا سدَّ أذنيه، ولا يمكنه البتة أن يزيل عن قلبه العلم بما كان عالماً به، فعلمنا أن النفس

غنية بذاتها في العلوم والمعارف عن شيء من الآلات البدنية، فهذه الوجوه أمارات قويّة في أن النفس ليست بجسم[1].

ونختم بحثنا في هذا على ما يراه السيد الشيرازي (دام ظلّه) في كتابه (الفقه العقائد) كحصيلة للبحث:

حيث يقول (دام ظله): ثم إنّا لا نعرف حقيقة النفس ولا حقيقة الروح، فقوله سبحانه: ﴿ *قل الروح من أمر ربي* ﴾[2] من باب المصداق وإلاّ فكل شيء هكذا، والأشياء عادة حقيقتها مجهولة للإنسان كما ذكره السيد الشريف من القدماء، وذكره الكثير من علماء الغرب كمؤلف كتاب (الإنسان ذلك المجهول).

وعلم الطب والتشريح وعلم النفس فعلاً وانفعالاً في البدن مع تقدمها الهائل تقف حائرة أمام البدن الماديّ، فكيف بالروح والعقل وصفات النفس التي هي معنويات؟ فقد قال بعض العلماء: إن الرواية المروية (من عرف نفسه فقد عرف ربّه) تشير إلى العقد السلبي لا الإيجابي.

أي كما أن الإنسان لا يعرف ربّه بحقيقته كذلك لا يعرف نفسه بحقيقتها، وإنّما المعروف لدى الإنسان الآثار لا المؤثر[3].

ويقول (دام ظلّه) في موضوع بين الروح والنفس: ثم إنّ الظاهر أنّ الروح غير النفس، كما أنهما غير العقل، فالروح آلة الحياة، أما النفس فشيء داخل الإنسان يأمر الإنسان بالحسن والقبيح.

وكلما جاء ذكر الروح في القرآن الحكيم مدحه الله تبارك وتعالى، ولكن عند ذكر النفس جعله بين المدح والذم كقوله: ﴿ *يوم يأت لا تكلّم نفسٌ إلاّ بإذنه*

---

(١) بحار الأنوار : ٥٨ / ١٧ - ١٩ .

(٢) سورة الإسراء: ٨٥.

(٣) الفقه العقائد : ٥٦ .

فمنهم شقيّ وسعيد ﴾[١] وقال تعالى: ﴿ ***أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرّطت في جنب الله وإن كنت لمن السّاخرين*** ﴾[٢] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ***ونفسٍ وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها*** ﴾[٣].

وأحياناً يطلق أحدهما على الآخر.

وكلها حسب المستفاد من الآيات والروايات والأدلّة العقليّة أمور ماديّة إلاّ أنها تختلف، كما أن الذهب والبرليان والتراب كلها أمور مادية لكنها تختلف في جواهرها.

كما أن الصفات النفسية من الشجاعة والجبن والكرم والبخل والعدالة والظلم وما أشبه ذلك كلها أمور ماديّة مخلوقة، وقد دلّ على ذلك روايات جنود العقل وجنود الجهل مما ذكر في بحار الأنوار[٤] وغيره، وإلاّ فلا يعقل أن يكون شيء متأثراً ولا مؤثراً فهو مثل أن يكون هناك معلول ولا علّة، فحالات الإنسان المختلفة تدلّ على منشأ لها.

أمّا قول الحاج السبزواري (النفس في وحدتها كلّ القوى).

فذلك مما لم يدلّ عليه الدليل، بل الظاهر أن الدليل على خلافه حيث (إنّ الواحد غير ذي الإرادة لا يصدر منه إلاّ واحد كما لا يصدر إلاّ واحداً)[٥].

---

(١) سورة هود: ١٠٥.

(٢) سورة الزمر: ٥٦.

(٣) سورة الشمس: ٧ ـ ٨.

(٤) راجع بحار الأنوار : ١ / ١٠٦ – ١٠٩ .

(٥) الفقه العقائد : ٥٣ – ٥٥ .

تعلّق الرّوح بالبدن

قال العلاّمة المجلسي ﵀ عن الرّوح: فزعمت الفلاسفة أن في البدن أرواحاً وأنفساً يعبرون عنها بالقوى: منها الروح الطبيعي التي يشترك فيها جميع الأجساد النامية، ومحلها الكبد، ومنها الروح الحيواني وهي التي يشترك فيها الحيوانات، ومحلّها من الإنسان القلب. ومنها النفساني وهي من فيض النفس الناطقة أو الفعل، ومحلّها الدماغ، وهي المدبّرة للبدن. وعندنا أن هذهِ الأرواح معانٍ يخلقها الله تعالى في هذهِ المحال، ثم أثبتوا قوى أُخر في المعدة: الماسكة والهاضمة، والجاذبة والدافعة. وعندنا أيضاً أنها معان وليست جواهر، لتماثل الجواهر، ولو كان بعض الجواهر روحاً لنفسه لكان كل جوهر كذلك فيستغني كلّ جزء عن أن يكون له روح غير نفسه، فبطل بذلك كون روح الجسد من نفسه.

إن قالوا: الروح الباقي عرض واعترض في الروح الأول. قلنا: فلِمَ لا يجوز أن يكون روح هذا الجسد الظاهر عرضاً هو الحياة؟ والله خالق الموت والحياة، فإن كانت جوهراً والموت عرض امتنع أن يبطل حكمها، لأنّ العرض لا يضاد الجوهر، وعند معظم أهل الفلاسفة والطب: أن الروح من بخار الدم فتصاعد فتبقى ببقائها.

واعلم أن اسم الروح مشترك باللفظ بين عشر معان: (أ) ـ الوحي. (ب) ـ جبرئيل. (ج) ـ عيسى. (د) ـ الإسم الأعظم. (هـ) ـ ملك عظيم الجثة. (و) ـ الرحمة. (ز) ـ الراحة. (ح) ـ الانجيل. (ط) ـ القرآن. (ى) ـ الحياة أو سببها.

وقال الباقلاني والإسفراني وابن كيّال وغيرهم: إنّ الروح هي الحياة وهي عرض خاص، وليست شيئاً من بقيّة الأعراض المعتدلة والمحسوسة، لجواز زوالها مع بقاء الرّوح.

إن قيل: فكيف يكون الرّوح هو الحياة والله له حياة وليس له روح؟.

قلنا: أسماء الله تعالى سبحانه توقيفيّة لا تبلغ من الآراء، فإنّ الله تعالى عليم ولا يسمّى دارياً، ولا شاعراً، ولا فقيهاً ولا فهيماً، والله تعالى قادر مبين، ولا يسمى شجاعاً ولا مستطيعاً.

إن قيل: كيف يكون الروح هو الحياة وفي الأخبار أن الأرواح تنتقل إلى عليّين، وإلى سجّين، وإلى قناديل تحت العرش وإلى حواصل طير خضر، والحياة لا تنتقل؟.

قلنا: يجوز أن تنتقل أجزاء أحياء وتسمى أرواحاً لأنّها محال الروح وهي الحياة تسمية للمحل باسم معنى فيه، كما يسمى المسجد صلاة في قوله تعالى: ﴿*لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى*﴾[1]. أو نقول: المنتقل أمثال الأرواح، يخلقها الله وتسمى (أرواحاً نورانيّة) وإن كانت قائمة بذوات المطيعين طيبة تصلي عليها الملائكة و(ظلمانيّة منتنة) إن كانت قائمة بذوات المسيئين تلعنها الملائكة، مثل ما ورد في الأخبار: تصعد صلاة المحسن طيبة مضيئة، وصلاة المسيء منتنة مظلمة، وأن سورة البقرة وآل عمران تأتيان كأنهما غمامتان، والله تبعث الأيام على هيئتها، وتبعث يوم الجمعة أزهر، وأنّه يؤتى بكبش أملح فيذبح، ويقال: هذا الموت، وإن الأعمال توزن، وإنّما هي أمثلة يخلقها الله.

إن قيل: إن الله وصف النفس التي هي الروح بالإرسال والإمساك في قوله تعالى: ﴿*يتوفّى الأنفس*﴾[2] والحياة لا توصف بذلك.

قلنا: قد سلف أن النفس يقال على معان: منها الرّوح، ومنها العقل والتميز، وهذان هما المراد من قوله: (يتوفى الأنفس ـ الآية) واطلق على

(١) سورة النساء:٤٣.

(٢) سورة الزمر: ٤٢.

النائم لعدم الدفع والنفع، ومنه سمّى الله الكفار أمواتاً في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾(١) لعدم النفع.

إن قيل: في الحديث أن الأرواح جنود في الهواء، والحياة لا تكون في الهواء.

قلنا: محمول على الذريّة التي خرجت من آدم. وفي هذا نظر لمخالفة ظاهر الآية إذ فيها ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾(٢). أو أنّ الأرواح هنا القلوب لأن التعارف والتساكن فيها.

إن قيل: في الحديث: خلق الله الأرواح قبل الأجساد ولا يصحّ ذلك في الحياة.

قلنا: لا يعلم صحته، أو المراد بالأرواح الملائكة، فإنّ جبرئيل روح، والملك العظيم الجثة روح، والروحانيون صنف منهم أيضاً.

والظاهر من كلام أبي الحسن وجماعة أنّ الروح أجسام لطيفة، فقيل: ليست معيّنة.

وقال الجويني: هي ماسكة الأجسام المحسوسة، أجرى الله العادة باستمرار الحياة ما استمرت، وكان ابن فورك يقول: هو ما يجري في تجاويف الأعضاء ولهذا جوّز (أبو منصور البغدادي) قيام الحياة بالشعر، إذ لا يشترط في محلها التجويف، ولم يجوز قيام الروح لإشتراط التجويف، وليس في الشعر تجويف، واستدلّ على كونها جسماً بوصف الله لها ببلوغ الحلقوم، وبالإرسال، وبالرجوع، وبالفزع، وبقوله: من نام على وضوء يؤذن لروحه أن تسجد عند العرش، وعلى هذا اختلف في تكليفها، فقيل: ليست مكلّفة بأفعال غير أفعال البدن: المحبة وضدّها، وأنّ له حياة وأفعالها اقتناء الأفعال الحميدة

---

(١) سورة النمل: ٨٠.

(٢) سورة الأعراف: ١٧٢.

واجتناب الذميمة، وأوردوا في ذلك ما أورده الخيريّ في تفسير قوله تعالى: ﴿ يوم تأتي كلُّ نفسٍ تجادل عن نفسها ﴾[١] أنّ النفس والرّوح يجيئان بين يدي الله فيختصمان، فتقول النفس: كنت كالثوب لم أقترف ذنباً ما لم تدخل فيّ، ويقول الروح: كنت مخلوقاً قبلك بدهور ولم أدر ما الذنب إلاّ أن دخلت فيك، فيمثل الله لهما أعمى ومقعداً وكرماً على الجدار ويأمرهما بالاقتطاف، فيقول الأعمى: لا أبصر، ويقول المقعد: لا أمشي، فيقول له: اركب الأعمى واقتطف، فيقول: هذا مثالكما فكما صار العنب بكما مقطوفاً صار الذنب بكما معروفاً. ومن قال الروح هي الحياة قال المراد بالروح في هذا القول: القلب لأنّه به حياة الجسد.

وقد رويَ في حلية الأولياء عن سلمان (رض) أنّه قال: مثل القلب والجسد مثل الأعمى والمقعد، قال المقعد: أرى ثمرة ولا أستطيع القيام فاحملني، فحمله فأكل وأطعمه، وهذا أولى لأنّ فعل الجسد إنّما يكون طاعة ومعصيّة بعزيمة القلب. ولهذا قال ﷺ: (إنّ في الجسم لمضغه إذا صلحت صلح سائره، وإذا فسدت فسد سائره، وهي القلب)[٢].

وجاء عن أبي جعفر ﷺ قال: إنّ العباد إذا ناموا خرجت أرواحهم إلى السماء، فما رأت الروح في السماء فهو الحق، وما رأت في الهواء فهو الأضغاث، ألا وإنّ الأرواح جنود مجندة فما تعارف فيها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، فإذا كانت الروح في السماء تعارفت وتباغضت، فإذا تعارفت في السّماء تعارفت في الأرض، وإذا تباغضت في السّماء تباغضت في الأرض[٣].

---

(١) سورة النحل: الآية ١١١.

(٢) بحار الأنوار : ٥٨ / ١٠٠ - ١٠٤ .

(٣) بحار الأنوار : ٥٨ / ٣١ - ٣٢ .

نستلخص من هذا إنّ لم يكن تعلق الروح بـالبدن تعلق حبٍ ومودة بـل كان تعلق إكراه وعنوة، فما ولجت الروح هذا البدن برغبة منها وإرادة، وإنّما بفرضٍ وقوّة من رب العزة الذي نفخها في البدن وهي منكرة له.

فعن الإمام جعفر بن محمّد عن أبيه عليهما السلام قال: «إنّ روح آدم عليه السلام لما أمرت أن تدخل فيه كرهته فأمرها أن تدخل كُرهاً وتخرج كُرهاً»[1] وإنّما نفور الروح من البدن هو بسبب محدوديته وضآلتـه وضعفه، فهي ترى فيه المعتقل الذي يغلق عليها منافذ القدرة والعلم والسطوة، فنظـر البـدن محـدود لا يتعـدى الجدران والحيطان، بينما نظر الروح يتخطى الزمان والمكان، ويتجاوز الأغلفة والحواجز الماديّة، وسمع البدن محدود بعالم المادة بينما سماعِ الـروح يتخطّى المادة ويدرك مفاهيم ولغات الخلائق الأخرى من ملائكة وجنٍ ونبات وجماد، والروح عندما تتعلق بالبدن فهي تنسى الكثير من علومها ومعارفها، وتبـدأ من جديد تتعلم أشياء بسيطةٍ تعينها في العيش في عالم الدنيا، وهـي معارف فقيرة نسبة إلى المعارف الغنيّة التي كانت تتمتع بها من ذي قبل.

ولعلّ أكثر الأمـراض النفسية شيوعاً مثل الملل والضجر والكآبة سببها الأساسي هـي نفـرة الـروح مـن هـذا البـدن المحدود، فهي التـي جُبلـت علـى التحرر والإنطلاق في الأفق الواسع والتحرر من عـالم المـادة، تـرى أن البـدن قيّدها من الإنطلاق والطّيران في هذا الأفق اللا محدود، فكل واحد منا تحدوه رغبة في الطيران والإنطلاق في بحر السماء الواسع كما تحلق الطيور، ومـا هـذا الشعور إلاّ رغبة منبثقة من عالم الروح المتحرر، فهذه الروح التي كانت تطير متنقلة بين العوالـم المختلفـة أصعـب مـا عليهـا أن تُسـجن في قـالبِ ثقيـل هـو البـدن، فيحددهـا بعجـزه ويرهقـها بمرضـه واعتلالـه، حتـى لا تطيـق معـه البقـاء

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨ / ٣٠ .

ونحن إلى يوم الانعتاق، ولولا خشيتنا من الموت وما بعده لكانت أرواحنا تهرول نحو يوم الخلاص من سجن البدن.

وليس ما ذكرناه من قدرات الرّوح الخارقة ونظراتها الثاقبة لحجُب المادة بشيء جزاف، فعلماء الفيزياء أنفسهم بدأوا يذعنون لهذه الحقائق على الرغم من عدم اعترافهم بذلك بشكل علمي، لعدم توفر الوسائل التي تمكنهم من قياس القوى الروحيّة.

فقد بثّ برنامج (غرائب ما يدور في العالم) فيلماً مصوّراً لأشخاص يتعقبون المجرمين بقوة أرواحهم، وهم يرقدون في غرفة مغلقة ويبدأون بالبحث من خلال قواهم الخارقة عن تفاصيل الجريمة التي وقعت في وقتٍ سابق، وذلك إما لإكتشاف المجرم أو الكشف عن مكان الضحيّة، وقد تمّ تأسيس مكتب كبير في الولايات المتحدة الأمريكية لتقديم مثل هذه الخدمات للزبائن، فبدأ العشرات ممن يبحثون عن قريبٍ لهم خُطف أو طفلٍ ضائع منذ سنوات أو شخصٍ قتل في ظروف غامضة، بمراجعة هذا المركز من أجل الحصول على معلومات دقيقة بشأن القضية التي قدموا من أجلها، وليس هذا الفيلم الذي صوّر في الولايات المتحدة وحده الذي يكشف خوارق قوى الروح، فعشرات الكتب تتحدث على عالم ما وراء الطبيعة والمادة، والتي تنقل مشاهدات العائدين من الموت، وهي تصف قوى غير محدود للرّوح فمن يريد المزيد في هذا الشأن فليراجع إحدى تلك المؤلفات.

فالروح هي معدن الإنسان بل هي جوهره وإنّما تعلقت برداء البدن لإمكانية عيشها في محلٍ كالأرض وتحقق الإختبار الإلهي لها، فلو كانت منفصلة عن هذا الرداء لعمّ شعاع نورها الآفاق واخترق حجب ظلمات المادّة، وبطل حينذاك الإختبار الإلهي. لأنّ الروح ما عادت تجهل حقيقة الشيطان لأنّها تراه بعين النور، وما كادت تخفى عليها حقيقة في السماء ولا في

الأرض، لأنّها ترى أرواح الملائكة بعين بصيرتها وهم يتجولون أرجاء السّماء والأرض جيئةً وذهاباً، وصعوداً وهبوطاً، وما كانت جاهلةً، لأن بارئها قد زقّها العلم زقاً، فما جهلهُ الملائكة المقربون كانت به عالمة، وما أخفي عن أعينهم من أسرار كانت به مدركة، فهي عارفة بربها موقنة بخلقها، مدركة للعوالم والخلائق من حولها، ومن تكون هذه صفته لا يخضع لإختبار أو امتحان، لأنه حاضر الجواب مدرك الحساب والكتاب، بينما لو وضعنا حجاباً مادياً أمام هذا النور وألقينا الإنسان في زنزانة الجسد، فإنّه ما يرى من شمس الحقيقة إلاّ بصيصها وهو المقدار الكافي لتحقيق الإختبار، وهو نفس المقدار الذي تتحقق به معرفة الرّب، فمن أراد الزيادة من معرفة ربّه والمزيد من نور روحه عليه أن يتجرد عن زنزانة جسده ولا يخضع لظلمة أهوائه وشهواته، لأنّه من يركع لتلك الأهواء فقد أذلّ روحه وحجبها عن نور العقل حتى يختفي شيئاً فشيئاً بصيص النور الذي أودعه الله في ذات كلّ إنسان لكي يدرك المعقولات ويكشف الخفيّات.

فالرّوح على ما وصفنا: هي العاقلة المدركة وهي الباصرة السامعة، وهي الفرِحة المنبسطة، وهي الصابرة الحليمة، وهي الكريمة الشجاعة، فإذا أبصرت الروح نظرت العين وشاهدت ما هو قائمٌ أمامها، وإذا شاءت الروح أن تنجرف في عالم الفكر والخيال، أصبحت العين المفتّحة عاجزة عن الإبصار في عزّ النهار وذلك لإنشغال الروح بالذهن، فما مرّ من صورٍ ومشاهدات أمام العين لا تكاد تسجلها في طابعة الدماغ، لأنّ الروح منشغلة عن ذلك نحو عالمٍ آخر، فهي التي تأمر العين بالإبصار، وهي التي تأمر الأذن بالسّمع، وهي التي تأمر الدماغ بتخزين المعلومات، وهي التي تحلل كلّ ذلك وتصوّر الأوامر بشأنه.

تجرّد الروح

ليس عسيراً على من أمعن نظره في الرّوايات والأحاديث التي وردت في أبواب سابقة من هذا البحث أن يستدلّ على أنّ الروح مجردة عن البدن وهي خلقٌ مغايرٌ له، وإنّما تعلقت به لتبلغ هدفها في العبور من محطة الدنيا إلى محطة الآخرة، ولو شاء الله لألبسها رداءاً آخراً وبدناً مغايراً لهذا الذي نراه. وقد جاء في الكتاب العزيز ﴿*فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ*﴾[1] ومعنى ذلك أن الرّوح هي جوهر الإنسان وأن البدن متغير، والأعظم من ذلك أن للروح قابلية نزع هذا البدن وإرتداء ثوب آخر يختلف عنه اختلافاً كليّاً، فكيف مع هذا البيان أن نؤمن بأن الروح تنشأ من حركة جوهرية في المادة والبدن؟ والحال أنّ الروح أرفع مقاماً وأعلى منزلةً، وهي المدبرة لشؤون البدن والمُتصرفة فيه، وهي الثرية بقدراتها والمستقلة بشؤونها والغنية عن خدمات البدن إذا انفصلت عنه، وتتمكن من انتخاب بدن أفضل وأرقى منه وهذا ما سيحصل حقاً في الجنة، ألاَ ترى إلى البدن الذي تركته الروح يصبح جيفة نتنة كيف يُعقل أنّ هذا البدن نفسه هو أساس منشأ الروح وهو الذي يساعد على نموها؟.

ويتصورون أنّ الروح أيضاً تنمو وتكبر كما يكبر وينمو الطفل الرضيع، حتى تصبح بالغةً عاقلة عند فترة الشباب، والحال أنّ الروح على صفةٍ واحدة لا تكبر ولا تصغر ولا تنمو ولا تتغير، وأما حالها في فترة الطفولة فهي في حالة نسيان للعلوم السابقة، وهي تبدأ بالتعلم من جديد في فترة الطفولة، وأن حالة نسيانها تشبه إلى حدٍ كبير صفة الطفل الذي لا يعلم من الدنيا شيئاً، لذلك كان

---

(١) سورة الإنفطار: ٨.

لزاماً ان يخلق الإنسان أولاً طفلاً لكي يتعلم العلوم، ثم ينشأ مستقلاً بفكره وعقله إن هو بلغ مبلغ الرجال، إن كان الأمر كما يقولون: من أنّ الروح تنتقل من مرحلة الطفولة إلى الشباب ثم الشيخوخة لكانت روحِ النبي عيسىﷺ أيضاً كانت صبية ولا تعقل شيئاً عندما أنطقها الباري عزّ وجلّ ﴿ ***فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً ❁ قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ❁ وجعلني مباركاً أينما كنتُ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً*** ﴾[1]. لأنّ الصبي لا يأتي بكلامٍ موزون ولا يُجعل نبياً، ولا يُبعث بكتاب ولا يكلف بصلاة وزكاة، وإنّما حصل ذلك لعيسىﷺ لأنّ روحه كانت ذاكرة لما أمرها الله عزّ وجل، ونستطيع تشبيه حالة نسيان الروح لمعارفها عند هبوطها الأرض مثل ذلك الإنسان الذي فقد ذاكرته فهو عاجز عن التعرف إلى أقرب المقربين إليه، وإذا كانت إصابته أوسع من ذلك فإنه سينسى بعض المعارف والعلوم التي تعلمها في حياته، أما إذا كانت إصابته كُلية فهي ستشبه حالة انتقال الروح من عالم آخر إلى عالم الدنيا، وقيل: أنّ كلمة الإنسان اشتقت من النسيان، وقد جاء في حديث لأبي عبد اللهﷺ قال: «سُمي الإنسان إنساناً لأنّه ينسى وقال الله عزّ وجلّ: ﴿ ***ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي*** ﴾[2]»[3].

ونستطيع أن نستدل على تجرد الروح أيضاً من فترة الشيخوخة إذ فيها يهرم البدن إلاّ إن النفس تبقى مشابة. تأمَلْ بطول العمر وزيادة المال، فلو كانت الروح تنشأ من قوة البدن لا تصفت بصفته وما خرجت عن طوره، ولم يستدل من قال بعدم تجرد الروح عن البدن إلاّ برأيه وحدس عقله. والصواب هو أن لا نكتفي بآرائنا العقلية كأدلة على صحة ما نراه خاصة، وأن وسائل

---

(١) سورة مريم: ٢٩ - ٣١ .

(٢) سورة طه : ١١٥ .

(٣) بحار الأنوار: ٥٨ / ٢٦٤ .

الغيب تزخر بالعشرات من الروايات والأحاديث التي تبين وتؤكد تجرد الروح عن البدن، ومنها هذه الروايات التي وُرد بعضها في أبواب سابقة:

فعن جعفر بن محمّد عن ابيه(عليهما السلام): «أنّ روح آدم(عليه السلام) لما أمرت أن تدخل فيه كرهته فأمرها أن تدخل كُرهاً وتُخرج كُرهاً»[١] ولو لم تكن الروح مجردة لما انفصلت عن البدن وما خلقت قبله وما كُرهت بعد ذلك أن تدخل فيه، وما كراهتها إلاّ بسبب ارتفاع منزلتها ومقدارها على البدن، ولأنّه يسجنها ويحدد قدراتها الهائلة والكبيرة.

وعن أبي عبد الله(عليه السلام) في قوله عزّ وجلّ ﴿ *فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي* ﴾ قال: «إنّ الله عزّ وجلّ خلق خلقاً وخلق روحاً، ثم أمر ملكاً فنفخ فيه فليست بالتي نقصت من قدرة الله شيئاً»[٢] والخلق الأول المقصود في الرواية: هو البدن وأما الخلق الثاني: فهو الرّوح الذي دخل في البدن عن طريق النفخ.

وعن المفضّل عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: «مثل روح المؤمن وبدنه كجوهرة في صندوق إذا أخرجت الجوهرة منه طرح الصندوق ولم يعبأ به. وقال أيضاً(عليه السلام): إن الأرواح لا تمازج البدن ولا تواكله (وفي رواية أخرى لا تداخله) وإنّما هي كللٌ للبدن محيطة به»[٣] وهذه الرواية تدحض بشكل صريح فكرة عدم تجرد الرّوح عن البدن، تؤكد أن الروح لا تمازج البدن ولا تتداخل معه بل هي محيطة به.

وفي رواية أخرى يكشف الإمام الصادق(عليه السلام) حالة تجرد الرّوح عن البدن بعد الموت إذ يقول: «إذا قبضت الروح فهي مظلّة فوق الجسد ينظر إلى كلّ شيء يُصقع به، فإذا كُفّنا ووضع على السرير وحُمل على أعناق الرجال

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨ / ٣٠ .

(٢) بحار الأنوار: ٥٨ / ٣٢ .

(٣) بحار الأنوار: ٥٨ / ٤٠ – ٤١ .

عادت الرّوح إليه، فدخلت فيه فيمدّ له في بصره، فينظر إلى موضعه من الجنّة أو من النار، فينادي بأعلى صوته إن كان من أهل الجنّة: عجلوني! عجلوني! وإن كان من أهل النار: ردوني! ردوني! وهو يعلم كلّ شيء يصنع به ويسمع الكلام»[1].

خلق الأرواح قبل الأبدان

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الأرواح قبل الأبدان بألفي عام، هذا ما جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله ﷺ قال: «خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام ثم أسكنها الهواء، فما تعارف منها ثم ائتلف ههنا وما تناكر ثم اختلف ههنا»[2] فهذا الحديث وأحاديث أخرى مشابهة بينت أن الرّوح هي جوهر الإنسان، وهي التي تقبلت خلافة الله في الأرض، وهي التي عاهدته على التسليم لأنبيائه وكتبه، ولنا أن نسأل المنكرين لخلق الرّوح قبل البدن: من الذي عاهد الله إذن على الإيمان به والتصديق برسالاته قبل خلق الأبدان؟.

لقد وردت آيات من الذكر الحكيم تؤكد صحة ما جاء به الحديث الشريف من خلق الأرواح قبل الأبدان ومنها هاتين الآيتين: ﴿ *ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنّه لكم عدوٌّ مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم* ﴾[3] فمتى عاهدنا الله العزيز على عبادته وعصيان الشيطان الرجيم؟ هل يذكرُ أحدنا أنه قدّم مثل هذا العهد إلى الباري عزّ وجلّ؟ ونحن نشاهد خلق

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨ / ٥٠ .

(٢) بحار الأنوار: ٥٨ / ١٣٢ .

(٣) سورة يس: ٦٠ - ٦١.

الإنسان منذ الطفولة وحتى البلوغ والشيخوخة ولا نرى لهذ الإنسان أي اتصال أو لقاء بالغيب فمتى عاهد الله على ذلك؟ أليست كانت هناك حياةَ سابقة لا تشبه الدنيا تعهد الإنسان خلالها باتباع دين الله؟.

الفطرة العقلية تقول نعم!! من جهتين:

الأولى: نفي قضية العهد هو ردّ على القرآن وإنكار لحكمة الباري عزّ وجلّ الذي يخلق الخلق ويزجهم في نار جهنم دون أن يُبين ما لهم وما عليهم وما ينتظرهم من الثواب والعقاب، ولا يخيّرهم بين الموافقة والإعراض عن تحمل المسؤولية وهذا خلاف الحكمة وحاشا لله من ذلك.

الثانية: ليس عدلاً أن يقتص الله من الإنسان على تفريطه في حمل أمانة لم يتعهد هو بحملها!!.

وقد جاء في الذكر الحكيم أيضاً: ﴿ ***وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذريّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربّكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنا عن هذا غافلين*** ﴾[1] فلا أدل من هذه الآية على المعنى الذي ذهبنا إليه، ولا أوضح منها حول خلق الأرواح قبل الأبدان، وأنها هي (أي الروح) الشاهدة على ربوبية الله وهي المعاهدة له بالإيمان في دار الدنيا وعلى الحساب والكتاب في دار الآخرة، ولمن يطلب المزيد من الأدلّة على مسألة العهد نأتي له بهذه الآية وهي لا تقل وضوحاً وبياناً عن الآيات السابقات وهي: ﴿ ***إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً*** ﴾[2] في أي عصر تحمل الإنسان أمانة الله؟ هل تحملها في عالم الدنيا؟ فإذا لم تكن قد وقعت مثل هذه المعاهدة في الدنيا فإنها لابدّ وأن تكون واقعة في زمنٍ سابق.

---

(١) سورة الأعراف : ١٧٢ .

(٢) سورة الأحزاب: ٧٢ .

ولا حجة بعد هذه الشهادة لمن أنكر العهد وكفر به، فهناك الكثير من الروايات والأحاديث التي تدعم هذه الفكرة والرأي في خلق الأرواح قبل الأجساد وهذه جملة منها:

عن عبد الله بن أبي يعفور عن أبي عبد الله ﷺ قال: «إنّ الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها في الميثاق ائتلف هـهنا، وما تناكر منها في الميثاق اختلف ههنا، والميثاق هو في هذا الحجر الأسود»[1].

وعن جابر، عن أبي جعفر ﷺ قال: قال أمير المؤمنين ﷺ: إنّ الله تبارك وتعالى خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام، فلما ركّب الأرواح في أبدانها كتب بين أعينهم مؤمن أو كافر، وما هم به مبتلون، وما هم عليه من سيء أعمالهم وحسنها في قدر أذن الفأرة، ثمّ أنزل في ذلك قرآناً على نبيه، فقال: ﴿إنّ في ذلك لآيات للمتوسّمين﴾[2] وكان رسول الله ﷺ هو المتوسم وأنا بعده والأئمة من ذريتي هم المتوسمون»[3].

وعن أبي حمزة الثمالي عن أبي عبد الله ﷺ أنّ رجلاً قال لأمير المؤمنين ﷺ: والله إنّي لأحبك - ثلاث مرات - فقال علي ﷺ: والله ما تحبني فغضب الرجل ، فقال: كأنّك والله تخبرني ما في نفسي، قال له ﷺ: لا، ولكن الله خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام فلم أرَ روحك فيها»[4] وفي ذلك إشارة إلى حديث الأرواح جنود مجندة فإن الإمام ﷺ لم يتذكر هذا الرجل أنّه كان أحد أتباعه.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨ / ١٣٩ .

(٢) سورة الحجر: ٧٥.

(٣) بحار الأنوار: ٥٨ / ١٣٢ - ١٣٣ .

(٤) بحار الأنوار: ٥٨ / ١٣٢ .

وقال العلماء: إنما عني بخلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام هو خلقها قبل آدم بألفي عام.

وعن جابر بن يزيد قال: سمعت أبا عبد الله‏ يقول: «الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها عند الله ائتلف في الأرض، وما تناكر عند الله اختلف في الأرض»[١].

وفي كتاب المناقب: سأل أبا بكر نصرانيان ما الفرق بين الحب والبغض ومعدنهما واحد؟ وما الفرق بين الرؤيا الصادقة والرؤيا الكاذبة ومعدنهما واحد؟ فأشار إلى عمر فلما سألاه أشار إلى علي‏ فلما سألاه عن الحب والبغض، قال: «إنّ الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام فأسكنها الهواء، فمهما تعارف هناك ائتلف ههنا، ومهما تناكر هناك اختلف ههنا...»[٢].

وعن بكير بن أعين قال: كان أبو جعفر‏ يقول: «أن الله أخذ ميثاق شيعتنا بالولاية لنا وهم ذر يوم أخذ الميثاق على الذر بالإقرار بالربوبيّة ولمحمد‏ بالنبوة، وعرض الله عزّ وجلّ على محمد أمّته في الطين وهم أظلّة وخلقهم من الطينة التي خلق منها آدم، وخلق الله أرواح شيعتنا قبل أبدانهم بألفي عام، عرضهم عليه وعرّفهم رسول الله وعرّفهم علياً ونحن نعرفهم في لحن القول»[٣].

وسأل أحد الأصحاب أبي عبد الله‏ عن الأرواح قائلاً: ما تقول في الأرواح أنّها جنود مجندّة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف؟

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨ / ١٣٥ .

(٢) المناقب: ٢ / ٣٥٧ .

(٣) بحار الأنوار: ٥٨ / ١٣٥ - ١٣٦ .

قال: فقلت إنّا نقول ذلك، قال فإنه كذلك: إنّ الله عزّ وجلّ أخذ على العباد ميثاقهم وهم أظلّة قبل الميلاد وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿ ***وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم...*** ﴾[1] قال: «فمن أقرّ له يومئذ جاءت ألفته ههنا، ومن أنكره يومئذ جاء خلافه ههنا»[2].

وقد فسّر العلماء «الأرواح جنود مجندّة فما تعارف مها ائتلف وما تناكر منها اختلف». مجندَة: أي مجموعة كما يقال: ألوف مؤلفة وقناطير مقنطرة، وقالوا: إنّ الأجساد التي فيها الأرواح تلتقي في الدنيا فتأتلف وتختلف على حسب ما خلقت عليه. ولهذا ترى الخيِّر يحب الأخيار ويميل إليهم، والشرير يحب الأشرار ويميل إليهم.

وقال الكرماني في شرح البُخاري: جنود مجندَة: أي خُلقت مجمعة ثم فرّقت في أجسامها، فمن وافق الصفة ألفه ومن باعد نافره.

وقال الخطابي: خُلقت قبلها فكانت تلتقي، فلما التبست بها تعارفت بالذكر الأول، فصار كلٌ إنّما يعرف وينكر على ما سبق له من العهد.

وقال النووي: مجنّدة أي جموع مجتمعة وأنواع مختلفة وتعارفها لأمر جعلها الله عليه، وقيل: موافقة صفاتها وتناسبها في شيمها[3].

وروى عن عمارة قال: كنت جالساً عند أمير المؤمنين عليه السلام إذ أقبل رجل فسلّم عليه، ثم قال: يا أمير المؤمنين والله إني لأحبك، فسأله ثم قال له: إنّ الأرواح خلقت قبل الأبدان بألفي عام، ثم أسكنت الهواء، فما تعارف منها ثم ائتلف ههنا، وما تناكر منها ثمّ اختلف ههنا، وإنّ روحي أنكر روحك[4].

---

(١) سورة الأعراف : ١٧٢ .

(٢) بحار الأنوار: ٥٨ / ٣٩ - ١٤٠ .

(٣) بحار الأنوار : ٥٨ / ١٤٠ .

(٤) بحار الأنوار : ٥٨ / ١٣١ - ١٣٢ .

وجاء في العلل عن محمد بن علي بن إبراهيم قال: العلّة في خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام، قال: إنما عنى به أنّ الأرواح خلقت قبل آدم بألفي عام[١].

وجاء في الرواية عن معاني الأخبار بعد ذكر السند قال أبو عبد الله عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام، فجعل أعلاها وأشرفها أرواح محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة بعدهم عليهم السلام فعرضها على السماوات والأرض والجبال فغشيها نورهم[٢].

وجاء في الكافي بعد ذكر السند عن جابر بن يزيد قال: قالَ لي أبو جعفر عليه السلام: يا جابر، إنّ الله أول ما خلق خلق محمداً وعترته الهداة المهتدين، فكانوا أشباح نور بين يدي الله، قلت: وما الأشباح؟ قال: ظل النور، أبدان نورية بلا أرواح، وكان مؤيداً بروح واحدة وهي روح القدس فبه كان يعبد الله وعترته، ولذلك خلقهم حلماء علماء بررة أصفياء، يعبدون الله بالصلاة والصوم والسجود والتسبيح والتهليل، ويصلّون الصلاة ويحجون ويصومون[٣].

وروى نقلاً عن الشيخ المفيد قدس سره في أجوبة المسائل المروية: فأما الخبر بأن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام فهو من أخبار الآحاد، وقد روته العامة كما روته الخاصة، وليس هو مع ذلك مما يقطع على الله بصحته. وإن ثبت القول فالمعنى فيه أنّ الله تعالى قدّر الأرواح في علمه قبل اختراع الأجساد، واخترع الأجساد، واخترع لها الأرواح، فالخلق للأرواح قبل الأجساد خلق تقدير في العلم كما قدمناه وليس بخلق لذواتها كما وصفناه،

---

(١) بحار الأنوار : ٥٨ / ١٣٥ .

(٢) بحار الأنوار : ٥٨ / ١٣٦ .

(٣) بحار الأنوار : ٥٨ / ١٤٢ .

والخلق لها بالإحداث والاختراع بعد خلق الأجسام والصور التي تدبّرها الأرواح، ولولا أنّ ذلك كذلك لكانت الأرواح تقوم بأنفسها ولا تحتاج إلى آلات تعلّقها، ولكنّا نعرف ما سلف لنا من الأرواح قبل خلق الأجساد كما نعلم أحوالنا بعد خلق الأجساد، وهذا محال لاخفاء بفساده، وأمّا الحديث بأن الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، فالمعنى فيه أنّ الأرواح التي هي الجواهر البسائط تتناصر بالجنس وتتخاذل بالعوارض، فما تعارف منها باتفاق الرأي والهوى ائتلف وما تناكر منها بمباينة في الرأي والهدى اختلف، وهذا موجودحساً ومشاهد، وليس المراد بذلك أن ما تعارف منها في الذر ائتلف كما ذهبت إليه الحشوية؟ كما بيّناه من أنه لا علم للإنسان بحال كان عليها قبل ظهوره في هذا العالم، ولو ذكّر بكل شيء ما ذكر ذلك.

ويعقّب العلامة المجلسي على ذلك فيقول: قيام الأرواح بأنفسها وتعلقها بالأجساد المثاليّة ثم تعلقها بالأجساد العنصرية مما لا دليل على إمتناعه، وأمّا عدم تذكّر الأحوال السابقة فلعلّه لتقبلها في الأطوار المختلفة، أو لعدم القوى البدنية، أو كون تلك القوى قائمة بما فارقته من الأجساد المثاليّة، أو لإذهاب الله تعالى تذكّر هذهِ الأمور عنها لنوع من المصلحة، كما ورد أنّ الذكر والنسيان من صنعه تعالى، مع أن الإنسان لا يتذكر كثيراً من أحوال الطفولية والولادة. والتأويل الذي ذكره للحديث في غاية البعد لاسيّما مع الإضافات الواردة في الأخبار المتقدمة[1].

ومما يظهر من الأحاديث والروايات الآنفة الذكر أنّ تعارف الأرواح واصطفافها إلى شكل فرق ومجموعات، إنّما كان بسبب اختلاف رأيها

---

(١) بحار الأنوار : ٥٨ / ١٤٤ .

وموقفها من الميثاق، ومن ربوبية الله ونبوة الرسول الأكرمﷺ، فلما خلق الله عزَ وجلَ السماوات والأرض وأهبط الأرواح محل الأبدان، فمن كان مؤمناً بميثاق الله مالت روحه نحو المؤمنين، ومن كفر بذلك فروحه ميالة للكافرين.

متطلّبات الروح والبدن

ولما كان مصدر الروح السماوي قُدسي فإنَ متطلباتها وغاياتها تختلف بشكل واسع عن متطلبات الجسد وغاياته، فهي تسعى إلى تحقيق أهداف سامية، وقيم عالية وهي ترى في تحقيق غاياتها من فعل الخيرات، فمن تلك الغايات أن يعمّ الخير ويسود السلام، ويحكم الحق ويأمر العدل وتشيع مفاهيم المحبّة والتعاون، وتنتشر العلوم والمعارف، والروح تميل بطبعها إلى الخصال الحميدة، كالكرم والشجاعة، والصدق، والإباء، والإخلاص، والأمانة.. وغيرها.

لكن متطلبات الجسد لا تعير لهذه المعاني أدنى أهمية، ولا تضع لهذه المفاهيم أدنى وزن، لأنَ البطن إذا جاعت ستذل صاحبها وتفرض عليه أن يشق الأرض ليؤمّن لها لقمة غذاءٍ تسد جوعها، ولا تُبالي من حلالٍ كانت أو من حرام، من تعبٍ وشقاءٍ اكتُسبت أو من سرقةٍ وخداع، وما يهمها هو تحقيق مرادها... وهكذا بالنسبة لباقي الشهوات والرغبات الجسدية التي لاتنفك، فهي تلح على صاحبها كي ينقاد لمتطلباتها، فإن هو أذعن فقد تجره إلى مكانٍ سحيق شديد الظُلمة، وإن لم يذعن فقد توبخه وتلومه على ما فرّط في حقها. والصحيح هو الإعتدال في كلّ شيء في الأكل والشرب والشهوات من باب الحلال والسعي في ذات الوقت إلى السيطرة على تلك الأهواء والشهوات والتحكم بمتطلباتها.

فإن هذا مفترق طرق والناس فيه أشتات، فمنهم من إرتقى سلّم المعالي، ومنهم من هبط إلى أسوء دركٍ في الحضيض، وعلى المرء أن يكون حذراً في انتخاب الطريق الذي يسلكه، ففي أحدهما السعادة وفي الآخر التعاسة والشّقاء، والأمراض النفسية هي من صنف طريق الشقاء، وهي تنشأ نتيجة العجز عن توفير متطلبات الروح والإسراف والمبالغة في تلبية حاجات وشهوات البدن، فإن هناك تناقضاً كُلياً بين متطلبات الروح ومستلزمات البدن، الإسراف في أحدهما يستلزم التفريط في الآخر.

وقد أشار الإمام علي ﷺ في حديثٍ له عن هذه الحقيقة قائلاً: «خدمة الجسد أعطاؤُهُ ما يستدعيه من الملاذ والشهوات والمقتنيات، وفي ذلك هلاك النفس»[1] فإنّ من يريد أن يصبح كريماً عليه أن يقمع البُخل الصادر عن متطلبات بدنه، ومن يريد أن يكون شجاعاً عليه أن يقمع الخوف الصادر عن خشيته من إلحاق الضرر ببدنه، ومن يسعى لأنّ يكون صادقاً عليه أن يقمع الكذب الصادرعن متطلبات مصلحته، ومن يريد أن يكون عالماً عليه أن يقمع الجهل الصادر عن طبيعته المادية، وهكذا ما ترى من حسنةٍ للروح إلاّ وتقابلها سيئةً من جانب البدن والمادة والتراب، وهذا لا يعني أنَّ الروح لا تتلوث بمساويء الأخلاق، وإنّما هي تكون كذلك عندما تنقاد من جانب الجهل والشهوات والأهواء، ونجد إنّه من يستولي عليه البخل وحب جمع المال لا يستطيع أنّ يكون كريماً، وأنّ من يخاف على نفسه الضرر لا يستطيع أنّ يكون شجاعاً، وإنّ من ينغمس في اللذات والشهوات والحياة المادية لا يستطيع أن يكون عفيف النفس. كم من المرتاضين الهنود وغيرهم وصلوا إلى مراحل عالية من التجرد الروحي، وقد صدرت عنهم خوارق للطبيعة وذلك كلّه

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١ / ٣٥٩ / ح٦٠.

بسبب كسرهم لشهوات بدنهم، وهو ما يدلّ على أن من يتمكن من ضبط شهواته وأهوائه وانفعالاته لهو مؤهل لكسر قوانين المادة.

ولو نظرنا بتمعن إلى الحديث الذي أدلى به الإمام الصادق منقولاً عن الإمام علي(ع) وهو يبين مقتضيات الروح والجسد ومتطلباتهما، تتضح لنا صورةٌ ناصعة حول الطبيعتين الروحية والجسدية في داخل الإنسان. الحديث هو: «إنّ للجسم ستة أحوال: الصحة، والمرض، والموت، والحياة، والنوم، واليقظة، وكذلك الروح. فحياتها علمها، وموتها جهلها، ومرضها شكلها، وصحتها يقينها، ونومها غفلتها، ويقظتها حفظها»[1] ومما يظهر من الحديث الشريف أنّ الأرواح تميل بطبعها إلى عالم المثل والقيم الساميّة إلاّ أن ميلانها هذا لا يتحقق على أرض الواقع إلاّ عن طريق العلم والمعرفة، فلكي تفرض الروح هذه القيم على النفس البشرية عليها أولاً أن تقنع القلب بدلائل علمية وقاطعة بضرورة الإنقياد لتلك المثل والقيم، لأنّ القلب هو الزعيم الذي يتحكم بمصير الإنسان، فمرّة يتّبع عقل الرّوح ومرّة أخرى يتبع الهوى، لذلك يحث الدين الإسلامي أتباعه ويشدد عليهم بطلب العلم والمعرفة، لأن مفاهيم الدين لا يمكن إدراكها إلاّ مع التبحر في العلم والمعارف، وأن هذه المعارف تلتقي مع مبادئ الدين في نهر واحد لأن أصلهما وجذرهما سماوي المنبع، فالعلوم الدنيوية المكتشفة وغير المكتشفة هي قوانين شرّعها الباري عزّ وجل لتنظيم الحياة في الدنيا، وأن أحكام القرآن الكليّة جاءت متلائمة ومتوافقة مع هذه القوانين العلمية، فمرّة نكتشف الحقيقة القرآنية عن طريق القوانين العلمية، ومرّة أخرى نصل إلى الحقائق العلمية من خلال القوانين القرآنية، وهكذا نلاحظ اللقاء الحميم بين معارف الدين وبين العلوم الدنيوية.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨ / ٤٠ .

نعود إلى الحديث الشريف: «... وكذلك الروح، فحياتها علمها، وموتها جهلها...» ومن ذلك نعرف موقع العقل للروح وهو بمنزلة الرأس للبدن، فكما أنّ الإنسان لا يعيش من دون الرأس وكذلك الروح لا تعيش من دون العقل، لأن حياتها في العلم ومماتها في الجهل، ألاَ تنظرون إلى المجنون كيف إنّ روحه معذبة تتقلب بين الموت والحياة وذلك بسبب فقدان العقل، وليس المجنون وحده المعذب بل الجاهل أكثر عذاباً لأنه يملك عقلاً لا ينتفع به، ويملك قلباً لا يحسن الإستفادة منه، يريد أن يصنع معروفاً فيسيء، ويحاول أن يصف حقاً فينطق باطلاً، وتأبى نفسه أن يجهدها في التفكير، ولا يرهق بدنه في تحصيل العلم، كثير الأخطاء وقليل الحياء، يسرع وراء اللذّة، ويستهين بكرامته من أجل اللقمة، روحه في عذاب وبدنه منه في راحة، وذلك ميت الأحياء، وقد جاء في الذكر الحكيم: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾[1].

لقد أغلق الجاهل منافذ عقله، فهو لا يسمع ولا يرى بنور العقل، وإنّما هو يسمع بأذن قاصرة، ويرى بعينٍ جاهلة، والعقل في غفلةٍ دائمة.

والروح تمرض كما البدن يمرض، ومرضها وصفه الإمام علي ﷺ: «ومرضها شكلها...» وهو داءٌ عضال يصيب المرء من الجانب الخفي من ناحية قلبه، إذ يهجم عليه وهو في غفلةٍ عن أمره، لا يدري من أين يأتيه!... من شماله؟ أم من جنوبه؟ أم من يمينه؟ من حيثما يولّي وجهه يرى وساوس الشكوك تلاحقه وتطارده وتنغّص عليه عيشته مثل سلسلة طويلةً (شكاً يقود إلى شك، ووسواس يُمهّد إلى وسواس) والمرء المعذّب بينهما كالكرة يُرمى به من جهة إلى جهة، ويطير من فكرة إلى فكر، ويتنقل من عقيدة إلى عقيدة دون أن يركن إلى جدارٍ من العلم يسكن إليه، ولا عقيدةٍ راسخة تنزع الشك

---

(١) سورة النمل: الآية ٨٠.

من صدره وتثبّت اليقين في قلبه، فما أعظم ما يصيب القلب من هذا الوسواس، وما أكبر ما يصيب العقل من هذه الحيرة والناس في غفلةٍ عن هذا، ولا يعرفون أن من هذه الشكوك تأتي الكثير من الأمراض النفسية، وبسببها تعمّ الأوجاع الروحية.

وفي الحديث الشريف الذي نقلناه عن الإمام الصادق عن جده علي عليه السلام: «... ومرضها شكها..» فيه تحذير واضح لنا بأن نتقي شرور الشكوك لأنّها السبب في بروز أمراض نفسية عديدة. ومن هنا نلاحظ أنّ الأئمة من آل البيت عليهم السلام حاولوا من خلال كلماتهم وحكمهم أن يكشفوا لنا الداء الرئيسي لكل الأمراض التي تصيب الروح الإنسانية، فإذا تمكنا من معالجة قلوبنا من هذا الداء فإننا سنحمي أنفسنا من الإصابة بتوابعه، لأن الكآبة واليأس والقنوط وغيرها من الأمراض هي أعراض لأمراض عقلية أساسية وعلى رأسها الشك! ويمكن تشبيه ذلك بهرمين: فالعقل هو على رأس الهرم الأول والجهل أو الهوى على رأس الهرم الثاني، فإذا كانت صفة الإنسان جيدة وسالماً من الأمراض النفسية، فهو دليلٌ على سلامة العقل. أما إذا أصيب بمرض نفسي فمنبع هذا المرض هو الجهل، وهناك عدّة مراحل يتنقل فيها الإنسان مع الجهل لكي يصل إلى المرض، وللمثال على ذلك نقول: أنّ الجهل يقود إلى الشّك والشكوك ذات وجوه مختلفة منها: شك الزوج بشرف زوجته ونحن لا نستطيع أن نتصور مقدار العذاب الذي يتحمله ذلك الزوج كنتيجة لهذا المرض، ولو علم الرجل بأن هذا النوع من الشّك هو نابع من نفسه، وهو حصيلة الشكوك المتراكمة في عقله وفكره عن كافة المسائل التي تدور حوله من مسائل فكريّة وسياسيّة وعقائدية لهان عليه الأمر، لكن الشكوك أعمت عين قلبه فهو لا ينظر إلى الأمور إلاّ بعين عوراء ويقيّمها بميزان خاطئ، لذلك فهو

لا يخرج من متاهة حتى يدخل في أخرى، ولا يخرج من شكٍ حتى يدخل في آخر أوسع منه.

وعندما نعود إلى حديث الإمام علي عليه السلام سنجد أنّ السلامة الروحية تتحقق عن طريق ترسيخ اليقين في القلب «.. وصحتها يقينها...» وقد اعتمد الكثير من علماء النفس الحديث على أسلوب التداوي بالإيحاء النفسي كطريقة لعلاج عشرات الأمراض النفسية! وهذا الأسلوب قائمٌ على ترسيخ اليقينيات في الفرد وقلع كلّ الأوهام والخرافات والشكوك المترسبة في قلبه، فالمصاب بمرض خوف مفرط مثلاً علاجه يكون عن طريق تثبيت الإعتقاد لديه، بأن الأوهام التي يتخيلها هي غير واقعية، وأنّه قادرٌ على التغلب على خوفه بمقدار قليلٍ من الشجاعة.

إنّ الشكوك والأوهام التي تراود الإنسان وتوسوس له بوجود خطر ما يتهدده ينبغي أن يقابلها في العلاج يقينٌ أكبر منها. ولقد أثبتت الدراسات العلمية أنّ المؤمنين من أتباع الديانات هم أكثر سلامةً وصحةً من الناحية الروحية من غير المؤمنين، وسبب ذلك هو أن هؤلاء المؤمنين يتمتعون بمقدار عالي من الإعتقادات والأفكار اليقينية، بينما لا يتمتع غيرهم سوى بمقدار ضئيل من تلك المعتقدات اليقينية.

وإذا عرفنا أهمية ودور المعتقدات الذهنية في الحياة الإنسانية، اكتشفنا حقيقة تأثيرها على التصرفات الفردية، وكيف أنّها إن لم تكن يقينية تؤدي بلا ريب إلى اضطراب في شخصية الإنسان. ولتوضيح ذلك نقول: أنّ كل الأفراد بحاجة إلى ميزان يزنون فيه تصرفاتهم وأفعالهم اليومية، وهذا الميزان هو: المعتقدات التي يؤمن بها الإنسان، فإن كانت هذه المعتقدات راسخة ويقينية فإن الفرد سيحاول أن يطابق تصرفاته مع تلك المعتقدات بحيث لا تشذّ عنها ولا تخرج عن سكّتها، بينما لو كانت معتقداته غير يقينية فهو أولَ من

سيضحي بها فداءاً لمصلحته الشخصية وأهوائه الذاتية، ويكفينا أن نتصوّر إلى أي مكانٍ سحيق سيقود الفرد هذا التناقض والتضارب بين معتقداته وتصرفاته، إذن فاليقين كما وصفه الإمام علي عليه السلام هو ضمانٌ لسلامة الإنسان من الأمراض النفسية وطريقاً لنجاته من الشكوك والأوهام.

والروح تنام كما ينام البدن، إلاّ إنّ نومها مذموم كما جاء في حديث الإمام علي عليه السلام: «... ونومها غفلتها...» وغفلتها هو الإنشغال كما ينبغي عليها إلاّ ما هو دونه، والروح بطبعها ذاكرة ومتيقظة إلاّ أنها تنشغل بتلبية متطلبات ومستلزمات البدن عندما تتصل به إلى درجة تغفل فيها عن تحقيق متطلباتها وأهدافها، وترقد في نوم عميق قد يمتد لسنين عديدة وما لم تتنبه في الوقت المناسب فقد يستمر هذا النوم إلى آخر العمر، وقتها لا تنفعها اليقظة ولا تُفيدها الصحوة. فعلى المرء أن يتعهد نفسه بطلب العلم والعبرة بتجارب الماضين، والتدبر في الخلق، والتفكر فيما ينفع نفسه في سنينه الأولى من بلوغه العقلي، قبل أن ينسدل على عينيه ستار الغفلة وتغط روحه في نومٍ عميق لا تدرك معه دورة العمر والأيام، ولا تفقه أن نومتها الطويلة ستأخرها عن عجلة الزمان، فكل شيء في هذا العالم يتحرك إلى الأمام نحو مستقرٍ معلوم ﴿ *والشمس تجري لمستقرٍّ لها ذلك تقدير العزيز العليم* ﴾[1] فكل الموجودات في هذا العالم تسير باتجاه نقطةٍ واحدة، فإذا عجزت روح المرء عن مواكبة هذه المسيرة فإنها ستتأخر بحساب الزمن نفس المقدار الذي أهدرته حين نومها وغفلتها، وهكذا نجد على المستوى الحضاري أنّ الأمة المتخلفة عن ركب الأمم المتطورة يصفون تخلفها بأنه يعادل مئة عام أو أقل أو أكثر، وإن كان هذا الرقم هو في حقيقته تخيلي إلاّ إنه في الواقع يعبرُ بشكل صادق عن الفترة التي قضتها تلك

---

(١) سورة يس: ٣٨.

الأمة في نوم الغفلة، ولكي تلحق هذه الأمة المتخلفة بتلك الأمم المتقدمة عليها أن تبذل جهوداً مضاعفة لكي تعوّض الماضي وتلحق بالمستقبل، أما لو تساوى ميزان الطاقات المبذولة في هذا الصدد بين الأمة المتخلفة والأمم المتطورة بمقدار واحد، فإن نسبة تفوّق تلك الأمم وتأخر هذه تبقى كما كانت عليه، والأفراد هم من حيث البناء والهدم تتماثل أفعالهم مع أفعال الأمم، فمنهم من عمّر بيتاً صالحاً في هذه الدنيا، ومنهم من خرّب بيتاً، ومنهم من هو منشغل عن البناء باللهو واللعب... وروحه راقدة في نوم غفلتها.

وليست الرقدة تشبه اليقظة، لأن الأولى يصحبها خدر الغفلة، والثانية يصحبها نباهة الصحوة، ففي الأولى الراحة وفي الثانية الألم، فمن ذا الذي يرجحُ الألم على الراحة؟ فمع كل يقظة يتعرض القلب إلى صدمة حادة يبدأ على أثرها بمراجعة حساباته الماضية، وما قدّم وأخّر، وما يجب فعله من أيامه الباقية، وصفة هذه اليقظة أنَ الروح تبدأ باستيعاب العلوم ما ظهر منها وما بطن، استيعاباً حيوياً: فبعدما كانت الروح في حالة غفلتها ميالة إلى النوم والخدر وعدم إزعاج الدماغ بالتفكير، فإنها تصبح بعد اليقظة نشيطة متلهفة للعلم والتفكير وإن كان مصاحباً للألم ووجع الرأس.

وقد جاء في حديث الإمام علي ﷺ: «... ويقظتها حفظها...» فإنَ الشاهد هنا على يقظة الروح أنها تكون على استعداد لتقبل العلوم والتجارب والعبر وحفظها في صندوق خاص لحفظ المعلومات، وقد دلّت التجارب العلمية أنّه لما تكون الروح منشغلة في عالم الخيال والوهم، فإنها تكون أقل استعداداً للحفظ واستيعاب المفاهيم العقلية، وأن الطالب الذي يكون حاضر الذهن في الصف الدراسي يكون أكثر تفهماً للمعارف والعلوم، بينما التلميذ الكسول الذي يشغل ذهنه في أمور تافهة وقت الدرس سيتعذر عليه فهم تلك المادة وحفظها في صندوق الذاكرة.

الرّوح المكلّفة:

الروح البشرية هي التي تحملت أعباء الأمانة وتعهدت من دون المخلوقات بخلافة الله في أرضه وإقامة شرائعه، وتنفيذ أحكامه، والإيمان بأنبيائه وأوصيائه. فقد جاء في الذكر الحكيم ما يؤكد ﴿*إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبينَ أنْ يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً*﴾[1] وفي آية أخرى قال العزيز الحكيم: ﴿*وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويَسفك الدّماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إنّي أعلم ما لا تعلمون*﴾[2]. أول الأمر كانت الروح عارفة بتكليفها الشرعي، وعالمة بالحساب والكتاب، وبالجنة والنار، وإلاّ فلا يعقل أن يتحمل امرء مسؤولية دون أن يعرف عاقبة أمره، ولكنها استسهلت الأمر والإيمان بالله واستقلّت فترة العمر في الدنيا (سبعون عاماً) مقابل (فالدين فيها) وتصورت أنها ستطيق البلاء مهما كبر وتصبر عليه، حتى تحظى بجنّة الخُلد إلاّ أنها نسيت إن للشيطان جنودٌ كل واحداً منهم يهزم جيشاً جراراً ويبيد مدناً عامرة، وهو سبب هلاك الإنسان وعلّة فشله في أداء الأمانة، وهذا الجندي هو (الجهل) فهذا الجندي الفتاك أهلك الشعوب والأمم ودمّر الحضارات والإعمار، فبسببه وقعت الحروب والمآسي، وقُتل العلماء والأفاضل، وبطلت الأفكار والشرائع، وامتلأت السجون...و.

ونتيجة للجهل فرط الإنسان بأمانته وتخلى عن عهده وميثاقه، وجاءت الآية الكريمة لتؤكد ﴿*وحملها الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً*﴾ فلو إزداد الإنسان معرفة بكنه وجوده وحقيقة حياته في الدنيا، وأنّها دار زوال وليست دار مقام لأدرك أنّ عليه إعمار دار البقاء ولا يهلك نفسه من أجل دار الفناء، فهذه أمّ

---

(١) سورة الأحزاب: ٧٢.

(٢) سورة البقرة: ٣٠.

المعارف التي جهلها الإنسان عند هبوطه إلى الأرض واتصاله بعالم المادة الذي غلف عيون القلب بأحجبة كثيفة لا يزيلها إلاّ الإصرار على التعلم والتبحر في علم الحياة، فإنّ في هذه الدنيا من الدلائل والعلامات ما يُرشدنا إلى طريق العلم.

جاء في البحار للمجلسي تتمّئ في تفسير قوله تعالى: ﴿ لا تعلمون شيئاً ﴾ [١] قال الزمخشري: هو موضع الحال، أي غير عالمين شيئاً من حق المنعم الذي خلقكم في البطون وسوّاكم ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة. ﴿ وجعل لكم ﴾ معناه: وركّب فيكم هذه الأشياء آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه، واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته و القيام بحقوقه والترقي إلى ما يسعدكم.

وقال النيسابوري: اعلم أنّ جمهور الحكماء زعموا أن الإنسان في مبدأ فطرته خالٍ عن المعارف والعلوم، إلاّ أنه تعالى خلق السمع والبصر والفؤاد وسائر القوى المدركة حتى ارتسم في خياله، بسبب كثرة ورود المحسوسات عليه حقائق تلك الماهيّات وحضرت صورها في ذهنه.

ثم إن مجرد حضور تلك الحقائق وإن كان كافياً في جزم الذهن بثبوت بعضها لبعض أو انتفاء بعضها عن بعض فتلك الأحكام علوم بديهيّة وإن لم يكن كذلك بل كانت متوقفة على علوم سابقة عليها ـ ولا محالة تنتهي إلى البديهيات قطعاً للدور أو التسلسل ـ فهي علوم كسبيّة [٢].

واعلم أنه لا يصح التكليف إلاّ مع العلم، ألا ترى أن المرء لا يكلف بالصلاة والصوم إلاّ بعد بلوغ عقله مرتبة من النضج تؤهله لأداء التكليف،

---

(١) سورة النحل : ٧٨ .

(٢) بحار الأنوار : ٥٨ / ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .

والبدن من دون العقل ليس له قيمة ويسقط التكليف عنه، وحتى القانون المدني لا يجرّم المجنون على ارتكاب الأخطاء والجرائم، وذلك لأنه فاقد للعقل.

وما دامت الروح هي المكلفة بالقيام بالأفعال لأنّ منها القيادة، فهي إذن التي تستحق الثواب إذا فعلت حسناً، وهي التي تستحق العقاب إذا فعلت سيئاً، ومثلما تقوم الخلايا العصبية التابعة لأعضاء البدن بإيصال الرسائل الحسيّة للدماغ، فإنّ هذا البدن هو الذي يوصل الإحساس بالألم إلى الروح وذلك عن طريق الدماغ.

قيمة الرّوح:

لم يطلب الله سبحانه وتعالى من الملائكة أن يسجدوا لآدم الذي خلقه من أديم الأرض إلاّ بعد نفخ الروح فيه، فلو كان للطينة التي خُلق منها آدم فضلٌ على الروح لتوجب أن يسجد له الملائكة بعد تسوية بدنه من قبل الباري عزّ وجل، إلاّ أن الأمر بالسجود جاء بعد نفخ الروح فيه، ومما زادها فضلاً ومنزلةً أنّ الباري عزّ وجلّ نسبها إلى نفسه وقال: ﴿***فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين***﴾[1] فبدأت الروح تسري بالنفخ من الراس حتى القدم، فما مرت بعضوٍ من بدنه حتى تعلقت به فإذا هو نشيط يتحرك، ولما دبّت الروح في الرأس بدأ آدم يجول بناظريه، ويتفحص الخلائق التي تلف حوله ويتساءل عن سر وجوده متلهفاً للعلم والمعرفة، وهذه منزلةٌ فضّل الله سبحانه وتعالى فيها الروح وجعلها نوراً وعقلاً للجسد، ومن هذا صح سجود الملائكة لآدم عليه السلام فلولا العقل الذي ولج مع الروح في البدن لكان آدم واحداً من الخلائق التي لا تعي ولا تدرك شيئاً، وما صح السجود له لأنه عند ذلك يكون

---

(١) سورة ص: ٧٢.

أقل منزلة ومرتبة من الملائكة، وحاشا لله أن يطلب من الملائكة شيئاً يخالف الحكمة والعقل، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور﴾[1] أو ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[2]. وهذا ميزان ثابت شُرِّع منذ الأزل.

ولو كان الملائكة عارفين بحقيقة ما خلق الله في آدم لأدركوا أفضليته، فقد خُلق آدم عليه السلام من النور والنار والماء والريح، بينما لم يكن خلق الملائكة إلاَّ من جنس واحد، فبعضهم خلقه الله من النور والبعض الآخر من النار وقسم من الريح وثلة من الماء، فكان آدم عليه السلام أفضلهم لأنَّه خلق من الأربعة عناصر جميعها.

وقد جاء عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام إذ يقول فيه: «إنَّ أول من قاس إبليس فقال: خلقتني من نار وخلقته من طين، ولو علم إبليس ما جعل الله في آدم لم يفتخر عليه، ثم قال: إن الله عزَّ وجل خلق الملائكة من النور، وخلق الجان من النار، وخلق صنفاً من الجن من الرِّيح، وخلق صنفاً من الجن من الماء، وخلق آدم من صفحة الطين، ثم أجرى في آدم النور والنار والريح والماء، فبالنور أبصر وعقل وفهم، وبالنار أكل وشرب، ولولا أن النار في المعدة لم يطحن المعدة الطعام، ولولا أن الريح في جوف ابن آدم تلهب نار المعدة لم تلتهب، ولولا أن الماء في جوف ابن آدم، يطفيء حرَّ نار المعدة لأحرقت النار جوف ابن آدم، فجمع الله ذلك في آدم الخمس خصال، وكانت في إبليس خصلة فافتخر بها على آدم عليه السلام»[3].

---

(١) سورة الرعد: ١٦.

(٢) سورة الزمر: ٩.

(٣) بحار الأنوار: ٥٨ / ٣٠٦ .

وقال العلماء في وصف منزلة الروح: أنّها لما ولجت البدن أضفت عليه حالات منها أصبح نورانياً يبصر بالعينين ويسمع بالأذنين ويكون طيّباً، فإذا نُزعت من الجسد نتن البدن، ويكون باقياً، فإذا فارقته الروح بلي وفنى ويكون حياً وبخروجها يصيرُ ميتاً، ويكون عالماً، فإذا خرجت منه الروح لم يعلم شيئاً.

ومن البديهي أن أجزاء هذه الجثة متبدلة متغيرة حسب الأطوار من النمو والذبول، وتارة بحسب السمن والهزال، بينما الروح تكون في حالة واحدة عن البقاء والخلود بعد الحساب، فإما في نعيم دائم أو عذاب دائم، بينما البدن يتبدل حتى بعد الحساب، فمن يكون في نار جهنَم ﴿***كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها***﴾[1] وإما من يكون في جنّة الخلد، فيستبدله الله سبحانه وتعالى بدناً أكثر قوة وشباباً حسب ما جاء في السنّة الشريفة.

فنسبة الروح إلى الجسد هي نسبة الرئيس للمرؤوس، فالبدن ينفذ أوامر الروح ويطيعها طاعةَ عمياء من دون بصيرة منه أو وعي، إلاّ إنه كما بيّنا في مباحث سابقة كان البدن يتأثر سلباً وايجاباً بالروح ويسبب انقياد المرء للهوى، فالبدن هو مخلوق ضعيف لا ذنب له ولا جرم عليه، وإنّما تعلقت الروح به تعلق التدبير والتصرّف، فهي تسمع بالأذنين، وتنظر بالعينين، وتبطش باليدين، وتتحرك بالقدمين. وكما أن للرئيس من أعوان وخدم فإنَ للروح أعوان وجنود يديرون أمور البدن ويدبّرون شأنه، وخير معين للرّوح هو العقل الذي فطر الله على المعارف العليا التي يحتاجها الإنسان في تسيير أموره الدنيوية وترتيب قضاياه المعيشية، وللعقل جنود يستعين بهم على تنفيذ خططه ومشاريعه الكُبرى، وهو أيضاً يحمي بهم قلعة القلب لكي لا تُغزى من جانب جنود الجهل والشيطان.

---

(١) سورة النساء: ٥٦.

الفصل الرابع

الصراع النفسي

منبع الأمراض النفسيّة

من حق باستور وابن سينا وغيرهم من الأطبّاء والمحققين أن يفتخروا بإنجازاتهم العلميّة والطبيّة وباكتشافاتهم التي قدّمت خدمات جليلة للإنسانيّة، فهؤلاء يستحقون منا كلّ التقدير والاحترام، لأن اكتشافاتهم العلميّة والطبيّة أدت إلى تخفيف الآلام عن ملايين المرضى، ولسنا بحاجة للقول أن الأمراض النفسيّة لا تقلّ ألماً وإزعاجاً للإنسان من الأمراض البدنية، وأن المحققين والعاملين في هذا المجال ليسوا أقل شأناً من أطباء الصحة البدنية ولا يمكن التقليل من إنجازاتهم فهي ليست قليلة، وقد سبق هؤلاء الأطباء والمحققين رجالٌ مصلحون مثل الأنبياء والمرسلين، وهم الذين عالجوا أمراض النفس بدواء الدين واستطاعوا بفضل سمو أرواحهم وسلامة أنفسهم أن يغيروا مجرى التاريخ ويصنعوا أمجاد الأمم، ومنهم رسول الإسلامﷺ الذي كانت تعج الأرض التي ولد فيها بأفتك الأمراض النفسيّة وأكثرها استحالةً على التغيير، فللطبيعة الصحراوية أحكامها وتأثيراتها على تلك النفسيات التي كانت تعاني بالأصل من أمراض نفسية مزمنة، وليس وأد البنات إلاّ نموذجاً واحداً لسلوك ذلك المجتمع المريض الذي عاصره الرسولﷺ وتعامل معه، بل وغيّره وساعد على علاج أمراضه. لقد تمكن من علاج كل هؤلاء المرضى بفضل أدويته السماوية.

لقد اكتشف الرسول الأعظم وعن طريق الإسلام منبع الأمراض النفسية، والمصدر الرئيسي لكل التصوّرات والتصرّفات غير السوية التي تصدر عن الإنسان وهو (الهوى) فليس من مرضٍ نفسي أو أزمة نفسية تعرض للإنسان إلاّ ولها صلة بالهوى، وليس من فعلٍ أو رد فعل إنساني إلاّ

وهو متعلق بالهوى، وليس من حركةٍ أو سكون إنساني إلاّ وله ارتباط بالهوى، وليس من قولٍ أو حديثٍ ينطق به الإنسان إلاّ وله علاقة بالهوى، فالهوى يتدخل في كل الإحساسات البشرية، فما هو الهوى؟.

الهوى: هو ميلان النفس إلى لذتها وشهوتها ورغبتها، وبالطبع المقصود هي اللذة والشهوة والرغبة غير المشروعة، وهي المخالفة لقانون العقل وفطرته، فقد يجّوز لنا العقل الإلتذاذ حتى بالنسبة للقضايا المشروعة إلى حد معين، أما إذا تجاوز الحد فإنّه سيلحق ضرراً بالإنسان، كمن يلتذ بأكل الطعام، فيُكثر منه إلى حد تجاوز المعقول، وهنا يتدخل العقل ويحرّم مثل هذه الزيادة المفرطة في الطعام، لأنّها إضافة لأضرارهاالجسمانية فإنها تسبب خمولاً للعقل والفكر، وفي المقابل تقوّي عناصر الهوى من الغرائز والشهوات. لو فكرنا قليلاً لوجدنا أن الشذوذ الجنسي مثلاً يُعد بالأساس مرضاً نفسياً، وهو نابع من عجز العقل عن الضبط والتحكم بشهوات النفس وأهوائها. فشهوة النفس إذن لا حدّ لها ولا حصر، وينبغي أن يتدخل العقل من أجل وضع حدِ لهذه الشهوة، لأنّ الإفراط بها سيؤدي إلى أمراض نفسية وبدنية مستعصية.

قال المجلسي: في بيان أنّ اللذات العقليّة أشرف وأكمل من اللذّات الحسيّة، اعلم أنّ الغالب على الطباع العاميّة أن أقوى اللذّات وأكمل السعادات لذّة المطعم والمنكح، ولذلك فإنّ جمهور الناس لا يعبدون الله إلاّ ليجدوا المطاعم اللذيذة في الآخرة، وإلاّ ليجدوا المناكح الشهيّة هناك. وهذا القول مردود عند المحققين من أهل الحكمة وأرباب الرياضة ويدلّ عليه وجوه نذكر منها:

١ ـ لو كانت سعادة الإنسان متعلقة بقضاء الشهوة وإمضاء الغضب لكان الحيوان الذي يكون أقوى في هذا الباب من الإنسان أشرف منه، لكن الجمل أكثر أكلاً من الناس، والذئب أقوى في الإيذاء من الإنسان، والعصفور أقوى

على الفساد من الإنسان، فوجب كون هذه الأشياء أشرف من الإنسان، لكن التالي معلوم البطلان بالضرورة، فوجب الجزم بأنّ سعادة الإنسان غير متعلقة بهذه الأمور.

٢ ـ كلّ شيء يكون سبباً لحصول السعادة والكمال، فكلما كان ذلك الشيء أكثر حصولاً كانت السعادة والكمال أكثر حصولاً، فلو كان قضاء شهوة البطن والفرج سبباً لكمال حال الإنسان ولسعادته لكان الإنسان كلما أكثر اشتغالاً بقضاء شهوة البطن والفرج وأكثر استغراقاً فيه كان أعلى درجة وأكمل فضيلة لكن التالي باطل، لأنّ الإنسان الذي جعل عمره وقفاً على الأكل والشرب والبعال يعدّ من البهيمة ويقضي عليه بالدناءة والخساسة، وكلّ ذلك يدلّ على أن الاشتغال بقضاء هاتين الشهوتين ليس من باب السعادات والكمالات، بل من باب دفع الحاجات والآفات.

٣ ـ إنّ الإنسان من حيث يأكل ويشرب ويجامع ويؤذي يشاركه سائر الحيوانات، وإنّما يمتاز عنها بالإنسانية، وهي مانعة من تكميل تلك الأحوال وموجبة لنقصانها وتقليلها، فلو كانت هذه الأحوال عين السعادة لكان الإنسان من حيث أنه إنسان ناقصاً شقياً خسيساً، ولما حكمت البديهية بفساد هذا التالي ثبت فساد المقدم[1].

إنّ هذه المفاهيم تقودنا إلى أن الهوى يتعلق بكلّ اللذات والشهوات والرغبات الكامنة في داخل الإنسان، ليس المادية منها فقط بل غير المادية أيضاً، فالإنسان مثلاً يلتذ عندما يمتدحه الآخرون وهو أيضاً يرغب بالاستعلاء على الآخرين ويشتهي الإنتقام من معارضيه، إذن هناك شهوات وأهواء غير ماديّة هي أكثر خطورة من تلك المادية، لأنّها تستولي على الإنسان من دون شعور منه أو عندما يكون غافلاً عن عقله.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨/ ١٢٧ ـ ١٢٩.

ومما تقدم تبين أن الهوى له علاقة بكل شاردة وواردة تصدر عن الإنسان فهو على ذلك يعتبر أس الأمراض النفسية. كما جاء في الحديث الشريف عن الإمام علي عليه السلام إذ يقول: «الهوى أسّ المحن»[١] وفي نفس الإتجاه قال الإمام علي عليه السلام: «أنّ طاعة النفس ومتابعة أهويتها، أسّ كلّ محنة ورأس كل غواية»[٢].

وفي حديثٍ ثالث قال الإمام علي عليه السلام: «أهلكُ شيء الهوى»[٣].

وفي حديث رابع قال الإمام عليه السلام: «إنّكم إن أمّرتم عليكم الهوى أصمّكم وأعماكم وأرداكم»[٤].

وفي حديثٍ خامس قال الإمام عليه السلام «من غلبت عليه شهوته لم تسلم نفسه»[٥].

وليس المقصود هنا عمى العين وإنّما عمى القلب وهو أشدّ العمى وأضرّ على الإنسان، لأنّه أساس كل بليّة وأصل كلّ أذيّة، فمن يتبع هواه يفتح لنفسه باباً من الجهل ويغلق على قلبه باباً من العلم، ومن يسترسل مع هواه إلى أبعد حد فهو سيغلق على نفسه كلّ أبواب المعرفة والنوافذ التي يطلّ قلبه منها على حقائق نور العلم حتى يهلكه الجهل، مثل الذي يتمادى في الإدمان على المخدرات والشذوذ الجنسي حتى يقوده ذلك إلى الإصابة (بالإيدز) فيهلك، فهلاكه بالأساس كان هو جهله الذي قاده إلى عبودية الشهوات والرغبات.

ومثلما بيّنا في موضوع سابق حول خصائص الروح والجسد، وقلنا أن الإفراط في تلبية رغبات الجسد يؤدي إلى ضمور في الجانب الروحي لدى

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٥٠ / ح١٠٩٠.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٢٢٠ / ح١٠٩.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ١٨٠ / ح٢٤.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٢٦٤ / ح٣٠.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ١٧٥ / ح٤٩٥.

الإنسان والعكس بالعكس، فإنَّ موضوع الهوى سيقودنا إلى هذه النتيجة، وذلك لأنَّ اتباع الهوى الذي هو ميلان النفس إلى شهوتها ولذتها ورغبتها يعدّ نوعاً من الخلود للجزء الأرضي والمادي في النفس الإنسانية. وقد جاء في الكتاب العزيز ﴿ *واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ❁ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنّه أخلد إلى الأرض واتبع هواه* ﴾[1]. والإنغماس في لذات الدنيا يؤدي إلى الإصابة بالأمراض النفسية، لأنَّ هذه الأمراض هي من طبع الأرض والشهوات التي تدور عليها.

فتبدأ جيوش الأهواء والشهوات بمهاجمة الإنسان إلى أن تتحكم وتسيطر عليه وتأسره بقيودها الفتّاكة، فلا يتمكن بعد ذلك من فك قيوده بسبب قوتها وتحكمها وسريانها في دمّه وعروقه كالمدمن الذي يصعب عليه أن يترك عادته الخبيثة بعد استفحالها وتمكنها من النفس، كذلك أيضاً الشهوات والأهواء فإنها بادىء الأمر تهاجم الفرد بشكل انفرادي ولكنها إذا تحكمت فإنها تتحكم بشكل جماعي، لأنّها ستجتمع كلها على تضعيف قوّة إرادته وتشل نظام الحماية في داخله، حتى يجد الإنسان العجز في نفسه عن مواجهة هذا الجيش الفتّاك ويستسلم له كُلياً، فتقودهُ الشهوات بعد ذلك إلى حيث ما تريد، فالأمراض النفسية المتعلقة بالشهوة الجنسية مثلاً تحدث نتيجة سيطرة جنود هذه الشهوة على الإنسان وعجزه عن مواجهة رغباتها الجامحة وغير المحدودة.

وكما وصفنا النفس سابقاً أنّها متحررة وطلقة فهي عندما تنقاد من جانب جيش الأعداء، فإنّ هذا الجيش سيقودها إلى فضاء واسع وغير محدود من اللذّة والشهوة إلى هناك حيث تقبع الأمراض النفسية والجسدية مثل السادية وغيرها، وبيّن الإمام علي عليه السلام في حديثٍ له كيفية تحكم الشهوات والأهواء في الإنسان، فهي تأتي على شكل لذّات تطرب النفس والبدن وتنعشهما.

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦.

فقد قال الإمام: «أوّل الشهوة طربٌ وآخرها عطب»[١] فهي تتزين للإنسان وترتدي ثوب الصديق الذي يدخل السرور على رفيقه، وأن همها راحته وسعادته، فتظهر حسناً وتضمر سوءاً، وتبدو له جميلة وهي في حقيقتها قبيحة، تفرحه في البداية وتعذّبه في النهاية.

ومن طبيعة الأهواء السيطرة والتحكم، فهي وإن كنت أول الأمر تتملق كالصديق الموافق إلاّ أنها فيما بعد تتحكم كعدو شرس تأمر وتنهي، تمنع وتعطي حتى يصير الإنسان عبداً لها يهدر عمره على تلبية رغباتها، يصرف جهده على توفير وسائل لذّتها، لا يستطيع أن يعصي لها أمراً ولا أن يرفض لها طلباً، تستصغره وتذلّه وتحرضه على القيام بأسوء الأفعال، وهو ينقاد إليها ذليلاً ضائعاً من دون أن يملك من أمره حزماً أو عزماً، فهو الضعيف الذي لا يقوى على مواجهة اهوائه ولا التفكير فيما ينبغي فعله، والإنسان العاقل المدرك لا يضع نفسه في أسر الشهوات ولا يقيّدها بأغلال الأهواء، لأنّه يقدّر الأمور بميزان العقل، ويعرف من خلال ذلك أنّ هذه الأغلال لا تُفيد يديه ورجليه وإنّما تقيد عقله وتحجبه عن التفكير الصحيح واتخاذ القرار السليم، لأنّ من يتبع هوى نفسه لا يستطيع أن يسير على منهج عقله، فالطريقان متقاطعان، وقد عبّر الإمام علي عن ذلك بقوله «الشهوات تسترق الجهول»[٢] فالجاهل يُسترق لأنّ لديه الإستعداد للعبوديّة والإسترقاق، فهو مستعبد من قبل الشهوات والأهواء ومستعبد من قبل الآخرين، بينما العاقل الفاهم لا أحد يستطيع أن يستعبده أو يتحكم بإرادته، لأنّ لديه السّلاح الذي يستطيع به أن يواجه أي عدوٍ داخلي أو خارجي، والجاهل يفتقر لمثل هذا السلاح لذلك فهو يستسلم مع أول طلقةٍ في المواجهة.

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ١٩٥ / ح٣١١.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٤٥ / ح٩٦٥.

وقد صوّر الإمام علي عليه السلام حالته بقوله: «عبد الشهوة أذلّ من عبد الرق»[1] فلربما يكون عبد الرق عزيز النفس فيسعى بأي شكلٍ لخلاص نفسه، بينما عبد الشهوة يبقى مكبلاً بقيودها تجره من رذيلة إلى رذيلة حتى تورده في مزالق الأمراض والأوبئة.

ومما يتبين من الذي ذكرنا ومن الأحاديث الشريفة، فإنّ الأهواء تتحكم وتسيطر على النفس البشريّة على شكل مراحل، ففي البداية تستخدم أسلوباً ليناً مع الإنسان عندما تستزله بالغفلة، وبعد ذلك تطربه باللذة، وفي مرحلة ثالثة تقهرهُ بالعادة فيصبح عقله أسير هواه، وليس على الإنسان سلطانٌ أقوى من الهوى. فقد سأل زيد بن صوحان أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: «أي سلطان أغلب وأقوى، قال: الهوى»[2] فللهوى قوّة وسطوة أكبر وأعظم من قوّة الملوك والسلاطين.

وقوّتها نابعة من كونها غير مرئية فهي تدخل على الإنسان من باب خفي، فلا يحسب لها المرء ولا يشعر، وتنفذ إلى قلبه من غير آلة أو وسيلة، ومثلما تتغلغل الروح في البدن، فإنّ روح الأهواء تنتشر في القلب ببطيء حتى تستولي عليه بالتمام والكمال، وعملية الإنقلاب هذه لا تحدث خلال ساعات أو أيّام لأنّها قد تطول سنين عديدة، فتتحد روح الأهواء مع القلب فيصبح القلب مثلما قلنا سابقاً عبداً مطيعاً للأهواء، وبالطبع تختلف درجات قلوب الناس من حيث تأثرها بالأهواء، فمنها: القلوب القويّة القادرة على صد هجمات الأهواء، ومنها التي تخضع لبعض عناصرها وتمنع غيرها، ومنها القلوب المريضة التي لا مكان فيها لغير الأهواء والشهوات.

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٤٠ / ح١٣.

(٢) بحار الأنوار: ٦٧/ ٧٦.

وكثيرٌ من الناس هم الذين يخلطون بين العقل والهوى، وبين الحق والباطل، وبين العلم والجهل، ولو كان الهوى له بدن مثل الإنسان لسهل على المرء معرفته وتجنبه أو حتى محاربته ولكنه متلبس برداءٍ غير مرئي، ويأتي بلسان الصديق قبل أن يهاجم بسيف العدو، وبسبب قوة اختفائه الخارقة يعجز المرء في أكثر الأحيان عن اكتشافه فترى أناساً يتبجحون بالعلم والتعقل والمنطق بينما هم في الواقع يتّبعون أهواءهم المضلة التي ظهرت وتزينت لهم بثوب العلم المغري، ليس هذا فحسب بل إنّ أصحاب الباطل وأولئك الظلمة والمجرمين والسفاحين وكل من يسلك سلوكهم، فهؤلاء قد برر كل واحدٍ لنفسه الأعمال التي يقوم بها من جهة المنطق والعقل، فالظالم يجد نفسه مجبراً على استخدام هذا الأسلوب ويبرر ذلك بالمحافظة على أمن الدولة وسلامتها، والمجرم يبرر لنفسه فعله الإجرامي، وما من أحد يرتكب خطيئة إلاّ بعد ما يتم تزيينها وتلوينها بألوان حسنة من جانب جنود الهوى لكي تمرّ أمام العقل دون اعتراض منه، وهذا هو الرداء غير المرئي الذي ترتديه كل الأهواء والشهوات لكي تفتح لها مجالاً في قلب الإنسان وتمرّ أمام العقل وبجواز عبور منه، فنحن كبشر لا نقدّم على عمل إلاّ بعد ما نصبغه بالصبغة العقلية، وذلك لكي لا نندم على ما نقترفه من أعمال ونحاسب أنفسنا عليها، ومن هذا الباب فإنّ الأهواء التي نعرف ضررها على صحتنا العقلية والنفسية لا نقدم على إرتكابها إلاّ بعد ما تأخذ مبرراً شرعياً ومنطقياً، بينما الأمور العقلية الحسنة لا تحتاج إلى أي مبررٍ للقيام بها.

ولبيان القوّة العظيمة لهذه الأهواء والشهوات، فقد وصلتنا عدّة أحاديث وروايات هذه بعضها:

فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «إنّ الشّديد ليس من غلب النـاس، ولكن الشّديد من غلب على نفسه»[١].

وعن الإمام علي عليه السلام قال: «أشجع الناس من غلب هواه»[٢].

وعن سليمان النبي عليه السلام أنّه قال: «إنّ الغـالب لـهواه أشـدّ مـن الـذي يفتـح المدينة وحده»[٣].

وقيل: أنّ رسول الله ﷺ مرّ بقومٍ فيهم رجل يرفع حجراً، يقال له: حجر الأشدّاء، قال: أفلا أخبركم بما هو أشدّ منه، رجلٌ سبه رجل، فحلم عنه، فغلب نفسه وغلب شيطانه، وشيطان صاحبه«[٤].

ومن يركض وراء هـواه يسرع بنفسه إلـى الأمـراض والأسـقام، فعلـى مقدار العجلة تكون الإصابة بالمرض، فمنهم من افتقر إلى رادع عقلي يمنعه، ومنهم مـن احتوشته اللـذة فـأذهبت نصـف عقلـه وفكـره، ومنهـم مـن لـم يجد الحزم في نفسه لمقاومة اغـراءات الـهوى، ومنهم من أزاح كـل القيـم السماوية والمبادئ العقلية عن طريق أهوائه وشهواته وترك عنان نفسه لهواه يقوده كيفما يشـاء، وهـذا هـو أسـرع النـاس استجابة لـهواه وأكـثرهم احتمـالاً للإصابـة بالأمراض النفسية والخُلقية، لأنّ الذي يتخلى عن مـيزان القيـم ليس أمامـه إلاّ أن يتبنى ميزان الهوى.

والمصيبة أن الهوى نفسه لا يثبت على ميزان واحد، لأنّـه خـاضع لتقلبات النفس وأحوالها، فمرّة هو يميل بتطرف نحو اليسار، ومرّة أخرى يميـل باتجاه معاكس وبتطـرف أكبر نحو اليمـين، وهـذا ما شـهدناه عندما تغيّرت الأنظمة

(١) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ٢/ ١٠.

(٢) بحار الأنوار: ٦٧/ ٧٦.

(٣) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ٢/ ١٢.

(٤) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ٢ / ١٠.

السياسية في جمهورية الاتحاد السوفييتي السابق، فقد تحول زعماء تلك الجمهوريات من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين بلمح البصر، والسبب هو أنّ هؤلاء ما كانوا يتّبعون ميزاناً قيماً ومبدئياً ثابتاً بل كان ميزان الهوى يسحبهم من جهة إلى جهة، فمرّة إلى هنا ومرة إلى هناك، وهم يسارعون إلى الشهوات.

فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «من تسرّع إلى الشهوات تسرّعت إليه الآفات»[1] وكلمة الآفات هنا تشمل معنى الأمراض النفسية والبدنية، وفي حديث آخر قال عليه السلام: «قرين الشهوة، مريض النفس، معلول العقل»[2].

وفي حديث ثالث قال الإمام عليه السلام: «الشهوات أعلال قاتلات، وأفضل دوائها اقتناء الصبر عنها»[3] ومن ذلك يتبين أنّ الصبر على الشهوات هو طريق لوقاية النفس من الأغلال التي وصفها الإمام بأنها قاتلات. فعلاوة على أن الصبر يتيح الفرصة للمرء كي يدرس أوضاعه وأحواله النفسيّة، فإنّه يساعد على اكتشاف المرض واستئصاله قبل انتشاره وتوسعه في القلب.

صراع العقل والهوى

ومن كلّ ما مرّ لدينا من حديث نكتشف بالبداهة أنّ هناك صراعٌ أبدي بين قوى عظمى داخل النفس البشرية هما: العقل والهوى، فإذا حلّ العقل في موقع الزعامة في القلب ولّى الهوى وأدبر، وإذا استولى الهوى على القلب فإنّه سيضع حجاباً سميكاً أمام العقل بحيث لا يرى ولا يسمع، وهو معنى

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٢٠١ / ح٩٣٤.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٧٧ ـ ٧٨ / ح٧٨.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٩٠ ح١٨١٤.

قوله تعالى ﴿ *ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة* ﴾[1] والعقل والهوى يتدخلان في كل صغيرة وكبيرة تخص الإنسان وهما يتصارعان للإستيلاء على القلب، ففي بعض الأحيان يكون العقل هو الغالب وفي أحيان الهوى، ولكن في أغلب الأحوال نجد أن العقل والهوى يتقاسمان قلب الإنسان فحسب درجة تحكم أحدهما في القلب تقابلها نسبة سيطرة الطرف الآخر، فإذا قلنا افتراضاً أن الهوى يسيطر على ثلث القلب، فإن العقل بالبداهة يتحكم بالثلثين الباقيين والعكس بالعكس، وقد تصل الحالة إلى درجة أن يكون لكل منهما حصة في جزء من عمل واحد، ولذلك يدعونا الإسلام إلى إخلاص النيّة في أداء العمل، لأنّ الهوى يتدخل حتى في تزييف النيّة أو الباعث الذي من أجله يقوم ذلك العمل.

وعلى الرغم من تأخّرهم من حيث الزمان عن الحقبة الإسلامية إلاّ أنّ علماء النفس الغربيين قد ألمحوا في كتاباتهم إلى وجود الصراع النفسي بين قوى النفس الخيِّرة والشريرة، وقد كشف فرويد أنّ قوّة الغرائز التي تُسمى (بالهي) تتضامن مع قوة أخرى أطلق عليها اسم (الذات العليا) وهي تمثل قوة المعايير الأخلاقية، ويقول فرويد: أن الشخص الذي هو (الأنا) يقع تحت ضغط هاتين القوّتين، وهو يرى مثلاً أن مصدر القلق العصابي هو الغريزة، فإذا زاد التوتر الغريزي زيادة كُبرى وزاد ضغط الذات العليا اعتبر ذلك مصدراً للضغط على الأنا. ويضيف فرويد: وبعبارة أخرى أن القلق ينتج من الصراع بين قوتين في النفس، قوة الغرائز التي يعبر عنها بـ(الهي) والقوة المقابلة لها وهي قوة المعايير الأخلاقية، والتي تعتبر قوة رادعة معاقبة، والتي يعبّر عنها بالذات العليا، وأطلق عليها أيضاً بقوة الضمير[2].

---

(١) سورة البقرة: ٧.

(٢) راجع كتاب نقطة الضعف: ٤٢.

ومن البديهي أن يتصوّر القارئ أن ما قدمه فرويد من مفاهيم في هذا الصدد هي تشبه إلى حدٍ كبير المفاهيم الدينية، فهو يشير إلى الضمير والمعايير الأخلاقية التي تنبع منه، ولدينا (العقل) ويقدم لنا أيضاً قوة ثانية هي قوة الغرائز التي أطلق عليها فرويد (الهي) إنّها هي الهوى التي ذكرتها الأديان السماويّة قبل آلاف السنين، وحذرت من أن غلبتها على العقل تؤدي إلى هلكة الإنسان، فهذه القوى الفتّاكة التي تمثل الشر تهاجم أقوى جهاز في النفس البشرية وهو العقل الذي يمثل قوة الخير، وحينما نريد معرفة قوة أي شيء فإننا يمكن أن ندرك ذلك من خلال معرفة نقيضه أو عدوّه، ولما كان العقل هو عدو الهوى سنعرف مقدار قوّة الهوى، لذلك نحن نعتقد بأنّ فرويد لم يأتي بجديد في مجال الصراع النفسي، لأنّ الفكر الديني قد سبق إلى ذلك كما أننا لا نستبعد أن يكون فرويد قد اقتبس فكرته تلك من العقيدة الدينية!.

ولأجل توضيح صورة التناقض الحاصل بين الهوى والعقل نستطيع تشبيه العقل بإنسان منظّم يسير وفق برنامج دقيق في إطاره منهج ثابت، بينما الهوى يشبه الإنسان الفوضوي الذي ليس له منهجاً ثابتاً في الحياة، إذ هو لا يعمل على تنظيم شؤونه، ولا يحدد هدفاً لحياته، ولا يضع للزمن أهمية، فهو يتصرف كما يحلو له من دون حاجة إلى شريعة أو قانون، فمثلما لا يجتمع التنظيم مع الفوضى فإنّ العقل لا يجتمع أيضاً مع الهوى، وكيف يجتمع العدوين؟.

فقد جاء في حديث للإمام علي ﷺ يقول فيه: «الهوى أعظم العدوّين»[١]. وقد ورد عن الإمام الصادق ﷺ قوله: «احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم وحصائد

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٨٣ / ح ١٧١٨.

ألسنتهم»[١] وإذا اعتبرنا الهوى هو العدو رقم واحد للإنسان، فإنّه ينبغي أن نعرف أيضاً بأن هذا العدو الشرس له من القدرة ما يستطيع بها مهاجمة أقوى وأعظم جهاز في الإنسان وهو العقل، ولا بدّ هنا أن نفكر ونتدبر في مستوى القدرة التخريبية التي تمتلكها الأهواء لمواجهة هذا العقل العظيم.

فلنتخيل ساحة المعركة: جنود العقل وهم مسلحين بالمنطق والعلم، وجنود الهوى وهم مسلحين بالشهوات واللذّات، الهجوم يبدأ من جانب جنود الهوى وذلك عبر إشارات خاصة أو يمكن أن نعتبرها سهاماً سامة تضرب الخلايا الحساسة في مركز القلب، فإذا تحرك جنود العقل لمواجهة هذه السهام، فإن جنود الهوى سيرمونهم بسهام أقوى وأشدّ فتكاً حتى يخضع القلب كاملة لوسوسة الهوى واللذة، لأنّ سهام الهوى تحمل رسائل ذات مغازي ودلالات للقلب تُزين له اللذة المحرّمة وتقرّبه من الشهوة، فإنَ مال إليها تحكمت وتسلّطت وإن امتنع وعارضها تبقى على وسوستها وتزينها حتى تظفر به في زلة أو سقطة.

ولجنود العقل دروعاً من العلم والدين قوية تدفع هجوم الأعداء بالحجج والبراهين المنطقيّة، فإذا أخذ بها القلب أصبح المرء مسلحاً بالعلم والمنطق، وإن لم يفعل فإن قلبه سيكون وعاءاً للجهل والخرافات، ولقد كشف لنا القرآن الكريم الإرتباط الدقيق والتأثير المباشر للهوى ليس على نفسية الإنسان فقط بل على عقله من خلال هذه الآية العظيمة: ﴿ ***إن يتبعون إلاّ الظن وما تهوى الأنفس...*** ﴾[٢] فمن لا يسترشد بالعقل لا يجد بُداً من الاعتماد على الهوى كمنبع أساسي لأفكاره ومعتقداته. والهوى الذي وصفناه بالفوضى لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يثبت أو يستقر على دليل علمي أو عقلي، بل

---

(١) بحار الأنوار:٦٧/ ٨٢.

(٢) سورة النجم: ٢٣.

يمكن التأكيد أن نتاج الهوى هي مجرد ظنون لا تُغني عن الحق شيئاً، لأنّها مجرد احتمالات غير علميّة فهي تصيبُ مرةً بالصدفة وتخطأ بألف.

وقد وصف الإمام علي ﷺ في نهج البلاغة حال ذلك الإنسان الذ يتّبع الظنون النابعة من هوى نفسه بقوله: «... ورجل قمش جهلاً[١]، موضع في جُهّال الأمة[٢] عادٍ في أغباش الفتنة[٣]، عمٍ بما في عقل الهدنة[٤]، قد سماه أشباه الناس عالماً وليس به، بكرّ فاستكثر من جمع ما قلّ منه خيرٌ مما كثر، حتى إذا ارتوى من ماءٍ آجن واكتثر من غير طائل[٥] جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره، فإن نزلت به إحدى المبهمات هيّأ لها حشواً رثاً من رأيه، ثم قطع به[٦]، فهو من لبس الشّبهات في مثل نسج العنكبوت[٧] لا يدري أصاب أم أخطأ، فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب، جاهلٌ خبّاط، جهالات، عاش ركّاب عشوات[٨]، لم يعضّ على العلم بضرسٍ قاطع يُذرو الروايات ذرو الريح الهشيم، لا مليّ والله ـ بإصدار ما ورد عليه، ولا أهلٌ لما قرّض به، لا يحسب العلم في شيء مما أنكره، ولا يرى أنّ من وراء ما بلغ مذهباً لغيره...»[٩] فهذا حال من اتّبع هواه فقاده إلى ظلام الجهل. وهناك أحاديث أخرى تكشف بوضوح مدى التناقض والتضارب بين الهوى والعقل.

---

(١) قمش جهلاً: أي جمعه.

(٢) مسرعٌ فيهم بالغش والتغرير.

(٣) مسرعٌ في ظلمات الفتنة.

(٤) أعمى عن بصيرته والأجل الذي ينتظره.

(٥) أي جمعه للجهل واكتنازه منه كمن يجمع الماء الآسن ويكتنزه لا طائل منه.

(٦) المبهمات: المشكلات ـ الرث: الخَلِقُ البالي.

(٧) فمن جهله أنه إذا أثبت شيئاً عرضت له شبهة تنفيه وإذا نفاه عرضت له شبهة تثبته.

(٨) خباط: سار في الجهل ـ عاش: الأعمى أو ضعيف البصر.

(٩) نهج البلاغة: خطبة ١٧/٥٩ ـ ٦٠.

فقد جاء في حديث للإمام علي عليه السلام أنه قال: «مخالفة الهوى شفاء العقل»[1] ويعني أيضاً أن طاعة الهوى سقم العقل، أو كما جاء في حديث آخر للإمام عليه السلام: «آفة العقل الهوى»[2]. وفي حديث ثالث قال الإمام علي عليه السلام: «غلبة الهوى يُفسد الدّين والعقل»[3]. وبطبيعة الحال فإنّ أول ما يعرض للإنسان نتيجة لغلبة هواه على عقله هو ميلانه عن سبيل الحق واتباع الباطل، ونقصد بالباطل هو كل تصور أو تصرف مخالفٍ للعقل والفطرة، فمن كانت لديه أفكار لا تستند على أسس علمية وعقلية فإنها تعتبر تصوّرات باطلة، ومن كان سلوكه من قول أو فعل مخالفة للعقل والمنطق فإنّه يعتبر تصرفاً باطلاً، فالحق والباطل يتدخلان في كلّ صغيرة وكبيرة في حياة الإنسان، لذلك فهما يتأثران بنتائج الصراعِ بين الهوى والعقل، فإذا غلب الهوى مال الإنسان إلى جهة الباطل في تصوراته وتصرفاته، وإذا غلب العقل مال الإنسان إلى سمت الحق وتغيرت تصوراته وتصرفاته. ونستطيع أن نلاحظ ذلك بدقة من خلال ما نشاهده من تغيير عميق يحدث في داخل الإنسان عندما ينقلب من الفسق إلى الإيمان، وكأنه يصبح إنساناً آخر يفكر بطريقة مغايرةٍ كما سبق، ويتكلم بمنطق آخر ويتصرف بأسلوب مخالف لما مضى.

قال المجلسي رحمه الله: أن أصحاب الرياضات والمجاهدات كلّما أمعنوا في قهر القوى البدنية وتجويع الجسد، قويت قواهم الروحانيّة، وأشرقت أسرارهم بالمعارف الالهيّة، وكلما أمعن الإنسان في الأكل والشرب وقضاء الشهوات الجسدانية صار كالبهيمة، وبقي محروماً عن آثار النظر والعقل والفهم والمعرفة، ولولا أنّ النفس غير البدن لما كان الأمر كذلك[4].

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٢٨٢ / ح٧٩.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٢٧٢ / ح١٠.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٤٩ / ح٣٤.

(٤) بحار الأنوار: ١٨/٥٨.

وهكذا يثبت هذا التحول وجود قوتين متصارعتين للإستيلاء والسيطرة على قلب الإنسان، وأنّ المنتصر بينهما هو الذي يفرض شروطه وآراءه وقوانينه على الطرف المنهزم أو المنكسر في المعركة، هاتان القوتان هما العقل والهوى، وكما أشرنا سابقاً فإنّهما قد يتقاسمان دائرة النفوذ بالطبع من دون أن يكون هناك إتفاق سري أو علني بينهما، ولكن في إطار سياسة فرض الأمر الواقع يسعى كل واحدٍ منهما الإبقاء على المناطق التي تخضع لنفوذه، ومن علامات إستيلاء الهوى على قلب المرء أن يصيبه العمى والصمم، فلا يرى الباطل ولا يسمع الحق.

ومما ورد من أحاديث الإمام علي في هذا الشأن قوله: «أوصيكم بمجانبة الهوى، فإنّ الهوى يدعو إلى العمى، وهو الضلال في الآخرة والدنيا»[1]. وقال أيضاً: «إنّك إن أطعت هواك أصمّك وأعماك، وأفسد من قلبك وأرداك»[2]. وقال أيضاً: «من اتّبع هواه أزلّه وأضلّه»[3] والأهواء بمثابة الأغلال التي تقيد الإنسان، وهي معه حتى آخر عمره، ولها تأثيرات على حياته الخاصّة والعامّة، فمن نتائج تحكمها وتسلطها على القلب:

١ ـ تدمير الاعتقادات الإيمانية لدى الفرد:

ولا فرق أن يكون مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً أو غير ذلك، لأنّ الهوى إذا حلّ في قلب الإنسان فإنه لن يسمح لمثل هذه الاعتقادات أن تبقى معه في مكانٍ واحد، أضف إلى أنّ هذه الاعتقادات تعتبر مثل قوانين تنظم وتحدد سلوك الإنسان، وهي تضع الهوى في قفصٍ ضيق، وهو ما يتضارب مع الحالة

---

(١) مستدرك الوسائل: ١٢/ ١١٣/ ح١٣٦٦٦، باب ٨١ من أبواب جهاد النفس.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ١/ ٢٦٠ / ح٢١.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٢٤٢ / ح١٥١٥.

الفوضوية للأهواء التي تريد أن تكون حرة وطلقة كي تحقق لذتها، ومن هنا يقع النزاع بين إيمان الإنسان وهواه.

وعلى المرء أن يختار بين إعتقاداته وبين هواه، أقول هذا: لأن هناك من يميلون إلى إتباع الهوى دون ان يدركوا بأنّ ميلهم هذا سيضعف إيمانهم ويزلزل اعتقاداتهم، فهم يرغبون أن يكونوا مؤمنين حقيقيين وفي نفس الوقت يلبون أوامر أهوائهم ولا يجدون أي تناقض في ذلك! وقد لا ينتبه هؤلاء الأشخاص إلى أنّ التحولات المنطقية تجري في داخلهم بإرادة منهم أو من دون إرادة، ولا نقصد بأن يكونا مسلوبي الإرادة! كلا.. وإنما تجري التحولات عليهم بشكل حتمي بعد ما هم يبادرون إلى إتخاذ القرار غير السليم أو إتباع السلوك المضر، فالقرار الأوّل كان بيد الإنسان ولابدّ أن يتحمل تبعاته التي عادةً ما تكون خارج نطاق سيطرته وإرادته، فمن يرتكب جريمة القتل فإنّ تبعات هذه الجريمة ستلاحقه حتّى توقع فيه العقاب، أو من كان مؤمناً واستولى الهوى على قلبه فيما بعد، فإنّ الإيمان سيُنتزع من قلبه حتى يرى نفسه في صفوف غير المؤمنين من حيث التفكير والمنطق والسلوك، فإذا وقف مع نفسه في لحظة تأمل حقيقية أدرك في قراراته أنه قد ابتعد عن عالم الإيمان الذي كان يحلم به من قبل، فليس كل ما يحبّ المرء يثبت في قلبه بل عليه أن يرسخ ذلك الحب من خلال سلوكه وعمله، فمن يحب أن يكون مؤمناً عليه أن يُثبت ذلك في واقع الحياة ولا يدع قلبه يكون مرتعاً للأهواء، لأنّ الإمام علي عليه السلام يقول: «غلبة الهوى يُفسد الدين والعقل»[1].

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٤٩ / ح٣٤.

٢ ـ الأهواء تخدّر العقل:

وكنا قد فصّلنا الحديث فيما سبق في هذا الشأن ولا داعي للإطالة، إلاّ أنه وبشكل مختصر يمكن القول أنّ الأهواء تأخذ مكان عقل الإنسان الذي سيطرت عليه الأهواء.

٣ ـ قوّة الأهواء يقابلها ضعف الإرادة:

فمن سمح لأهوائه بالزعامة ضعفت قوته عن مواجهتها، وهزلت إرادته عن مقاومتها، وكلّما استزاد من الأهواء كُلّما ضعف عزمه عن مقابلتها حتى يصير الإنسان عبد شهوته وهواه ولا يقدر أن يعصي لهما أمراً.

ومن يريد أن يشحذ همته ويقوي عزيمته لنزاع جيش الأهواء عليه أن يضع خطةً محكمةً لذلك ولا يتساهل في الأمر، مثلما فعل طوال تلك السنين الماضية عندما استولّت تلك الأهواء والشهوات على قلبه وتحكمت بإرادته، فالمرء في مثل هذه الحالات يكون بحاجة إلى عزيمة قوية وعونٍ من الباري عزّ وجل، لأنّه مثلما قلنا سابقاً أنّ التحوّل الذي يحدث داخل الإنسان من سيطرة الهوى إلى سيطرة العقل يجعله إنساناً آخراً، بل وينقله من عالم إلى عالم آخر. هذه الانتقالة العظيمة وهذا التحول الكبير من أجل الإستقرار عليه يكون عادةً بحاجة إلى إرادة فولاذية تجعله يصبر على مفارقة اللذّات والشهوات التي كانت فيما سبق متحكمةً به. وفي حديثٍ للإمام علي ﷺ يقول فيه: «من قوي هواه ضعُف عزمه»[1].

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ١٦٤ / ح٣١٤.

٤ ـ الأهواء منبع الشرور في الإنسان:

فهي تضرب القانون الذي يحكم الإنسان وهو العقل، فإذا خالف المرء قانون عقله فما الذي يمنعه بعد ذلك من مخالفة القوانين التي تحكم المجتمع؟ فإذا انضبط الإنسان من الداخل ينضبط أيضاً من الخارج، ولعلّ المشكلة الكبيرة التي تُعاني منها المدنية الحاضرة هي هذه: أنّها تريد أن تضبط الإنسان من الخارج عبر القانون المدني، بينما الإسلام يقوم أولاً بتربية الإنسان من الداخل، وترسيخ نقاط القوة في داخله مثل تنشيط العقل وازاحة الهوى عن طريقه، وثم تنظيم علاقته مع بقية أفراد المجتمع بأطر وقوانين منسجمة مع تلك التي في داخله، لذلك قيل: إن النظام الأصلح للبشرية هو الذي تنسجم شرائعه وقوانينه المدنية مع متطلبات الإنسان الذاتية: من عقلية ومادية.

فمثلما يحتاج الإنسان إلى الطعام فإنّه أيضاً يكون بحاجة إلى غذاء ينمّي به عقله، ويعينه على تدبير أموره الحياتيّة، ويساعده على حلّ مشكلاته المستعصية، إنّ الدخول إلى قلب الإنسان ومحاولة البحث والتقصي عن نقاط الضعف والقوّة في داخله، ثم وضع العلاج لذلك قبل استفحال الأمراض النفسيّة، هو الذي يمنع من إزدياد عدد المجرمين في بلادنا، ولابدّ أن نعرف قبل هذا كله أن (الهوى هو منبع الشرور) ولإثبات ذلك نقول: أنّ هوى كلّ فرد يتعارض مع هوى الأفراد الآخرين ومن هنا يحدث الصدام وتقع المشاحنات، لا سيما مع قلّة الموارد والنعم فإنّه لا يمكن تلبية كل أهواء الناس لذلك تبقى هناك أهواء مكبوتة، قد يتم التعبير عنها لدى بعض الأشخاص بصورة شريرة، فمن يكون عبداً مطيعاً لشهوته الجنسية قد يقوده ذلك إلى قتل إنسان كما فعل قابيل مع أخيه هابيل، ومن يكون عبداً لشهوة السلطة فقد يقوده ذلك إلى أفظع الشرور كما فعل فرعون بموسى عليه السلام وببني إسرائيل،

ومن يكون عبداً لشهوة الإنتفاع فقط يقوده ذلك إلى إرتكاب أفظع الجرائم كما فعل ذلك يزيد بن معاوية بالإمام الحسين انتقاماً لمقتل جدّه وأخواله، ومن يكون عبداً لشهوة المال فقد يقوده ذلك إلى السرّقة... وهكذا ما ترى من جريمةٍ يرتكبها الإنسان إلاّ ولها صلة بهوى يقوده إلى حتفه. وقد صرح الإمام علي في حديثٍ له: أنّ «سبب الشّره غلبة الشهوة»[1] فمن تغلب عليه هواه سيأمره بأن يفعل كلّ ما من شأنه تحقيق اللذة والشهوة وإن تعذر تحقيقها عن طريقٍ طبيعي فإنها ستفرض عليه اللجوء إلى طرقٍ غير شرعية.

٥ ـ الهوى منبع الأمراض النفسيّة:

من أوضح النتائج التي تصيب الإنسان نتيجة إستيلاء الهوى على مقدراته هو إصابته بأسوء الأمراض النفسيّة المهلكة، والتي قد تدفعه في بعض الأحيان إلى الإنتحار أو تقلب حياته رأساً على عقب إلى الحد الذي يتمنى معها الموت. ولنا أن نتخيل الحالة الصعبة التي يمرّ بها مثل هذا الإنسان حتى يصبح الموت بلسماً لعذاباته، الموت الأحمر! هذا البعبع الذي يرهبه ويهابه جميع الناس، يصبح أمنية يتمناها المرء ليخلص نفسه من أوجاع روحه، وعلينا هنا أن نبحث بجدٍ عن الخلل الرئيسي والمسبب لكلّ الآلام والأمراض النفسيّة! ونسأل ونقول من أين تأتي هذه الأمراض؟.

ولكي نتدرج بشكل موضوعي ونعرف مراحل تطور الإصابة بالمرض النفسي علينا أن نبدأ من أعلى الهرم حتى نصل إلى قاعه، فنقول:

في المرحلة الأولى: يحثّ الهوى ويزيّن الشهوة، وفي المرحلة الثانية: ينقاد المرء إلى اللذّة الموجودة في الشهوة، وفي مرحلة ثالثة: يتعود على تلك الشهوة فهي تتحكم فيه، والعادة السيئة تقود إلى المرض فهي المرحلة الرابعة. إذن

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٣٩٠ / ح٢٣.

فالمراحل الأربعة للإصابة بالمرض النفسي هي: ١ ـ الهوى. ٢ ـ اللذة. ٣ ـ العادة. ٤ ـ المرض.

وللمثال على ذلك نقول: يعتبرُ الخوف حاجة طبيعية للإنسان كي يستطيع حماية نفسه من الأخطار المحدقة به من الخارج والداخل، ولكن يصبح هذا الخوف مرضاً عندما يستولي على كيان الإنسان ويشلّ حركته ويربك حياته الفرديّة والإجتماعية، وهو ما يمكن أن نطلق عليه بالخوف المفرط فمنبعه هوى حب الدنيا، ولذته حب البقاء، وعادته الخوف من كلّ شيء مع الخطر أو بدونه، ولو بحثت في جميع الأمراض النفسية غير الناتجة عن سبب عضوي ستجد أن لها علاقة بشكلٍ من الأشكال بالهوى، وكان قد توصل فرويد إلى ما يشبه هذه الحقيقة إلاّ أن تفسيره لم يكن متكاملاً فهو الذي يؤكد وجود الصراع النفسي، فإنّه في نفس الوقت اعتبر أنّ الإصابة بالأمراض النفسية هي نتيجة لهذا الصراع، بينما التقييم الإسلامي يذهب إلى أن الإصابة بالأمراض هي نتيجة تغلب الهوى على العقل في ذلك الصراع النفسي، لأنّ هذا الصراع طبيعي وهو مستمر مع الإنسان حتى مماته إلاّ أن نتائجه هي التي تغير مجرى حياته، فمثلما نتائج الحروب هي التي تعين مصير الدول والأمم كذلك تتبين حقيقة الإنسان عند نهاية الصراع بين هواه وعقله.

٦ ـ الهوى منبع الصفات السيّئة:

يستطيع المرء أن يمسك بزمام نفسه وأهوائه المضلة ما لم تتحكم وتتسلط، فإذا تسلطت وتحوّلت إلى صفةٍ للإنسان فإنّه سيتعسر عليه قلعها من نفسه، فلنعود إلى بداية الإنسان ونقول: أنّ الإنسان ينشأ على فطرة العقل سالماً من الهوى ومن الصفات الذميمة ذو قلب أبيض سليم ولكنه يتغير بمرور الزمان وتقادم الأيّام، ومن ذلك تتغير تصوراته وصفاته وتصرفاته ونحن الآن معنيين

بالتغيرات التي تطرأ على صفاته، فكيف يمكن تفسير إنقلاب بعض الصفات الحسنة لدى الطفل إلى صفات سيئة عندما يبلغ الرشد؟ هل العقل يقضي بذلك أم أنّ هناك أسباباً أخرى؟ بالطبع لا يجوز أن يأمر العقل بتصرف غير لائق... وكما بيّنا من ذي قبل فإنّ الهوى هو الذي يأمر بالسلوك السيء، وهو الذي يفرش الأرض ورداً من خلال وساوسه لكي تتحول تلك التصرفّات شيئاً فشيئاً إلى صفات لا تنفكّ عن شخصيته، ويمكن تشبيه الصفات الحسنة والصفات السيئة كقلبين أحدهما أبيض والثاني أسود، فإذا زحفت إحدى الصفات السيئة من القلب الأسود إلى القلب الأبيض، انتقشت نقطة سوداء في القلب الأبيض، فإذا اتسع السواد تغيّر اللون الأبيض إلى أسود والعكس بالعكس، لأنّه مقابل كلّه صفة حسنة تقف صفة سيئة تصارعها وتنازعها كي تأخذ مكانها وتحتل موقعها في القلب، والهوى هو الذي يقود هذا النزاع نيابة عن الصفات السيئة بينما العقل ينوب الدفاع عن الصفات الحسنة، وينطلق الهجوم أولاً من جانب الهوى فهو يهاجم الصفات الحسنة، فإذا كان الإنسان كريماً قال له هواه: لو استمريت على كرمك هذا لنفذ مالك!! لماذا تهدر أموالك هنا وهناك من غير فائدة ترجوها؟ أو يقول: لماذا تكرم زيداً إنّه لا يستحق كرمك!.. وهكذا ترى الهوى يثبّط فعل الخير، ويمنع سبيل المعروف، ويفتك بالصفات الحسنة، ويُزين الصفات السيئة، ففي مهاجمته لصفة الكرم هناك دعوة مبطنة للشخص كي ينتحل صفة البخل.

وكلّ إنسان لديه الاستعداد للإتصاف بالصفات السيئة لأنّها ليست بعيدة عنه بل هي قريبة إلى الحدّ الذي يتخيل أنّه يكون في أمان إذا كان معها، فهذه الصفات هي نتيجة الإفراط في تلبية الحاجات أو ردع المخاوف النفسيّة، وللمثل على ذلك نقول: إنّ لدى كل واحد منا مخاوف من المستقبل ومخاوف أخرى من إمكانيّة نفاذ المال، فإنّ هذه المخاوف تجرنا إلى صفة

البخل ونفس الشيء بالنسبة إلى الجُبن، فإن سببه يعود إلى وجود مخاوف من خطر يحدق بحياة الإنسان، أما بالنسبة للحاجات فإن التكبر هو حالة مفرطة من حاجة الإنسان إلى الثقة بنفسه والإعتزاز بكرامته، فالإفراط في تلبية الحاجات والركون لتلك المخاوف يؤدي إلى الإتصاف بصفات سيئة، وأنَ الهوى هو الذي يحثّ على الإفراط في تلبية تلك الحاجات وهو الذي يوحي بالضعف، أمام مخاطر الحياة ومخاوفها.

علاج الهوى

لقد قدم الإسلام للإنسانية أعظم دواء لأعظم داء، فقد جعل العقل مقابل الهوى يردعه ويمنعه واشترط لفاعلية العقل أن يكون يقظاً متنبهاً لألاعيب الهوى، لا تفوته شاردةً ولا واردةً، ولا يغفل عن شهوة دخيلة ولا لذة قد تكون من ورائها حسرة، فجنود العقل هم بمثابة الكريّات البيضاء التي تدافع عن سلامة البدن وصحته، ولولا القوة الكامنة في هذه الكريات لمهاجمة الجراثيم لما تمكنت من تحقيق السلامة البدنية، إذن لا بدّ أن يتمتع العقل بقوةَ كافية حتى يستطيع صد الهجوم الذي يقوده الهوى، وفي سبيل تنميّة العقل واتّساع قدرته يحث الإسلام المرء على طلب العلم، لأنّ العلم سلاحٌ فعال يدافع به العقل عن نفسه ويهاجم به عدوه، وقد جاء عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «توقّ مجازفة الهوى بدلالة العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم»[١] وفي حديث آخر وصف الإمام علي عليه السلام أقوى الناس بقوله: «أغلب الناس من غلب هواه بعلمه»[٢] فلم يترك الإسلام العقل منفرداً في نزاعه مع الهوى بل طلب من المسلم أن يحمل أسلحة إضافية مع العقل حتى يتمكن

---

(١) بحار الأنوار: ٧٥/ ١٦٣.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ١٩٨ / ح٣٥٧.

من صدّ هجمات الهوى والدفاع عن المنظومة النفسية، وإن أحسنّا استغلال العقل عمل كالسيف البتّار في مهاجمته للهوى والشهوات فهو قاطع حازم. كما بيّنه الإمام علي عليه السلام: «الحلم غطاء ساتر والعقل حسام قاطع، فاستر خلل خُلقك بحلمك، وقاتل هواك بعقلك»[١] ويستدل بالعقل على مواقع الشهوات والأهواء لأنّها غير مرئية، فالعقل ينظر بعيون ثاقبة وفكر نيّر.

فعلى المرء أن يتّبع الطرق التي تؤدي به إلى تنمية عقله وأفكاره ليدخل الحرب، وهو مجهز بكامل عتاده، وأن يغذي نفسه بالحكمة، فنورها يخيم على ظلام الشهوات، ومحركاً لعزيمة المرء على الثبات، ومقاومة اللذات، وكان الإمام علي عليه السلام قد وصّى بالحكمة لأنّها تقلل من تحكم الشهوة، فقال: «كلّما قويت الحكمة ضعفت الشهوة»[٢] ومما يضعف الشهوات والأهواء: الإرادة والقدرة، فكلّما قويت الإرادة عجزت الشهوة عن فرض سيطرتها وتحكمها على القلب. فقد جاء عن الإمام علي عليه السلام قوله: «إذا كثرت المقدرة قلّت الشهوة»[٣] وأن الكفاف عما لا يجوز فعله من المحرمات العقليّة والدينية يساعد على تنمية الإرادة وتقويتها على حساب الشهوة التي ستتراجع قوتها أمام العقل، ففي حديث للإمام علي عليه السلام أنّه قال: «العفّة تضعف الشهوة»[٤] وكذلك حبّ الآخرة والزهد في الدنيا يضعف اللذّات والشهوات، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «من أحب الدّار الباقية لهى عن اللذّات»[٥] وعنه أيضاً:

---

(١) نهج البلاغة: حكم ٤٢٤ / ٥٥١.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ١١١ / ح١٢.

(٣) بحار الأنوار: ٦٩/ ٦٨.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ١١٨ / ح٢١٧٠.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٢٠١ / ح٩٣٨.

«من اشتاق إلى الجنّة سلا عن الشهوات»[1] وذكر الموت ومعرفة أنّ دار الدنيا فانية يساعد أيضاً على تضعيف الشهوات، فقد أوصى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إذكر أنك ساكن القبر فيمنعك ذلك عن كثير من الشهوات[2].

ومن خلال الأحاديث الشريفة التي أوردناها بشأن موضوع الهوى نصل إلى حقيقة نهائية هي أنّ علاج الهوى يكون عن طريق مخالفته، وليست هذه مجرد كلمة تُقال باللسان بل تحقيقها يتطلب مجاهدة حقيقية من قبل المرء لأهوائه وشهواته في إطار برنامج دقيق، لأنّه لو كان المطلوب هو مخالفة عدو ظالم لسهل الأمر، بينما المطلوب هو مخالفة اللذّات المحرمة عقلاً وشرعاً، مخالفة كل ما يرغب إليه الإنسان ويحبّه من الأمور التي لو تمادى فيها أوردته موارد الهلكة من الأمراض والخصال السيئة، ويبالغ الرجال الصالحين بترويض أنفسهم ومجاهدة أهوائهم عندما يقمعون كل هوى حتى وإن كان مُباحاً لهم إتيانه، لكي لا يَدعوا أي مجال للهوى كي يتغلغل في ذواتهم، أما أولئك الذين تلعب الأهواء بمقدرات حياتهم، فإنه يتعين عليهم أن يتبعوا طريقةً علمية لمحاربة أهوائهم الفاسدة، فلكل واحد منا نقطة ضعف تجاه غريزةٍ معينة أو لذةٍ من اللذات، فعلينا أولاً أن نكتشف نقطة الضعف تلك، لأنّها تعتبر منافذ لدخول فيروسات الأهواء، ومن ثم محاولة سدّ هذه الثغرات وتحويل نقطة الضعف إلى قوة.

ولا تتحقق مخالفة الهوى إلاّ عبر ثلاث طرق:

أولاً: صيانة النفس عن اللذّات المحرمة.

ثانياً: ترويضها بالعلم والحكمة.

ثالثاً: اجهادها بالتعويد على الخير والعبادة.

---

(١) نهج البلاغة : الحكمة ٣١/ ٤٧٣.

(٢) المحجة البيضاء: ٥ /١٩٩.

روي عن أبي عبد الله عليه السلام وهو يقول لرجل: اعلم يا فلان أنّ منزلة القلب من الجسد بمنزلة الإمام من الناس الواجب الطاعة عليهم ألاّ ترى أن جميع جوارح الجسد شُرط للقلب، وتراجمة له، مؤدية عنه: الأذنان والعينان والأنف واليدان والرجلان والفرج، فإنّ القلب إذا همّ بالنظر فتح الرجل عينيَه، وإذا همّ بالاستماع حرك أذنيه وفتح مسامعه فسمع، وإذا همّ القلب الشّم استنشق بأنفه فأدى تلك الرائحة إلى القلب، وإذا همّ بالنطق تكلم باللسان، وإذا همّ بالحركة سعتِ الرجلان، وإذا همّ بالشهوة تحرك الذكر، فهذه كلها مؤدية عن القلب بالتحريك، وكذا ينبغي للإمام أن يطاع للأمر منه[1].

وجاء في رواية أخرى عن علي بن الحسين عليه السلام في حديث طويل يقول فيه: ألاّ إن للعبد أربع أعين عينان يبصر بهما أمر دينه ودنياه، وعينان يبصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح له العينين اللتين في قلبه، فأبصر بهما الغيب وأمر آخرته، وإذا أراد به غير ذلك ترك القلب بما فيه[2].

يقول المفكر الإسلامي الشهيد السيد حسن الشيرازي قدس سره في كتابه خواطري عن القرآن:

(أن الإنسان أكبر من هذا الكيان الأرضي، وأكبر من هذه الكتلة الصغيرة من العناصر الترابيّة المركبة تركيباً بشرياً، إنه ذلك اللقاء الفريد بين رغبات الأرض ونفحات السّماء، وهو بروحه المتنقلة بين العوالم أكثر مما هو بجسده المزمن على الأرض، فهو ليس أكثر من زورق مرحلي يجتاز بحيرة الدنيا، ولذلك: لا يقيّم بوزنه وإلاّ لكان الثور أثمن منه، ولا بلونه وإلاّ لكانت اللوحة الفنيّة أثمن منه، ولا بشجاعته وإلاّ لكان الأسد أثمن منه، ولا بقوّته

---

(١) بحارالأنوار: ٥٨ /٢٤٩ - ٢٥٠.

(٢) بحار الأنوار: ٥٨/٢٥٠.

وإلاّ لكان الفرس أثمن منه، ولا بسائر مزاياه الجسديّة، وإلاّ لما وجدنا أصحاب المزايا الجسدية في الشوارع وفاقدي المزايا الجسدية على مقاعد الرئاسات)[1].

ثم يقول تدّئل: (إنّ الذي يملكه الإنسان هو ما يكون من سنخه فينميه بصفته لقاء الأرض والسماء، وذلك هو سعي الإنسان لأن سعيه تحركه، وتحركه ملكه لأنّ الحركة تفتح ذاتيات المتحرك، وتفتح لها المجالات لتسير نحو التكامل وتأخذ مداها فتبلغ بصاحبها قمته، فسعي الإنسان هو الشيء الوحيد الذي يملكه في الحياة لأنه يصدر منه ويعود إليه، فهو المصدر والمصب لسعيه)[2].

من هذا يتبين لنا أنّ الإنسان عليه أن يُعالج جميع الثغرات التي تؤدي إلى الانحراف سعياً لصيانة النفس الإنسانية من الوقوع في المهالك، ولا يتحقق ذلك إلاّ بالسعي والمجاهدة.

ولدينا العشرات من الأحاديث الشريفة التي تحث على مخالفة الهوى ونبذ الشهوات إلاّ أننا سنأتي على بعضها ونشير في البداية إلى الآية الكريمة: ﴿ *وأمّا من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى * فإنّ الجنّة هي المأوى* ﴾[3] فهذه الآية تقرر أن نتيجة مخالفة الهوى هو كسب رضا الله والدخول إلى جنَة الخُلد، وقد تحمل هذه الآية معنى آخر دنيوي هو: أنّ من يخالف هواه يعيش سعيداً وسالماً من الأمراض النفسيّة كمن يعيش أحلى أيّام حياته في جنة الخُلد، ونقرءُ في حديث للإمام علي عليه السلام إذ يعتبر مخالفة الهوى هو ضمان لسلامة العقل من الأوهام والظنون والأمراض الفكرية، فقد جاء في حديثه «مخالفة الهوى

---

(١) خواطري عن القرآن: ٣ /١٤٧- ١٤٩.

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ١٤٨-١٤٩.

(٣) سورة النازعات: ٤٠ ـ ٤١.

شفاء العقل»[١] وفي حديث آخر اعتبر الإمام علي مخالفة الهوى بمثابة إتّباع العلم والحكمة فقال: «من خالف الهوى أطاع العلم»[٢] وفي حديث ثالث جعل الإمام مخالفة الهوى والنفس كدليل على الإستقامة «خالف نفسك تستقم»[٣] والإستقامة هي السير على دربٍ واضحة.

ولمخالفة الهوى فضيلة قلّ ما ينتبه إليها الناس وهي: أن يحوز المرء على خاتمة أمره ويدرك خاتمة عمله، بينما الذي تقوده الشهوات عاجز عن متابعة عقله ومخططاته، فهو يتنازل في أكثر الأحيان عنها لمجرد تعرّض لذّاته للخطر، فهو يترك الدراسة وطلب العلم لأنّ ذلك يتطلب منه العناء والسهر، ويستدعي منه التقليل من لذّة النوم والرّاحة والاستجمام، فمن يستطيع مخالفة هواه يتمكن من أن يرى ثمار خاتمة عمله، وكذلك الأمر ينطبق على الحالات النفسية المؤقتة التي تمرّ على الإنسان، فإنّه لو كان مخالفاً لهواه لتمكّن أن يتحكم بانفعالاته العصبية، بينما نجد أنّ العاجز عن مواجهة هواه هو عاجز بالضرورة عن ضبط انفعالاته هذه، وقد يؤدي به الغضب في أحيان إلى قتل النفس التي حرّم الله، فمن يريد أن تكون خواتيم أموره وأعماله بيده فالطريق لذلك واضح هو: مخالفة الهوى.

ولمن يريد أن يختبر نفسه ويعرف قدرها، وهل أنّه من أتباع الهوى أم من أتباع العقل؟ فهناك علامات للسلامة النفسية منها:

أولاً: ظهور رجاحة العقل: فقد جاء عن الإمام علي قوله: «من غلب شهوته ظهر عقله»[٤] وفي مخالفة ذلك قال الإمام: «من لم يملك شهوته لم يملك عقله»[١].

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٢٨٢ / ح٧٩.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ١٧٧ / ح٥٣٤.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٣٥٨ / ح٥٣.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ١٦٤ / ٣٠٨.

ثانياً: سلامة النفس من الكدورات: فقد قال الإمام عليﷺ: «خالف الهوى تسلم»[٢].

ثالثاً: أن يكون ذو عزةٍ وكرامة: لأنّ عبد الهوى هو ذليل لغرائزه ولذّاته، فهو يهدر كرامته من أجل تحقيق اللذة، وهنا قال الإمامﷺ: «حلاوة الشهوة ينغّصها عار الفضيحة»[٣].

رابعاً: سلامة القلب من التعصب الأعمى: فمن يمرضه الهوى يقسو قلبه، فلا يترك للحق مجالاً أن يتغلغل في قلبه، فقد ورد في القرآن الكريم: ﴿ ***أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكّرون*** ﴾[٤].

خامساً: الإنعتاق من كل الأغلال النفسيّة: لأنّ عبد الهوى يشعر بعجزه أمام كلّ شيء، فقد نُقل عن الإمام عليﷺ قوله: «عبد الشهوة أسيرٌ لا ينفك أسره»[٥].

سادساً: حسن السريرة وسلامة اللسان: لأنّ فحش اللسان وسوء السريرة من الهوى.

سابعاً: قوّة العزيمة والإرادة: فهذه أيضاً من علامات سلامة النفس!.

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٢٢٩ / ١٣٤١.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٣٥٦ / ح٢٤.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٣٤٣ / ح١٩.

(٤) سورة الجاثية: ٢٣.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٤٠ / ح١٥.

الغرائز

الغريزة: هي حاجة فطرية في داخل الإنسان تنتقل إليه عن طريق الوراثة ولها محركٌ من نفس طبعها يحثها على الفعل، فالجائع يطلب الطعام والمُرهق يطلب الراحة، والكرى يقتضي النوم، والشبق يقتضي الجماع، فكل غريزة من هذه الغرائز، كالراحة والأكل، والشرب والنوم، والجماع لها محركاً يحثها ويدفعها نحو الفعل، ولولا المحرّك لتثاقل الإنسان عن تلبية حاجة تلك الغريزة ولوقع في مشاكل جمّة، فالذي لا يشعر مثلاً بمحرّك الجوع الذي يحثه على تحقيق حاجته من الطعام الذي به قوام جسمه، فإنّه قد يتكاسل عن ذلك ويصيبه الضعف والوهن ثم يهلك، لأنّ معرفة العقل بضرورة الغذاء للجسم لا تكفي بمفردها لحث الإنسان على القيام بذلك الفعل، وكذلك نفس الشيء بالنسبة للغريزة الجنسية، فلو زال محرّك الشبق من عملية الجماع لامتنع أكثر الناس عن الزواج وكان ذلك سبباً لزوال نسل البشرية.

روى العلامة المجلسي قدس سره مشيراً إلى بعض الغرائز في رواية عن كتاب توحيد المفضل جاء فيها: قال الصادق عليه السلام: فكر يا مفضّل في الأفعال التي جعلت في الإنسان من الطعم والنّوم والجماع وما دبّر فيها، فإنه جعل لكل واحد منها في الطباع نفسه محرّك يقتضيه ويستحث به، فالجوع يقتضي الطعم الذي به حياة البدن وقوامه، والكرى[1] يقتضي النوم الذي فيه راحة البدن وإجمام قواه، والشبق يقتضي الجماع الذي فيه دوام النسل وبقاؤه، ولو كان الإنسان إنما يصير إلى أكل الطعام لمعرفته بحاجة بدنه إليه ولم يجد من طباعه شيئاً يضطره إلى ذلك كان خليقاً أن يتوانى عنه أحياناً بالتثقل والكسل، حتى

---

(١) الكرى: بفتحتين يعني النعاس.

ينحل بدنه فيهلك، كما يحتاج الواحد إلى الدواء لشيء مما يصلح به بدنه فيدافع به حتى يؤديه ذلك إلى المرض والموت. وكذلك لو كان إنّما يصير إلى النوم بالتفكر في حاجته إلى راحة البدن وإجمام قواه كان عسى أن يتثاقل عن ذلك فيدفعه حتى ينهك بدنه، ولو كان إنّما يتحرك للجماع بالرغبة في الولد كان غير بعيد أن يفتر عنه حتى يقل النسل أو ينقطع، فإن من الناس من لا يرغب في الولد ولا يحفل[١] به. فانظر كيف جعل لكل واحد من هذه الأفعال التي بها قوام الإنسان وصلاحه محرّك من نفس الطبع يحرّكه كذلك ويحدوه عليه[٢].

وتعتبر الغرائز الفطريّة هي الأساس والمنبع لكل الحاجات والرغبات التي يدركها الإنسان في الكبر من خلال التعليم أو من تجاربه في الحياة ويطلقون عليها إسم (الدوافع)، فالإنسان يُجهد نفسه في العمل لدافع شراء سيارة فارهة تؤمّن له غريزة الشعور بالراحة... وهكذا.

والطفل يندفع نحو ثدي أمه بالغريزة فهي توجهه نحو الرضاعة وطلب الحليب، وكذلك هي الغريزة نفسها التي تدفع الحيوان للبحث عن الطعام وذلك لأنّه يفتقد للعقل، ونجد حكمة الله سبحانه وتعالى في بث الغرائز في البدن وفي وقتها المعلوم ما يدهش العقول، فقد جعل سبحانه وتعالى بحكمته البالغة ظهور الغريزة الجنسية في عمر يناسب السن الطبيعي للزواج، فإذا كان هذا البدن البشري لا يعمل وفق نظام محدد لكانت الغريزة الجنسية قد ظهرت أيضاً لدى الطفل في سنّ مبكرة، وهو أمرٌ مثيرٌ للإشمئزاز ومدعاة للإرباك في الحياة.

---

(١) لا يحفل: لا يبالي ولا يهتم به.

(٢) بحار الأنوار: ٥٨ / ٢٥٥.

ومن هنا نعرف أن هناك غايات ساميّة من بث الله سبحانه وتعالى الغرائز في النفس البشرية، فالطعام مثلاً للحفاظ على صحة الجسم، والجُماع من اجل بقاء النسل، والنوم في سبيل إراحة الدماغ والبدن. وقد وضعت العقيدة الإسلامية حدوداً معينة لتلبية حاجة هذه الغرائز باعتبار أنّها إذا كانت مقننة تصبح وسائل لتحقيق حياة سليمة وهانئة، ولكن من غير اللائق والمنطقي أن تتحول هذه الغرائز من وسائل للحياة لتصبح أهدافاً يتهالك الناس لتحقيقها ويتصارعون عليها، كما يقول فرويد الذي يعطي أهمية كبيرة للغريزة الجنسية، فإنّ من يعتبر الغريزة الجنسيّة هي أعظم غايةٍ لديه هوكمن يجعل الطعام أكبر همه وهدفه الرئيسي في الحياة، فكلا الغريزتين من منشأٍ واحد.

وعندما تطالع بعض كتب علم النفس فإنك ستلاحظ كيف أن بعض الكُتاب يبالغون بقيمة الغريزة الجنسية التي يعتبرونها أنها الأعظم تأثيراً على حياة الإنسان مثلما فعل فرويد، وإن كنا نعترف بتأثير الغريزة الجنسية على الحياة النفسية للفرد، ولكننا نؤكد أن غريزة الشرب هي من أهم الغرائز بالنسبة لحياة الإنسان، فقد يستطيع المرء أن يصبر على الغريزة الجنسية لسنوات، ويصبر عن الجوع لأيام ولكنه لا يستطيع أن يستغني عن الشرب، لأنّ في ذلك هلاكه ونحن في هذه الحقبة نشهد نزاعات إقليمية ودوليّة حول المياه تنذر بنشوب حروب عسكرية من جرائها، ومن حكمة الله سبحانه وتعالى أن جعل الماء يحصل عليه المرء من دون ثمن، وذلك بسبب إزدياد حاجة الإنسان للمياه، بينما في مقابل الطعام لا بدّ أن يدفع المرء ما يقابل ثمنه بما في ذلك الخبز، إذن فالغريزة الجنسية لا تمثل مسألة حياة أو موت بالنسبة للإنسان على عكس الماء.

لنقرء ما جاء في كتاب علم النفس للدكتور فاخر عاقل بشأن هذا الموضوع: «لابدّ وقد وصلنا في هذا الجزء من البحث من محاولة الجواب عن

السؤال التالي: أي الدوافع المشتركة بين الإنسان والحيوان أقوى؟ لقد حاول العلماء للجواب على هذا السؤال محاولات عدة، فرجع بعضهم إلى التاريخ ليقول: أن الجوع هو أقوى هذه الدوافع واستشهد على قوله بالحروب الكثيرة التي كان طابعها المميز ودافعها الأساسي هو الجوع، ورجع بعضهم الآخر إلى الاضطرابات النفسية والأمراض العصبية ليقول: أنّ الدافع الجنسي هو الأقوى وهكذا»[١] ونقرء في كتاب أصول علم النفس للدكتور أحمد عزت راجح حول الدافع الجنسي: «من أقوى الدوافع لدى الإنسان وأكبرها أثراً في سلوكه وصحته النفسية غير إن تعقد الطبيعة البشرية وكثرة القيود التي تفرضها الثقافات المتحضرة على هذا الدافع، وملابساته تجعل دراسته وتحليله عند الإنسان أمراً عسيراً»[٢] لكننا نقرء هذا النص أيضاً من كتاب علم النفس الفسيولوجي للدكتور كاظم ولي آغا الذي يدلي برأي مختلف في هذا المضمار: «رغم الأهمية التي تُعطى للدافع الجنسي كعامل له دوره في حالة الإنسان النفسية والجسميّة، فإنه يأتي من بعد دوافع الجوع والعطش إذ إنه ليس أساسياً في بقاء الكائن العضوي حياً، فلا يموت الإنسان إن لم يكف جوعه الجنسي»[٣].

وقد تباينت وجهات نظر علماء النفس الحديث بشأن الغرائز، فمنهم من أنكر وجودها وقال: أنّها ليست سوى فرضية افترضها علماء النفس القُدامى دون أن يكون لها نصيب من الصّحة، لكن الكثير منهم استبدل مصطلح الغرائز بمصطلح آخر هو الدافع على الرغم من الاختلاف الواضح بين المعنيين إلاّ أن الذي حقق وكتب عن الدوافع أورد ايضاً قضية الغرائز، لأنّه لا يمكن

---

(١) علم النفس: ١٦٨.

(٢) أصول علم النفس: ٩٠ ـ ٩١.

(٣) علم النفس الفسيولوجي: ١٨٠.

إلغاء مثل هذه الحقيقة الكُبرى. لنقرء بعض النصوص التي تعطينا تعريفات موجزة حول الدوافع:

ففي كتاب (نمو الشخصية) نقرء حول طبيعة الدافع أنه «لابدّ من الاحتفاظ بمفهوم للدافع يتميز عن مفهوم الحافز البيولوجي الذي هو حالة من الحرمان أو الإزعاج تحدث نتيجة إضطراب في الفيزيولوجية الأساسية للعضوية، ويعتبر الجوع والعطش والبرد والألم حوافز بيولوجية كلاسيكية، ويؤدي كلّ حافظ إلى تنشيط بُنى معينة في الجهاز العصبي المركزي وأعضاء الإستقبال الحسي« إلى أن يصل »يعتبر الدافع في أبسط أشكاله رغبة، إنه مجموعة صور، أو أفكار تمثل حوادث أو أشياء يرغب الفرد في اختيارها أو امتلاكها، فالدافع إذن عمليات معرفية ليست لها علاقة ضرورية بالسلوك الظاهري»[١].

ونقرء في كتاب (علم النفس) للدكتور فاخر عاقل أنّ أصل الغرائز هي حاجات فيزيولوجية وليست رغبات كما يقول جيروم كاغان فهو يصف الدوافع بقوله: «هكذا نصل إلى ما يسمى بالدوافع ونلاحظ أن الظروف التي ترافق الحرمان من المواد اللازمة للعضوية كالطعام والشراب وفاعليات اخراج الفضلات وغيرها تدفع العضوية إلى النشاط والفعل ولذلك سميت بالدوافع، وهذه الدوافع نجد أصلها في حاجات فيزيولوجية، إلاّ أن هذا لا يمنع أن تكون الدوافع طبيعية أحياناً ومكتسبة اثناء الحياة أحياناً أخرى»[٢] ونلحظ في هذا النص تأكيد من الدكتور فاخر عاقل على وجود رابطة متينة بين الدافع والنشاط أو الفعل، على نقيض ما يراه مؤلف كتاب نمو الشخصية الذي يقول: «لا يوجد إرتباط ضروري بين الدافع والسلوك الخارجي نظراً لأنّ الدوافع

---

(١) نمو الشخصية: ١٨٥.

(٢) علم النفس: ١٥١ ـ ١٥٢.

معرفية في طبيعتها، فالطفل قد يمتلك رغبة قوية للاعتناء بأخته الأصغر منه ومع ذلك فهو لا يُبدي محاولة خارجية ليُشبع هذه الرغبة»[١].

ونجد تأكيداً آخراً على قوة الرابطة بين الدوافع والسلوك وذلك في كتاب علم النفس الفسيولوجي للدكتور كاظم ولي آغا، فهو يقول: «الدافع هو كل ما يدفع إلى السلوك ذهنياً كان هذا السلوك أم حركياً لذا كان موضوع الدوافع يتصل بجميع الموضوعات التي يدرسها علم النفس إذ لا سلوك بدون دافع»[٢] ونطالع أيضاً في هذا الكتاب في توضيح معنى الحافز «وبعبارة أخرى فالدافع استعداد ذو وجهين وجه داخلي محرك ووجه خارجي هو الغاية أو الهدف الذي يتجه إليه السلوك الصادر عن الدافع كالأكل والشرب والظفر بمركز اجتماعي مرموق، ويسمى الوجه الداخلي للدافع (الحافز Drive) ونقرء في تعريف الحافز لدى الدكتور فاخر عاقل: «أن الأمور (كالطعام) والأوضاع (كظروف الحرارة المتغيرة) والفاعليات (كإخراج الفضلات) إن هذه الأشياء كلّها التي تكون وسائط لفاعليات مدفوعة تسمّى عادة بالمستثيرات، وحين يكون ثمة سلوك مدفوع بهذه المستثيرات نفضل استعمال كلمة (حافز) بدلاً من كلمة دافع، فالحيوان المدفوع إلى العمل بالجوع يحصل على حافز للبحث عن الطعام ويحصل عليه طبعاً بالتكرار، والفاعلية المستثارة بالدوافع كدوافع قد تكون عمياء في حين أن الفاعلية التي تدفع إليها الحوافز تكون متجهة نحو هدف، وبتعبير آخر تكون الدوافع دوافع من الداخل في حين تكون الحوافز دوافع باتجاه هدف لازم ضروري»[٣] بينما نجد في كتاب علم النفس الفسيولوجي أن كاتبه يعتبر الباعث هو الوجه الثاني للدافع فهو

---

(١) نمو الشخصية: ١٨٨.

(٢) علم النفس الفسيولوجي: ١٧٥.

(٣) علم النفس: ١٥٣.

الغاية والهدف الذي يتجه إليه السلوك[١]. ونلحظ المزيد من التباين في وجهات النظر بخصوص الغرائز لدى أغلب الباحثين في مجال علم النفس.

ونقرء في تعريفات قدّمها الدكتور أحمد عزّت راجح في كتاب (أصول علم النفس) حول تعريف الرغبة أنّها «دافع يشعر الفرد بغايته وهدفه أي يتصور أن هذا الهدف يرضي حاجة لديه كالرغبة في قراءةكتاب معين أو تناول طعام معين أو القيام برحلة معينة»[٢] بينما هو عندما يأتي لتعريف الحاجة يقول: «الأصل في الحاجة أنها حالة من النقص والعوز والإفتقار واختلال التوازن، يَقترن بنوع من التوتر والضيق لا يلبث أن يزول متى قضيت الحاجة، وزوال النقص سواء كان هذا النقص ماديّاً أو معنوياً، داخلياً أو خارجياً[٣]» ثم يعود ويقول: «ومما يذكر أنّ الإنسان قد يكون في حاجة إلى شيء لكنه لا يرغب فيه كأن يكون في حاجة إلى تعاطي أدوية خاصة، لكنه لا يرغب في تعاطيها أو يرغب في شيء لا يكون في حاجة إليه، فقد يرغب في طعام كالحلوى وهو ليس في حاجة إليه بل قد يكون ضاراً»[٤].

وهنا يأتي السؤال إذا كانت الرغبة هي غاية أو هدف يرضي حاجة لدى الفرد، وأن الحاجة هي حالة من النقص والعوز والإفتقار واختلال التوازن، فكيف يمكن أن يرغب الإنسان بشيء وهو ليس بحاجة إليه؟

من هذا يتبين أن الرغبة ليست دائماً تمثل حاجة لدى الفرد وذلك لأنّ منبعها ليس العقل فقط، وإنّما قد يكون منبع هذه الرغبة هو الهوى الذي وصفه الدكتور أحمد عزت راجح بقوله: «فقد يرغب في طعام كالحلوى وهو

---

(١) علم النفس الفسيولوجي: ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢) أصول علم النفس: ٨٠.

(٣) أصول علم النفس: ٨٠.

(٤) المصدر نفسه: ٨٠ ـ ٨١.

ليس في حاجة إليه بل قد يكون ضاراً» فالضرر لا يأتي من العقل وإنّما من الهوى الذي يدفع الإنسان لإتخاذ قرارات غير مصيبة تعود عليه بالضرر.

فللغرائز دور في تهييج الصراع النفسي في داخل الإنسان، لأنّ الهوى يحوّل مسارها من كونها وسائل لإرضاء بعض الحاجات الجسمية لتصبح هي الهدف والمُبتغى، فالهوى يلحُ على الإنسان لتوفير المال وجمعه في سبيل إرضاء دافع الجوع مثلاً، وهكذا تنبثق عدّة خصال سيئة نتيجة تحول جمع المال من وسيلة إلى هدف منها: البُخل والطمع وهكذا بالنسبة إلى باقي الغرائز والدوافع الثانوية. وكما نقرء ذلك في نص من كتاب علم النفس الفسيولوجي لمؤلفه الدكتور كاظم ولي آغا بإمكانية تحول الوسيلة إلى هدف «كثيراً ما تغدو الدوافع الوسيطة التي تستخدم كوسائل لبلوغ غاية معينة هي نفسها الغايات المرغوب فيها كما في جمع المال»[1].

فالإسلام يأتي ليصحح نظرة الإنسان تجاه غرائزه ويعطيها بُعداً منطقياً وعلمياً ويضعها في موقعها المناسب، فلا يجوز أن تتحول الوسيلة إلى هدف ولا العكس، لأنّ الفهم الخاطئ لهذه الغرائز ولهذه الحاجات ينجمُ عنه تصرفاً خاطئاً أيضاً كالذي يجعل من النوم هدفاً في حياته ويقضي أحلى ساعات عمره في النوم أو بالعكس عندما يقلل من ساعات نومه بهدف الاستفادة منها للعمل، وهو لا يدري أن ذلك سيكون له مضاعفات جسمية ونفسية، فالإسلام يقول: (لا إفراط ولا تفريط بل آمر بين أمرين).

وفي مقام آخر نجد أن هذه الدوافع غير ثابتة على مستوى واحد من القوة، وأنها يمكن أن تضعف أو تقوى بالممارسة والتعليم والمران. لنقرء في بعض النصوص ما جاء في هذا الصدد إذ يقول المؤلف جيروم كاغان في كتابه

---

(١) علم النفس الفسيولوجي: ١٨٠.

نمو الشخصية: «تتغير قوة الدافع مع إكتساب الخبرة، فبعض الدوافع تصبح أضعف وبعضها الآخر يغدو أقوى، وكلّما تقدم الطفل في النمو تصبح رغبته في حضور أمه أضعف ورغبته في السيطرة على أقرانه أقوى، ولم يتمكن علماء النفس من فهم جميع الشروط التي تتحكم في ازدياد قوة الحافز أو ضعفه»(١).

ونطالع أيضاً في كتاب علم النفس الفسيولوجي للدكتور كاظم ولي آغا حول آثار التعلم في نمو الدوافع مايلي: «يمكن تلخيص آثار التعلم في الدوافع الفطرية بالنقاط التالية:

١ ـ إنّ الدوافع تغدو بفضل التعلم أكثر تنوعاً كما في دافع الجوع وتطور شكل إروائه.

٢ ـ تختلط الدوافع عن طريق التعلم بدوافع أخرى وتؤلف وإياها كلاً معقداً ويحدث هذا عندما يكون شيء واحد هدفاً لرغبتين أو أكثر.

٣ ـ كثيراً ما تغدو الدوافع الوسيطة التي تستخدم كوسائل لبلوغ غاية معينة هي نفسها الغايات المرغوب فيها كما في جمع المال.

٤ ـ تتحور الدوافع الفطرية من ناحية مثيراتها، فتكتسب مثيرات جديدة، فكثيراً ما يأكل وهو في غير حاجة إلى الطعام لمجرد أن حان موعد الطعام...»(٢).

وقد أوردنا هذه الآراء لنبين أنّه من الممكن التحكم و السيطرة بالغرائز أو ما يسمونه بالدوافع، وهو ما تذهب إليه الشريعة الإسلامية التي لا ترى ضرراً على الإنسان لو جاع مدة قليلة من الزمن بحيث لا تؤدي إلى مضاعفات صحيّة أو تكون سبباً لهلاكه، ففترة الصيام التي أقرّها الإسلام وفرضها على

---

(١) نمو الشخصية: ١٨٧.

(٢) علم النفس الفسيولوجي: ١٨٠.

المؤمنين إنّما هدفها هو تعسويد الإنسان وتمكينه من السيطرة على غرائزه الفطرية. وقد أوضحت الآراء التي أوردناها أنّه يمكن تصحيح قوة أو ضعف أي واحدة من تلك الغرائز، وهذه النتيجة بحد ذاتها تنقض من قيل حول إمكانية تضرر الإنسان فيما لم يستجب لمتطلبات غرائزه، ومع تأكيدنا على أن الإسلام لا يعترض على تلبية الغرائز الإنسانية لكنه في نفس الوقت يدعو إلى تهذيبها وترشيدها من خلال المران والتعليم، فعندما تكون بعض الرغبات منشأها الهوى فإن الانقياد لها يؤدي إلى أخطار جسيمة على الإنسان، ومن أهم تلك الأخطار أنّها تقوم بتوجيه ضربة قاسية إلى إرادة الإنسان، الذي سيكون خاملاً ومتكاسلاً عن طلب العلم مدفوعاً بغريزة حب الراحة، وسيكون جباناً بدافع حب البقاء، وسيكون مفرطاً في الخوف نتيجة دافع حب الحياة، وسيكون بخيلاً بسبب دافع حبّ المال. وهكذا يتبين أنّ الإنقياد لهذه الغرائز والدوافع الفطرية والمكتسبة من دون موازين قيمية واضحة تؤدي بالإنسان إلى حالتي الإفراط والتفريط.

وترى العقيدة الإسلامية أيضاً أنّ الإنقياد لتلك الغرائز بشكل كامل يحط من قدر الإنسان ومنزلته ويضعه في مصاف بقية الحيوانات غير العاقلة، فهناك الكثير من الآيات التي تكشف لا على سبيل المجاز عن الحقيقة النفسية، لبعض افراد البشر الذين يهبطون من مستوى الإنسانية الى البهيمية، وإننا نجد في القرآن الكريم وهو يشبّه حالة أحدهم بالكلب ﴿ ***واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعهُ الشيطان فكان من الغاوين *** ﴾ ***ولو شئنا لرفعناهُ بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثلُ القوم الذين كذّبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلّهم يتفكرون*** ﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦.

وهنا ليس المقصود توجيه اللعنات أو السباب لذلك الشخص وحاشا لله من ذلك، وإنّما المراد هو تبيين حقيقة البيهيمة ليس وفقاً للمفهوم الإيماني أو الروحي كما يتصور الكثيرون، وإنّما وفقاً للمعايير العلمية الدقيقة وذلك أن جميع الناس يشتركون مع الحيوانات الأخرى في الغرائز، وميّز الله سبحانه وتعالى البشر بميزة واحدة لا أكثر ولا أقل هي (العقل) فإذا تخلّى الإنسان عن عقله وسار خلف غريزته فهو بذلك يفعل كما تفعل البهائم وأسوء! لأنّ البهائم تتصرف بغريزتها من دون تمييز منها بين الصحيح والخطأ، أمّا الإنسان الذي يتّبع على الدوام أهواءه وشهواته فهو يستفاد من عقله لأغراض سيئة كمن يستخدم عقله للفتك بالناس وقتلهم فهو كالأنعام بل أضلُ سبيلا.

الخير والشر من منظور فلسفي

التجرّد لمحض الخير أو الشرّ[1]

وتفصيل البحث عن الخير والشّر يحتاج إلى تتبع الآراء في ذلك ثم الاستناد إلى ما يمكن استفادته من الكتاب والسنّة.

وهنا نلقي بعض الضوء على ما سلكه صدر المتألهين في هذا المجال.

قال في مفاتيح الغيب في المفتاح الرابع المشهد الثاني: اعلم أنّ التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين الذين هم في أعلا عليين، ومنهم تفيض الخيرات إلى أتباعهم وجنودهم، والتجرد لمحض الشر سجيّة الشياطين المردودين الذين هم في أسفل سافلين، ومنهم تتعدى الشرور إلى اتباعهم وجنودهم والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين.

فالمتجرد للخير ملك مقرب، والمتجرد للشر شيطان لعين، والمتلاقي للشر بالرجوع إلى الخير انسان، فقد ازدوج في طينة الإنسان شائبتان واصطحب معه سجيتان وكل عبد مصحح نسبته إما إلى الملك أو إلى الشيطان، لأنّه في أول الفطرة له قوة قبول آثار الجميع، وإنما يخرج من القوة إلى الفعل بمزاولة أعمال ينشأ منها للقلب أحوال، أما الأعمال الحسنة فتورث للقلب صفاء وضياء يستعد به لقبول الهام الملك، وأما الأعمال القبيحة فتورث للقلب ظلمة وكدورة يستعد بها لقبول وسوسة الشيطان[2].

---

(١) مّما كتبه الأستاذ الشيخ محمد كاظم الخاقاني (دامت بركاته).

(٢) مفاتيح الغيب: ١٥١.

ثم قال في موضع آخر: الخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر أعني ما يضر في العاقبة وإلى ما يدعو إلى الخير أعني ما ينفع في الدار الآخرة، فالخاطر الممدوح يسمى إلهاماً والخاطر المذموم يسمى وسواساً ولما كانت الخواطر حادثة احتاجت إلى سبب، واختلاف الحادث يدل على اختلاف الأسباب ولمّا كان اختلاف الخواطر بحسب الخيرات والشرور وكان الاختلاف بينهما حقيقياً، فيكون الاختلاف بين مبدأ الإلهام ومبدأ الوسواس أيضاً كذلك، فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً.

والملك عبارة عن جوهر روحاني نوراني خلقه الله شأنه افاضة الخير وافادة العلم، وكشف الحق والوعد بالمعروف، والشيطان عبارة عن جوهر روحاني ظلماني شأنه الوعد بالشر والأمر بالمنكر، فالشيطان ضد ومقابل للملك والموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلاّ الله تعالى.

ثم يشير إلى أن الشيطان خارجي وداخلي وكذا المعلم داخلي كالملك وخارجي كالمعلّم والناصح، وهناك تعارض بين دواعي الخير ودواعي الشر، وتطارد بين جنود الملك والشيطان قائم في ذات الإنسان، لكونه مزدوج الحقيقة في جوهر نوراني هو روحه وجوهر ظلماني هو طبعه، وإنما يفعل ما يفعله الإنسان بالاختيار والإرادة المنبعثة عن العلم بالداعي[١].

وذكر تأييداً لكلامه ما ذكره محمد بن يعقوب الكليني (طاب ثراه) بسنده المتصل إلى سماعة بن مهران قال: كنت عند أبي عبد الله ﷺ وعنده جماعة من مواليه، فجرى ذكر العقل والجهل، فقال أبو عبد الله ﷺ: اعرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا. إنّ الله عزّ وجلّ خلق العقل وهو أوّل خلق من

---

(١) مفاتيح الغيب: ١٥٤ .

الروحانيين عن يمين العرش من نوره، فقال له؛ ادبر فأدبر، ثم قال له: اقبل فأقبل، فقال الله تبارك وتعالى: خلقتك خلقاً عظيماً وكرّمتك على جميع خلقي قال: ثمّ خلق الجهل من البحر الأُجاج ظلمانياً، فقال له: ادبر فادبر؛ ثم قال له: اقبل فلم يقبل؛ فقال: استكبرت فلعنه، في حديث طويل[١].

ثم قال في المشهد الخامس في بيان الحكمة في خلق الشياطين: اعلم أنّ لله في كل مخلوق حكمة ومصلحة، وإلاّ لم يوجد؛ لاستحالة العبث والقبح في فعله والاهمال والتعطيل في إيجاده؛ وإن الإنسان كما ينتفع من الهام الملك كذلك ينتفع بوجه من وسوسة الشيطان. أولا ترى أن تبعة الوهم والخيال، وأهل الضلال هم أصحاب الشياطين، ثم لو لم يكن أوهام المعطلين وخيالات المتفلسفين والدهريين وسائر أولياء الطاغوت ومراتب جربزتهم وفنون اعوجاجاتهم لما انبعث أولياء الله وأهل الحكمة والعرفان في تحقيق الحقائق وتعليم العلوم وطلب البراهين لبيان التوحيد وعلة الحدوث للعالم على سبيل اليقين، وكذا القياس في تهذيب الأخلاق، فلو لم يكن اغتياب المغتابين وتجسس المتجسسين لعيوب الناس، لم يجتنب الإنسان كل الاجتناب من العيوب الخفية التي لا يراها أحباؤه؛ وإنما يظهر له ثبوتها من تدقيقات الأعداء وتجسسهم عيوبه واظهارهم إياها له، فكم من عدو خبيث الذات ينتفع الإنسان من عداوته أكثر مما ينتفع به من محبة الأصدقاء، فإن المحبة مما تورث الجهل بعيوب الحبيب والعمى عن معاينة معايبه وسماع مثالبه.

فظهر أن لوجود الأعمال الشيطانية في العالم منافع كثيرة، ومن فوائد الآلام والمحن والشدائد التي تصل العبد من أهل الظلم والجور أنه يوجب له سرعة الرجوع إلى بارئه وترك الأخلاد إلى الأرض[٢].

---

(١) الكافي: ٢١/١. كتاب العقل والجهل .

(٢) مفاتيح الغيب: ١٦٥.

المشهد السادس في الإشارة إلى مبدء وجود الملك والشيطان: اعلم أن لله صفتي لطف وقهر، ورحمة وغضب؛ فلا بدّ لكل من الوصفين من مظهر، فالملائكة ومن ضاهاهم من الأخيار مظاهر اللطف والرحمة. والشياطين ومن ولاهم من الأشرار مظاهر القهر والغضب؛ ومظاهر اللطف هم أهل الجنة ومظاهر القهر هم أهل النار، وها هنا تظهر حقيقة السعادة والشقاوة فمنهم، شقي وسعيد ولا وجه لإسناد الظلم والقبايح إليه تعالى، لأنّ هذا الترتيب والتميز من لوازم الوجود والإيجاد[1].

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: بعثت داعياً ومبلغاً وليس إليّ من الهدى شيء، وخُلق إبليس مزيناً وليس إليه من الضلالة شيء[2].

ثم قال فاعلم، يا مسكين: إن خيرات الدنيا ملزومة للشرور، ومسراتها مقرونة بالهموم، وحلاوتها ممزوجة بالسموم وبهذا جرت سنة الله، ولن تجد لسنّة الله تبديلا، فلكل نور ظلمة، وفي كل نعمة نقمة، ولكل جمال جلال.

فكما أن الملك والإلهام والنبي والقرآن رسل الله إلى عباده، فالهوى والنفس والوسوسة رسل الشيطان إلى عبدة الطاغوت، وإن شئت قلت هي والشياطين أيضاً رسله إلى أبناء الظلمات[3].

وقال في المشهد الحادي عشر اعلم: أن حقيقة الشيطان جوهر نفساني فاعل الشر، مبدأ الغلط في الاعتقادات، والفسوق والعصيان في الأعمال، منشأ الوسوسة والمكر والخديعة، واراءة أشياء لا واقعية لها، وابراز الباطل في صورة الحق[4].

---

(١) مفاتيح الغيب: ١٦٦.

(٢) كنز العمال: ١/١١٦/ح٥٤٦ .

(٣) مفاتيح الغيب: ١٦٩ .

(٤) مفاتيح الغيب ١٩٢ .

وقال في فصل مشرقي: قد اشتهر بين الناس أشكال صعب الانحلال، وهو أن مبدأ الشرور والواقعة من الإنسان هو الشيطان، كما أن مبدأ الخيرات الواقعة من الإنسان هو الملك، لما مرّ من أن اختلاف الآثار يدل على اختلاف المؤثرات[1].

شبهة وجواب

فلسائل أن يقول: إذا كان الأمر هكذا، فما سبب اختلاف شرارة إبليس وفساده وخيرية الملك وصلاحه، فإما أن يقال: أن لكل شيطان شيطاناً لا إلى نهاية فيلزم التسلسل وهو باطل، أو ينتهي إلى غير مخلوق فيلزم تعدد الواجب بالذات نعوذ بالله من هذا الشرك أو ينتهي إلى جهة شرّية في الباري تعالى الله عنه علواً كبيراً، لأن بسيط الحقيقة خير محض لا شرية فيه ونور بحت لا ظلمة تعتريه، فهذه مع الشبهة القديمة المشهورة وعليها بنى شرك الثنوية والمجوس القائلين بيزدان واهرمن.

وأجاب عنها أرسطاطاليس: بأن الموجودات بحسب العقل على خمسة أقسام: خير محض، شر محض، وما خيره غالب على شره، وما شره غالب على خيره، وما يتساوى طرفاه وليس في الوجود إلاّ اثنان من هذه الخمسة، وهما الخير المحض والخير الغالب خيريته على شريته.

وأما الثلاثة الباقية فهي غير موجودة، وذلك لأن الشر لا ذات له بل هو أمر عدمي إما عدم الذات أو عدم كمال الذات.

ولو كان وجودياً لكان أما شراً لنفسه أو شراً لغيره والأول مستحيل وإلاّ لم يوجد لأن وجود الشيء لا يقتضي عدم نفسه إذ لا شبهة أن جميع الأشياء

---

(١) مفاتيح الغيب ١٩٧ .

طالبة كمالاتها ولا جائز أيضاً أن يكون شراً، لغيره لأن شريته بأن يكون بعدم ذلك الغير أو بعدم كمالاً من كمالاته، إذ العلم الضروري حاصل بأن كل ما لا يعدم شيئاً ولا يعدم كمالاً له فإنه لا يكون شراً لذلك الشيء، وحينئذ فليس الشر بالحقيقة إلا ذلك العدم لا ذلك الأمر الوجودي إلاّ بالعرض.

وأنت إذا تأملت حال الشرور واستقريت آحادها في هذا العالم وجدت كل ما يطلق عليه الشر إما عدماً محضاً أو أمراً مؤدياً إلى عدم.

فالموت والجهل البسيط والفقر وأمثالها عدميات محضة، والأشياء المانعة لأشياء أخرى عن الوصول إلى كمالاتها كالبرد المفسد للثمار، والحر المعفن لها، والمرض المضاد للصحة، والأخلاق الذميمة كالجبن والبخل والإسراف والجهل المركب، والأفعال القبيحة كالزنا والسرقة والنميمة والظلم وأشباهها من الألام والأحزان وغيرها، فإنّ كل واحد من حيث ذاتها ووجودها ليس شراً بل هي كمالات لأمور جسمانية أو نفسانية ومن حيث تأديتها إلى الاعدام شرور.

فإذا تقرر هذا نقول: الموجودات الصادرة عن الباري تعالى يجب أن يكون فيها ماهي خيرات محضة من غير آفة ونقص في نوعها وشخصها كعالم الأمر، وعالم السماوات وفيها ما هي خيريتها غالبة على شريتها هي الموجودات التي في هذا العالم الأرضي مما يلحقها شر وآفة بحسب أفرادها لتصادم الأضداد وتزاحم الأحوال.

فهذان القسمان مما يجب صدورهما عن المبدأ الأول، أما القسم الأول فظاهر وأما القسم الثاني فلان في ترك الخير الكثير المستلزم للشر القليل شراً كثيراً.

وأما ما كله شراً والغالب والمساوي فلم يوجد أصلاً، فإذن قد علمت أنه ليس في الموجودات مالم يجز صدوره عن الخير الأول والنور المطلق، ويحتاج إلى مبدأ آخر غيره لعدم مناسبته إلى الأول.

فهذه طريقة الحكماء في دفع الأشكال وحاصله يرجع إلى أن شرارة إبليس غير زائدة على منفعته، فوجوده مستلزم لخيرات كثيرة زائدة على شرورها، وأرادوا أن هاهنا ما هو صلاح وخير بالنسبة إلى النظام الكلي وإن لم يكن صلاح بالنسبة إلى النظام الجزئي، وإذا تعارض فلا بدّ من تقديم ما هو صلاح للنظام العام كمن قطع عضواً لصلاح الجسد، وجعلوا كل خير وشر لاحقين لآحاد الناس واجبين في النظام الكلي.

لكن صدر المتألهين يقول: إن هذا الطريق وإن كان ما يرجح على سائر الطرق المشهورة إلاّ أنه مع ذلك لا يخلو من خلل من وجهين:

أحدهما: أنه مما يبعد العباد من رحمة الله ويسيء ظنهم بربهم وكل ما يبعد الناس وهم أشرف الأنواع عن رحمة الله ويسيء ظنهم بربهم، فهو كاذب مستحيل.

أما بيان الكبرى فلأنه قد ثبت بالبرهان والنقل عناية الله في حق هذا النوع البشري وسياقتهم إلى رضوانه.

وأما الصغرى فلأن عناية كل شيء مصروفة إلى نفسه قبل كل شيء غيره، فإذا رأى ربه يؤثر غيره عليه ويرميه بالنصب والعذاب لأجل غيره يئس من رحمته وندم على عبوديته وماله أن يكون ذلك الشيء خيراً منه، فإنه إن كان خيراً فهو خير نفسه وليس ما يؤدى إليه مصايبه وآفاته خيراً.

والوجه الثاني: إن القسم الثاني هو الموجود الذي يلزمه شر قليل إن كان موجوداً مركباً من خير وشر، فيلزم صدورهما جميعاً من المبدء الأول فيلزم الوقوع فيما وقع الهرب منه من صدور الشر المحض عنه تعالى وإن كان وجوده خيراً يلزمه شر قليل. فالكلام عائد في لزوم ما هو شر لما هو خير.

فإن أجابوا: بأن هذا الشر أمر عدمي يرجع إلى قصور وجود هذا المعلول عن وجود علّته والعدم بما هو غير صادر عن سبب.

قلنا: ليس الكلام في الشرور التي هي بمعنى الأعدام، إنما الكلام في مبادئها التي هي أمور وجودية توجب الإيلام والأضرار والاهلاك، لأن الضرورة قاضية باستحالة صدور موجود شرير عن المبدأ الرحيم يوجب وجوده أهلاك خلق كثير لا يعد ولا يحصى كالشيطان الرجيم، فالاشكال باق في صدور مثل هذا الشرير الذي يلزمه اهلاك النفوس الكثيرة وايقاعها في العذاب الأبدي واضلالها ومنعها من الفوز بالسعادة الدائمة والنعيم السرمدي.

لكنهم منعوا ورود هذا الإشكال بمنع كون الشرور الواقعة منه في العباد أكثر من الخيرات الواصلة إليهم بسببه أو مساوية لها، إلاّ أن هذا الحكم أي منع كون شره أكثر من خيره أو مساوياً له وإن كان أمراً محتملاً بالقياس إلى نوع الإنسان لكن كونه كذلك بالقياس إلى كل فرد فرد في غاية البعد، فيعود الإشكال في كونه مهلكاً مضر لآحاد الناس، وكان الواجب أن لا تقصّر الألهية عن الجمع بين صلاح الشخص ونظام الكل، كيف والكل آخذ منه وعائد إليه وكل ما يفعله الخير يجب أن يكون خيراً حسناً بحسب ما يليق بذاته، فالموجودات الصادرة عن الخير الأول لابد وأن تكون على الأمر اللايق بشأنها وإلاّ لأدّى الأمر إلى الجبر والعجز والاضطرار، ويتطرق الظن إلى أنه تعالى لا يجد سبيلاً إلى اقامة النظام واصلاح الأنام إلاّ بإدخال الضرر، من الشيطان أو ما يجري مجراه على هذا العاجز المسكين، فما له أن يعبد ربا عاجزاً فإنه لا يعبد ربه إلاّ لأنه يجد نفسه عاجزاً فقيراً، فيلتجئ إلى قوي غريز يدفع عنه الآفة والضرر فإذا كان هو عاجزاً مثله فقد فرّ من العجز إلى العجز، تعالى عما يقولوا الظالمون علواً كبيراً[1].

---

(١) نقلاً عن مفاتيح الغيب: ١٩٨ ـ ٢٠٠ .

مخلص عرفاني

يشير صدر المتألهين قائلاً: والذي عليه العرفاء المحققون والأولياء الكاملون في هذه المسألة: أن الباري جلّ اسمه عامل كل أحد من خلقه معاملة، لو لم يكن له خلق سواه لكان عامله بهذه المعاملة واختار لكل شيء ما إن وكّل أمره إلى نفسه اختار ذلك، وذلك لأن الأشياء كلها آثار الهيته ومظاهر اسمائه وصفاته، وكما أن الأسماء الإلهية مع كثرتها واختلافها مشتركة في ذات أحدية، فكذلك الموجودات على كثرتها واختلافها ليست بخارجة عن سعة دائرة رحمته، فالهواء إذا انقلب ناراً مثلاً فما دام كونه ذا صورة هوائية كان متوفراً عليه نصيبه من الرحمة الوجودية وقسط من نعيمه اللائق به من الكمالات الثانوية، ثم إذا انقلب ناراً كان وجود النارية وجوده وصفاته الكمالية صفاته، وأليق الأمور به حينئذ صفات النارية وكمالاتها من غير مبالاة منه بفقد صفات الهوائية، لأن كل شيء بما هو ذلك الشيء أحب الأشياء عنده نفسه، وما من شيء إلاّ وهو ساكن في حدّ نفسه غير خارج عن بيت ذاته[1].

معنى الخير والشر

قال تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون﴾[2] قالوا: الشر معنى عام يشمل المصائب والأمراض والمشاكل والفقر.

وقال تعالى: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾[3] فقال الأعلام في المقام بأنّ الآية لم تعتبر أي مخلوق شراً بل تقول بإمكانية صيرورة بعض المخلوقات

---

(١) نقلاً عن مفاتيح الغيب: ٢٠١ .

(٢) سورة الأنبياء: ٣٥.

(٣) سورة السجدة: ٧.

سبباً للشرّ، بأنَ تعدم كمالاً أو تغصب حقاً أو تبعثر نظاماً، وعليه فيبقى الشّر بنفس مفهومه العدمي الذي يمكن أن يتحقق من قبل الناس الأشرار أو الشيطان، ويحتمل أن يراد من الشّر في الآية الشر النسبي لا المطلق أو الشّر الغالب كأنياب الأفعى التي هي وسيلة دفاعيّة بالنسبة لها، فالإنسان يعوذ بالله من قبل هذه الموجودات حيث يمكن أن تكون شراً وضرراً بالنسبة إلى الإنسان.

وقالوا: الشّر على وجوه: فإنه يقال للأفعال المذمومة، ويقال شرّ لمبادئها من الأخلاق، ويقال شرّ للآلام، ولن تجد شيئاً مما يقال له شرّ إلاّ وهو كمال وخير لسببه الفاعل له.

والفعل إنّما يكون شراً بالقياس إلى السبب القابل له أو بالقياس إلى فاعلٍ آخر يمنع عن فعله، فمخالب الأسد خير للأسد وشرّ لغيره، وقالوا: خير وشرّ مطلق وخير وشر نسبيّان، ويقال لما كثر إيجابه خير ولما كثر سلبه شر.

ونظراً لنسبية الخير والشر والتأثير المتقابل للأشياء كثيراً ما يتّفق أن تصير الحوادث التي تعد شروراً في الظاهر تكون منبعاً لخيرات وبركات، فكثير من حالات الحرمان تصير سبباً لفتح الإستعدادات وقفزات علميّة وحياة الصعاب كانت احدى العوامل لتقدم المسلمين الأوائل، ثم عيش الرفاه كان من جملة العوامل لتخلف وضعف المسلمين بعد ذلك.

وقالوا: الخير كلّ ماله مدخلية في سعادة الإنسان دنيا وآخرة، والخير هو النفع الحسن والثواب والفضل وحصول شيء يناسب شيئاً، ووجدان كلّ شيء كماله اللائق والصلاح، ويطلق على الفضائل كالعدل والصدق، ويتمثل الخير بإطلاق الكلمة في الوجود الذي هو منبع كل الخيرات، فالخير هو غاية الغايات. وأصل الخير والشرّ فطريان وإن وقع النزاع في مصاديقهما أو تبدّلا بلحاظ الزمان والمكان أو الإضافة.

النور والظلمة في كتاب الله

أمّا بالنسبة إلى النور والظلمة المشار إليهما في الكتاب المجيد، فقد فسّر النور بالإعتقاد الصحيح وما هو حقّ بما ترتفع به ظلمة الجهل وحيرة الشّك واضطراب القلب، والنور أيضاً هو العمل الصالح من حيث أن رشده بيّن وأثره في السعادة جليّ، كما أن النور الحقيقي على هذه الصفات وكل هذا هو عين الخير.

وأمّا الظلمة فهي الجهل في الإعتقاد والشبهة والريب وطالح العمل وكلّ هذا هو عين الشّر.

ثمّ قالوا: والإخراج من الظلمة إلى النور الذي ينسب إلى الله هو كالإخراج من النور إلى الظلمات الذي ينسب إلى الطاغوت فهو نفس هذه العقائد والأعمال، وبالجملة النور والظلمة يكنّى بهما عن الهداية والضلالة المنسوبان إلى الله تعالى، وبحثهما مفصّل في باب الجبر والإختيار والأمر بين الأمرين وبحث السعادة والشقاوة. وقالوا أيضاً، إنّ الإنسان بحسب فطرته وخلقته يكون على نور الفطرة. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «النور والله الأئمّة من آل محمّد عليهم السلام إلى يوم القيامة»[1]. ولا مانع منه ليكون بياناً لأجلى المصاديق وليس قيداً، فهو من باب الجري والتطبيق لا التقييد.

والمستفاد من الآيات أنّ النور والظلمة من المخلوقات لكن المستفاد من نفس الفلاسفة، وكذلك علماء الطبيعة أنّ الظلمة ليست إلاّ عدم النور فلا يمكن إطلاق الخلق والإيجاد عليها.

وأجيب عن ذلك:

---

(١) الكافي: ١/ ١٩٤، باب أن الأئمة عليهم السلام نور الله عزّوجل.

أولاً: أنّ الظلمة ليست دائماً بمعنى الظلمة المطلقة بل تستعمل كثيراً ما بمعنى النور الضعيف بإزاء النور القوي، فمثلاً يقال ليلة مظلمة في حين أنّ الليل ليس محض الظلمة، فيصبح المعنى أنّ الله تعالى جعل لكم النور القوي كالنهار والنور الضعيف كالليل لما في كلّ منهما من المصلحة، وعلى هذا المعنى تكون الظلمة من المخلوقات الإلهيّة.

ثانياً: إنّ الظلمة المطلقة وإن كانت أمراً عدمياً لكن العدم إذا كان في شرائط خاصة يكون ناشئاً عن أمر وجودي لمصلحة وغاية خاصّة، ويكون هذا الأمر العدمي مخلوقاً بالتبع وهو المعبّر عنه بالعدم الخاص وإنّ له حظّاً من الوجود، فالنور مظهر الوحدة والظلمة مظهر الكثرة والتشتّت، وإن ذكر النور بصيغة المفرد والظلمة بصيغة الجمع أي الظلمات والنور لعلّه للإشارة إلى أنّ الظلمة أعمّ من كونها حسيّة أو معنويّة هي مظهر التشتّت، فقالوا مثلاً: السراج في الليل يجمع الحشرات، وعدم النور سبب للفرقة، وذهاب كلّ حشرة إلى جانب وكذا قالوا مثلاً النور والعلم والقرآن رمز الوحدة والظلمة رمز الجهل والكفر والنفاق كلّ ذلك إن أرجعنا النور إلى الخير والظلمات إلى الشرور.

وقال آخرون: الشّر هو الضرر القبيح أو عدم الوجود، أو عدم كمال الوجود، أو عدم كمال الشيء من حيث هو مستحقّ له، أو فقدان كلّ شيءٍ ما هو من شأنه كالموت والفقر والجهل.

والخير هو النفع الحسن والثواب والفضل وحصول شيء يناسب شيئاً ويصلح له ووجدان كلّ شيء كمالاته اللائقة، وجعل الظلمات والنور لعلّه يشير إلى أن الشرور والنقص من لوازم الكمال من عالم المادة ودار الاختبار، لأنّها لا تراد بالأصالة بل بالتبع لتحقيق الغاية التي خلق من أجلها الإنسان للسير نحو الكمال والسعادة، والخير والشرور من لوازم الخير والحركة نحو

الكمال وليست من لوازم الوجود لعالم الشهادة بعد الشواهد العديدة أنّها متعلّق الجعل والمشيئة الإلهيّة، وليست إعداماً لا يتعلّق بها الجعل، كما يحاول ذلك الفلاسفة حتّى لا تصبح شيئاً متعلّقاً للمشيئة والإيجاد وإن أمكن القول بأنّها نسبت إلى الحقّ تعالى من حيث أنه مسبب الأسباب كما تنسب إليه الهداية والضلالة.

وبالجملة المستفاد من الآيات بظاهرها أنّ الظلمات والنور من المخلوقات الإلهيّة، لكن هذا ما يخالف مذهب الفلاسفة من كون الأعدام لا يتعلق بها الجعل بل والعلم الحديث من كون الظلمة عدم النور، وحاول البعض الإجابة بأنّ الظلمة في بعض الأحيان لا يراد بها مطلق الظلمة بل قد يراد بها النور الضعيف بإزاء النور القوي، وقيل: الظلمة ترجع إلى سبب وجودي فتكون مخلوقة بالتبع لا بالأصالة كالجعل للماهية بتبع الوجود، فتكون الشرور كذلك، لأن العدم الخاص أو عدم الملكة له حظ من الوجود، بخلاف العدم المطلق.

ويحتمل أيضاً أن يراد من المعنى الشّر النسبي أو الشّر الغالب كأنياب الأفعى، فإنّها وسيلة دفاعية بالنسبة إليها، ووسيلة شرّ بالنسبة للإنسان، والإنسان يعوذ بالله من جهة هذه الوجودات.

الروايات في الخير والشرّ

جاء عن أبي عبيدة الحذّاء، عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنّ الله يقول: أنا الله لا إله إلاّ أنا، خالق الخير والشّر، وهما خلقان من خلقي، فطوبى لمن قدّرت له الخير، وويل لمن قدرت له الشّر، وويل لمن قال: كيف ذا[1]؟.

روي عن معاوية بن وهب، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ ممّا أوحى الله إلى موسى عليه السلام وأنزل عليه في التوراة: أنّي أنا الله لا إله إلاّ أنا، خلقت الخلق وخلقت الخير وأجريته على يدي من أحبّ، فطوبى لمن أجريته على يديه، وأنا الله لا إله إلاّ أنا، خلقت الخلق، وخلقت الشرّ وأجريته على يدي من أريده، فويل لمن أجريته على[2] يديه[3].

روي عن داود بن سليمان الجمّال، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام وذكر عنده القدر وكلام الإستطاعة فقال: هذا كلام خبيث، أنا على دين آبائي، لا أرجع عنه، القدر حلوه ومرّه من الله، والخير والشرّ كلّه من الله[4].

فأرادوا ها هنا سؤالاً وهو أنه إذا كان الشّر عدمياً فكيف عبّر عنه بالخلق؟.

---

(١) بحار الأنوار: ٥ /١٦٠ /ح١٩، باب السعادة والشقاوة والخير والشّر وخالقهما ومقدّرهما.

(٢) تظهر معنى الرواية من الرجوع إلى معنى الرواية الأولى من الباب السابق، فسعادة أهل السعادة مقضيّة وهم محبوبون لله والخير جار على أيديهم بإجراء الله، وشقاء أهل الشقاء مقضي منه وهم غير محبوبين والشر جار على أيديهم بإرادة من الله، وإن اتفق فعل شرّ من السعداء أو فعل خير من الأشقياء، لم يكن حبّ ذلك الفعل أو بغضه منافياً لبغض الذات أو حبّه.

(٣) بحار الأنوار: ٥/١٦٠/ح١٨عن الكافي: ١/١٥٤، باب الخير والشر.

(٤) بحار الأنوار: ٥/١٦١/ ح٢١، باب السعادة والشقاوة .

فأجابوا: أنه كثيراً ما تطلق لفظة الشّر على الأمور الوجوديّة التي تسبّب العدم كالمكروبات والسموم والأسلحة المخرّبة ممّا هو مصدر الأمراض والموت والخراب.

وفي مرآة العقول للعلاّمة المجلسي تَتُرُّ عن المحقّق الطوسي تَتُرُّ أنّه يقول: المقصود من الشّر هي الأمور التي لا تناسب طبع الإنسان على الرغم من وجود مصلحة معيّنة فيها، ثم يقول للشّر معنيان:

الأوّل: الشيء الذي يخالف الطبع ولا يتناسب معه كالحيوانات المؤذية.

الثاني: الشيء المؤدّي إلى الفساد وليس فيه مصلحة ما.

وقالوا أيضاً: إنّ ذبح إنسان بريء شر لكن ما هو الشر هاهنا هل هو قوّة ذراع القاتل أو قاطعيّة السيف أو جودة عمل السيف أم تأثّر رقبة المقتول التي يستطيع بواسطتها الإنسان ممارسة كلّ أنواع الحركة؟ فمن المسّلم أن أيّ واحدة من هذه الأمور لا تعد شراً والشّر هو انفصال أجزاء الرقبة والعظام عن بعض والإنفصال ليس إلاّ أمراً عدمياً أو هو الموت الذي هو انعدام الحياة، وكذا الأمر الوجودي قد يؤدّي إلى أمر عدمي كالسّم المؤدي إلى الموت فهو شرّ.

الخير والشرّ في القرآن

قالوا: إن للخير والشرّ معنىً واسع في القرآن المجيد يشمل مصاديق مختلفة، فكلمة الشرّ وردت بمعنى البلاء والمصيبة والعذاب وأنواع المكاره والشدائد وجميع أنواع الوسوسة والفساد، والمسألة المهمة أن القرآن اعتبر الشرور من مخلوقات الله، حيث قال تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾[1].

---

(١) سورة الفلق: ٢.

فهنا أوّلاً: كيف يتناسب هذا مع عدميّة الشر؟ وثانياً: قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[1] حيث يفهم من هذه الآية أنّ كلّ شيء هو حسن لأنه من مخلوقات الله، في حين أنّ الآية الأولى تأمر بالإستفادة من شرّ ما خلق.

فأجابوا عن السؤال الأوّل: بأنّه يجب القول بأنّ الآية لم تعتبر أيّ مخلوق شراً بل نقول إمكانية صيرورة بعض المخلوقات سبباً للشرّ، بأن تعدم كمالاً أو تغصب حقاً أو تبعثر نظاماً لذا يبقى الشرّ أمراً عدمياً.

وقال صدر المتألهين: الشرّ إما هو العدم المحض أو ما يؤدي إلى العدم كالموت والجهل البسيط والفقر والضعف والتشويه في الخلقة والقحط، ويقال شرّ لما هو مثل الألم والحزن والجهل المركّب.

وقال: الموجودات كلّها إمّا خيرات مطلقاً أي بالذات وقد تؤدّي إلى عدم شيء فيقال لها شرّ بالعرض وهو الحابس المانع للخير عن مستحقّه، فإذا تصفّحت الأشياء لم تجدها في أنفسها شروراً بل هي شرور بالعرض خيرات بالذات، فالخير يرجع للأمر الأصيل وهو الوجود، والشّر تابع للماهيّات وعلى هذا يكون لكلّ من الوجود والماهيّة أثرهما.

وقال آخر: الخير هو كلّ ما يتناغم مع وجودنا ويسبّب تكامله وتقدّمه، والشر هو كلّ ما لا يتناغم معه ويسبب الإنحطاط والتخلّف. ومن هنا يتّضح أن الخير والشرّ ذو صبغة نسبيّة، فيمكن أن يكون أمر ما خيراً لنا وشرّاً لغيرنا أو خيراً لجميع الناس وشرّاً بالنسبة لنوع من الحيوانات، والمطر قد تنمو بواسطته بعض المزارع، والحال قد يكون سيلاً وضرراً على آخرين وقد يهدم بيتاً أو عشّ طائر.

---

(١) سورة السجدة: ٧.

فكلّ واحد ينظر إلى الحدث بمقياس نفعه وضرره فيسميّه خيراً أو شرّاً، ومخالب الأسد خير له وشرّ على غيره، وعلى هذا يصبح من الصعب على حادثة أو شيء أن يعدّ خيراً أو شراً باطلاق الكلمة، أو يلحظ الشرّ بلحاظ مجموع آثاره من المنافع والمضار لينظر إلى أيّها أكثر، وقال: ويمكن بنظرة ثانية أن يقال الخير المطلق والشرّ المطلق والخير والشرّ النسبيان، فالخير المطلق هو الخير الخالي من أيّ صفة سلبيّة وعكسه الشرّ المطلق الذي ليس له أيّ صفة إيجابيّة، وقلّما يوجد مصداق لهذين النوعين لأنّ الأغلب ما هو مركّب من الإيجاب والسلب وما يكثر إيجابه يسمّى خيراً وبالعكس يكون الشرّ، ويستحيل صدور الشرّ أو ما كثر شرّه بالقياس إلى خيره من الحكيم بل وما تساوى طرفاه، وكلّما اتّسع الوجود كان أكثر خيراً إلى أن يصل الأمر إلى محض الوجود الذي هو محض الخير.

وقال آخرون: يتمثّل الخير في الوجود المطلق وينطبق على الفضائل النفسانيّة، وقال البعض: الخير هو الغاية التي يصبو إليها الإنسان فمن عمل الخير فقد أدرك الغاية التي من أجلها خلق فعرفوا الخير من جهة الغاية.

وقال مونتسكيو: الخير هو توثيق العلاقات الجوهرية بين طبايع الأشياء وتوهينها هو الشرّ.

والحقّ أن الخير والشرّ أمران فطريّان وإن أمكن وقوع الخطأ في تشخيص مصاديقهما بتبع الإدراك، وكل موجود بما يكون له من شؤون تكامله يكون خيراً له حتى الديدان بما هو من شأن بقائها وغذائها المتناسب معها.

ونسب إلى بعض القول: بات كلّ شيء بإرادة الله وليس هذا بخير وذاك بشر إلاّ لأن الله أراد ذلك وليس لأنه خير في ذاته وذاك شرّ في ذاته.

وكأنّ هذا النظر يقرب من مقالة الأشاعرة من أن الحسن ما حسّنه الشارع والقبيح ما قبّحه الشارع وليس للعقل أي مدخليّة، فإن كان الخير هو

الوجود فلا يقع في حقيقته اختلاف بناء على أن الوجود حقيقة واحدة مشكّكة وما يكون كذلك لا يمكن تبدّل ذاته عمّاهو عليه، ولكن إن كان الخير والشرّ اضافيّان فتختلف حقيقتهما بلحاظ الاعتبار، فقد يكون الشيء خيراً بلحاظ وبإضافة واعتبار عند شخص، وليس كذلك بلحاظ عند شخص آخر، فهنا يمكن تخطئه الإنسان من قبل الشارع بأن يقول الشارع ما زعمتموه خيراً ليس كذلك وكذا الشرّ.

وقال البعض: الشرّ هو ما يمنع من الحركة فيما يقتضي للإنسان بماله من القابليّة سواء كان ذلك المانع إنساً أو جنّاً أو حيواناً أو غير ذلك.

وورد في تفسير الأمثل: إنّ ﴿**مِن شَرِّ مَا خَلَقَ**﴾ لا يعني أنّ الخلق الإلهي ينطوي في ذاته على الشّر فالإيجاد خير بل الشرّ يعرض على المخلوقات حين تنحرف عن قوانين الخلقة وتنسخ عن المسير المعيّن لها، فمثلاً لو استعمل السلاح في محلّه كان خيراً وقد نحسب شيئاً شرّاً مثل الحوادث والبلايا وهي في باطنها خير.

وقال بعض المفسّرين في قوله تعالى: ﴿**ونبلوكم بالشر والخير فتنة**﴾[1].

الخير والشّر ذواتا معنى واسع يشمل أنواع المصائب والأمراض والمشاكل والفقر، وأنواع الإنتصارات والصحّة والغنى وتقديم الشرّ لأنّ الإبتلاء بالشرّ أصعب، ولمّا اعتبر القرآن الشرور من خلق الله تعالى وأنّها جعلت للاختبار، فهي إذن تحمل الخيرات لتكون الوسيلة الداعية إلى التضرّع والهرب من الظلمة إلى النور والتحرّك نحو الكمال، والحقّ تعالى الذي هو الخير المطلق والغاية لكلّ طالب خير فتكون الشرور من جملة المحفّزات إلى سلّم العروج[2].

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٥.

(٢) وكذا اللاري حول الشر: ١٦٨، يراجع كتاب فرهنك علوم عقلي: ١٨٧ مباحث في الخير والشر حكماء وامامية (باللغة الفارسية).

الفرق بين الفضائل والرذائل

قلنا أنّ حسن الفضائل وقبح الرذائل فطري لكن قد تشتبه بعض الفضائل ببعض الرذائل، كالصبر بالجبن، والإسراف بالكرم، والظلم بالحنكة والتدبير، وحفظ النظم وسحق القيم بالحريّة، والكذب والحيلة والمكر بالعقل، وبعد النظر والسياسة، وإذا كانت الخيرات فطريّة وكذا الشرور فلا يكون تعريفهما إلاّ إرشاداً لما وجدته النفس بجبلتها، وتبقى المشكلة في معرفة مصاديق كلّ منهما والسعي لتحقيق تلك المصاديق في ميادين المعرفة والتحقيق، ومن المعلوم أنّ من أعظم موجبات الوصول إلى هذه الغايات هو العلم والأفعال بما يترتّب عليها من الآثار. وقد توصف بالحسن والقبح والخير والشّر فصلح في يوم ربّما يكون خيراً وفي يوم شرّاً، وأكلة في ساعة خير وفي أخرى شرّ، ومن إمارات كون الشيء خيراً أو شراً لو كان الإنسان سليماً لا سقيماً هو فرحة النفس والباطن على فعل الخير ولومها على ما يكون شرّاً. والوسيلة لتمييز الخير عن الشر هي الزكاة النفسانية إلاّ في ما إذا أصيبت النفس بالزيغ أو الرين أو الغشاوة أو الطبع أو الختم، فلا يمكنها مشاهدة كلّ من الخير والشّر في مواطنهما.

والتزكية تنمية النفس بجعل القابليّة فعليّة بالعلم والعمل الصالح، حيث يقول تعالى: ﴿ *إنّ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات أولئك هم خير البريّة* ﴾[1]. والزكاة بالفضائل واعتدال الموازين وهو سير لاحدّ له لأنّه التخلّق بأخلاق الله تعالى.

لكن قد يقال: هل ما وراء مايرجع إلينا من النفع أو الضرر والمصلحة والمفسدة يمكن أن يفرض فيه الخير أو الشر، أو أنّ الشرّ من توابع عالم

---

(١) سورة البيّنة: ٧.

الإمكان أو عالم المادّة، أو التعامل مع الأشياء يعطيها عناوينها من الخير أو الشّر؟ فوضع الأمور في مواضعها خير وفي غير مواضعها شرّ، فمثلاً ما خلق الخنزير أو الديدان لتكون غذاء للإنسان، وإن كانت في نفسها وفي وضعها في موضع آخر قد تكون خيراً ولا تكون حاملة للشرّ أو هذا يرى شيئاً خيراً وذاك شراً لاختلاف الغايات، ثمّ الكلام عن العقل والفطرة هل هما قادران على تميز الخير والشر؟ وقد قال تعالى: ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ ونفس وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها ﴾[2]. أي جعل فيها قابلية التمييز بين الخير والشرّ بلا حاجة إلى تعليم وعلم حصولي ـ لأنّ التمييز فطرة وعلم حضوري ـ وجعل فيها الميل نحو كلّ من الخير والشر ليخرج بعد ذلك بالفطرة والعقل إلى مواطن تحقيق الخير والبعد عن الشر، وإنّ الفجور تخرق النفس كالفجر يخرق ستار الظلمة، وهذا يدلل على أنّ الفجور تخرق النفس فهي أمر عارض على النفس والشيء إذا خرق يصير معيوباً.

وحبّ الخيروالسعادة فطرة البشر وكذا النفرة عن الشر والشقاوة، وإن كان الحبّ لمراتب الخير أو النفرة عن مراتب الشرّ يختلف باختلاف الناس إدراكاً للحقائق بعقولهم وزكاة نفوسهم فمن أهم المفاهيم هو مفهوم الخير في حياة الإنسان، وثانياً: إنه أيّ شيءٍ يجب فعله أو أيّ شيء يجب تركه، وثالثاً: التأمّل في مدارك الخيرات والشرور من أنّ الملاك هل هو ما يطلق عليه العامّة خيراً أو شراً أو المستند هو مقالة المشهور أو أنّه الفطرة والعقل، حيث يدركان أنّ الخير لكلّ شيء ما يناسبه من الكمال والشرّ منع الشيء من كماله المناسب له بما له من القابلية والإمكان، فيكون الخير والشر عنواناً عامّاً لا يختص بممكنٍ من الممكنات كالإنسان مثلاً.

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٥.

(٢) سورة الشمس: ٧ ـ ٨.

الشرور من محفّزات الخير

قال العلماء: حتى الجراثيم والميكروبات المسبّبة للأمراض فلهجومها المستمر الأثر البالغ في تنشيط خلايا الجسم، وجعلها في حالة دفاعيّة دائماً إلى درجة يعتقد بعض العلماء إنه لو لم تكن هذه الميكروبات لكان بدن الإنسان ضعيفاً.

وكذا إنّ المؤمن إذا أحسّ بخطر على عقيدته يسعى جاهداً للمعرفة والتدرّع بسلاح العلم. كما إنّ من جملة ما يصنع عظماء الرجال هي شدائدالأمور والبلايا حتّى قالوا: أنّ الكثير من حالات الحرمان تصير سبباً لتحريك الإستعدادات بل ربّما كانت سبباً لقفزات علمية أو اجتماعيّة أو ماديّة، وقد ورد عن عليﷺ: «ألا وإنّ الشّجرة البريّة أصلب عوداً»[١] والبشر يخضعون لهذا القانون.

قال تعالى: ﴿الله وليّ الذين آمنوا يُخرجهم من الظّلمات إلى النور﴾[٢].

النور: هو الإعتقاد الحقّ بما ترتفع به ظلمة الجهل وحيرة الشّك واضطراب القلب، والنور هو صالح العمل من حيث أن رشده بيّن أثره في تحقيق السعادة، والظلمة هي الجهل والريب وطالح العمل كلّ ذلك بالاستعارة، والخير كلّ ما له مدخلية في سعادة الإنسان دنيا وآخرة، والشرّ هو الضرر أو الشيء القبيح، أو عدم الوجود، أو عدم كمال وجود أو عدم كمال الشيء من حيث هو مستحق له، أو فقدان كل شيء ما هو من شأنه كالموت والفقر والجهل. والخير هو النفع الحسن، الثواب والفضل، حصول شيء يناسب شيئاً، وجدان كلّ شيء كماله اللائق، الصلاح.

---

(١) نهج البلاغة: كتاب ٤١٨/٤٥ .

(٢) سورة البقرة: ٢٥٧.

والنور كيفية يكون بها الجسم ظاهراً والظلمة فقدان النور، والخير هو غاية الغايات والخير كلّ ما يصبو إليه الإنسان بفطرته حيث من أنه من أجله خلق.

فالخير والشّر فطريّان لا مجال لإنكارهما وإنّما يقع النزاع في تشخيص المصاديق، فإن فسّر الخير بالوجود والشّر بالعدم كان التقابل بينهما تقابل السلب والإيجاب. أو الخير كلّ ما يتناغم مع وجودنا ويسبّب تكامله وتقدّمه والشرّ بعكسه. والخير هو الأصل حيث أنّ الأشياء في ذاتها ليست إلاّ خيراً، وقد تؤدي إلى عدم شيء، فيقال لها شرّ للعرض لا بالذات.

ومن البديهية أنّ الله تعالى جعل الفطرة قادرة على تمييز كلّ من الخير والشرّ كما يميز العقل أنّ الكلّ أعظم من الجزء.

وحكي عن الشيخ ابن سينا في الشفاء والنجاة: إنّ ما يشاهد من الشرور في عالم المادّة مثل الأمراض والأحزان والآلام، فإنّها إمّا من صنف الأفعال غير المناسبة، أو من مبادئها التي هي من الملكات الأخلاقية والهيئات الراسخة الظلمانيّة النفسانية، أو من النقص في المحلّ القابل الفاقد للكمال.أمّا الأمراض والآلام والأحزان فمنشأها النقص[1].

والعدم في محلّ قابل للكمال فمثل الآلام المحسوسة من إحتراق اليد، هو أمر وجودي يدرك من جهة تفرّق أجزاء اليد، فهو مرتبط بأمر عدمي هوعدم اتصال أجزاء اليد، والحزن ينشأ من عدم العلم أو عدم الثروة وعدم العيش المريح أو ينشأ من موت الأحبّة وهذه أمور عدميّة، نعم. ادراك القوة المدركة بالنسبة إلى المدرك أمر وجودي وهو كمال وخير محض، ويستوجب المنافع الكثيرة والتفوّق على عالم الجماد والنبات. وبالجملة الشرّ في هذا العالم يستند

---

(١) راجع كتاب الشفاء (الإلهيات): ١/٤١٥ .

إلى النقص والعدم المضاف وأسبابها لا تخرج عن ثلاثة أنواع، فهذه الاعدام إمّا مستندة إلى عدم علّة الوجود، أو عدم استعداد الكمال في المحل القابل، أو تستند لوجود سببها وهي جميعاً لا تستند إلى الفاعل لأنّها أمور عدميّة.

فللشرّ معنى عام يشمل المشاكل والآلام والأمراض والفقر والنقص.

وكلمة الشر في القرآن وردت بمعنى البلاء والمصيبة، والعذاب والشدائد، وأنواع الوسوسة والفساد. واعتبر القرآن الشرور مخلوقات إلهيّة، حيث قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾[1] وهنا يقع التساؤل أولاً كيف يتناسب هذا مع عدميّة الشرور؟ وثانياً أنه تعالى قال: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[2].

فيقال: الخير المطلق هو الله تعالى وما كان وجهاً إلهياً لا يكون إلاّ خيراً، لأنّه فيض الله تعالى وما يسير في سبيل غاية الغايات لا يكون إلاّ خيراً، فالتخلّق بأخلاق الله أيضاً لا يكون إلاّ خيراً وغير ذلك لا يكون إلاّ شراً وضياعاً وعدماً.

وقال صدر المتألهين: الخير ما يتشوّقه كلّ شيء ويتّم به قسطه من الكمال الممكن في حقّه، والخير المطلق هو الواجب بالذات لأنّه وجود محض لا نقص فيه. والشرّ هو فقد ذات الشيء أو فقد كمال من الكمالات التي تخصّه وهو أمر عدمي، فالشرّ لا ذات له أو يقال الوجود نور فهو خير على اختلاف مراتب الوجود وجوباً وإمكاناً والعدم شرّ.

وسبل تحقيق الخير بالزكاة وهي تنمية الشيء بجعل القابلية فعليّة بالعلم والعمل الصالح والتحلّي بالفضائل باعتدال الموازين، وهو سبيل الأنبياء

---

(١) سورة الفلق: ٢.

(٢) سورة السجدة: ٧.

للتخلّق بأخلاق الله تعالى، ولا ريب أنّ أشرف ما يزيّن به الإنسان نفسه للبنـاء الإنساني نحو الأحسن والخير هو العلم المستتبع للعمل.

وقال البعض: أنّ مثل نور الله وهو الوجود المنبسط كـالنور الحسـيّ حيث لا يكون إلاّ واحداً من حيث الحقيقة خالياً من الألوان، لكنّه بعد ما يسطع على الزجاجات المختلفة يتلوّن بلونها، وعليه فيمكن القول بأنّ النقص والشر مستند إلى ذوات الأشياء، والفعليّة والكمال مستند للجهة الربوبيّة، فتكون الشرور من لوازم الظلمات الماديّة أو الماهوية، لأنّ الإختلاف والتزاحم والتعارض والتضاد من لوازم عالم المادّة أو من لوازم الماهية الإمكانية، قال تعالى: ﴿ *ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك* ﴾[1]. وفي موضع آخر يقول: ﴿ *قل كلٌ من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا* ﴾[2].

لكن قد يقال: لِمَ هذا التضاد والشرور والمعاصي تتحقّق في العلم ولو كان منحصراً بعالم الطبيعة...؟ فأجابوا:

أوّلاً: أنّ هذه المادة الظلمانيّة في قوس الصعود تحقّقت منها العقول النوريّة والنفوس الشريفة، والكون الجامع وحقيقة الإنسان الكامل الذي هو فوق جميع مراتب المجرّدات العقليّة، وهو مظهر مقام الجمع والمرتبة الأحديّة الذي هو خليفة الله تعالى.

وثانياً: إنّه مبرهن في العالم الإلهي أنّ الكثرة في عالم الظهور من لوازم الكثرة الأسمائية الإلهية، والنظام الكوني تابع للنظام الربّاني وما يرى بحسب الظاهر من بعض الجزئيات غير منتظم، ويبدو منه الشّر والنقص هو خير

---

(١) سورة النساء: ٧٩.

(٢) سورة النساء: ٧٨.

وموزون بالنسبة إلى النظام العام، وعلى هذا فالإحراق كمال للنار والخير مقتضى بالذات والشرّ مقتضى بالعرض.

وقال البعض: إنّ الله تعالى لو لم يضلّ عبده في بعض ما يتعاطاه من مكاسبه ومطالبه لما انتبه على نقصان جبلّته من إنه عبد مدبّر ناقص، فيتبرء من حول نفسه وقوّتها ويعتصم بحول مولاه فيصير الإعتصام به ذريعة إلى الهداية المطلقة وبمثل هذا الحال أحواله أيضاً في الإفقار والإغناء والتقوية والإعجاز والتوفيق والخذلان والتصحيح والأمراض وجميع ما يعرض له الإصابة والخطأ، فيحرّك عباده بكلّ واحد من المتضادين حتى لا يظن العبد الحول لنفسه، فإذن الأضلال الموجود عين الخير والحقّ في هذا العالم، وهو من شرائط الإمتحان للخلق والرقي نحو المبدأ الأعلى وليس هو بشرٍ محض فهو من تمام حكمة الخلق والحمل على الإستقامة وليس بمعدود من إرادة الشرورة بالإصالة في عالم الإمكان.

فالخير فضيلة ووسط وحقّ، والشرّ طرف وباطل، ولا يكاد يخلو خير من شرّ يطيف به ويلمّ بجوانبه، قال عليّ عليه السلام: «كلّ خير معه شرّ»، وقال ﷺ: «وما خير خيرٍ لا ينال إلاّ بشر»[1].

وفي بيان القول: بأنّ أسباب الشرور في العالم بالعرض لا بالقصد الأوّل، قالوا: إن الشرور عارضة في هذا العالم من قبل الهيولى التي هي جوهر منفعل ناقص القبول للفضائل لتبلغ الأشياء غاياتها، والشرور عدم هذه الخيرات.

---

(١) نهيج البلاغة: كتاب ٤٠١/٣١.

أنواع النحوس والخير والشر

قالوا: إن منها نحوس الأفلاك وسعدها، ومنها ما يرجع للطبيعة من الكون والفساد، ومنها ما يلحق بالحيوان من الآلام والأوجاع، ومنها ما يرجع إلى جبلّة الحيوانات من التنافر والتآلف، ومنها ما ينتسب إلى ما يلحق النفوس التي تحت الأمر والنهي في أحكام الناموس من السعادة والمحنة في الدنيا والآخرة جميعاً، فالأمطار قد يعرض منها تلف لإنسان أو نبات أو حيوان، فيكون بالعرض لا بالقصد الأوّل، وعبّر البعض بأنّ هناك خيرات محدودة كالتي يفعلها الإنسان لتحصيل ثواب أو دفع عقاب. ويرى إفلاطون أنّ هذه الخيرات ضيّقة وأما الخير المطلق وهو الذي يكون مكتفياً لذاته بحيث لا يكون وسيلة لشيء ورائه.

وحكي عن مونتسكيو: أنّ الخير هو توثيق عرى العلاقات الجوهريّة بين طبائعِ الأشياء وتوهينها هو الشرّ. وقد يقال: أن الخير هي الفضائل وما يكون محقّق لها من العلم والحلم والكرم والصدق، والشرّ على خلاف ذلك.

فربّ حسن بعقل ليس بحسن حسّاً، وربّ حسن في سنّ ليس حسناً في سنّ آخر، وجميل في عين ليس جميل في عين، وإن كان كلّ شيء بحسب نفس الأمر والواقع في الزمان والمكان الخاص له ما يناسبه من الحسن والخير أو القبح والشر.

وقالوا: للأمور حكمان: حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول والعقل هو الحجّة، فلو شاء الله أن يترك كتبه ويجعل كلام أنبيائه بحيث لا يحتاج إلى تبيين وتفسير لفعل، ولكنّا لم نرّ شيئاً من الدين والدنيا دفع إلينا على الكفاية، ولو كان كذلك لسقطت المحنة والبلوى، وذهب التسابق والمنافسة، ولم يكن تفاضل ولا ظهور ولا سرور، ولكنّ الله بنى الدنيا على امتزاج خيرها بشرها واختلاط علمها بالجهل وصوابها بالخطأ وتوفيقها

بالخلاف، وينتهي السعيد إلى ما دعي إليه وخلق له ولو كان العلم كلّه ظاهراً والعلم وجهاً واحداً والخلاف مرتفعاً لما صحّ تكليف ولا تمّ سعي ولا استحقّ حمد ولا ذمّ ولا ثواب ولا عقاب، فلولا أنّ الله أراد أن يجعل الخلاف سبباً للائتلاف لما جعل واحداً طويلاً وآخر قصيراً وواحداً حسناً وآخر قبيحاً وكذا لما جعل فقيراً وغنياً وذكياً وغبيّاً فخالف بينهم ليختبرهم. ولو أنّ الناس كلّهم رغبوا عن عار الحياكة لبقينا عراة ولو رغبوا عن البناء لبقيناعلى العراء وهكذا في الفلاحة والتجارة، ولولا اختلاف الطبايع لما اختاروا من الأسماء إلاّ أحسنها، ومن البلاد إلاّ أعدلها. ولولا اختلاف الأسباب في الخير والشرّ لتنازعوا بلدة واحدة واسماً واحداً وبذلك بطلان الأمور.

وقال بعض الحكماء قولاً مفيداً في علّة وجود الشرّ في هذا العالم: بأنه لِمَ لَم يكن الأمر كلّه خيراً محضاً؟ إنّ الشر بالذات العدم والشرّ في الوجودات بالعرض لحابس الكمال عن مستحقّه، وكلّ شيء وجوده على كماله الأقصى وليس فيه ما في القوّة، فلا يلحقه الشرّ وإنّما يلحق الشر ما في طباعه بالقوّة وذلك لأجل المادّة.

ما يقال عليه الشرّ

قالوا: الشر يقال على وجوه منها يقال: الشرّ للأفعال المذمومة، ومنها يقال لمباديئها من الأخلاق ويقال للآلام والغموم وما يشبهها، ومنها لنقصان كلّ شيء عن كماله وفقدانه ما من شأنه أن يكون له.

ولن تجد شيئاً مما يقال له شرّ من الأفعال إلاّ وهو كمال لسببه الفاعل له، والفعل إنّما هو شرّ بالقياس إلى السبب القابل له، أو بالقياس إلى فاعل آخر يمنع عن فعله في تلك المادة التي هي أولى بها من هذا الفعل.

فالظلم يصدر مثلاً عن قوّة طلابه للغلبة وهي القوة الغضبيّة والغلبة هي كمالها، فهذا الفعل بالقياس لها خير وإنّما هو شرّ للمظلوم أو النفس النطقيّة التي كمالها كسر هذه القوّة.

منهج الإسلام في الخير والشرّ

ركّز الإسلام على الإصلاح الداخلي لدعم قوى الخير، فجعل تهذيب النفس وتزكيتها أساساً لبلوغ الغاية المنشودة التي خلق الإنسان من أجلها، وجعل فعل الخير والصلاح تدعيماً للصلاح ليكون مثالاً للخير والصلاح بإماتة الشهوات ورفع حجب العقل لمشاهدة الواقع. ولّما كان منهج الشرع لسبيل الخير فطرة تحتاج إلى زكاة النفس لمسيرة الكمال التي لا تحدّ بحدّ اختلفت عن جميع الثورات والسلطات على وجه الأرض حيث وجدت الدعم الباطني فلم تسقط في مضطرب الحياة.

قال ﷺ: «إنّما بعثت لأتّمم مكارم الأخلاق» حيث يكون بها تمام الخير والصلاح، وقال تعالى: ﴿ *وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا* ﴾[1]. فمثلاً العين وإن كانت أداة للإبصار لكنّها قد تصاب بالعمى أو الرمد.

ومشاهدة الحقّ حقاً بعيداً عن رواسب القرون وحضارات الأمم وعصبيّات الجاهليّة على اختلاف مظاهرها القبليّة والدينية والشهويّة والغضبيّة والسبعيّة، تحتاج إلى حرّ يخوض الغمرات في ديار الكرب والبلاء والفتنة والاختبار، حيث تعلّقت المشيئة الإلهيّة بأن بلوغ الغاية وتحقيق الخير لا يكون إلاّ بجهاد مطلق في ميادين العلم والعمل، حيث جعل تعالى الدنيا مختبر العقول وأشار قائلاً: ﴿ *وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا* ﴾[2] فالمحتاج إليه

---

(١) سورة الشمس: ٧ ـ ١٠.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٩.

الإنسان لمسيرة الخير إزالة العوائق والقيود، وهي حجب الغفلة ليصبح البصر حديداً، لأنّ الخير وحبّ السعادة والكمال هي فطرة الإنسان.

والشّر هو العدوان على الفطرة بالخروج عن الإعتدال إلى الطغيان أو الخمول بتجاوز الحد أو التخلّف عن قافلة السلام ومن البديهي أنّه لا بدّ وأن تكون للخيرات والشرور أسباب، ولا يمكن علاج المسبّبات إلاّ بالأخذ بعين الإعتبار تلك العلل المؤديّة إلى السعادة أو الشقاوة وإلاّ فإصلاح المعاليل بدون تحقيق عللها يصبح ما يشبه الشعر والخطابة المبنيين على أسس الوهم والخيال.

وقال تعالى: ﴿ ***لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ*** ﴾(١). وقد فسّر حسن التقويم بمعرفة الحقّ والإستمساك به.

وقال تعالى: ﴿ ***وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ*** ﴾(٢). ولمّا كانت الغاية المنشودة لتحقيق الخير مسيرة طويلة، لأنّ الكمال المطلق هو الله والغاية التخلّق بأخلاقه تعالى، فلا بدّ وأن يكون تحقيق سبل الخير محتاجاً لمراحل من السير، ولا يعقل تحقيق الخير والفضيلة بالإكراه على الفعل، لأنّ الفعل لا مبلغ له إلى بواطن القلب، وأنّ الروابط العامّة التي يجب الإلتزام بها كقانون جامع هي من مواطن الخير.

وقال آخرون: فلسفة الإيجاب والخير والشرّ بحث عن سرّ الحقيقة، ولهذا السبب يتعذّر علينا التعمّق إلى درجة الكشف عن هذا السرّ، فإنّ كلّ

---

(١) سورة التين: ٤ ـ ٦.

(٢) سورة البقرة: ١٦٨ ـ ١٦٩.

من يحاول أن يتعمّق في فهم حقيقة المطلق، والإنسان يجد أنّ طريق المعرفة طويل وواسع لا ينتهي لأنّه متضمّن في اللانهاية.

وقد يطرح البحث عند البعض بنحو التساؤل قائلاً: العالم الماديّ لا نعرف أنّ ما فيه هو خير أو شرّ أو أنّه حيادي لا يوصف بشيء من الأمرين، لكن كلّ ما فيه يمكن أن يصبغ بكلّ من الخير أو الشر؟ فقد يكون الحجر شرّاً إن وقع عثرة في طريق إنسان أو أصاب رأسه، وقد يعتبر خيراً إن أصبح سكناً.

وقال آخرون: ليس الشرّ إلاّ نفي الخير فهو انعدام له وعليه فلا يتّصف الشرّ بجوهر أو حقيقة، فالخير إيجاب والشرّ سلب، فهناك مصدر للخير وليس من مصدر للشرّ، فالشرّ نقص في ماهيّة الخير.

ونظر آخرون بمنظار آخر فقالوا: فيما ورد من الكتاب المجيد من المحكم والمتشابه إنه لو كان بتمامه محكماً لاتكل الناس كلّهم على الخير واستغنوا عن النظر،وكان لا يتبيّن فضل العلماء على غيرهم، ولكان لا يحصل لهم ثواب النظر واتعاب الخواطر في استنباط المعاني.

تساؤل في المقام:

هل هناك شرّ بحسب الواقع أو هو أمر قياسي نسبي حينما نقيس الأشياء إلى أنفسنا بما تعود إلينا منها من نفع أو ضرر وعليه فيكون الشرّ والخير ولو بالخروج عن الإتزان بالإفراط والتفريط؟.

وعليه لابدّ من البحث عن الشرور هل هي ذاتيّة أو اعتبارية أو نسبيّة إضافيّة؟ فالذاتيّة تناسب مسلك الثنويّة حيث تتنازع عندهم الخيرات والشرور بتبع مناشئ صدورها وعللها المختلفة أو هي أمور اعتباريّة، فربّ شخص باعتبار ومصلحة يرى شيئاً من الخير وآخر يراه من الشرّ لاختلاف العقليّات أو المصالح أو الرغبات أو الغايات.

فمثلاً السّم ليس شراً في ذاته نعم أكله أو شربه يجعله شراً ولو أصبح دواءً لكان خيراً، وكذلك ما خلق الله تعالى كالخنزير ففي ذاته ليس شراً وشريّته من حيث أكله، فوضع الشيء في محلّه خير وفي غير محلّه شرّ وإلاّ فمن المحال أن يكون الشيء في ذاته شراً لمحالية تعلّق الجعل به من حيث الجاعل ومحالية تحقّقه من حيث ذاته، لأن الشيء لا يناقض نفسه.

فإذن من جملة أسباب اعطاء الأشياء صفة الخير أو الشر هو كيفيّة التعامل مع الأمور.

هل الخير والشرّ تميّزهما وجداني أو برهاني؟

قد ذكرت بعض الأمور من باب المصاديق للشرور، فمن جملة ما ذكر نحوسة الأفلاك وسعدها، فهل يكون هذا الإعتقاد من المحرّمات أم أنّ هناك قاعدة يجب أن لا نخرج منها وهي أنّ لا اعتبار إلاّ لليقين؟. كما وأنه يجب ملاحظة الأسباب المؤديّة إلى الإعتقاد، وإلاّ فمجرد الاحتمال أو الظن بدون ترتب الآثار لا يعدّ محرماً.

ثم يقال: هل الشرّ من لوازم عالم المادة أو عالم الإمكان للحديّة والنقص للتضاد والتزاحم؟!. فهاهنا وقع بحث طويل الذيل بين الاعلام.

الإنسان بين الخير والشر:

قالوا: يعتمد الإسلام على تهذيب النفس محاولاً التغلغل في أعماقها حتّى يستحيل جزءاً منها لاتحاد العاقل والمعقول أو لتصبح الملكات الطيبة فعلية بالعمل الصالح، قال تعالى: ﴿**إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم**﴾[1].

---

(١) سورة الرعد / ١١.

وقال تعالى معللاً هلاك الأمم الفاسدة: ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إنّ الله قويٌّ شديد العقاب ❁ ذلك بأنّ الله لم يكن مغيّراً نعمة أنعمها على قومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾(١).

وقال آخر: إنّا لا نقول بأنّ القيم ذات وجود يمكن تحديده لأنّ التحديد بالإجمال لن يكون إلاّ ضمن مقولتي الخير والشرّ، ثم قال: وفي رأي إنّ لفظة الفضيلة أو القيم آتية من الأفضل باستمرار، وهذه المحصلّة تكون تيمّناً بقوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾(٢) وهذا الأحسن معناه المقارنة الدائمة ما بين سلوك وسلوك وصولاً إلى الأفضل دون توقّف، فأمّا أن تكون أنا وهي المعيار الذي نزن به الخير والشرّ.

والضمير: هو الميزان الذي نزن به النوايا، وإما أن تكون الفطرة الصحيحة المستقيمة هي الميزان فهي جوهر كريم لا تتغير قيمه في زمان أو مكان به نميّز الحق عن الباطل والخير عن الشرّ، وهذه القوّة ليست نتيجة بيئة ولا زمان ولا تربية فهو منحة كما منحنا العين لنبصر بها، والأذن لنسمع بها فإذن هو الشعور الميّز بين الخير والشرّ وهو المعبّر عنه بالزاجر والواعظ أو السرّ أو داخل الخاطر أو ما هو مضمر.

لكن قد يقال: أنّ أحكام الضمير نسبيّة وليست مطلقة، لأنّ المعرفة للخير أو الشرّ متفاوتة من إنسان لآخر، وذلك لاختلاف الوجدان اختلافاً كبيراً بين الأمم حتّى المتمدنة منها، فهي مختلفة في تقييم الخير والشرّ بل إنّ الشخص الواحد يختلف وجدانه باختلاف زمانه ولكل مجتمع ضميره الخاص به، فالضمير كثيراً ما يتأثّر من معتقدات وعادات وتقاليد، فالإنسان يحكم على

---

(١) سورة الأنفال: ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) سورة فصّلت / ٣٤.

الأفعال والتصرّفات لا من خلال ضميره فقط بل من خلال ضمير المجتمع، فالضمير حصيلة آلاف الضغوط الإجتماعية على الفرد: التربيـة في الأسـرة والمدرسة، القهر الرسمي الذي تمارسه المؤسسات والنظم الإجتماعيّة، القهر المنتشر الذي يصدر عن الأعراف والتقاليد وسلطان الحضارة، فكلّها قوى تتظافر وتتحالف على تشكيل ضمير الفرد، وكذا لوراثة الأخلاق المكتسبة الأثر في المقام وضغوط الأبوين. وقد يقال: أنّ الضمير لا عمل إيجابي له إلاّ من خلال اللذة والألم. أجل كلّ هذا ولكن يجب أن يستمد الضمير أحكامه من القرآن والسُنّة، لأنّها ظهور الخلق الكريم فهو الحق والميزان والنور والبرهان. ﴿ *ومن شرّ غاسق إذا وقب* ﴾[1].

كيفيّة علاج الضمير حتى لا يموت:

اعلم أنّ الإنسان قد يخطأ وقد يعتاد على الخطأ والبعض قد يتحجّر. والإسلام يرفض اعتياد الشرّ كما يرفض اليأس والقنوط، ويعالج النفس بالتهذيب والعلم والعمل الصالح.

وقيل: الشرّ هو الإهتمام بالحياة الدنيوية، والفضائل والرذائل فطريّة، والإختلاف في تشخيص المصاديق. ومن تمكّن من معرفة الخير والشرّ سهل عليهالتفرقة بين الإلهام والوساوس الشيطانيّة، إلاّ أنّ حديث النفس لا مؤاخذة عليه لعدم دخوله تحت الاختبار، وإن كان يعود إلى مراتب النفس. وإن أمكن القول بأنه يدخل تحت الحكم إن أصبح فعلاً نفسانياً.

والغاية من تهذيب النفس وتزيّنها بالعلم وتزكيتها بالفضائل هو الوصول إلى الخير والسعادة والإبتعاد عن الشرور. ولذا قالوا: السعيد من أصلح

---

(١) سورة الفلق / ٣.

جميع صفاته وأفعاله بحكمة علميّة وعمليّة على وجه الثبوت والإستمرار، لأن الكمال والقرب إلى الحق لا يحدّ بحدّ، لأنّ عدم الزكاة والجهل قد يجعل الإنسان يخلط بين الخير والشّر كالذي يرى الإسراف كرماً والتهوّر شجاعة والذلّ صبراً، وقيل: للشبهة شبه، لأنّها تشبه الحق فتشبه على الإنسان ما لم يكن سليماً في أدواته المعرفة علماً وزكاة، وقد يكون الضعف في جهة المعرفة وتشخيص الخير من الشرّ، وقد يكون في مورد العمل ضعيف وإن كانت أدوات التشخيص قويّة.

الفطرة:

هل الفطرة هي خير أو شرّ بالفعل أو قابلة لكلّ منهما أو هي بالفعل تميّز بينهما لولا الحجب وإن لم تكن بالفعل متلبّسة بأحدهما..؟ وكون الفطرة خيراً بمعنى أنّها لولا العوامل الخارجية لكانت صلاحاً، وكونها شرّاً أنّه لولا الإصلاح وحسن التربية لكانت شرّاً. والذي يظهر من الأحاديث أنّ الفطرة هي الخير ومعرفة الصلاح والفضائل، كما قال عليه السلام: «يولد الإنسان على الفطرة وإنّما أبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجّسانه» فالعلم الحضوري فطرة والحصولي عارض ولا حدّ للخير المحض والتنافس فيه.

الكمال والخير بما يناسب الشيء:

فقد يكون شيء، كمالاً للرجل وهو ليس بكمال وخير للمرأة وبالعكس، كما يقال: الحلاوة خير وكمال للسكّر والتمر لكنها ليست كمالاً للنحل بل كماله الخمر.

ما هو ملاك الخير والشر؟

قالوا: الخير والصلاح ما يقول له الناس طيّب وعكسه الشرّ وإلاّ فلا ملاك للخير والشرّ، ولكلّ أمة بحسب حضارتها خيرات وشرور وممدوح ومذموم، فلا ملاك عام في المقام، فالقيم تختلف باختلاف الأمم ونظرتها وباختلاف الزمان والمكان، ثم يقولون إذن لا ملاك ثابت يمكن أن يستند إليه في المقام، والأفضل إنسان طالب للخير والسعادة وفارّ من الشرّ والشقاوة، وعند التحلي بالعلم والتزكية يتمكن من تشخيص المصاديق.

ومن شرّ ما خلق:

أي من شرّ كل ذي شر. وما من مخلوق إلاّ وله الأهليّة التامة للخير والشر والقوة الموجبة والقوة السالبة، ولا شيء في الوجود خير محض بذاته إلاّ خالق الوجود. والخير بروز آثار القوة العقليّة والشر بروز آثار القوة الشهوانية، لكن ليست القوة الشهوانية شراً بذاتها وإنّما هي شرّ إذا خرجت من الإعتدال إلى الإفراط أو التفريط.

وما تفرد به العقل الراجح هو الخير وما تفرّد باستقباحه هو الشرّ، وقيل في تعريف الخير: أنه المطلوب المرغوب فيه لذاته لا لغيره، وعلى العكس منه الشرّ فإنه ربّما كان عرضاً غير مقصود وإن وقع ذلك بالتقدير الإلهي والحكم السماوي، فيكون وجود الشرّ ضرورة حصول الخير، فإن الأشياء لو لم تكن بحيث تتضاد لم يمكن أن يكون منها هذه الأنواع الشريفة، وذلك كإحراق النار ثوب فقير لا يملك غيره، وكذا في المطر فقد يتأذى به شخص ويتداعى له البنيان ويحبس الناس في منازلهم عن حوائجهم حيث جبل هذا العالم الطبيعي على امتزاج الخير والشرّ والنفع والضرر والغنى والفقر والفيض

والبسط والسرّاء والضرّاء والشدّة والرخاء والصحة والألم. وأمّا الخير الصرف غير الممزوج والنفع الخالص المطلق غير المحصور فهو في غير هذه الدار.

وخلاصة القول: ذلك لأنّ الدنيا دار اختيار واختبار فهي مختبر العقول وبهذا يمتاز الإنسان عن سائر الجمادات.

الفصل الخامس

بين العقل والقلب

العقلُ دليلٌ مرشد والقلب زعيمٌ مفكّر

يقول السيد الشيرازي (دام ظلّه) في العقل: للإنسان عقل وروح ونفس وجسم، فالجسم يمكن أن يكون بمنزلة جسد السيارة، والعقل بمنزلة السائق، مع فرق أنَّ السائق يتمكن أن يحرف ذات اليمين وذات الشمال، لكن العقل لا يتمكن إلاَّ الهداية إلى الطريق الصحيح، والنفس بمنزلة الماكنة للسيارة، والروح بمنزلة الوقود، وهذا التشبيه ببعض الاعتبارات ويمكن غير ذلك باعتبارات أخرى.

وقد ورد في الآيات والروايَات حسن العقل وأنّه يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، وأما النفس فتارة خيّرة وتارة شريرة، والروح دائماً منعوتة بالاحترام في الآيات والروايات فهي تقود الحياة[1].

وذكر جملة من الحكماء والفلاسفة: إن العقل له مراتب أربع، والمراتب هي:

١ ـ العقل الهيولائي.

٢ ـ العقل بالملكة.

٣ ـ العقل بالفعل.

٤ ـ العقل المستفاد.

وتفصيلها إنَّ النفس لها مراتب أربع عبّر عنها جميعاً بالعقل.

الأولى: ما يسمّى بالعقل الهيولائي، وهي قوة استعداد انتزاع ماهيّات الموجودات على النحو الكلي.

---

(١) راجع كتاب الفقه العقائد للسيد محمد الحسيني الشيرازي (دام ظله): ١٣٦.

الثانية: أن تصل إلى مرتبة حصول هذا الاستعداد وفعليّتها فيه، ويعبّر عن تلك المرتبة بـ (العقل الملكة)، أي حصلت له الملكة، أي حالة راسخة يقتدر بها على تصوّر المفاهيم الكلية.

الثالثة: أن تحصل لها تلك الأمور فعلاً، أي ترتسم فيها المفاهيم الكليّة والاستنتاج والنظر فعلاً، سواء كانت حاضرة في النفس أي مشهودة لها أو لا، وبعد حصولها في النفس تحصل بأدنى التفات، وقال بعضهم: النفس حينئذ تكون عقلاً وعاقلاً ومعقولاً، ويعبر عن النفس في تلك المرتبة بـ (العقل بالفعل) و(العقل النظري) عندهم وهو مقام فعلية وكمال للنفس باستخراج النظريات عن الضروريات، فإذا وصلت النفس إلى حدٍ حصل لها استخراج النظريّات من الضروريات في جميع المطالب نادراً أو في كثير منها غالباً، فإنّه يعبّر عنها بـ (العقل الفعلي) أو (العقل بالفعل)، وحكم العقل حينئذٍ ما يحصل له من النتيجة بسبب الاستخراج المذكور.

الرابعة: أن لا نحتاج في حصول تلك الصور الكليّة وارتسامها في النفس إلى استنتاج وفكر بنزع وتجريدبل تفاض عليها تلك الصور الكلية بواسطة الإتصال بالعقل الفعّال الذي هومخزن تلك الصور الكليّة لا بالفكر والتجريد[1].

النقاش في المراتب:

يشير السيد الشيرازي: إلى أن ـ بالإضافة إلى الخلط بين العقل والنفس ـ إنَّ هذه المراتب إذا لم ترجع إلى بعض ما ذكر في الروايات فلا دليل عليها من الشرع ولا العقل.

---

(١) راجع كتاب الفقه العقائد للسيد محمد الحسيني الشيرازي (دام ظله): ١٤٢ ـ ١٤٣

وأضاف (دام ظله): من أنّ العقل شيء مخلوق لله سبحانه وتعالى وله جنود، وإنّما نعرفه بآثاره لا بحقيقته وكنهه، بل الأمر كذلك بالنسبة إلى غالب الأشياء حيث لا تعرف بحقيقتها وكنهها[1].

فالعقل نور روحاني موضعه الدماغ وله اتصالٌ بكافة أعضاء البدن، وله دور الريادة والرئاسة إذا اتّبعه المرء وأخذ بنصائحه، فهو من جهة يدبّر الأمور الشعورية والحسيّة للإنسان، ومن جهةٍ ثانية هو يُدير البدن عن طريق الدماغ الذي يتصل بما أشبه بشبكة أسلاك البرق مع أجهزة الجسم الحساسة والمراكز الرئيسية فيه، وكذا سائر الأعضاء المتّصلة بالدماغ عن طريق الشبكة العصبية التي تنقل الأوامر التي يرسلها العقل إلى كافة أعضاء البدن، وهي في نفس الوقت تقوم بنقل اشارات أخرى من تلك الأعضاء الحسيّة إلى الدماغ، وهكذا يمارس الدماغ دوره الريادي على أجهزة البدن، فالدماغ هو الذي يوجه رسائل خاصة إلى العضلات ويأمرها بالحركة، وهو الذي يجعل القلب يُسرع أو يُبطئ في ضربانه، وإذا وصلت إليه رسالةٌ من العين تخبرهُ بوجود خطرٍ ما يهدد حياة الإنسان، فإن العقل هو الذي يأمر عضلات البدن بالحركة للتخلص من ذلك الخطر بطريق الدفاع عن النفس أو الهرب من موقع الخطر، وإذا وصلت رسالةٌ إلى الدماغ بعثها أحد الأصابع وهو يُخبره بتعرضه لماءٍ ساخن، فإن الدماغ هو الذي سيأمر عضلات الذراع بتنحية الإصبع عن ذلك الشيء الساخن، وعندما يرتبك الإنسان ويصيبه الخجل فإن لهذا الإنفعال سيكون له أبعد الأثر على الوضع الداخلي للبدن، وذلك لأنّ الأعصاب ستتأثر بفاعلية المخ وهي التي ستنقل هذا التأثير والإنفعال إلى الأوعية الشعرية وتجعلها تنبسط فيزيد الدم بها ويتورد وجه المرء، وللأعصاب تأثير

---

(١) الفقه العقائد للإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي (دام ظله): ١٤٣.

متزايد على إفراز غدد العرق فتسيل قطرات العرق مثلاً عند المرء لما يكون في وضعٍ مُخجل بينما المعروف أن هذه الغدد تفرز مادتها عند التعرض للحر الشديد، وكذلك تزداد ضربات القلب عندما يتعرض المرء إلى هياجٍ وانفعال، وحين يكون الشخص حزيناً فإنّه قد ينقطع عن الأكل أياماً دون أن يشعر بالجوع وذلك بسبب انشغال العقل في أمرٍ هو أعظم تأثيراً من محفزات الجوع على الطعام، وهكذا الحال عندما ينشغل العقل في التفكير فإن المرء سيغفل عن مشاهدة المنظر الذي أمامه على الرغم من أن عيونه مفتوحة، وكل ذلك بسبب انشغال الذهن في تركيب صورٍ أخرى، ومما يثبت أيضاً إمكانية تجرد العقل عن الحواس هو ما يشاهده المرء في حالة الرؤيا، فإنّ القلب الذي هو وعاء العقل يتجول في ساحة الخيال وهو الذي تنعكس عليه آثار الرؤيا، فإذا شاهد المرء كابوساً مرعباً تأثر بدنه لهذا الوضع وكأنه يشاهد بالفعل مثل هذا الكابوس على أرض الواقع على الرغم من إنشغال الحواس في نوم عميق أشبه بالموت.

وتدعم العقل ثلاثة قوى رئيسية:

أولاً: القوة الوهمية.

ثانياً: قوة الحافظة.

ثالثاً: القوة المفكّرة.

القوّة الوهميّة

الوهم هي إحدى القوى المتّصلة بالعقل ويستفاد منها المرء في التخيل وإطلاق الذهن في أمواجٍ من الأفكار الخيالية، حتى يصل إلى تصورات غير عاقلة للأشياء ولكن بعضها يميل إلى الواقع البشري، مثل الفنون الإنسانية

بشكل عام كالرسم وتأليف الروايات ونشر الشعر هي مواد مصنعها الرئيسي هي القـوة الوهمية، وتتطاول قوّة الخيال في أحيان إلى حد الاستيلاء على مقدرات المرء والعقل فتجدهُ يسبح في غمرات الخيال إلى درجة أنه يغفـل عن حاجاته ومتطلباته الرئيسية، وتجد أن مـن يفرط في الخيال يصاب شيئاً فشيئاً بالإنطواء وفي أحيان تقوده حالته تلك إلى الجنون.

وسبب ميل المرء نحو الخيال هو أن هـذه القوة تبث في ذهنه أحلامـاً ورديةً لا يجد نظيراً لها في الواقع المعاش، فينشد وينجذب إليها لأنَها تُلبي كل رغباته وطموحاته الباطنية والتي عـادةً ما يعجز عن تلبيتها في الواقـع، فمن يرغب بأن يكون بطلاً شجاعاً في الحياة ويجد نفسه عاجزاً عن تحقيق ذلك في مصراع الحياة، فإنّه سيميل إلى تحقيق رغبته تلك عن طريـق الإفـراط فـي الخيال، فيصنـع في خياله أعداءاً وهميين يقتبس صورتهم من الواقـع ويبدأ بمحاربتهم في الخيال حتى يتغلب عليهم بقوّته الفتّاكة.

وقد وضع الله سبحانه وتعالى القوّة المتخيلة في خدمة العقـل وليـس العكس، فإذا حدث نقيض ذلك فإن العقـل سيمتلئ بالأوهـام الباطلـة ولا يستوي المرء علـى علم حقيقي، لأنّ الخيال هـو وهـمٌ، والوهـم يناقض العلم ويضاده فمن يستفيد من الوهم مكان العلم فإنّه في الواقع قـد ثبت الجهل في ذهنه ومحا سبيل الرشاد عن عقله.

ويستفيد العقل من القوة الوهمية لأجل الربط بين الصور المتغـايرة أو بين الأفكار المتعددة ليجد الرابط الحقيقـي بـين تلـك الصـور، إن كـانت رابطـة تناقض أو اتفاق، أو رابطة جزء بكـل.. وهكـذا، وعندما تـزج تلك الصـور نفسها في إطار قانونٍ ما فإنَها حينئـذ تخرج عن صفتها الوهمية وتتحول إلى قاعدةٍ علمية، مثل الصور والأفكار المستعملة في الحدس والتوقـع السياسي،

فإن مصدر تلك التصوّرات منبعها الوهم، ولكن بسبب اعتماها على أدلّة علمية دقيقة فإنها أيضاً قد تتحول إلى تصوّرات منطقية، وكلما كانت درجة اتّصالها بالعلم أكبر كانت درجة حدوثها أكبر أيضاً.

قوّة الحافظة

وإحدى القوى الأساسية المتّصلة بالعقل أيضاً هي الذاكرة، وهي التي تحفظ الصور والمعلومات وتبعثها للعقل كي يجري عليها العمليات النهائية كالفحص، والتمييز ويُرسل العقل نتائج ذلك إلى حافظة القلب الرئيسية التي تدخرُ الاعتقادات والإحساسات، وللذاكرة دور رئيسي في تموين العقل بالصور والأشكال والإحساسات، فكل الإنطباعات التي ترد على صفحة العقل من دون تدخلٍ للحواس بشكل مباشر منبعها هو الذاكرة، ونجد أنّ هناك تأثيراً متقابلاً ما بين العقل والذاكرة، فالعقل يُرسل استنتاجاته النهائية ليحفظها في الذاكرة، والذاكرة تقوم بخدمة العقل عندما يكون الأخير بحاجة إلى تلك الصور والأشكال المعينة.

ولا شك أن الذاكرة تلعب دوراً رئيسياً في حياة الإنسان، فمن دونها يفقد البشر كل مميزاته الإنسانية ويعجز بالتالي العقل عن ممارسة دوره الاعتيادي في الحياة، وذلك لأنّ جميع العمليات العقلية قائمة على أساس صور واشكال وقوانين وأفكار موجودة في الذاكرة، فمن دون التذكر لا يمكن الربط بين فكرة وأخرى، وكذلك الحال بالنسبة للاستنتاجات العلمية فإنها أيضاً قائمة على أساس الربط بين الحقائق المختلفة، ولولا الربط الذي اعتمده (نيوتن) بين سقوط التفاحة وحركة الأشياء في الكون لما وصل إلى قانون الجاذبية، وهكذا نجد أن كلّ شيء له علاقة بشيء آخر، ونتيجة هذا الربط

بدأت الصناعات تتطور وتقفز بوتيرة أعلى نحو الأمام، لأن كل اختراع علمي يقودُ إلى فكرة جديدة وإلى اختراع آخر.

وقد ذهبت إحدى مدارس علم النفس إلى حد وصف الذاكرة بأنـها عملية ربط بين الصور، وهو تعريف يأخذ بُعداً واحداً من أبعـاد الذاكرة التي لا تعتمد فقط على أسلوب الربط للتذكر بل هي تستند إلى ما لديها من خزيـن وُجد الرابط أو انعدم وجوده، فكثيراً ما يحدث لدى الإنسان أن يتذكر أموراً لم تخطر على باله من قبل فيندهش لورود تلـك الذكريات على ذهنه مع إنه لم يستدعيها، ولم يوجد ما يحفّز على ظهورها أمام صفحة العقـل في الواقـع الخارجي. وثـم إن عملية الربـط هـي أيضـاً بحاجـة إلـى مخـزن للمعلومـات والصـور، لأنّ الصـورة التـي يستدعيها الدماغ لا بدّ وأن تكـون مخزونـة فـي مكانٍ ما لكي تظهر مجدداً على شاشـة العقـل وهـذا المكان لا يكـون سـوى الذاكرة.

ولكن المشكلة التي يواجهها الإنسان دائماً هـي أنه لا يتذكـر كـلَّ الأشياء التي تعلمها وكلّ الصور التي طبعها في ذهنه، فالنسيان يـأخذ نصيباً كبيراً مـن تلك المعلومات وتلك المشاهدات، وذلك لأن النصف الأولـي مـن الذاكـرة هـو الـذي يحفـظ المعلومات والصور لفترة معينة ثـم يرسـلها للقلـب لكـي تنطبـع هناك، فإذا داوم المرء على استعمال المعلومات في ذاكرته الأولى ترسخت فـي الذاكرة الثانية، وعادةً ما يميل العقل على ترسيخ المفاهيم الرئيسية في القلـب وليس الصور الجزئية أو الأفكـار البسيطة، لأنّ المفـاهيم الكليَـة هـي التـي تـدلَّ على الأفكار الجزئية وتستدعيها.

وتُعطي أساليب التعليم الحديثة في الوقت الحاضر لفهم المعنى أكثر أهمية من التعلـم بـالحفظ فقـط، وذلـك لأن التعليـم التوضيحي يسـاعد علـى تكـون

مفاهيم ثابتة ومتّصلة بالعالم الخارجي، ونلاحظ أنّ هناك إشارة لدى الإمام علي ﷺ بهذا الخصوص إذ يؤكد «العلم علمان: مطبوع ومسموع، ولا ينفع المسموع إذا لم يكن المطبوع»[1] ومعنى ذلك أن العلم مع الفهم والإدراك يساعد على ترسيخ المفاهيم أكثر من المسموع الذي لا يبقى وقتاً طويلاً في الذاكرة الأولى. وقد دلّت التجارب العلميّة أن المحفوظة التي يصاحبها معرفة المعنى تكون أكثر رسوخاً في الذاكرة من غيرها، ومن المكتشفات العلمية أيضاً أن الأطفال لديهم قدرة فائقة على الكبار في الاحتفاظ بالمعلومات، وهذه الحقيقة التي لا ريبَ فيها نجد لها اشارةً واضحةً من الرسول الأكرم محمد ﷺ اذ اعتبر «مثل الذي يتعلم في صغره كالنقش في الحجر، ومثل الذي يتعلم في كبره كالذي يكتب على الماء»[2] لذلك نجد أن الإسلام الحنيف والقائمين به يوصون بتعليم الصغار، فنقرء في وصية الإمام علي ﷺ لإبنه الحسن ﷺ إذ يقول له: «إنّما قلب الحدث كالأرض الخالية ما أُلقي فيها من شيء قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك، وينشغل لبّك»[3] وذلك لأن إنشغال الذهن في مشاكل الحياة في الكبر مانعٌ من ترسيخ العلم في القلب.

ولترسيخ العلوم في الذاكرة نجد أن هناك توصياتٍ دينية بهذا الخصوص، وهي تقوم على قاعدة أساسية هي ممارسة العلم وتكون هذه الممارسة بثلاثة طرق هي:

١ـ بالتجربة: وأن لا يكتفي المتعلم بحفظ المعلومة في ذهنه بل يمارسها بالتجربة وفي المختبر، ونجد ذلك في قول الإمام علي ﷺ: «العقل عقلان عقل

---

(١) بحار الأنوار: ١ / ٢١٨.

(٢) كنز العمال: ١٠/٢٤٩/ ح ٢٩٣٣٦.

(٣) بحار الأنوار: ١/ ٢٢٣.

الطبع، وعقل التجربة، وكلاهما يؤدي إلى المنفعة»[١] وقال ايضاً: «والعقل حفظ التجارب، وخير ما جرّبت ما وعظك»[٢].

وقد أخذت المدارس الحديثة بهذه الطريقة وهي تمارسها في علوم مختلفة كالكيمياء والطب وغيرها.

٢ ـ بالتعليم: بأن يقوم المتعلم الذي أنهى دراسته بتدريس تلك المادة لطلاب آخرين فإنه ادعى لحفظ تلك المعارف، ونقرء ذلك في الحديث الآتي عن الإمام علي إذ يقول: «إنّ النار لا ينقصها ما أخذ منها ولكن يخمدها أن لا تجد حطباً، وكذلك العلم لا يُفنيه الإقتباس لكن بُخل الحاملين سبب عدمه»[٣] والحديث الثاني أيضاً عنه: «أعون الأشياء على تزكية العقل التعليم»[٤]. ونلاحظ أن الذين يمتهنون التدريس لديهم قابليات هائلة على حفظ المواد التي يدرسونها للآخرين.

٣ ـ ممارسة المعرفة بالسلوك: فإنّ المعارف الذهنية التي تتحول إلى تصرفات سلوكية تكون أرسخ في الذاكرة، كمن يمارس الحديث بلغة أجنبية فإنّه سيكون أقدر على إجادتها من ذلك الذي يتعلمها من الكتاب فقط، وكذا الحال بالنسبة للمعارف الحياتية الأخرى. وهنا نقرء الحديث التالي عن الإمام الصادق إذ يقول: «العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل، ومن عمل علم، والعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلاّ ارتحل»[٥].

---

(١) بحار الأنوار: ٧٥ /٦.

(٢) بحار الأنوار: ١ /١٦٠.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٢٢٣/ ح ١٤٤.

(٤) المصدر نفسه ١/ ٢٠٢/ ح ٤٢١.

(٥) بحار الأنوار: ٢ / ٤٠.

القوّة المفكّرة

لقد أصبح الإنسان عاقلاً لأنّه يفكر، فالعملية العقلية تعتمد بشكل أساسي على التفكير ومنه يأتي السداد وإليه ينتهي الرشاد، ومن يسعى إلى استثمار نشاطه وحصد جهوده عليه أولاً أن يبدأ في التفكير بما يتعلق بشؤونه وبالفعل الذي ينوي القيام به، لأنّ العاقل هو من يقتصد بحركاته وسكناته لكي يوفرها لوقت الضرورة وفي سبيل خدمة الهدف الذي يسعى إليه، ومن السذاجة أن يشتت تلك الجهود ويضيعها سُدىً من دون جدوى، فعلاوة على ما في ذلك من تضييع للجهد البدني، فإنّه أيضاً سيسبب إرهاقاً نفسياً للشخص وبشكل عام فإن الذي لا يسترشد بعقله فإنّه مقود لا شك من قبل جهله وتكون عاقبة أمره الفشل.

والتفكير في الخير يؤدي إلى العمل به، كما أن التفكر في السوء يقود إلى الرغبة بأدائه لذلك فإن الطريق إلى إصلاح السلوك يبدأ أولاً من التفكير، فمن يفكر بشكل حسن لا يمكن أن يشذ سلوكه عن هذا الإطار، ونجد في التعاليم الدينية أن الإسلام يحثّ المرء على التفاؤل فيما يتعامل مع الموقف الذي هو فيه بروحية عالية ويتحمل المشقة التي في طريقه.

والتفكير القويم يأتي عادةً بعد ترشيد الحواس التي هي منافذ العلم الأوليّة بالنسبة للإنسان، فمن يريد أن يكون تفكيره سليماً عليه أن ينتفع بشكل جيد من حواسه، فهو يُبصر بتفكر ويسمع بتبصر ولا تمرّ عليه شاردةً ولا واردةً إلاّ أحصاها في فكرة قويمة، فهذا حال الإنسان المتبصر في حياته والذي لا يعطي قياد نفسه إلى جهل أعمى ولا يدع الهوى يتحكم بسلوكه فيورده موارد السوء.

والفكر بعد ذلك مرآة صافية ينظر المرء من خلاله إلى خصاله الحسنة والسيئة، فمن يدقق النظر في هذه المرآة يجد صورته الحقيقية منقوشةً عليها من دون رتوش المتملقين، ومن هناك يشرع المرء بترتيب هندام شخصيته وتقويم إعوجاج سلوكه، وذلك من خلال نظرة تدبر صادقة وليس نظرة اعجابٍ وكبر، فالمعجب بنفسه لا يراها إلاّ طاووساً انتقشت الألوان الزاهية على رياشه.

ولمن يريد الصفاء لفكره يوصي الصالحون بعدم الإكثار من الأكل، لأن الشبع المفرط مدعاة لهدم الفكرة وغفلة الفطنة، وسبب للخمول والكسل، فمن أشبع بطنه تثاقل عن إجالة الفكرة وتباطأ عن أداء ما هو مفروض عليه من طلب العلم وغيره، والتفكر يستدعي التثبت من صحّة المعتقدات والأفكار والأفعال وهذا ما لا يمكن تحقيقه عند الكسل والخمول.

وهناك تفكير منهيٌ عنه: هو التفكير في غير الحكمة وفي الأمور التافهة التي لا تنفع ولا تضر ولا هي من المعارف التي يستفاد منها الإنسان في دنياه وآخرته، ومن ضمن التفكير المنهي عنه أيضاً هو التفكير في الذات المقدسة للباري عزّ وجلّ، وذلك لأنّ عقولنا لا تستطيع أن تصل إلى تلك الحدود الرفيعة، فهي العاجزة عن معرفة كنه الروح البشرية كيف تدرك الذات الإلهيّة، ومن التفكير المنهي عنه أيضاً هو التفكير في اللذات والشهوَات لأنَ من فكر في شيء رغب فيه كما ألمحنا إلى ذلك من قبل.

والتفكير الرشيد هو الذي ينظر المرء فيه إلى نفسه ويتبصر في أحوالها ويبحث في خلق هذا البدن كيف صوّر الله عزّ وجل مظهره، وكيف أقام نظامه، ولنا أن نسأل عن أشياء هي في صلب حياتنا ونلتمس لها الإجابة من فكرنا، وعندما نُبحر في محيط الفكر سنجد بأننا أقل معرفة بذواتنا فما بالك بباقي الكائنات، مثل ذلك الطبيب الهندي الذي أحضره المنصور العباسي

لمناظرة الإمام الصادق ﷺ إذ كان يحسب نفسه علاّمة الزمان بالطب وبأحوال البدن ولكن عندما سأله الإمام الصادق ﷺ عن بعض الأمور المتعلقة بالبدن توقف الطبيب الهندي وحار في الجواب، وإليكم الرواية التي نقلها الربيع صاحب المنصور قال: «حضر أبو عبد الله ﷺ مجلس المنصور يوماً وعنده رجل من الهند يقرأ كتب الطب، فجعل أبو عبد الله ﷺ ينصت لقراءته، فلما فرغ الهندي قال له: يا أبا عبد الله أتريد مما معي شيئاً؟ قال ﷺ: لا فإنّ معي ما هو خير مما معك. قال: ما هو؟ قال ﷺ: أداوي الحار بالبارد، والبارد بالحار، والرطب باليابس، واليابس بالرطب، وأردّ الأمر كلّه إلى الله عزّ وجل، واستعمل ما قاله رسول الله ﷺ: واعلم أن المعدة بيت الداء، وأنّ الحميّة هي الدواء، وأعوّد البدن ما اعتاد. فقال الهندي: وهل الطب إلاّ هذا؟ فقال الصادق ﷺ: أفتراني من كتب الطب أخذت؟ قال: نعم، قال ﷺ: لا والله، ما أخذت إلاّ عن الله سبحانه، فأخبرني أنا أعلم بالطب أم أنت؟ قال الهندي: لا بل أنا! قال الصادق ﷺ: فأسألك شيئاً، قال: سل.

قال الصادق ﷺ: أخبرني يا هندي لِمَ كان في الرأس شؤون[1]. قال: لا أعلم قال ﷺ: فلم جعل الشعر عليه من فوق؟ قال: لا أعلم، قال ﷺ: فلِمَ خلت الجبهة من الشعر؟ قال: لا أعلم؟ قال ﷺ: فلِمَ كان لها تخاطيط وأسارير؟ قال: لا أعلم، قال ﷺ: فلِمَ كان الحاجبان من فوق العينين، قال: لا أعلم، قال ﷺ: فلِمَ جعل العينان كاللوزتين؟ قال: لا أعلم، قال ﷺ: فلِمَ جعل الأنف بينهما؟ قال: لا أعلم قال ﷺ: فلمَ كان ثقب الأنف في أسفله؟ قال: لا أعلم، قال ﷺ: فلمَ جعلت الشفة والشارب من فوق الفم؟ قال: لا أعلم قال ﷺ: فلمَ احتدّ السن وعرض الضرس وطال الناب. قال: لا أعلم.

---

(١) الشأن واحد الشؤون وهي مواصل قبائل الراس وملتقاها تدر الدموع حسب ما جاء في رأي الجوهري.

قال(ع): فلمَ جعلت اللحية للرجال؟ قال: لا أعلم قال(ع): فلمَ خلت الكفان من الشعر؟ قال: لا أعلم، قال(ع): فلمَ خلا الظفر والشعر من الحياة؟ قال: لا أعلم، قال(ع): فلِمَ كان القلب كحبّ الصنوبر؟ قال: لا أعلم. قال(ع): فلِمَ كانت الرئة قطعتين وجعل حركتها في موضعها؟ قال: لا أعلم. قال(ع): فلِمَ كانت الكبد حدباء؟ قال: لا أعلم. قال(ع): فلِمَ كانت الكلية كحب اللوبياء؟ قال: لا أعلم. قال(ع): فلِمَ جعل طي الركبة إلى خلف؟ قال: لا أعلم. قال(ع): فلِمَ انخصرت القدم؟ قال: لا أعلم.... فقال الصادق(ع): لكني أعلم... وأجابه(ع) عن كل تلك المسائل التي أثارها[1]«ولمن يريد جواب تلك المسائل عليه أن يراجع كتاب بحار الأنوار في الجزء ٥٨ وفي الصفحة (٣٠٨). وللإمام الصادق عليه السلام رسالة مطولة في تبيين الحكمة في خلق الكائنات وهي الرسالة المعروفة بـ (كتاب المفضل)».

إنّ إثارة الإنسان لمثل تلك المسائل تستحثه على البحث والتنقيب عن الأجوبة المتعلقة بها، وتقوده في النهاية إلى إكتساب المعارف الحقيقية المرتبطة بها، ويصل المرء في ذلك إلى الاعتقاد بوجود نظام متقنٍ للخلقة.

ومما ينبغي التفكر فيه أيضاً هو عواقب الأمور، فإننا نستخلص من عاقبة موت الجسد البشري بوجود حياة ثانية، ونستنتج من عاقبة البخيل أنّ البخل عاقبته الخسران، فالبخيل لا يسعد بأمواله التي جمعها بالطمع والحرص لأنّه سيموت ويورثها لأشخاص آخرين دون أن يكون له نصيبٌ منها، ونستخلص من عاقبة موت الطغاة والمتجبرين أن الإنسان مهما علا واستكبر، فإنه لن يستطيع أن يؤخر أجله ساعةً واحدة، ونتعلم من عاقبة الكرماء بين الناس، أن الكريم محمود حتى بعد مماته. وهكذا نجد أن هناك علاقة وثيقة بين العواقب

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨/ ٣٠٨.

والمقدمات، ومن الأشياء التي ينبغي التفكر فيها هي عاقبة الأقوام السابقة التي نجد آثارهم ما زالت ماثلةً أمامنا لتكون لنا عبرة، فقد أبقى الله سبحانه وتعالى على آثار الفراعنة لا لكي نمجّدها ونفتخر بها، وإنّما لنعتبر بها ونتدبر في فعل الله بهم بعد ما طغوا في البلاد، وهناك دعوة من قبل الباري عزّ وجلّ لكي ندرس حياة أولئك الطواغيت وندرك عواقب أمورهم، فالقرآن الكريم يقول: ﴿**أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ قوة وأثاروا الأرض وعمّروها أكثر ممّا عمّروها وجاءتهم رسلهم بالبيّنات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾[1].

وها هو الإمام علي عليه السلام يروي لنا ولإبنه الحسن عليه السلام كيف نظر في آثار الأولين، وهو يقول: «يا بُني إني وإن لم أكن قد عمّرت عمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمارهم، وفكرت في أخبارهم، وسرتُ في آثارهم، حتى عدتُ كأحدهم، بل كأنّي بما انتهى إليّ من أمورهم قد عمّرت مع أوّلهم إلى آخرهم...»[2]. ومن التفكير المحمود أيضاً هو في خلق السموات والأرض وتدبير الله في ذلك وأنّه لم يخلق هذا الكون العظيم عبثاً بل من وراء ذلك غاية وهدف، وفي يومٍ رأى بلال الحبشي رسول الله محمد صلى الله عليه وآله، وقد بلّت لحيته من البكاء، فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال صلى الله عليه وآله: ويحك يا بلال ما يمنعني ان أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة ﴿**إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنّهار لآيات لأولي الألباب**﴾[3] ثم قال صلى الله عليه وآله: ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها[4].

---

(١) سورة الروم: ٩.

(٢) بحار الأنوار: ٧٧ / ٢٠١.

(٣) سورة آل عمران: ١٩٠.

(٤) المحجة البيضاء: ٨ / ١٩٤.

والتفكير الهادف هو الذي يكون ذو قيمة ويُثاب عليه المرء بالإستزادة من العلم وثواب آخر يحصل عليه الشخص من الباري عزّ وجلّ عندما يعتبر تفكيره نوعاً من العبادة، وقد قيل: أن أكثر عبادة أبي ذر الغفاري هي التفكير.

وعن الإمام الرضاﷺ نقل أنه: «ليست العبادة بكثرة الصلاة والصوم، إنّما العبادة التفكر في أمر الله تعالى»[١].

وعن الإمام عليﷺ أيضاً أنّ: «التفكر في آلاء الله، نِعْمَ العبادة»[٢].

وتتحقق صفة العبادة التفكريّة عندما ينجح المرء من تحويل الطاقة الفكريّة لديه إلى معرفة حقيقية قائمة على أسس العلم والمنطق، وهنا نجد أنّ الدعوة الربّانية للتفكر الذاتي تأتي في سياق دمج الإنسان مع محيطه، والكائنات التي حوله، فإنّ الجبال والوديان والأشجار والبحار والكواكب كلّها صوراً مرئية تشكل المرتكزات الأولى للمعرفة، فمن خلال هذه الصور المحسوسة يرتقي الإنسان إلى الدرجات العلمية العُليا، فلكل صورة من هذه الصور المحسوسة هناك دلالة لمعرفة كلية يسعى إلى تحصيلها الإنسان، وبالتفكير يتمكن المرء من تحقيق الترابط بين تلك الصورة المختلفة ليستنتج منها معرفة كُلية.

ونحن نلاحظ لأهمية منهج التفكير في الاستنتاجات العلمية أن أغلب مدارس علم النفس الحديث تأخذ بالطريقة الإستبطانية التي تعتمد عل التأمل الذاتي، وعلاوة على ما في هذا المنهج من نتائج فكريّة وعلمية، فإنه أيضاً يجلي العقل وينقيه من الزوائد الذهنية ذات الأصل الجاهلي، وهذه التصفية هي مرحلة أساسية للإستفادة من كل مجهودات العقل للإستزادة العلمية، وذلك لأنّ الرواسب تعمل كحواجب تمنع ضياء المعرفة الساطع من الدنو نحو

(١) المحجة البيضاء: ٨/ ١٩٥.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٥٥/ ح ١١٩١.

العقل، ونحن نستطيع أن نشبه ذلك بقدرة هائلة يمتكلها العقل لحل الشفرة المعقدة الكائنة في خلق الكون، وهذه الإمكانية المتوفرة في جميع عقول البشر تضعف أو تقوى بعزم الإنسان وارادته، فمن يجعل عقله مرتعاً للأفكار المضللة والجاهلة فإنّه في الحقيقة يعمل على تضعيف القدرات التي بحوزة عقله على التفكير والاستنتاج، وتكون تلك الأفكار المضللة بمثابة الحاجب الذي يمنع العقل عن رؤية الحقيقة كاملة.

والتفكير الذي يقابل الغفلة يعمل بجهتين:

الأولى: هي الاستزداة من المعارف الحقيقية.

الثانية: تصفية الذهن من معوّقات المعرفة.

وإذا كانت هذه العملية تجري في جهتين فهي أيضاً تحقق نتيجتين متعاكستين:

الأولى: هي زيادة في علم.

الثانية: نقصانٌ من جهل.

والتفكير لا يكون مثمراً إلاّ بعد أن تترتب عليه هذه النتيجة المتعاكسة.

ونخلص من كلّ ما مرّ لدينا أن الفكر يقوم بعدة عمليات هي:

١ ـ الكشف وإظهار المجهولات.

٢ ـ تنقية و تطهير الذهن من رواسب الجهل.

٣ ـ تقويم وتعديل السلوك.

٤ ـ الاعتبار والاكتساب من خبرة الآخرين.

٥ ـ التنبيه وإرشاد القلب للخيرات وتحذيره من المحظورات.

٦ ـ التمييز بين الباقي والفاني، والحق والباطل.

٧ ـ اليقظة من بعد نوم الغفلة.

والقوة المفكرة تعتمد بشكل أساسي على ثلاثة أمور هي:

١ ـ الفطنة. ٢ ـ الفهم. ٣ ـ العلم.

الفطنة

الفطنة: هي الشعور الذهني بحقيقة الشيء، وهي أولّ عملية يقوم بها العقل لمعرفة الأشياء وإدراك جوهرها ومعرفة أقدارها وأحجامها وحدودها، فمن كان فطناً فهو أقدر على استيعاب الأشياء والأنواع والأجناس والأفكار، بينما يعجز الغبي عن تحقيق هذه المعرفة، ذلك لأنه لم ينبّه عقله لفحص وتمييز الصور التي يشاهدها في الواقع الخارجي، في المقابل نجد أن الفطن هو الذي يتوقف عند حقيقة الأشياء ويتلمس أحجامها ومقاديرها وأشكالها في ذهنه، وهو لا يمر على المؤثرات الحسيّة والشعورية مرور الكرام كما يفعل الغبي، فهو يُنبّه عقله دائماً لمعرفة كنه الأشياء، فهو يفكر فيها، ويبحث عن غوامضها ويتحقق من ديمومة واستمرارية تأثيرها حتى يصل من ذلك إلى المعرفة الكاملة بشؤونها، بينما الغبي لا يريد أن يُتعب ذهنه في التفكير، فلذلك يبقى عقله محدوداً ومعرفته ناقصة.

يقول السيد الشيرازي (دام ظلّه) في إشارة إلى الفطنة: الفطنة وهي إدراك معالجة الأمور حتى نصل إلى ما يتوخاه الإنسان، ربما تكون من العقل، وربما تكون من غير العقل، فإنّ كان الإدراك إلى الحق فهو من العقل، وإن كان إلى غيره فهو من الشيطان والنفس الأمارة بالسوء[1].

وفي رواية عن الإمام الصادقعليه السلام: قال الراوي: (قلت له: ما العقل؟ قال: ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان، قال: قلت له: فالذي كان في معاوية؟ قال: تلك النكراء، وتلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل، وليست بعقل)[2].

---

(١) الفقه العقائد: ١٤٨.

(٢) بحار الأنوار: ١/ ١١٦.

وأضاف (دام ظله): مثلاً اللص يعالج دخول البيوت للسرقة فهل هذا يسمى عقلاً أو تعقلاً؟. كلا.. وإنّما هو اللا عقل، وشيء من الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، وقوله عليه السلام: (ما عبد به الرحمن، واكتسب به الجنان) إن: أن من آثار العقل ذلك[1].

ولدينا في التصور الإسلامي أن تكون المفاهيم داخل العقل يتم بصورة تدريجية، فيتدرج المرء من مرحلة التصورات البسيطة والجزئية حتى يصل إلى التصورات الكونيّة، ثم مرحلة الطبع أو الختم وفي هذه المرحلة ينطبع المفهوم في ذهن الإنسان إذ يصعب بعدها اقتلاعه، كما نلمس ذلك في الآية الكريمة: ﴿ *ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة* ﴾[2].

والفطن هو الذي ينطبق وضعه مع المرحلة الأولى من تكوين التصوّرات الجزئية عن الحقائق القائمة في الكون، وأنّ التبصر في هذه الحقائق يؤدي إلى الفهم، والفهم يقود إلى العلم. ونقرء في حديث الإمام علي عليه السلام مايلي: «اليقين على أربع شُعب: على تبصرة الفطنة، وتأوّل الحكمة، وموعظة العبرة، وسنّة الأولين، فمن تبصّر في الفطنة تبيّنت له الحكمة، ومن تبيّنت له الحكمة، عرف العبرة، ومن عرف العبرة، فكأنّما كان في الأوّلين»[3].

والذهن يجب أن يكون مستعداً لإلتقاط الموجات الخاصة التي تقوده إلى المعرفة، فهو ينتبه لشيءٍ ما أو يركز تفكيره على حدثٍ ما، ثم يبدأ بربط هذه القضايا فيما بينها من أجل الكشف عن الحقائق العلميّة التي هي غائبة عن أعيننا، فالإنسان لابدّ أن يقوي لديه حاسة التركيز لكي يلتقط تلك الحقيقة التي توصله إلى مبتغاه، مثلما فعل (نيوتن) عندما ركز انتباهه وذهنه على تلك التفاحة التي سقطت من على الشجرة.

---

(١) راجع الفقه العقائد للإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي (دام ظلّه): ١٤٩ .

(٢) سورة البقرة: ٧.

(٣) نهج البلاغة:الحكم ٣١/ ٤٧٣.

الفهم

الفهم: هو إدراك الرابطة الشعورية بين الأشياء الحسية وغير الحسية، ويحصل الفهم بالفطنة، فمن لا يكون فطناً يتعذر عليه فهم الأشياء واستيعابها بشكل جيد. ولذلك نقرء في الحديث الشريف عن الإمام علي عليه السلام قوله: «الفهم بالفطنة»[1] وهنا نعرف أن فهم الأشياء لا يحصل نتيجة صدفة أو ظروف غير موضوعية، وانّما هو نتيجة لإرادة الإنسان ورغبته في تحصيل المعرفة، وإذا اعترفنا بدور أولي للذكاء في كسب المعرفة، فإنّ هذا الذكاء سيكون عاجزاً عن تحصيل المعارف العالية إذا لم تصاحبه الرغبة في التعلم، وكثيرٌ هم الذين ارتقوا سلّم المعاني وكانوا محدودي الذكاء، ولقد بيّنت دراسات علمية أن الكثير من المخترعين والمبتكرين كانوا فاشلين في باكورة دراستهم ولكن إرادتهم ورغبتهم في الإبداع هي التي ساعدتهم على إنجاز ما لم يتمكن غيرهم من القيام به، فكسب المعرفة يستدعي تنبيه الذهن وتوجهيه نحو حقيقةٍ ما للكشف عن بواطنها.

ويصلُ الإنسان في فهمه إلى حد الربط بين الحقائق المادية والحقائق العقلية غير المحسوسة، فإنّه عندما شاهد بعين عقله أن لكل مصنوع له صانع عرف بالضرورة أن هناك خالقاً لهذا الكون وإن لم يكن يراه بالبصر إلاّ أنه يشاهده بالبصيرة، فقد وصل فهم الإنسان إلى إدراك هذه الحقيقة العقلية وذلك من خلال الربط بين عالم المحسوسات وعالم المعقولات باستدلالات علمية لا يرقى إليها الشك.

ونصل من هذا المفهوم إلى ان القوانين العلمية سابقة لوجود الإنسان وهي تشكل حلقات متّصلة ببعضها، وفهم الإنسان وإدراكه يقودانه إلى

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ١٣/ ح ٥٧.

الكشف عن هذه الروابط التي تعتبر قوانين في الوجود، وعندما يحث الباري عزّ وجلّ في قرآنه الكريم الإنسان على البحث العلمي والتفكير بمصير الأقوام السابقة إنّما يدعوه لتقصي القوانين التي تربط بين مصير تلك الأقوام ومصير الإنسان الحالي، إنّ إجراء عملية ربط دقيقة بهذا الشأن تهدي الإنسان إلى الكثير من الحقائق الغائبة عن ذهنه.

العلم

العلم: هو المعرفة اليقينية بالشيء، ويضع القرآن الكريم العلم بإزاء العقل، ويقيمه على أساس العلم الكائن فيه، فالعقل يسمو ويتكامل بالعلم ويتميز به عن الحيوانات غير العاقلة فلا قيمة إذن للعقل من دون العلم، ومن المهم أن نعرف بأنّ الناس في يوم الجزاء يحاسبون على قدر عقولهم، ولقد دلّت الكثير من الروايات والأحاديث الشريفة المعتبرة على هذا المعنى، وعندما نسترسل بالموضوع ونتحدث عن شؤون القلب سيتضح تماماً هذا المعنى بشكل علمي دقيق، لأنّ هناك علاقة متلازمة بين القلب الذي تنطبع فيه المعارف وبين العلم وبين السلوك، من هنا فليس هناك تناقضٌ أو تضاربٌ بين أن نقول بأنّ الإنسان سيحاسب في يوم الجزاء على أعماله أو على مقدار عقله وعلمه، لأنّ سلوك الإنسان ينطبع في الذهن على شكل اعتقادات ثابتة، فمن كان سلوكه سيئاً من المحتم فإن اعتقاداته وموازين قلبه هي أيضاً سيئة بنفس درجة سوء سلوكه، وقد يأتي التفصيل حول ذلك فيما بعد.

إلاّ من اللازم أن نعرفه بأن العلوم هي موازين أودعها الله سبحانه وتعالى في مخلوقاته وفي الكون، وهناك تعلقاً وارتباطاً بين كل واحدة من هذه القوانين ومن البديهي أن يجد كل قانون له تفسيراً في غيره، كما أنّ كل مخلوق ينطوي على معنى وعلى صفةٍ هي في غيره، لذلك قيل: إن من أهم

العمليات التي يقوم بها العقل هي الربط بين الحقائق القائمة لإستنتاج حقيقة ممتازة.

ولمّا ينطبع العلم في قلب الإنسان فإنّه سيظهر على لسانه وسلوكه، فلذلك يمكن اختبار علم المرء من أقواله وتصرفاته. ولقد حثّ الدين الشريف على تعلّم المعارف الساميّة التي تفتح عين الإنسان على حقائق هذا العالم وأن لا يكتفي الطالب بالسعي وراء الشهادة الجامعية ويعزف عن طلب العلوم الحقيقية التي هي بمثابة النور الذي يكشف طريق الحق والعدل والصراط السوي للإنسان.

ويقول السيد الشيرازي (دام ظله) في موضوع العلم: كما إنّ العقل مفرق بين الحق والباطل والصحيح والسقيم وما اشبه ذلك رؤية أو حكماً أو كليهما حسب اختلاف المباني، كذلك العلم، فهو نور من الله سبحانه وتعالى، به يبصر الإنسان معنويات الأشياء وما أشبه، فإنّ النور الظاهري يسبب إدراك الإنسان بحاسة البصر لأشياء لا بحقيقتها بل بظواهرها، أما نور العلم الذي هو في داخل الإنسان فيدرك الإنسان به الأشياء بقدر تمكّنه من إدراكها.

واطلاق النور على القرآن والكتاب والنبي ﷺ والإمام عليه السلام وما أشبه ذلك إمّا من باب الإطلاق على السبب أو المبالغة من باب (زيد عدل) أو ما أشبه[1].

وفي الروايات إشارة إلى هذه الجهة:

فعن أبي حمزة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن العلم ما هو أعلم يتعلّمه العالم من أفواه الرجال؟ أو في كتاب عندكم تقرؤونه فتعلمون منه؟ فقال عليه السلام: الأمر أعظم من ذلك وأجلّ، أما سمعت قول الله تبارك وتعالى: ﴿**وكذلك**

---

(١) الفقه العقائد: ١٥٩.

أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾[١]، ثم قال عليه السلام: وأي شيء يقول صاحبكم في هذهِ الآية؟ فقلت: لا أدري جعلت فداك مايقولون؟ قال: بلى، قد كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان حتى بعث الله إليه تلك الروح التي يعطيها الله تعالى من يشاء، فإذا أعطاها الله عبداً علّمه الفهم والعلم[٢].

ويقول السيد الشيرازي (دام ظله): الظاهر أن المراد بالآية المباركة ﴿ *ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان* ﴾ ذكر لطبيعة الممكن، فإنّ الممكن بطبيعته لا يعلم شيئاً، كما قال سبحانه: ﴿ *والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً* ﴾[٣] ولا ينافي ذلك أن الرسول ﷺ أوحى الله سبحانه وتعالى إليه العلم والحكمة والنبوة وما أشبه ذلك من العلم اللدني كما لا يخفى[٤].

إنّ العلوم الحقيقية هي التي ترشد الإنسان لحياة واعدة وسعيدة وتُزيح عن قلبه حُجب الجهل والضلالة، وتبني شخصه على أساسٍ قويم، وهنا يكون العلم شرفٌ للمرء وغِنى له وإن كان فقيراً، فمنزلة العلماء عظيمة بين الناس لكبر مقامهم وما فُضلّوا به عن سائر الخلق بالعلم والمعرفة، وكفى بالعلم فخراً أن يلصق الجُهال أنفسهم به.

وتحصيل العلم يتم بثلاثة طرق هي:

١ ـ الإكتسابية: وهي أن يتعلم المرء المعارف من المدرسة أو من الأسرة أو من الكتاب والسنة.

٢ ـ بالتجربة: وهو أن يكتشف قانوناً فيزيائياً أو كيميائياً، من خلال القيام بتجربة داخل المختبر.

---

(١) سورة الشورى: ٥٢.

(٢) بصائر الدرجات: ٤٨٠، باب ما يسأل العالم عن العلم الذي يحدث به.

(٣) سورة النحل: ٧٨.

(٤) راجع كتاب الفقه العقائد للإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي (دام ظله) ١٥٩ ـ ١٦٠.

٣ ـ بالتفكر: وهي الطريقة الاستبطانية في الربط ما بين الأفكار والمعارف الموجودة في الذهن واستخلاص الحقيقة النهائية منها.

القلب مسكن العقل

العقل كما ذكرنا أنّه نور روحاني موضعه الدماغ ومسكنه القلب[1]، وهو الكاشف لظلمة الجهل والمُظهر للنصف الآخر من الحقيقة الخافية، فقد خُلق هذا الكون على الصورة الظاهرة والصورة الخافية، وقد جاء في الذكر الحكيم ﴿ ***يعلمون ظاهراً من الحياة الدُّنيا وهم عن الآخرة هم غافلون*** ﴾[2] فالظاهر يقود للمخفي، والواضح يهدي للغامض، والرابط بينهما هو العقل البشري، وهو النور الذي يقرء رموز ما خفي من الحياة الثانية، ويفك شفرتها ليصل إلى الحقائق العلمية، والناس على مختلف مشاربهم ماديين وروحانيين ـ حسيين وعقليين يجدون السعي لإكتشاف تلك الحقائق.

وعندما نعرض العقل على القرآن الكريم لا نجد شيئاً يذكرهُ القرآن وإسمهُ العقل وإنّما يجري الحديث عن عملية عقلية تحدث لدى الإنسان عند مشاهداته للمنظورات وإحساسه بالمحسوسات، ويتكون العقل هكذا وبالتدريج حتى يصل إلى مستويات عالية من العلم والإدراك، ونجد القرآن الكريم يصف هذه العملية (بإدراك الايات الكونيّة) فإننا نقرء في القرآن العظيم ﴿ ***كذلك يحي الله الموتى ويُريكم آياته لعلّكم تعقلون*** ﴾[3] أو قوله تعالى:

---

(١) لا نقصد بالقلب هو ذلك العضو الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر وهو الذي يضخ الدم إلى سائر أعضاء البدن فذاك نطلق عليه بالفؤاد.

(٢) سورة الروم: ٧.

(٣) سورة البقرة: ٧٣.

﴿كذلك يُبيّن الله لكم آياته لعلّكم تعقلون﴾[١] أو ﴿وتلك الأمثال نضربها للنّاس وما يعقلها إلا العالمون﴾[٢] والكثير غيرها من الآيات التي تحث الإنسان على التبصر في حقائق الوجود واتباع الشواهد الواقعية للإهتداء إلى الحقائق العلمية، فالله الحكيم لا يريد لهذا الإنسان الذي كرمهُ بالعقل أن يأخذ الدين عن أبويه دون وعي أو دراية بل عن تبصر وفهم. ويعتبر القرآن الكريم المصدر الرئيسي الذي يموّن الفكر بالمعلومات هي الحواس، فهي تمثل أجهزة الإرتباط الأولى بين قلب الإنسان والعالم الخارجي ونقرء في القرآن المجيد: ﴿إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾[٣] أو ﴿ثمّ سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السّمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾[٤] والنتيجة المستخلصة من العملية العقلية الصائبة تكون علماً وهذا هو العقل المقصود في تعريف الرسول محمد ﷺ عندما يصفه بأنه عقالٌ[٥] من الجهل، ولا يكون العقل كذلك إلاّ مع العلم، فكم رجلٍ ورجل يوصمون بالجهل على الرغم من صحة بدنهم وسلامة أدمغتهم وامتلاكهم لوسائل التفكير، فغاية العقل هي كسب العلم بالموجودات.

ولاحظنا من خلال الواقع ومن الشواهد القرآنية والسُنة الشريفة أن العقل ينحصر عمله في تمرين الإنسان بالفكر والعمليات المنطقية ولكنه لا يتخذ دور الزعامة والرئاسة بالنسبة للإنسان، فلو كان العقل حاكماً لما بقي جاهل على وجه الأرض، ولو كان العقل رئيساً لَما صدرت من الإنسان قرارات غير

---

(١) سورة البقرة: ٢٤٢.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٣.

(٣) سورة ق: ٣٧.

(٤) سورة السجدة: ٩.

(٥) العقال: حبلٌ يشد به البعير في وسط ذراعه.

صائبة ولو كان العقل زعيماً لما صدر من الإنسان فعلٌ مشين، هذا يقودنا إلى البحث عن جهاز آخر هو الذي يُدير شؤون الإنسان ويعتلج فيه الحق والباطل، ويتذبذب بين الخير والشر ويتقلب بين الجهل والعلم، من هنا يأتي القرآن الكريم ويخبرنا بوجود جهاز عظيم في الإنسان ألاّ وهو القلب.

وهو الجهاز القيادي في الإنسان إذ يكون العقل في خدمته ويأخذ موقع الصدارة فيه، وهو يحتوي على الإدراكات الحسيّة والشعورية والإنطباعات النفسية، وتوجيهات العقل بالنسبة إليه غير ملزمة وإنّما هي مجرد إرشادية، وبهذا الشكل فقط يمكننا تفسير القرارات غير المنطقية التي يتخذها الإنسان، أو السلوك غير السوي الذي يصدر منه، أو الأقوال البذيئة التي تأتي على لسانه، والتي هي متناقضة تماماً مع العقل، فإذا كان العقل هو الرئيس فكيف يدع اللسان ينطق بتلك الكلمات البذيئة؟ ونحن نعرف العقل بالنزاهة والنقاء وأنّه يمثل الخير كلّه كما نجد صفته في القرآن الكريم والسُنة الشريفة، وبالعكس نجد ذماً في القرآن للقلوب المريضة أو القلوب التي طُبعت بالرين.

وخيرُ ما وصف القلب هو الإمام علي(عليه السلام) في حديث مطوّل بيّن فيه الإمام أن القلب موضعٍ لإلتقاء المتناقضات شيءٌ من الخير وشيءٌ من الشر، شيءٌ من الفرح وشيءٌ من الحزن، شيءٌ من الكرم وشيءٌ من البخل وهذا هو طبع الآدمي.

لنقرء ما جاء في حديث الإمام(عليه السلام): «أعجب مافي الإنسان قلبه وله مواد من الحكمة، وأضداد من خلافها، فإنّ سنح له الرجاء أذلّه الطمع، و إن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن ملكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتدّ به الغيظ، وإن سعد بالرضا نسى التحفّظ وإن ناله الخوف شغله الحذر، وإن اتسع له الأمن استلبته الغرّة، وإن جدّدت له النعمة أخذته العزّة،

وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع، وإن استفاد مالاً أطغاه الغنى، وإن عضّته فاقة شغله البلاء، وإن جهده الجوع قعد به الضعف، وإن أفرط في الشبع كظّته البطنة، فكلّ تقصير به مُضرّ، وكلّ إفراط به مفسد»[١].

قال المجلسي تتنْ في تفسير قوله سبحانه: ﴿ **نـزَلَ بـه الـروح الأمـين علـى قلبك** ﴾[٢] فيه قولان:

الأوّل: أنه إنما قال: (على قلبك) وإن كان إنّما أنزله عليه ليؤكّد به أن ذلك المنزل محفوظ، والمرسول متمكن في قلبه لا يجوز عليه التغيّر، فيوثق عليه بالإنذار الواقع مع الذي بيّن الله تعالى أنه المقصود ولذلك قال: (لتكون من المنذرين).

الثاني: أنَّ القلب هو المخاطب في الحقيقية لأنّه موضع التميز والاختيار، وأمّا سائر الأعضاء فمسخرة له والدليل عليه القرآن والحديث والمعقول، أمّا القرآن فآيات: إحداها: في سورة البقرة ﴿ **نزّله على قلبك** ﴾[٣]، وقال: ههنا ﴿ **نزل به الروح الأمين على قلبك** ﴾ وقال: ﴿ **إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب** ﴾[٤] وثانيها: أن استحقاق الجزاء ليس إلاّ على ما في القلب من المساعي، فقال ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم** ﴾[٥] وقال: ﴿ **لن ينال لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم** ﴾[٦]. والتقوى في القلب، لأنه تعالى قال: ﴿ **أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى** ﴾[٧] وقال تعالى: ﴿ **وحصّل ما في**

---

(١) بحار الأنوار: ٦٧/ ٥٢ عن علل الشرائع: ١/ ١٠٣.

(٢) سورة الشعراء: ١٩٣.

(٣) سورة البقرة: ٩٧.

(٤) سورة ق: ٣٧.

(٥) سورة البقرة: ٢٢٥.

(٦) سورة الحج: ٣٧.

(٧) سورة الحجرات: ٣.

الصدور﴾[١]، وثالثها: قوله حكاية عن أهل النار ﴿*لو كنّا نسمع او نعقل ما كنّا في أصحاب السعير*﴾[٢] ومعلوم أن العقل في القلب والسمع منفذ إليه.

وقال: ﴿*إنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسؤولاً*﴾[٣] ومعلوم أن السمع والبصر لا يستفاد منهما إلاّ ما يؤديانه إلى القلب، فكان السؤال عنهما في الحقيقة سؤالاً عن القلب وقال: ﴿*يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور*﴾[٤] ولم تخن الأعين إلاّ بما تضمر القلوب عند التحديق بها، ورابعها قوله: ﴿*وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون*﴾[٥] فخص هذه الثلاثة بإلزام الحجة واستدعاء الشكر عليها، وقد قلنا: لا طائل في السمع والأبصار إلاّ بما يؤديانه إلى القلوب ليكون القلب هو القاضي والمتحكم عليه، وقال تعالى: ﴿*ولقد مكّنّاهم فيما إن مكّنّاكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء*﴾[٦]. فجعل هذه الثلاثة تمام ما الزمهم من حجة، والمقصود من ذلك هو الفؤاد القاضي فيما يؤدي إليه السمع والبصر. وأما الحديث فما روى النعمان بن بشير قال: سمعته ﷺ يقول: ألاَ وإنّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألاَ وهي القلب[٧].

وأما المعقول فوجوه: أحدها: أنّ القلب إذا غشي عليه فلو قطع سائر الأعضاء لم يحصل الشعور به، وإذا أفاق القلب فإنّه يشعر بجميع ما ينزل

---

(١) سورة العاديات: ١٠.
(٢) سورة الملك: ١٠.
(٣) سورة الإسراء: ٣٦.
(٤) سورة غافر: ٩.
(٥) سورة السجدة: ١٩.
(٦) سورة الأحقاف: ٢٦.
(٧) بحار الأنوار: ٥٨/ ٢٣.

بالأعضاء من الآفات، فدلّ ذلك على أنّ الأعضاء تبع القلب، ولذلك فإنّ القلب إذا فرح أو حزن فإنّه يتغير حال الأعضاء عند ذلك. وكذا القول في سائر الأعضاء النفسانية.

وثانيها: أنّ القلب منبع المشيئات الباعثة على الأفعال الصادرة من سائر الأعضاء، وإذا كانت المشيئات مبادئ الأفعال ومنبعها هو القلب فالآمر المطلق هو القلب.

وثالثها: أنّ معدن العقل هو القلب وإذا كان كذلك كان الأمر المطلق هو القلب، أما المقدمة الأولى ففيها النزاع، فإن طائفة من القدماء ذهبوا إلى أن معدن العقل هو الدماغ، والذي يدلّ على قولنا وجوه:

الأوّل: قوله تعالى: ﴿ ***أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها*** ﴾[1].

وقوله: ﴿ ***لهم قلوب لا يفقهون بها*** ﴾[2] وقوله: ﴿ ***إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب*** ﴾[3]. أي عقل، أطلق على العقل لما أنه معدن له.

الثاني: أنه تعالى أضاف أضداد العقل إلى القلب، فقال: ﴿ ***في قلوبهم مرض*** ﴾[4] ﴿ ***ختم الله على قلوبهم*** ﴾[5]. ﴿ ***وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم*** ﴾[6] ﴿ ***يحذر المنافقون أن تنزّل عليهم سورة تنبّئهم بما في قلوبهم*** ﴾[7] ﴿ ***يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم*** ﴾[8] ﴿ ***كلا بل ران على قلوبهم*** ﴾[1] ﴿ ***أفلا***

---

(١) سورة الحج: ٤٦.

(٢) سورة الأعراف: ١٧٩.

(٣) سورة ق: ٣٧.

(٤) سورة البقرة: ١٠.

(٥) سورة البقرة: ٧.

(٦) سورة النساء: ١٥٥.

(٧) سورة التوبة: ٦٤.

(٨) سورة آل عمران: ١٦٧.

يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[٢] ﴿ *فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور*﴾[٣] فدلّت هذه الآيات على أن موضع الجهل والغفلة هو القلب، فوجب أن يكون موضع العقل والفهم أيضاً هو القلب.

الثالث: أنّا إذا جربنا أنفسنا وجدنا علومنا حاصلة في ناحية القلب، ولذلك فإن الواحد منا إذا أمعن في الفكر والرويّة أحسّ من قلبه ضيقاً وضجراً حتى كأنّه يتألم بذلك، وكل ذلك يدلّ على أنّ موضع العقل هو القلب، وإذا ثبت ذلك وجب أن يكون المكلف هو القلب لأنّ التكليف مشروط بالعقل والفهم.

الرابع: أن القلب هو أولّ الأعضاء تكوناً وآخرها موتاً، وقد ثبت ذلك بالتشريح ولأنّه متمكن في الصدر الذي هو الأوسط في الجسد، ومن شأن الملوك المحتاجين إلى الخدم أن يكونوا في وسط المملكة. لتكتنفهم الحواشي من الجوانب ليكونوا أبعد من الآفات. واحتج من قال: العقل في الدماغ. بوجوه:

أحدها: أن الحواس التي هي الآلات للإدراك نافذة إلى الدماغ دون القلب، وثانيها: أن الأعضاء التي هي آلات الحركات الإختيارية نافذة من الدماغ دون القلب، وثالثها: أن الآفة إذا دخلت في الدماغ اختّل العقل.

ورابعها: أن في العرف كلّ من أريد وصفه بقلة العقل، يقال: إنه خفيف الدماغ، خفيف العقل.

وخامسها: أنّ العقل أشرف فيكون مكانها أشرف والأعلى هو الأشرف، وذلك هو الدماغ لا القلب فوجب أن يكون محل العقل الدماغ لا القلب.

---

(١) سورة المطففين: ١٤.

(٢) سورة محمد: ٢٤.

(٣) سورة الحج: ٤٦.

والجواب عن الأول: لِم لا يجوز أن يقال: الحواس تؤدي آثارها إلى الدماغ ثم إن الدماغ يؤدي تلك الآثار إلى القلب، والدماغ آلة قريبة للقلب والحواس آلة بعيدة، والحس يخدم الدماغ، والدماغ يخدم القلب؟ وتحقيقه أنّا ندرك من أنفسنا أنا إذا عقلنا أنّ الأمر الفلاني يجب فعله أو يجب تركه، فإنّ الأعضاء تتحرك عند ذلك ونحن عند التعقلات نحس من جانب الدماغ.

وعن الثاني: أنّه لا يبعد أن يتأدى الأثر من القلب إلى الدماغ، ثم الدماغ يحرك الأعضاء بواسطة الأعصاب النابتة منه.

وعن الثالث: لا يبعد أن تكون سلامة الدماغ شرطاً لوصول تأثير القلب إلى سائر الأعضاء.

وعن الرابع: أنّ ذلك العرف إنّما كان لأن القلب إنّما يعتدل مزاجه بما يستمده من الدماغ من برودته، فإذا لحق الدماغ خروج عن الاعتدال خرج القلب عن الاعتدال أيضاً، إما لزيادة حرارته عن القدر الواجب، أو لنقصان حرارته عن ذلك القدر، فحينئذ يختل العقل.

وعن الخامس: أنه لو صح ما قالوه لوجب أن يكون موضع القلب هو القحف، ولما بطل ذلك ثبت فساد قولهم. (انتهى)[1].

من خلال البحث نفهم أن القلب متقلب بين حالات مختلفة وبين أوضاع متناقضة وتوجيهات العقل بالنسبة إليه إرشادية، ولذا نجد أن الأئمة من أهل البيت ﷺ يصفون العقل بأنّه خير صديق للإنسان والصديق هو الناصح وليس الآمر، فلنقرء طائفةً من هذه الأحاديث الواردة بهذا الشأن:

فعن الإمام علي ﷺ قال: «صديق كل إنسان عقله، وعدوّه جهله، والعقول ذخائر، والأعمال كنوز»[1] وعنه ﷺ أيضاً: «العقل صديق مقطوع،

---

(١) البحار: ٥٨ / ٢٢ - ٢٦.

الهوى عدو متبوع»(٢) وعن الإمام علي(ع): «العقل خليل المرء»(٣) وعن الإمام الصادق(ع) «العقل دليل المؤمن»(٤) وعن الإمام علي(ع) أيضاً: «لا يغش العقل من انتصحه»(٥) ومن هذه الأحاديث الشريفة يتبين أن لا سلطة للعقل على الإنسان وإنّما هو كالصديق أو كالدليل المرشد لطريق الحق والخير. فمن صاحب القرار؟.

إنّ الجهاز الذي يأخذ دور الرئاسة ويصدر القرارات المصيرية بالنسبة للإنسان هو القلب الذي يعدُ أيضاً مركزاً للطباع الفطرية مثل اللين والقسوة، والألفة، والضغينة، والسكينة، والخشية، والخشوع، والنكران.

وقد بيّن الإمام علي(ع) في حديثه المطول حول الخصائص التسلطية لهذه الطباع على مقدرات القلب، ولم يستبعد الإمام في آخر حديثه أن يكون القلب هو مركزاً للأمراض النفسية إن فلتت من يده زمام القيادة لصالح الجهل والهوى.

والقلب أيضاً مركزٌ للاعتقادات الراسخة، لا فرق أن يكون منبعها العقل أو الجهل، فإن كان المرء عاقلاً وعالماً اتبع القلب العقل فكان رئيسه، وإن لم يكن كذلك فهو يتّبع الجهل وكان الهوى رئيسه. وأمّا بالنسبة للإعتقادات الراسخة فهي تصورات مكتسبة من الواقع أو من التجربة في الحياة، وهي ترسخ في القلب مع مرور الأيام وتمثل الشخصية الفكرية والإعتقادية للإنسان، فلكل فرد من أفراد البشر نظرة تجاه الأشياء والأفكار والحقائق،

---

(١) بحار الأنوار: ٧٥/ ٩٢.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٢٣/ ح ٣٧٦.

(٣) بحار الأنوار: ٦٨/ ٤١٩.

(٤) الكافي: ١ / ٢٥.

(٥) بحار الأنوار: ١ / ٩٥.

وعندما نسأله عن رأيه بالدين أو بالعلم أو بالرأسمالية أو بالشيوعية، فإنه يجيبك من دون تفكير ويدلي برأيه بهذه القضية من دون روية، وذلك لأنه يحتفظ باعتقاد راسخ في قلبه تجاهها ولا يشعر عند ذلك بحاجة إلى القيام بعملية عقليّة واستدلالية معقّدة، لأن ذلك الاعتقاد هو بالأساس حصيلة عملية فكريّة قام بها الإنسان في وقت مضى وترسخ عبر الأيام في قلبه، وفي القرآن الكريم نجد وصفاً دقيقاً لهذه الحالة إذ يطلق عليها كلمات مثل (الطبع - والختم) ونقرء في القرآن الكريم هذه الآيات الكريمة: ﴿ ***وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة*** ﴾[1] أو الآية الشريفة: ﴿ ***كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين*** ﴾[2] أو الآية الأخرى: ﴿ ***فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور*** ﴾[3] والكثير غيرها حتى يتصور المرء وكأنّ الله سبحانه وتعالى يفرض الكفر على قلوب المنكرين ويجبرهم على اتّباع غير طريق الهُدى وحاشا لله عن ظلم البشر، فهو الرحيم بعباده وما بعثه للأنبياء والرسالات إلاّ بغرض هدايتهم، ولكنّ طبع القلوب، وختم الأسماع، وغشاوة الأبصار، كانت نتيجة طبيعية لاعتقاداتهم الراسخة والكائنة في قلوبهم والنابعة من الجهل، فهم كانوا يصرّون عقولهم عن الحق بأفكارهم الراسخة التي ما كانت تدع مجالاً لنفوذ نور الحق إليها.

ومما يتبين من الآيات الآنفة الذكر أنّ للقلب عينٌ من نور روحانية ترى الأشياء على حقيقتها من دون غشاوة، وأوّل شيءٍ يراه الإنسان عندما تتفتح بصيرته أن يرى عمله له أم عليه. كما قال الإمام علي عليه السلام: «فالناظر بالقلب، العامل بالبصر، يكون مبتدأ عمله أن يعلم: أعمله عليه أم له! فإن كان له

---

(١) سورة الجاثية: ٢٣.

(٢) سورة الأعراف: ١٠١.

(٣) سورة الحج: ٤٦.

مضى فيه، وإن كان عليه وقف عنه...»[١]. ولن تتوقف عين البصيرة إلى هذا الحد بل ترقى إلى الأعلى لتنكشف لها الكثير من الحجب، ومنها الحجاب الذي يمنع الإنسان من التبصر في القرآن الكريم والله العزيز يقول ﴿***أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها***﴾[٢] فمع سلاسة الأسلوب القرآني وبساطة معانيه إلاّ أن المتدبرين في القرآن قليل، والسبب هي الغشاوة المضروبة على قلب الإنسان وبصيرته.

وهناك ارتباط جوهري بين طباع القلب وسلوك الإنسان، فإنّ أي تصرف يقدم عليه المرء ينتقش على القلب ولا يزول بسهولة، فإذا كان الفعل حسناً ترك انطباعاً حسناً لديه وزاد في إنشراحه، وإنّ كان سيئاً فإنه أيضاً سيترك أثراً سيئاً مماثلاً، وتراكم الأفعال الحسنة تطبع القلب بذلك الفعل الحسن، حتى يعتاد المرء على فعله وكأنّه شيئاً من سجيته، وكذا الحال بالنسبة للفعل السيء، ولذلك فقد حذر الأنبياء والصالحون معاشر المؤمنين من اقتراف الذنوب ليس لآثارها الآنية فحسب وإنّما بسبب عواقبها الوخيمة على قلب الإنسان، لأن المداومة عليها سيؤدي إلى طبع القلب عليها وبعد ذلك يتعذر الخلاص منها بسهولة.

ونقرء في أحاديث الرسولﷺ: «أنّ المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منه، وإن ازداد زادت، فذلك الران الذي ذكره الله تعالى في كتابه: ﴿***كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون***﴾»[٣][٤] وإن من نتائج المداومة على الأفعال غير السويّة نزوع الإنسان

---

(١) نهج البلاغة: ١٥٤/ ٢١٦.

(٢) سورة محمد: ٢٤.

(٣) سورة المطففين: ١٤.

(٤) نور الثقلين: ٥/ ٥٣٢.

إلى تبريرها بشكل نظري، وتتوارد إلى ذهنه أفكاراً هي من صنع خياله لتبرر تلك الأفعال القبيحة، وبمرور الأيّام ولكثرة الأخطاء السلوكية والنظرية، تترسخ لدى المرء قناعات خاطئة هي السبب الرئيسي لمرض قلبه.

الخواطر الملهمة

ولكن قبل هذا وذاك فإنّ هناك محفزين رئيسيين للسلوك ينبعان من داخل الإنسان وهما نوعاً من الخواطر المُلهمة، أحدهما: من جهة العقل وهو ربّاني، والآخر: من جهة الجهل وهو شيطاني، فالأوّل يسمّى إلهاماً والثاني يُطلق عليه وسواساً، فأمّا الذي من جهة العقل فهو يحث القلب على فعل الخيّرات وأمّا الذي من جانب الجهل فهو يحثّ على فعل السيئات، والقلب سمي قلباً لتقلبه بين حالٍ وحال، فهو مرّة يميل نحو الخاطر العقلي الربّاني وهو من جهة ثانية يميل نحو خاطر الجهل الشيطاني، فإذا كان الإنسان متبعاً لخاطر عقله فإن العقل سيأخذ زمام القلب وهو سيدير شؤون الإنسان، أما إذا اتبع وسواس جهله فإن الشيطان سيتحكم بأمور الإنسان وهو الذي سيقوده إلى حيثما شاء.

وواحدة من الأمور المعقدة التي عجزت مدارس علم النفس عن الإجابة عليها هي: (مصدر الخير والشر في الإنسان) فنحن المسلمين نعتقد بأن الإنسان يولد على الفطرة مطهراً من دنس الأفعال الشريرة، وأن صفحة ذهن الطفل هي ورقة بيضاء نقيّة من كلّ عوامل الشرّ والسلبية، ولكن هذه الصفحة البيضاء تتحول إلى سوداء مظلمة بعد ما تتغلغل الخواطر المظلمة التي منبعها الهوى والشيطان في قلب الإنسان وتسيطر على مقدراته، إننا لو أجرينا استبياناً عن المشاكل والنزاعات التي تحدث بين البشر ومنها الخلافات الزوجية لوجدنا أن منبعها الهوى والشيطان، ودور الفعل الشيطاني هنا هو تحفيز الهوى على

التعبير عن نفسه بشكل غير صائب. وللإستدلال على ذلك نتساءل: الإنسان الذي يتمتع بالإدراك العقلي كيف يدع الهوى يغلبه ويسيطر عليه وينكّد عليه عيشته؟ فإذا لم يكن هناك تحفيز من قبل الشيطان على اتّباع الهوى فإن الإنسان يستطيع وبما يمتلك من قدرات عقليّة على التحكم بانفعالاته النفسية وضبط الغضب في داخله من الإنفجار، وذلك لضمان حياة عائلية سعيدة، فالإنسان هنا يمتلك كل المسوغات العقليّة لضبط انفعالاته الطائشة، فلماذا مع علمه بمخاطر انفجار تلك الإنفعالات على حياته العائلية يفشل في ضبط أعصابه؟ أليس في ذلك دليلاً كافياً على وجود قوةٍ خفية تحفز إنفعال الغضب على الإنفجار في وقت الأزمة؟

ولكي نستوعب بشكل جيد حقيقة المحفزات الداخلية في الإنسان أو ما أطلقنا عليها بالخواطر علينا أيضاً أن نعرف طبيعة عملها وتأثيرها على النفس البشرية، وأول عملٍ تقوم به هذه الخواطر هو تحريك الرغبة لدى الإنسان في فعل الخير والشر، ألم تنتبه يوماً وكثيراً ما يحدث عندما تشاهدُ متسولاً يطرق مسامعك نداءً داخلي يطالبك بتقديم المساعدة إليه؟ من أين يأتي هذا النداء؟ هل منبعه الذات؟ وإذا كان كذلك فلماذا لا تصغي إلى نداء ذاتك في بعض الأحيان وتتهرب منه فلا تقدم أي عونٍ لذلك الفقير المسكين؟ من المؤكد يزاحم تفكيرك نداءٌ آخر ويقول لك: لا تساعدهُ إنّه غير مستحقٍ لها فإذا كان نداء تقديم العون والمساعدة هو نداء ذاتك، فمن أين جاء النداء الثاني المناقض له والذي يمنعك من تقديم المساعدة، من هنا يتبين أنه لا النداء الأول هو نداء الذات ولا الثاني، فالأول منبعهُ العقل وعمله تقديم النُصح والرُشد، والنداء الثاني هو منبعه الجهل والشيطان، والقلب الذي يمثل الذات البشرية يكون عادةً بين مفترق الطريقين، فإما يميل نحو العقل أو نحو الجهل كما بيّنا ذلك في تفصيل سابق.

ونستطيع أن نورد مثالاً آخراً على كيفية عمل الخواطر لتوضيح أكثر للصورة: لو وجدت نفسك في وضعٍ وأنت تراقبُ طفلاً يتعرض للسقوط في منحدرة أو يواجه مشكلة ما سيثور أمامك نداءٌ داخلي يستحثك على نجدته، وكذا الحال إذا شاهدت غريقٌ يطلب النجدة وبغض النظر عن موقفك تجاه الحدث فإنك ستسمع نداءاً وجدانياً يدعوك لإنقاذه.

فهذا هو الخاطر الذي يستحث الرغبة على القيام بفعلٍ معين، وكذا الحال بالنسبة للوساوس الشريرة التي مصدرها الجهل والشيطان فهي أيضاً تحض الرغبةُ على الفعل غير السوي.

وفي المرحلة الثانية تستثير الرغبة عزيمة المرء على القيام بالفعل، والعزيمة لأنّها تأتي بعد الغفلة فلا بدّ من مثير يثيرها ويُأجج حرارتها، والرغبة في فعل الخير أو السوء هنّ المثيرات للعزيمة على الجدّ في الطلب، وكلّما اشتدت الرغبة قويت العزيمة واتقدت البصيرة، فالمرء بعد ذلك يعرف تمام المعرفة طبيعة العمل الذي يقدمُ عليه وآثاره الإيجابية والسلبية، فمن يعزم على الجهاد في سبيل الله مثلاً أثاره دافع حفظ الدين وتكونت لديه بصيرةٌ بعاقبة أمره كأن تكون الشهادة أو الاعتقال أو غير ذلك، فإذا كان دافعهُ قوياً في ذلك فإن عزيمته ستقوى أيضاً على الفعل وإن أسفر عن أسوء النتائج، وتسعى الحكومات جاهدةً إلى تعزيز الدوافع لدى جنودها من أجل تقوية عزيمتهم في القتال، ولكن حين يحمى الوطيس سيكتشف الجنود عند تقويم الدوافع بالعواقب أن قتالهم غير مبرر وأن دوافعهم في القتال لا توازي بنفس الدرجة العاقبة التي ستكون القتل، ولهذا السبب تجدهم يفرّون ويتركون المعركة وراء ظهورهم.

والعزيمة تحرّك النيّة على أداء العمل وهي المرحلة الثالثة من مراحل توارد الخواطر، فعندما ينوي المرء على القيام بالفعل فإنّه قد أعدّ نفسه وهيأ بدنه وحسم أمره ونازع شكله، وعارض ما يناقض نيته فإن كانت النية صادرة

من جانب وسواس الهوى والجهل فهو قد عارض العقل بنيته تلك والعكس صحيحٌ أيضاً.

وفي المرحلة الرابعة تحرِّك النية الأعضاء الحسيّة لتنفيذ المطلوب وهي بالطبع مطيعة ليس لديها القدرة على المعارضة أو القبول، وعلى خلاف ما أعطته مدارس علم النفس التجريبية من إنطباع وأهمية للأعضاء الحسيّة، فإننا نجد في الواقع أن هذه الأعضاء ليس لديها عمل غير إطاعة أوامر القوى المدركة لا أكثر ولا أقل.

وبعد معرفة طبيعة إنفعال الخواطر مع الإدراك والإرادة، نعود لنبين أنَّ هذه الخواطر بشقيها الإلهامي والوسواسي تبرر وجودها بحاجات فيزيولوجية وأخرى روحية كامنة في النفس الإنسانية، لذلك يتعذر على الإنسان لأولَ وهلة اكتشاف مصدر هذا الخاطر، هل هو من جانب الإلهام أم من جانب الوسواس؟ وذلك بسبب تقمص الوسواسي منه صفة الشخصية العاقلة، وأن هناك مبرراً منطقياً لحضوره أمام الوجدان، والمبرر هو وجود غريزة كامنة جنسية أو غيرها يجب تلبية حاجتها، وهكذا يصوّر الخاطر الوسواسي للإنسان أنّه يرتكب عملاً مخالفاً للعقل والمنطق إذا لم يلبي حاجة الغريزة الجنسية!.

وبهذا الشكل نجد أن حضور الخاطر الوسواسي أمام عدسات القلب قد تم تبريرهُ بحاجات فيزيولوجية وأخرى روحية مثل حب الإستعلاء وهي من طبع الروح، فإنَّ الخاطر الوسواسي الذي يدعو المرء إلى التجريح بشخصية الآخرين إنّما هو نابع من طبع الروح أو غريزتها في الاستعلاء عليهم.

وأمّا بالنسبة إلى الخواطر الإلهامية فهي أيضاً تستند إلى حاجاتٍ عقلية كامنة في النفس البشرية، مثل الدعوة إلى مساعدة الآخرين هي نابعة من حاجة عقلية في ضرورة تنمية طبع الرأفة لدى الإنسان، فإنَّ تنمية مثل هذه

الرغبات من شأنه تكوين وحدة نفسية متراصة ومتوازنة تستكمل كل مفرداتها بدقةٍ متناهية وتؤدي في النهاية إلى الصحّة النفسية.

ونجد أن نتائج الصراع الذي يحدث على قلب الإنسان من قبل خواطر الإلهام وخواطر الوسواس، إذا لم تكن متوازنة فإنّها بالطبع ستسفر عن عواقب وخيمة على الوضع النفسي للإنسان، وذلك لأن تغلغل أحد عناصر الخاطر الوسواسي وأختلاطه بالمفاهيم العقلية سيؤدي إلى إختلال في المنظومة النفسية التي تحدثنا عنها من قبل، ولنضرب مثلاً على ذلك:

إنّ النداء الذي يوجههُ الخاطر الوسواسي للمرء بأن يتخذ سلوكاً استعلائياً تجاه الناس يواجه معارضةً من صفةٍ عقليةٍ وهي التواضع، فإذا أقدم على ذلك السلوك فإنه سيثلم ثُلمةً من صفة التواضع التي في داخله، وإذا استمر على نفس السلوك لفترة سينطبع القلب بصفة التكبر التي أخذت مكان صفة التواضع، ونعود ونقول أن الخواطر الإلهاميّة والوسواسية تبرر ظهورها أمام صفحة القلب بمجموعة من المسوغات الفيزيولوجية والعقلية.

القلوب ثلاثة

ومثلما بيّنا في فصلٍ سابق أن النفوس تمر بثلاث حالات فإنّ هذا الوصف ينطبق أيضاً على حالات القلب، باعتبار أن القلب هو المركز الرئيسي في البدن وتجتمع فيه جميع القوى الحسيّة والروحيّة والعقلية، وكذلك ما يتعرض من إلهامٍ ربّاني ووسواس شيطاني، فإنّه وفق هذه المعطيات تتقلب من حال إلى حال وتتغير بين آن وآن، وشاهد ذلك هي القرارات المتناقضة التي يتّخذها الإنسان، و التي تتناقض في أحيان مع سلوكه وأقواله، وحتى مع اعتقاداته المتقلبة بين حينٍ وآخر.

بالطبع أن هذه التغييرات والتقلبات ليست حتمية تاريخية مفروضةً على الإنسان، ووقوعها من حيث الزمان متفاوت، فبينما الكلام هو الأكثر عرضة للتغيير والأسرع نحو الإنقلاب، فإن السلوك يعقبه في ذلك وهو أبطأ من ناحية التغيير الزماني، أما الإعتقادات الراسخة فهي وإن كانت عُرضةً للتحول والإنقلاب إلاّ أن التغيير فيها يحدث ببطئ شديد، فمن يتحول من الفسق إلى الإيمان فهو في الواقع لم يغير أسلوب كلامه ولا سلوكه فقط بل قام بتغيير اعتقاداته الراسخة، وعلى أساس هذه التحولات التي تجري داخل القلب البشري يمكن وصف حالات يمرّ بها القلب هي:

أولاً: القلب المزدهر بالعلم

وهو قلبٌ عامرٌ بالتقوى والأخلاق الفاضلة لأنّه يسترشد بنصائح العقل ويتّبع الإلهام الربّاني، وهو طريق يقود المرء إلى فتح أبواب العلم المغلقة ومبعثاً للإرتقاء إلى المدارج العالية، وكلما ارتقى درجةً أعلى إزداد القلب يقيناً بصحة النهج والطريق وإصراراً على الثبات عليه دون القيام بانقلاب عسكري على حكومة العقل، وسيجد هذا القلب في المعرفة حلاوةً مالا يجدها في أي من الشهوات الأخرى على الرغم من وعورة الطريق والأشواك التي تلتصق به، كما يفعل العارف المحبّ لربّه والذي يرتبط به إلى درجةِ الاستغناء عن جميعِ البشر، فمثل هذه المعرفة هي التي تقود الإنسان إلى تسلق درجات السموّ الروحي وتخلصه من تعلقاته الدنيوية، فغاية العقل: هي أن يصل الإنسان إلى المعارف الكُلية التي تقودهُ إلى الله وهي أعلى درجات المعارف، وهنا يكون القلب منزلاً لتلقيَ وحي العقل والإلهام الربّاني.

ثانياً: القلب المشحون بالجهل والبغضاء

فهو مدنّس بالخبائث وملوّث بالاعتقادات الفاسدة والأخلاق الذميمة حتى يكاد المرء فيه يذم نفسه ويُبغضها ويُشعر النقص فيها، وهو يضمر الحسد للذين سبقوه والكراهة لمن لم يلحقه منه أذى، فقلبه منكوس ولا يرى الأمور إلا معكوسة، وعقلهُ منطفئ من شدّة وهج الشهوات والأهواء والتي تسيرهُ حيثما أرادت، فهو عدوّ العلم لأنّ في تحصيله مجاهدة ومكابدة، وهو بطبعه الكسول وتسلط شهوة الدِعة والخمول على أموره يأبى بذل العناء في سبيل تحصيله، ويكتفي بما يرد على خاطره من أفكار كذخيرةٍ لعقيدته ورأيه وهو يحسب ذلك علماً، كما إنه متعصبٌ لرأيه وإلى حد الاقتتال يدافع عن فكرته، وكأنّها وحيٌ منزل، وهو عند الغرائز ولعٌ شبق لا يكفيه منها القليل.

ثالثاً: القلب المتردّد بين العلم والجهل

وهو الذي يلحق بركب الإيمان والعلم تارة ويهرولُ وراء الشهوة والجهل تارةً أخرى، فمرة يسمع نداء الإلهام ومراتٍ يتبع دعاء الوسواس، والإيمان والفسق مترددان على قلبه، وهو بينهما ميّال لليسار مرة ولليمين أخرى، فهو يعرف طريق الحق ويرغب فيه ولكن تعترضه الشهوات فيأخذ منها وطراً، فمعرفته ليست تامة لأنّ قلبه لا يستشعر مضار إتباعِ الشهوات وخطرها عليه، وهو لا يعلم بأن التساهل في هذا الشأن قد يجرِه إلى أسوء العواقب، إذن فالصفات الذميمة والحسنة تتشابك وتتداخل في مثل هذا القلب وتصطبغ الأفعال أيضاً بنفس الصبغة، وكذلك اعتقاداته وأفكاره الراسخة هي أيضاً خليط من العلم ومن الجهل. من هنا نكتشف أن هويّة هذا القلب لا تثبت على صورة واحدة وإنّما هي متقلبة بين الاتجاهين بين العلم والإيمان من جهة

وبين الجهل والكفر من جهة ثانية، بينما هوية القلوب السابقة التي ذكرناها هي ثابتة من ناحية احتوائها لكلِّ الصفات المتعلِّقة بتلك الحالة من دون تداخل فيما بينهما، وبشكل عام فإنَّ القلوب هي متقبلة ولذلك أُطلق عليها هذا الإسم.

سلامة القلب

ومن أجل سلامة القلب وتنقيته من الطباع السيئة وتطهيره من الخواطر الوسواسية ينبغي للمرء ان يسلك هذا الطريق ويقف عند المحطات التالية:

ذكر الله

فلا يخلو قلب إمرءٍ من هواجس الأفكار وخواطر الإلهام والوسواس، فمرةً هي التي تهجم عليه وتأخذ لبه، ومرةً أخرى يطلبها المرض لغرضٍ في نفسه، فهو مثلاً يستفيد ذكريات ماضية وهو لا يدري بفعله هذا إنه يحركُ الرغبة لدى نفسه للقيام بالفعل الذي هومن سنخ تلك الخواطر، فإنَّ من يستعيد صوراً مؤلمةً لنزاعٍ حدث بينه وشخصٍ آخر، فإنّه في هذه الحالة سيجد أن وتيرة الغضب ترتسب على معالم شخصيته ويصبح حاله في الغضب مشابهاً لحالته وقت النزاع، من هنا فإن الصورة التي يرسمها المرء أمام مخيلته لها تأثير عظيم على سلوكه وأحواله النفسية من الحزن والفرح والشعور بالسعادة والرضا. فلو طلبت منك أن تنزع صورة الغضب من أمام عدسة قلبك وتضع محلها صورةً لكلمة (الله) ماذا سيكون شعورك؟

أول شعور سينتابك هو الرضى عن النفس وهذه أول درجة في سُلَّم السعادة والشعور الثاني هو الإحساس بالأمن، لأنك إذا كنت مع الله فلا تخشى شيئاً أبداً، هذا عاملٌ آخر من عوامل السعادة الداخلية، والشعور

الثالث هو الإطمئنان في غير مهابةٍ من الزمن الآتي خيرهُ وشرهُ، وهي آخر درجة في سُلَّم السعادة الروحية والنفسية، ومن لم يرتقيها فإنه لم يجد طعم السعادة المعنوية في حياته وإن كان ثرياً أو وزيراً أو زعيماً، فما فائدة السلطة والثروة وفكرة الموت تُنغص عيشة الإنسان؟ وكيف سيهدأ فكر الزعيم الذي لا يدري في أية دقيقةٍ سيغتالونه؟ ولا يدري في أيّ يوم سيطرق عزرائيل بابه!!.

الذي لا يخاف هذه اللحظة ولا يرهب الموت هو من كان قلبه عامراً بذكر الله، والقلوب كما ذكرنا هي في حالة تقلبٍ وغليان لكنها تهدء وتطمئن بذكر الله، لأن هذا الذكر يستدعي معه الكثير من المعاني المثالية التي تتشبع بها أجهزة الإنسان الحسيّة والعقلية، فيلحظ المرء أن هناك تحوّلاً عظيماً يحدث في داخله ويجد أن وجهة نظره تجاه المسألة الفلانية تغيرت ١٨٠ درجة، وأن تلك المشكلة العويصة التي سببت له القلق واشتغال البال لم تعد كذلك بعد أن حل ذكر الله في قلبه، وعندما نعرف القلب بأنّه الرئيس بالنسبة للبدن ندرك بأن إنطباع القلب بذكر الله لن يكون خالي التأثير على بقيّة الأجهزة الحسيّة والذهنية، بل وعلى سلوك وتصرّفات الإنسان ويمكن أن نأتي بمثالٍ على التأثير الذهني لذلك الإنطباع ونقول: إنّ انطباع القلب بذكر الله يستدعي مفهوماً مثالياً آخراً هو (التوكل على الله) وقبل أن يكون هذا المفهوم العظيم مجرد مفهوم مثالي يتقرب به المرء إلى خالقه العظيم، فإنّه في الواقع يحمل أبعاداً نفسيّة إذا أنه مثل بقية المفاهيم الايمانية الأخرى هي لمصلحة الإنسان بالدرجة الأولى وليس للخالق فيها أدنى منفعة كيف؟.

لو أخذنا مفهوم التوكل على الله، ودرسنا بدقة تأثيراته النفسية على الإنسان مستكشف أن له صفة إيحائيةً عجيبة، وأنّه يساهم في علاج أشد الأمراض النفسية فتكاً في الإنسان مثل القلق والإضطراب النفسي كيف يحدث ذلك؟

لو تصوّرنا أن هناك تاجراً كبيراً يسعى لعقد صفقةٍ تجاريةٍ مع طرفٍ آخر، وأن هناك مخاطر قد تعوق وصول البضاعة إلى المكان المقرر، كما أن هناك تاجراً كبيراً يسعى لعقدصفقةٍ تجاريةٍ مع طرفٍ آخر، وأن هناك مخاطر قد تعوق وصول البضاعة إلى المكان المقرر، كما أن هناك هواجس حيال الطرف الآخر بأنه قد يغش بالبضاعة وما إلى ذلك، فإن انشغال الذهن بالهواجس المُربكة تُسبب حالةً من الرعب والشعور بالإنزعاج والقلق لدى الشخص، ويكفينا أن نعرف أن هذه الحالات السبب الرئيسي لظهور أمراض كثيرة في البدن، علاوة على ما تحمله من آلام نفسيةٍ للشخص المُبتلى، وهنا يأتي مفهوم التوكّل على الله ليمنع تلك الحالات مثل القلق والإضطراب والإنزعاج لتنفذ إلى قلب الإنسان، لأنّ المتوكل على الله هو الذي أحكم عمله وترك النتائج على الله، وهو خلال تلك الفترة يكون أمناً من الاضطرابات النفسية، فلا يُرهق ذهنه بالتفكير بما ستؤول إليه الصفقة، ولا يقلق نفسه تجاه امكانية الغش بالبضاعة، ولا يُنهك أعصابه بالتفكير في الخسارة... وهكذا، لأنّه ترك الأمر كلّهُ لله، بالطبع بعد ما أحسن تدبيره، فالمفروض أن يحزم المرء أمره ويتقن عمله ويترك المستقبل لله كيف يحدده، لأن التوكل يتدخل في وقتٍ نفاذ حول الإنسان وقوّته ويكون المرء في ذلك بحاجة إلى دعمٍ معنوي القَرار الذي اتخذه، ولذلك نجد أن من يتّبع هذا السلوك يكون عادةً في مثل هذه المواقف مرتاح البال والخاطر وبارد الأعصاب، وهادئ النفس، وبغض النظر عن النتائج التي ستؤول إليهما الصفقة.

إنشراح القلب بالحكمة

ليست كل القلوب منشرحةً لتلّقي المعارف وأصول الحكمة، ولهذا فإن من لا يجد نفسه كذلك يُستحسن له أن يبذر الشوق في قلبه من أجل تحصيله

تلك المعارف، لأن هذه هي المرحلة الأولى من إكتساب الحكمة والاستفادة من المعارف الحقّة التي تنفع الإنسان في حياته العملية والاجتماعية وتجلب له الاطمئنان النفسي والقلب ما لم ينشرح ويتهيأ لها، فإنّه سيبقى مُغلقاً لا يبصر لنور المعرفة، ففي المقام الأول يتطلب من المرء أن يبذل إرادته في هذا السبيل وبمجرد أن تشرق نور الحكمة على صفحة قلبه، فإنها ستضيئه وتشغل باقي الأجهزة الحسيّة والعقلية بأشعتها المعنوية، فالحكمة كما يقولون هي حياة القلوب وبالجهل موتها.

ولابدّ أن يعرف الشخص بأنّ هذا القلب هو الأكثر أهميةً وحساسية بين سائر أعضاء البدن الحسيّة، ولهذا يجب أن يعتني به ولا يحشوه بكومة من الأفكار الجاهلية التي عادةً ما ترتدي لباس العلم وهي منها براء، فإنّ هذا القلب يسقم بمثل تلك الأفكار ويرهق صاحبه، ويجلب له الشقاء في الدنيا والعذاب في الآخرة، لأنّ الأفكار الجاهلة هي من صنف الاعتقادات الإلحادية، وليس الجاهل هو من لم يتعلم القراءة والكتابة بل الجاهل هو من لم يتعلم من دروس الحياة، فالفلاح الذي لم يأخذ نصيباً من الدراسة الأكاديمية، والعامل الذي لم توفر له ظروف الحياة الصعبة فرصة التعلم في المدارس الحكومية وغيرها، فهو قد يتعلم الحكمة من دروس الحياة وتجاربها، بينما يعجز عن ذلك من ذوي الشهادات العُليا، وأذكر أن بروفيسوراً في علم الإجتماع كان يخاطب طلابه الجامعيين ويقول لهم: «لا تغرنّكم الكلمات التي تتعلمونها وتتصورن بأنّكم أصبحتم من علماء الأولين والآخرين، فآبائكم من الفلاحين والعمال هم أكثر منكم علماً لأنّهم تعلموا الكثير من دروس الحياة، وأنتم ما زلتم جاهلين بالكثير منها» فالجامعة لا تعلم الطالب الصبر وهي من مستلزمات الحياة بينما الفلاح تعلم ذلك من حراثته للأرض، والجامعة لا تعلم

الطالب كيف يحل مشكلته مع الآخرين، بينما الفلاح تعلم ذلك من ممارسته للحياة.

تنقية القلب من الريب والشكوك

إنّ الريب يتغلغل في العقائد الراسخة ويثير الشكوك حولها، فيرتبك القلب ويتزلزل حتى لتجد الإنسان معه ذاهل الذهن مضطرب الفكر لا يعلم أهو إلى طريق الحق والعدل أمّ أنه بعيدٌ عنهما. وهذه الشكوك مجلبةٌ لمختلف الأمراض النفسية والعقلية، وهي أيضاً سببٌ للتناقض الذي يحدث في سلوك المرء والتضارب في آرائه ومواقفه، فالقلب السليم هو الخالي من الشك في الدين والإرتياب في المعتقدات.

وأمّا من يعترض قلبه شيء من الشك فإن عليه أن يسارع في البحث والسؤال عن اجوبةٍ مقنعةٍ لها، ولا يدعها تفعل في قلبه ما تشاء، لأنّ مرحلة الشك هي واحدة من المراحل التي تسحب الشخص من العلم إلى الجهل ومن الإيمان إلى الكفر، فمن لم يبالي لشكّه، ولم يبحث له عن جوابٍ علمي ودقيق فقد يقوده هذا الأمر إلى الكفران بتلك المعتقدات الراسخة، ونحن إذ ندعو الإنسان هنا إلى تقصي الحقائق لمواجهة الشكوك، لأننا نعلم بأن أغلب هذه الشوك مصدرها الأهواء والرغبات ولا تستند في جوهرها على حججٍ عقلية أو علمية، وللمثال على ذلك نقول: أنّ من يشك بعدالة الله في تقسيم رزقه للبشر، فإن شكّه هذا نابع من الهوى، وذلك لأنّ الله سبحانه وتعالى قد ابتلاه بالفقر، فهو يتصوّر بأنّ الله قد ظلمه (وحاشا لله ذلك) وعندما يعود ذلك الفقير إلى نفسه سيجد بالعقل أن فقره هو بمثابة اختبارٍ له، وأنه مثلما هو يتمتع بنعمٍ كثيرة حُرِم آخرون منها كالسمع والبصر، فإنّه عزّ وجلّ قد وهب أموالاً وفيرةً لأناسٍ آخرين وحرمهم من نعمٍ أخرى، ومثلما ابتلى الله سبحانه

وتعالى ذلك الشخص بالفقر، فإنّه في نفس الوقت وهبه أشياء أخرى كالسلامة وهي أغلى قيمةً من النقود والأموال.

عدم التعصب للجهل

إنّ الجهل يعضد نفسه بنفسه، وأن جنوده مكره يدعم كل واحدٍ منهما الآخر، لذلك تجد أن الجهل عندما يصطف أمام جنود العقل، فإنّ كلّ مقاتلٍ يسقط في المعركة يقوم مكانه مقاتلاً أشرس منه وأكثر فتكاً، وعلى هذا الأساس تظهر في المعركة أسلحةً غير معتادة، فبعضها يأتي من جانب الهوى وأخرى من جانب الغرائز وهكذا تجد أن الجاهل يتشعب بأفكاره إلى أقصى حد وإلى آخر قطرة دم في ساحة المعركة الفكرية، فهو بدل أن يعطي مجالاً لعقله كي يأخذ نصيباً من التفكير نجده يُجابه الأفكار الحقّة بمنطق المغالطات لكي يثبت فقط وفقط أنّه لم ينهزم في المعركة الفكرية، وتجد على نقيض ما هو شائع بين الناس أن العلماء هم الأرحب صدراً على النقاش وعلى فسح المجال لمعارضة أفكارهم، بينما نجد أن الجهلاء يتعصبون ويقمعون أية معارضةٍ لآرائهم وأفكارهم، فأولئك العلماء سمحوا بحرية التعبير ومناقشة أفكارهم لثقتهم بأنفسهم، بينما عجز الجهلاء عن ذلك لعدم امتلاكهم للرصيد العلمي الذي يواجهون به مخالفيهم.

إصلاح النيّة

إن أشدّ ما يُربك قلب المرء هو ما يحدث من تصادم ما بين نيته وسلوكه، فإذا كانت النيّة من منبع الجهل والسلوك من منبع العقل يحدث الاصطدام بين الآليتين والغلبة تكون عادةً للآلية التي تأتي في المقام الأعلى والأرفع، والنيّة هنا دائماً تكون في المقام الأعلى إزاء العمل لأنّها تصبح بمثابة الهدف بالنسبة

إليه، لذلك فإن الله سبحانه وتعالى لا يقبل الأعمال الحسنة التي يؤديها الإنسان مراءً، ولأجل السمعة والشُهرة لأنّها باطلة ونيتها غير صالحة.

وبطبيعة الحال فإننا عندما نقول بأن النيّة هي أعلى مقاماً من السلوك وأكثر تأثيراً منه، وأن الله العادل لا يثيب على العمل الحسن ذو النيّة السيئة، ذلك لأنّ لهذه النية السيئة مؤثراتٍ سلبيةٍ كبيرةٍ على القلب وعلى طباع الخير والشر في داخله، وأن النية السيئة بمثابة (الفيروس) الذي يعمل على تخريب المعتقدات السليمة في الذهن، ونخلص من ذلك إلى أن الإنسان صاحب ذلك السلوك الحسن وتلك النيّة السيئة إنّما هو بعمله ذاك كان مندفعاً لتحقيق هدف سيء في داخله، كمن يعطي السائل بضعة دراهم ليظهر للآخرين مقدار مروءته أو حجم كرمه، فيكون منبع السلوك هنا هي غريزة الإستعلاء على الآخرين.

ونجد في التعاليم الدينية أنّ نيّة المرء خيرٌ من عمله، فقد ينوي الشخص القيام بعملٍ ما فتواجهه عراقيل حقيقية تمنعه من تحقيق ما كان يصبو إليه، وعلى الرغم من فشله عن تحقيق ذلك الأمر إلاّ أن نيته كانت ذات تأثيرات أساسية على قلبه وفكره وسائر الأعضاء الحسية في بدنه.

التفكّر مفتاح الحكمة

غاية العقل هو العلم، ومفتاح العلم والمعرفة بالتفكّر، فمن يريد السلامة لقلبه من الرين والختم ومن طباع الجهل عليه بإطالة التفكّر وإدامة التبصر في المخلوقات وفي النفس البشرية، ومن هذا التفكّر يصل الإنسان إلى نوع من التوازن الفكري، فهو يلاحظ النظام الكائن في الخلقة ويحكم على ذلك بوجود خالقٍ ومدبرٍ لهذا النظام، وأنه من غير المعقول أن يخلق ذلك صُدفة، فإن هذه النتيجة وغيرها كثير لا تحصل لدى الإنسان إلاّ عن طريق التدبّر في

آيات الخلق، وسنُلاحظ من خلال هذا التدبر أن الله سبحانه وتعالى جعلها مُلهمة لنموذج عقل الإنسان عن طريق تعلقها بالفطرة وهي التي فُطر الناس عليها، وليس التفكر مفتاحاً للحكمة فقط بل هو علامةٌ من علامات قلب الإنسان البصير.

تهذيب القلب من الأخلاق الذميمة

سيعجز الإنسان عن التحلي بالصفات الحسنة ما دامت الصفات السيئة قد أخذت موقعها في قلبه، فمن يُريد أن يتصف بالتواضع عليه أن ينزع الكِبر من قلبه، ومن يُريد أن يكون شجاعاً لا بد أن ينزع الجُبن من قلبه، ومن يُريد أن يكون كريماً لا بدّ أن ينزع البُخل من قلبه، فبحجم ما تحتله صفة الجبن من موقع في القلب بنفس الحجم أيضاً ينتقص من صفة الكرم في هذا القلب، وتتركب الصفة من تكرار السلوك السيء أو الحسن، ولذلك ينبغي على الإنسان أن يقمع سلوكه السيء قبل أن يتحول إلى صفةٍ في قلبه وعندها سيتعذر عليه قلعها من هناك أضف إلى أن انطباع القلب بالصفات السيئة مدعاة لتكرار السلوك غير المحمود.

خصائص القلب

وقبل أن نأتي على نهاية هذا الفصل وجدنا من الضروري التطرق إلى خصائص القلب في القرآن والسّنة الشريفة بشكل مختصر، وذلك لتقويم توضيحٍ أعمق عن هذا الجهاز الرئيسي والحساس للإنسان لا سيّما وأنّه قلما نجد بحوثاً تتطرق لمثل هذا الموضوع. وكنّا قد أشرنا في صفحاتٍ سابقة إلى معظم هذه الخصائص ولكننا هنا نود الاستدلال عليها بالقرآن الكريم والسّنة،

ومثلما بيّنا آنفاً فإن القلب وهو القائد لكل العمليات العقليّة والحسيّة والغريزية وفي وسطه يقع العقل.

ومن خصائص القلب

١ ـ إنّ القلب يستفيد ويفكر بالعقل وفي رسالة الاهليلجه للإمام الصادق عليه السلام نقرء: «أنّ القلب يفكر بالعقل الذي فيه»[١] وفي نفس الرسالة يعتبر الإمام الصادق عليه السلام أن«القلب هو معدن العقل».

٢ ـ إن الله تبارك وتعالى جعل القلب مدبراً للجسد به يسمع وبه يبصر، وهو القاضي والأمير عليه لا يتقدم الجسد إن هو تأخر ولا يتأخر إن هو تقدم. فعن الرسول صلى الله عليه وآله «في الإنسان مضغة إذا هي سلمت وصحّت سلم بها سائر الجسد، فإذا سقمت سقم بها سائر الجسد وفسد، وهي القلب»[٢] وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ منزلة القلب من الجسد بمنزلة الإمام من الناس...»[٣] وفي رسالة الاهليلجة للإمام الصادق عليه السلام نقرء: «لأنّ الله تبارك وتعالى جعل القلب مدبراً للجسد، به يسمع، وبه يبصر، وهو القاضي والأمير عليه، لا يتقدّم الجسد إن هو تأخّر ولا يتأخّر إن هو تقدّم وبه سُمعت الحواس وأبصرت...»[٤].

٣ ـ إطمئنان القلب يتحقق بذكر الله، وفي القرآن الكريم: ﴿ *الذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب* ﴾[٥].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨/ ٥٨.

(٢) بحار الأنوار: ٦٧/ ٥٠ عن الخصال: ١/ ٣١.

(٣) بحار الأنوار: ٦٧/ ٥٣.

(٤) بحار الأنوار: ٥٨ / ٦٢.

(٥) سورة الرعد: ٢٨.

٤ ـ إنّ الشيطان الرجيم يدخل للإنسان عن طريق القلب، وعن طريق الخواطر الوسواسية التي ذكرناها في وقتٍ سابق. والقرآن الكريم يقول: ﴿ **ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون** ﴾[1].

٥ ـ غلظة الأخلاق ولينها مركزهما في القلب ﴿ **فبما رحمةٍ من الله لنتَ لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك...** ﴾[2].

٦ ـ هناك قلب سليم وهو الخالي من الشّك والريبة، ونقرء في القرآن الكريم: ﴿ **وإنّ من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربّهُ بقلبٍ سليم** ﴾[3].

وفي روايةٍ أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام: «في قوله تعالى: ﴿ **إلّا من أتى اللهَ بقلب سليم** ﴾[4] قال: القلب السليم الذي يلقى ربّه، وليس فيه أحد سواه، وكلُ قلبٍ فيه شك أو شرك فهو ساقط»[5].

٧ ـ التكبر والتجبر منبعهما القلب، وفي القرآن الكريم: ﴿ **الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كَبُر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبعُ الله على كلّ قلبٍ متكبّرٍ جبّار** ﴾[6].

٨ ـ وفي أحيانٍ أخرى يكون القلب منيباً لقوله تعالى: ﴿ **وجاء بقلب منيب** ﴾[7].

٩ ـ القرآن الكريم ينزل على قلب الرسول لقوله تعالى: ﴿ **فإنه نزّله على قلبك** ﴾[8].

---

(١) سورة الأنعام: ٤٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٣) سورة الصافات: ٨٣ ـ ٨٤.

(٤) سورة الشعراء: ٨٩.

(٥) بحار الأنوار: ٦٧/ ٥٩.

(٦) سورة غافر: ٣٥.

(٧) سورة ق: ٣٣.

(٨) سورة البقرة: ٩٧.

١٠ ـ طبع القلب: ففي القرآن الكريم: ﴿**كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون**﴾[١] وعن الرسول ﷺ قوله: «إيّاكم واستشعار الطمع، فإنه يشوب القلب شدة الحرص، ويختم على القلوب بطابع حبّ الدنيا»[٢].

١١ ـ القلوب ثلاثة: فقد جاء عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ: «القلوب ثلاثة: قلب منكوس لا يعثر على شيء من الخير وهو قلب الكافر، وقلبٌ فيه نكتة سوداء، فالخير والشر فيه يعتلجان، فما كان منه أقوى غلبه عليه، وقلبٌ مفتوح فيه مصباح يزهر، فلا يطفأ نوره إلى يوم القيامة وهو قلب المؤمن»[٣].

١٢ ـ إعراب القلوب: فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إعراب القلوب على أربعة أنواع: رفعٌ وفتحٌ وخفضٌ ووقفٌ: فرفع القلب في ذكر الله، وفتح القلب في الرضا عن الله، وخفض القلب في الاشتغال بغير الله، ووقف القلب في الغفلة عن الله»[٤].

١٣ ـ عيون القلب: فعن الإمام زين العابدين عليه السلام قوله: «ألاّ إنّ للعبد أربع أعين: عينان يبصر بهما أمر دينه ودنياه، وعينان يبصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً فتح له العينين اللتين في قلبه، فأبصر بهما الغيب وأمر آخرته، وإذا أراد به غير ذلك ترك القلب بما فيه»[٥].

١٤ ـ آذان القلب وخواطر الإلهام والوسواس: فعن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إنّ للقلب أذنين: روح الإيمان يسارّه بالخير، والشيطان يسارّه بالشر، فأيّهما ظهر على صاحبه غلبه»[٦].

---

(١) سورة الروم: ٥٩.
(٢) بحار الأنوار: ٧٤/ ١٨٢.
(٣) بحار الأنوار: ٦٧/ ٥١.
(٤) بحار الأنوار: ٦٧/ ٥٥.
(٥) بحار الأنوار: ٦٧/ ٥٣.
(٦) المصدر نفسه: ٦٧/ ٥٣.

١٥ ـ إنّ الذي يحسن ويدرك الأشياء بعد ذهاب الحواس في المنام والرؤيا هو القلب، لنقرء ماجاء في رسالة الأهليلجة التي حاجج بها الإمام الصادق عليه السلام الطبيب الهندي وأبطل من خلالها المبدء الحسي وأثبت فيها وجود العقل والقلب، ولأهمية الموضوع فإننا سنأخذ جزءاً مهماً وموسعاً من الرواية «... فقال الهندي: قد أتيتني من أبواب لطيفة بما لم يأتني به أمر غيرك، إلاّ أنه لا يمنعني من ترك ما في يدي إلاّ الإيضاح والحجّة القوية بما وصفت لي وفسرت وقلت: «الإمام الصادق عليه السلام يقول: أما إذا حججت عن الجواب واختلف منك المقال فسيأتيك من الدلالة من قبل نفسك خاصة ما يستبين لك إنّ الحواس لا تعرف شيئاً إلاّ بالقلب، فهل رأيت في المنام أنك تأكل وتشرب حتى وصلت لذة ذلك إلى قلبك؟ قال: نعم قلت: فهل رأيت أنك تضحك وتبكي وتجول في البلدان التي لم ترها والتي قد رأيتها حتى تعلم معالم ما رأيت منها؟ قال: نعم ما لا أحصي، قلتُ: فهل رأيت أحداً من أقاربك من أخ أو أب أو ذوي رحم قد مات قبل ذلك حتى تعلمه وتعرفه كمعرفتك إياه قبل أن يموت؟ قال: أكثر من الكثير، قلت: فأخبرني أيُّ حواسك أدرك هذه الأشياء في منامك حتى دلّت قلبك على معاينة الموتى وكلامهم وأكل طعامهم والجولان في البلدان والضحك والبكاء وغير ذلك، قال (الهندي): ما اقدر أن أقول لك أيّ حواسي أدرك ذلك أو شيئاً منه، وكيف تدرك وهي بمنزلة الميت لا تسمع ولا تبصر؟ قلتُ: فأخبرني حيث إستيقظت ألست قدْ ذكرت الذي رأيت في منامك تحفظهُ وتقصّه بعد يقظتك على إخوانك لا تنسى منه حرفاً؟ قال: إنّه كما تقول، وربما رأيتُ الشيء في منامي ثمّ لا أمسي حتى أراه في يقظتي كما رأيته في منامي، قلت: فأخبرني أيُّ حواسك قررت علم ذلك في قلبك حتى ذكرته بعد ما استيقظت؟ قال: إن هذا الأمر ما دخلت فيه الحواس، قلت: أفليس ينبغي لك أن تعلم حيث بطلت الحواس في هذا أن

الذي عاين تلك الأشياء وحفظها في منامك قلبك الذي جعل الله فيه العقل الذي احتج به على العباد؟ قال: إنّ الذي رأيت في منامي ليس بشيء إنّما هو بمنزلة السراب الذي يعانيه صاحبه وينظر إليه لا يشك إنه ماء، فإذا انتهى إلى مكانه لم يجدهُ شيئاً فما رأيت في منامي فبهذه المنزلة.

قلتُ: كيف شبّهت السراب بما رأيت في منامك من أكلك الطعام الحلو والحامض وما رأيت من الفرح والحزن؟ قال: لأنّ السراب حيث انتهيت إلى موضعه صار لا شيء، وكذلك صار ما رأيت في منامي حيث انتبهت، قلت: فأخبرني أن أتيتك بأمر وجدت لذته في منامك وخفق لذلك قلبك ألست تعلم أن الأمر على ما وصفت لك، قال: بلى. قلت: فأخبرني هل احتلمت قط حتى قضيت في امرأة نهمتك عرفتها أم لم تعرفها؟ قال: بلى، ما لا أُحصيه. قلتُ: ألست وجدت لذلك لذة على قدر لذّتك في يقظتك فتنتبه وقد أنزلت الشهوة حتى يخرج منك بقدر ما يخرج في اليقظة؟ هذا كسرٌ بحجتك في السراب.

قال: ما يرى المحتلم في منامه شيئاً إلاّ ما كانت حواسه دلّت عليه في اليقظة، قلت: ما زدت على أن قويت مقالتي وزعمت أن القلب يعقل الأشياء ويعرفها بعد ذهاب الحواس وموتها، فكيف أنكرت أن القلب يعرف الأشياء وهو يقظان مجتمعة له حواسه؟ وما الذي عرفهُ إياها بعد موت الحواس وهو لا يسمع ولا يبصر؟ ولكنت حقيقاً أن لا تنكر له المعرفة وحواسه حية مجتمعة إذا أقررت أنه ينظر إلى الإمرأة بعد ذهاب حواسه حتى نكحها وأصاب لذته منها، فينبغي لمن يعقل حيث وصف القلب بما وصفه به من معرفته بالأشياء والحواس ذاهبة أن يعرف أن القلب مدبر الحواس وملكها ورأسها والقاضي عليها، فإنه ما جهل الإنسان من شيء، فما يجهل أن اليد لا تقدر على العين

أن تقلعها ولا على اللسان أن تقطعه، وأنّه ليس يقدر شيء من الحواس أن يفعل بشيء من الجسد شيئاً بغير إذن القلب ودلالته وتدبيره»[١].

١٦ـ تقلب القلب بين حالات الإقبال والإدبار، فعن الإمام علي عليه السلام: «إنّ للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فاقتصروا بها على الفرائض»[٢].

١٧ـ تطهير القلب: قال الإمام علي عليه السلام: «طهروا قلوبكم من الحسد فإنّه مُكمد مضنّ»[٣].

١٨ـ إنشراح القلب: فمن وصايا النبي محمد صلى الله عليه وآله لابن مسعود، يا ابن مسعود: ﴿ *أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نورٍ من ربّه* ﴾[٤] فإنّ النور إذا وقع في القلب إنشرح وانفسح، فقيل يا رسول الله: فهل لذلك من علامة؟ قال: نعم، التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الفوت، فمن زهد في الدنيا قصر أمله فيها وتركها لأهلها[٥].

١٩ـ قسوة القلوب: ففي القرآن الكريم: ﴿ *ثمّ قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة وإنّ من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار..* ﴾[٦]. وفي الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «إنّ لله عقوبات في القلوب والأبدان: ضنك في المعيشة ووهنٌ في العبادة، وما ضُرب عبد بعقوبةٍ أعظم من قسوة القلب»[٧].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨ / ٦٠ ـ ٦٢.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ٢٣٦/ ح ٢٥٧.

(٣) المصدر نفسه: ٢/ ١٢/ ح ٣٣.

(٤) سورة الزمر: ٢٢.

(٥) بحار الأنوار: ٧٤/ ٩٣.

(٦) سورة البقرة: ٧٤.

(٧) بحار الأنوار: ٧٥/١٧٦.

٢٠ ـ مرض القلب: ففي القرآن الكريم: ﴿ *في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذابٌ أليم بما كانوا يكذبون* ﴾[١]. وفي الحديث نقرء عن الإمام علي عليه السلام: «إنّ من البلاء الفاقة، وأشدّ من ذلك مرض البدن، وأشدّ من ذلك مرض القلب، وإنّ من النعم سعة المال، وأفضل من ذلك صحة البدن، وأفضل من ذلك تقوى القلوب»[٢].

٢١ ـ قوة القلب: فقد جاء عن الإمام علي عليه السلام أنّ: «أصل قوّة القلب التوكّل على الله»[٣].

٢٢ ـ لين القلب: فعن الإمام الباقر عليه السلام جاء: «تعرّض لرقّة القلب بكثرة الذكر في الخلوات»[٤].

٢٣ ـ عمارة القلب: وعن الإمام علي عليه السلام أن: «عمارة القلوب في معاشرة ذوي العقول»[٥].

---

(١) سورة البقرة: ١٠.

(٢) بحار الأنوار:٦٧ / ٥١.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم: ١/ ١٩٢/ ح ٢٥٦.

(٤) بحار الأنوار:٧٥ / ١٦٤.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم: ٢/ ٤١/ ح ٢٨.

الفصل السادس

في تعريف النوم وبيان حقيقته

تعريف النوم وبيان حقيقته

قال الثعالبي في سرّ الأدب: أول النوم النعاس وهو أن نحتاج إلى النوم ثم الوسن وهو ثقل النوم، ثم الترنيق وهو مخالطة النعاس العين، ثم الكرى والغمض وهو أن يكون الإنسان بين النائم واليقظان، ثم الإغفاء وهو النوم الخفيف، ثم التهويم والغرار والتهجاع وهو النوم القليل، ثم الرقاد وهو النوم الطويل، ثم الهجوع والهبوغ وهو النوم الغرق، ثم قال: وفسر بعضهم بالنعاس بالسِّنة وخص الرقود بالنوم في الليل، وينفيه قوله تعالى: ﴿ *وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود* ﴾[1].

وقال أبو الحسن بن محمد طاهر بن عبد الحميد تَتَّئِلُ: لا يخفى أنّ النوم يشتمل على الاستراحة وعلى الغفلة عن الخير والشر، ولهذا ورد »الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا« وفي الحديث أنّه الموت الأصغر. فعلى هذا ربما أمكن تأويله مهما ناسب بالغفلة عن الولاية والدين وعن شرور المنافقين أو بما يرجع إلى الاستراحة في هذهِ الوقعة ونحو ذلك.

ثم إعلم أنه ليس للإرادة البشرية قدرة على دفع السنّة ومنع النّوم متى ما بدرت مقدماته، لأنّه من الأمور القهريّة الخارجة عن طريق قدرة المخلوقين.

ويدلّ على ذلك من الأخبار ما رواه الشيخ الصدوق في التوحيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ستة أشياء ليس للعباد فيها صنع: المعرفة، والجهل، والرّضا، والغضب، والنّوم، واليقظة[2].

وإذا عرفت ذلك نقول: قد فسرت حقيقة النوم بتعاريف مختلفة يحسن معرفتها ويجمل الإطلاع عليها:

---

(١) سورة الكهف: ١٨.

(٢) كتاب التوحيد: ٤١١، باب التعريف والبيان والحجة والهداية.

أولها: الأثر الناشئ من تصاعد الأبخرة إلى الدماغ وإحتباسها فيه، وقد عبّر عنه بتعبيرات مختلفة.

منها: ما ذكره النكَري في الدستور حيث قال: النوم حالة تعرض للحيوان من إسترخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة، بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأساً، ثم قال: وبعبارة أخرة هو حالة طبيعيّة تتعطل بها القوى بسبب ترقي البخارات.

ومنها: ما ذكره الطريحي في مجمعه حيث قال: النوم ريح تَقدِم من أغشية الدماغ، فإذا وصل إلى العين فترت، وإذا وصل إلى القلب نام.

الثاني: الأثر الناشئ من الأخلاط البدنية، وقد ذكره الفيومي بقوله: النوم غشية ثقيلة تهجم على القلب فتقطعه عن المعرفة، وجرى على منواله الدكتور خليل الجرّفي معجمه حيث قال: النوم غشية ثقيلة تصيب البدن والعقل، فتبطل عمل الحواس.

الثالث: ما قيل: في أنّه الموت الخفيف والموت النوم الثقيل، وتصديق ذلك في كتاب الله العزيز قوله عزّ وجل: ﴿ ***وهو الذي يتوفّاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنّهار ثمّ يبعثكم فيه*** ﴾[1]، فجعل جلّ جلاله النوم وفاة واليقظة بعثاً وحياة. والفرق بين قبض النوم وقبض الموت أن قبض النوم يضاد اليقظة، وقبض الموت يضاد الحياة، وقبض النوم يكون الروح معه، وقبض الموت يخرج الروح من البدن، وأن الرؤيا للنائم صادقها وكاذبها عبارة عما تراه بعد خروجها من البدن.

الرابع: ما قيل على ما حكاه الراغب في مفرداته: هو أن يتوفى الله النفس من غير موت، وهو قريب من الوجه الثالث كما لا يخفى إن لم يكن نفسه كما هو الأقرب.

---

(١) سورة الأنعام: ٦٠.

الخامس: ما حكى عن ابن مسكويه من أنّه تعطيل النفس لبعض آلاتها إجماماً لها أي لآلات الحس.

وقد ورد في جملة من الأخبار أنّ نوم الأنبياء والأئمة عليهم السلام على خلاف سائر الناس، وأنّه تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، وهذا الأمر وإن كان لا يطابق ما عرفت إلاّ أنّه خارج عنه بالنص فتنبه[1].

علّة نشأة الأحلام

لم تكن الأحلام موجودة منذ أن وجد الإنسان بل كانت وليدة ظروف قاهرة وحاجة ملحة كما يشهد بذلك الحديث المروي عن أبي الحسن الأول عليه السلام قال:

لم تكن الأحلام فيما مضى في أوّل الخلق وإنّما حدثت، والعلّة في ذلك أنّ الله عزّ وجلّ بعث رسولاً إلى أهل زمانه فدعاهم إلى عبادة الله وطاعته، فقالوا: إن فعلنا ذلك فما لنا؟

فقال عليه السلام: إن أطعتموني أدخلكم الله الجنّة، وإن عصيتموني أدخلكم النار، فقالوا: وما الجنّة؟ وما النار؟ فوصف لهم ذلك، فقالوا: متى نصير إلى ذلك؟ فقال: إذا متم، فقالوا: لقد رأينا أمواتنا صاروا عظاماً ورُفاتاً! فازداود له تكذيبا وبه استخفافاً، فأحدثت الأحلام فيهم، فأتوه وأخبروه بما رأوا وما أنكروا من ذلك، فقال: إنّ الله تعالى أراد أن يحتج عليكم بهذا، هكذا تكون أرواحكم إذا متم، وإن بليت أبدانكم تصير الأرواح إلى عقاب حتى تبعث الأبدان. الخبر[2].

---

(١) بُلغَة الشيعة الكرام في تعبير رؤيا المنام: ٢١ ـ ٢٣.

(٢) بحارالأنوار: ٥٨/ ١٨٩ عن روضة الكافي.

قال الطريحي في مجمعه بعد أن أورد الخبر، ويستفاد من هذا الحديث أمور:

منها: أنّ الأحلام حادثة.

ومنها: أنّ عالم البرزخ يشبه عالم الأحلام.

ومنها: أنّ الأرواح تعذب قبل أن تبعث الأبدان(١).

وقال المجلسي تدّس سرّه: مسألة الرؤيا من غوامض المسائل النفسيّة وقد بقيت بعد جهات منها في قيد الإبهام، ولنبدأ بالإشارة إلى جوانب بينة منها لعلها تساعد على توضيح بعض جوانبها الأخرى، فنقول: لا ريب أنّ النائم عندما يرى شيئاً من المنامات تحصل له إدراكات من غير طرق الحواس الظاهرة وتسمية تلك الادراكات لا تخرجها عن واقعها، فإن الخيال حتى الفاسد الباطل منه له حصول في الذهن ووجود علمي للنفس، وإنّما فساده وبطلانه من ناحية عدم إنطباقه على الخارج، ولا ريب في حكاية كثير من المنامات عن وقوع أشياء في الخارج في ما مضى او ما يأتي مع عدم سبيل للرائي حتى في حال يقظته إلى الإطلاع على شيء منها. وهي أكثر من أن يمكن حملها على الصدفة والاتفاق، وخاصة منامات الأنبياء والأولياء المشتملة على الوحي والإلهام، كما أنه لا ريب في أن كثيراً منها تمثلات ذهنيّة لأميال وآمال وتركيبات وتحليلات لما اختزن من الصور في خزانة الخيال، وهذا النوع الأخير من الرؤيا. (وإن انقسم إلى أقسام مختلفة)، يرجع إلى بروز ما كمن في النفس إلى ساحة الحواس الباطنة وادراك النفس لها بتوسيط تلك الحواس مرة أخرى، ومعرفة علل هذه الأفاعيل النفسية، ومدى ارتباطها بالحالات البدنية والروحيّة رهينة لتجارب كثيرة لا يزال علماء النفس مشتغلين بها.

أما النوع الأول منه: فلا يمكن تعليله بأمثال تلك العلل فحسب كما لا يخفى، وبعبارة أخرى حصول هذا النوع من الادراكات للنفس ليس معلولاً

---

(١) كتاب بُلغَة الشيعة الكرام في تعبير رؤيا المنام: ٧٦.

لحالات فسيولوجية أو ظاهرات بسيكولوجية معينة. فأي حالة بدنية أو نفيسّة توجب العلم بوجود كنز على مقدار معين في مكان خاص أو بحدوث حادثة مشخصة في زمان خاص في المستقبل؟ وما هو الذي يمكن أن يجعل وجه الربط بين الظاهرات الجسمية والروحية في الإنسان، وبين العلم بقضايا عازبة عن ذهنه بموضوعاتها ومحمولاتها؟ فهذه المعلومات ليست مما يستقل به النفس من الادراك بصرف النظر عما هو خارج عن ذاتها رأساً، والغير الذي يمكن أن يشارك في حصول هذه الإدراكات لها بوجه إما أن يكون أمراً عقلياً محضاً، أو مثالياً برزخياً ولا يكون أمراً مادياً البتة. للقطع بعدم حصول إرتباط مادي بين الإنسان وبين موجود مادي آخر مما يقع تحت الحواس في حال النوم بحيث يمكن إسناد تلك العلوم إليه بوجه، فعلى فرض جعل المشارك للنفس أمراً عقلياً يصير الرؤيا اتصالاً للنفس بموجود عقلي في المنام وتمثل ما تستفيد منه حسب استعدادها بصورة جزئية في عالمها المثالي، وإن شئت قلت في ساحة الحواس الباطنة ولوح الذهن، وعلى فرض جعل المشارك أمراً مثالياً يصير الرؤيا إشراقاً للنفس على عالم المثال ومشاهدة أمور هناك مباشرة، وكلاهما مما يصح فرضه عقلاً ولا ينفيه دليل شرعي بل يوجد في الأخبار ما يؤيدهما بل يدل عليهما فعليك بإجادة التدبير فيها[١].

الفرق بين الحلم والرّؤيا والطيف:

يطلق لفظ الرؤيا والحلم في اللغة ويراد بهما معنى واحد على سبيل الإشتراك المعنوي بمعنى أنهما مترادفان، فمن كلمات أهل اللغة في ذلك، ما قاله الطريحي في مجمعه: (الرؤيا) بالضم والقصر ومنع الصّرف ما يرى في المنام، وقال في موضع آخر: (الحُلُم) بضم الحاء واللام واحد الأحلام في

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨/ ١٩٥ - ١٩٦، باب حقيقة الرؤيا وتعبيرها.

النوم. وحقيقته على ما قيل: أنّ الله تعالى يخلق بأسباب مختلفة في الأذهان عند النوم صوراً علمية، منها ما يطابق لما مضى ولما يستقبل، ومنها غير مطابق(١).

وكثير من اللغويين لم يذكروا الرؤيا في بابها إكتفاءاً بذكرها في باب الحلم.

قال الفيروز آبادي في القاموس: الحُلم بالضم وبضمتين الرؤيا(٢).

وقال ابن فارس في معجم المقاييس: الحُلم رؤية الشيء في المنام.

وقال الراغب في مفرداته: الحُلم بضمتين زمان البلوغ.

وسمي الحُلم لكون صاحبه جديراً بالحِلم(٣).

وأمّا في استعمالات الشارع المقدس فإن الرؤيا تطلق على ما كان محتم الوقوع، على العكس من الحلم فإنّه عند الإطلاق لا يراد به ذلك، ولذا قال إبراهيم في محكي كتاب الله العزيز: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾(٤) فتجده قد استعمل لفظ الرؤيا ولم يقل إني أحلم في المنام أنّي أذبحك(٥).

وأما الطَّيف فإنّ معانيه متعددة ويشهد بذلك لك العرض الموجز لبعض أقوال علماء اللغة:

قال الفيومي في المصباح: طاف الخيال (طيفاً) ألمّ. و(اطيف) الشيطان و(طائفه) إلمامهُ بمسٍ أو وسوسة(٦).

---

(١) بُلغة الشيعة الكرام في تعبير رؤيا المنام: ٥٦.

(٢) القاموس المحيط: ١٤١٦ (الحلم).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: ٢٥٣ (حلم).

(٤) سورة الصافات: ١٠٢.

(٥) بُلغة الشيعة الكرام في تعبير رؤيا المنام: ٥٧.

(٦) المصباح المنير: ٣٨٣ (طاف).

وقال الرازي في المختار: طيف الخيال مجيئه في النوم، وبمثله صرح الطريحي في مجمعه والضمير في (مجيئه) متعلق بالشيطان، وهذا ما يفسّره قول الفيومي المتقدم.

وقال ابن فارس في المعجم: الطَيف والطائف ما أطاف بالإنسان من الجنّ والإنس والخيال.

وقال الراغب في مفرداته: الطوف المشي حول الشيء، ومنه أستعير الطائف من الجن، والخيال، والحادثة قال الله عزّ وجلّ: ﴿ ***إذا مسّهم طائف من الشيطان*** ﴾[1] وهو خيال الشيء وصورته المترائي له في المنام أو اليقظة[2].

وقال الفيروز آبادي في القاموس: الطَيف: الغضب، والجنون، والخيال الطائف في المنام أو مجيئه في المنام[3].

هل من علاقة بين الأحلام والحوادث؟

نشرت إحدى المجلات العلميّة في الغرب فصلاً حاولت أن تشرح به مسألة الأحلام، وأن تثبت أن بينها وبين الحوادث التي تقع حولنا علاقة لا يمكن انكارها، وقد رأينا أن نورد فيما يلي خلاصة كلامها قالت:

يبذل العلماء منتهى الجهد للوقوف على كنه الأحلام وحلّ ألغازها، ومع أن جهودهم في هذا السبيل ترجع إلى أقدم الأزمنة إلاّ أنهم لم يكترثوا للأمر إكتراثاً جدياً إلاّ منذ عهد قريب، وفي الواقع أن علماء نصف القرن الماضي لم يكونوا يعتقدون أن الأحلام جديرة بالبحث، ولكن علماء هذا العصر ينظرون إلى المسألة نظرة أخرى ويجمعون الحقائق التي تعينهم على استجلاء هذا السّر

---

(١) سورة الأعراف: ٢٠١.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: ٥٣١ (طوف).

(٣) القاموس المحيط: ١٠٧٧ (الطيف).

الغامض. وهناك أمور ثابتة لا سبيل إلى إنكارها وفي مقدمتها أن حوادث كثيرة أشير إلى وقوعها أو أنبأ بها بواسطة الأحلام.

وهناك أيضاً ما يثبت أن بعض الأحلام أوجدت في أصحابها قوة النبوة واستجلاء المستقبل مما لا سبيل معه إلى إهمال تلك الأحلام وعدم الاهتمام بها.

فمن أمثلة ذلك ما رواه الدكتور (دي سرمين) وهو أنه حلم ذات ليلة أن ولده الذي كان يحبه محبّة فائقة وقع في نار ملتهبة واحترق، وكان الحلم واضحاً جداً حتى انزعج الدكتور فنهض من نومه مذعوراً وذهب إلى حيث كان ولده مستغرقاً في ثبات هنيء.

وفي اليوم التالي ظل تأثير الحلم عالقاً به حتى إنه أخذ يراقب ولده كمن يحاول أن يرد عنه الشر، ثم يفحص جسمه بكل دقة فوجده صحيح البنية لا يشكو علّة.

ولكن الولد أصيب في اليوم الذي بعده بالتهاب الرئة الحاد وتوفي بعد بضعة أيّام، فهل كان حلم الدكتور (دي سرمين) من قبيل الاتفاق؟ أم كان بينه وبين وفاة الولد علاقة ما؟ ومن هذا ما وقع لسيدة عجوز من أهالي مدينة (فيلادلفيا) بأمريكا منذ عدّة سنوات فإنها حلمت ذات يوم بأن إبنهاوهو رجل كهل سقط بين عجلات الترامواي، وقتل فنهضت السيدة من نومها مذعورة ولما علمت أن ما رأته لم يكن سوى حلم عادت فنامت ثانية، ولكنها حلمت مرّة أخرى بأن الترامواي قد قتل ابنها وكان الحلم جلياً جداً حتى إنها ركبت القطار في صباح اليوم التالي وذهبت إلى (نيويورك) حيث كان إبنها يسكن وما كادت تخرج من محطة نيويورك وتجتاز أحد الشوارع حتى أبصرت جمهوراً من النّاس مجتمعين حول رجل ميّت قد دهمه الترامواي، وكان ذلك الرجل هو إبنها وهو المستر (وليم كوبر) من كبار أغنياء الأميركيين، وقد

شهد الكثيرون بصحة ما روته السيدة أمّه حيث اطلعت الكثيرين على حلمها قبل أن تسافر من فيلادلفيا إلى نيويورك ومن جملة الذين شهدوا بذلك العالم (كاميل فلامريون).

وهناك أيضاً أحلام تنبئ بوقوع حوادث تافهة. فمن ذلك أن فتاة أرلندية حلمت ذات ليلة بأنها واقفة في إحدى مركبات السكة الحديدية وحولها أصدقاؤها، وما كاد القطار يقوم حتى شعرت بأن يداً قذفت إليها برزمة ففتحتها وإذا بها قطعة من الصابون وأخرى من البسكويت، وأرادت أن ترى ما في بقية الرزمة ولكن القطار دخل في تلك اللحظة نفقاً مظلماً ثم استيقظت.

قصّت هذه الفتاة هذا الحلم على أمّها وجمهور من صديقاتها كن مجتمعات حولها، وبعد ثلاثة أشهر كانت مسافرة بأحد القطارات الاسكتلندية فوقع لها ما رأته في الحلم تماماً. ترى ما معنى هذهِ الأحلام وكيف تعلل وقوعها وهل هي من قبيل الاتفاق أو بينها وبين الحوادث التي تقع حولنا علاقة ما؟ إنّ الكثير من العلماء يعتقدون اليوم أنّ في الإمكان الإنباء بالمستقبل بواسطة الأحلام.

إنّ العلماء يواصلون البحث لمعرفة أسرار الأحلام والوصول إلى تعليلها تعليلاً علمياً صحيحاً ولا بدّ أن ينتهوا إلى حلّ يحسن السكوت عليه، فيثبتوا أنّ الأحلام ليس مجرد مشاهد تعرض للنائم بلا سبب منطقي بل إنّ بينها وبين الحوادث علاقة لا سبيل إلى إنكارها[1].

---

(١) راجع كتاب تفسير الاحلام: بحث في سيكولوجية الأعماق.

التفسير المادّي للرؤيا:

يقول الماديون يمكن أن تكون للرؤيا عدّة علل:

١ ـ قد تكون الرؤيا نتيجة مباشرة للأعمال اليومية أي أن ما يحدث للإنسان في يومه قد يراه في منامه.

٢ ـ وقد تكون الرؤيا عبارة عن سلسلة من الأماني التي تتحقق فيراها الإنسان في النوم كما يرى الظمآن، في منامه الماء، أو أن إنساناً ينتظر مسافراً فيراه قادماً من سفر.

٣ ـ وقد يكون الباعث للرؤيا الخوف من شيء ما، وقد كشفت التجارب أن الذين يخافون من السارق يرونه في المنام.

أما فرويد وأتباعه فلديهم مذهب خاص في تفسير الأحلام، إذ أنهم بَعد شرح بعض المقدمات يقولون: إن الرؤيا عبارة عن إرضاء الميول المتخلفة لا أولئك الذين يريدون أن يشعروا بتحققها بالتغييرات والتبديلات للمخدوع بها.

ولزيادة الإيضاح يقولون: بَعد قبول أن النفس البشرية مشتملة على قسمين (الوعي) وهو ما له إرتباط بالأفكار اليوميّة والمعلومات الارادية والاختيارية للإنسان و(اللاوعي) وهو ما خفي في باطن الإنسان بصورة رغبة لم تتحقق، فكثيراً ما يحدث أن تكون لنا ميول لكننا لم نستطع إرضاءها لظروف ما، فتأخذ مكانها في ضمير الباطن وعند النوم حين يتعطل جهاز الوعي تمضي في نوع من إشباع التخيل إلى الوعي نفسه، فتنعكس أحياناً دون تغيير، كمثل العاشق الذي يرى في النوم معشوقته الذاهبة عن يده واحياناً تتغيرأشكالها وتنعكس بصورة مناسبة، وفي هذهِ الحالة تحتاج الرؤيا إلى تعبير.

فعلى هذا تكون الأحلام مرتبطة بالماضي دائماً ولا تخبرعن المستقبل أبداً.

نعم يمكن أن تكون وسيلة جيدة لقراءة (ضمير اللاوعي).

ومن هنا فهم يستعينون لمعالجة الأمراض النفسية المرتبطة بضمير اللا وعي باستدراج أحلام المريض نفسه.

ويعتقد بعض علماء التغذية أن هناك علاقة بين الرؤيا وحاجة البدن للغذاء، فمثلاً لو رأى الإنسان في نومه دماً يقطر من أسنانه فتعبير ذلك أن بدنه يحتاج إلى فيتامين (ث)، وإذا رأى في نومه شعر رأسه صار أبيض فمعناه أنه مبتلى بنقص فيتامين (ب).

التفسير الروحي للرؤيا:

إن فلاسفة الروح يعتقدون أن الرؤيا والأحلام على أقسام:

١ ـ الأطياف والرؤيا المرتبطة بما في الحياة والرغبات والأمنيات التي تشكل قسماً مهماً في الأحلام.

٢ ـ الأطياف غير المفهومة والمضطربة وأضغاث الأحلام التي تنشأ من التوهم والخيال (إذا كان من الممكن أن يكون لها دافع نفسي).

٣ ـ الأطياف المرتبطة بالمستقبل والتي تخبر عنه.

ومّما لا شك فيه أن الأحلام المتعلقة بالحياة الماضية، واحتباس النفس، وتجسّد الأمور التي رآها الإنسان في طول حياته ليس لها تعبير خاص، ومثلها الأطياف المضطربة أو ما تسمى بأضغاث أحلام التي هي نتيجة الأفكار المضطربة، كالأطياف التي تمر بالإنسان وهو في حال الهذيان أو الحمّى، فهي أيضاً لا يمكن أن تكون تعبيراً عن مستقبل الحياة وإن كان علماء النفس يستفيدون من هذهِ الأحلام ويتخذونها نوافذ للدخول إلى ضمير اللاوعي في البشر، ويعدّونها مفاتيح لعلاج الأمراض النفسيّة، فلذلك يكون تعبر الرؤيا

عند هؤلاء لكشف الأسرار النفسية وأساس الأمراض، لا لكشف حوادث المستقبل في الحياة.

أمّا الأطياف و(الرؤى) المتعلقة بالمستقبل فهي على نحوين:

قسم منها أحلام واضحة وصريحة لا تحتاج إلى تعبير، وأحياناً تتحقق في المستقبل القريب أو البعيد دون أي تفاوت، وهي في منتهى التعجب.

وهناك قسم آخر من هذهِ الأحلام التي تتحدث عن المستقبل، ولكنّها في الوقت ذاته غير واضحة، وقد تغيّرت نتيجة العوامل الذهنيّة والروحيّة الخاصة فهي تحتاج إلى تعبير.

ولكل من هذهِ الأحلام نماذج ومصاديق كثيرة، ولا يمكن إنكار جميعها، وهي ليست مذكورة في المصادر التأريخية فحسب بل تتكرر في حياتنا أو حياة من نعرفهم بشكل لا يمكن عدّه من باب المصادفات والاتّفاقات.

ـ وروى أحد العلماء المصريين حيث قال: إذا كنت أنكر جميع ما قلتم في الرؤيا فلن أستطيع أن أنكر ما حدث لي يوم كنت في أمريكا أبداً. رأيت هناك في المنام أن إبن أختي قد نزفت عيناه دماً ولا يستطيع أن يرى (كان ابن أختي وسائر أعضاء أسرتي بمصر) فاستوحشت مما رأيت وكتبت رسالة إلى أسرتي بمصر فوراً، وسألتهم عن حال ابن أختي بوجه خاص، فلم تمض فترة حتى جاءني الجواب الذي يخبرني بأن ابن أختي مبتلى بنزيف داخلي في العين ولا يستطيع أن يرى وهو مشغول بالمعالجة.

ومما يستلفت النظر أن النزف الداخلي كان بشكل لا يمكن رؤيته إلاّ بالأجهزة الطبيّة، ولكن ابن أختي كان قد حُرم من النظر والرؤية على كلّ حال، غير أنني رأيت في منامي حتى هذهِ المسائل الدقيقة.

إنّ الأحلام التي تكشف الحجب عن الأسرار والحقائق المرتبطة بالمستقبل، أو الحقائق الخفيّة المتعلقة بالحاضر، هي أكثر من أن تحصر، وليس

بمقدور بعض الأفراد الذين لا يعتقدون بهذه الحقائق أن يضعوا أصابع الإنكار عليها أو يحملوها على المصادفة والاتّفاق.

ومن خلال التحقيق مع الأصدقاء القريبين يمكن الحصول على شواهد كثيرة من هذه الأحلام، وهذهِ الأحلام لا يمكن تعبيرها عن طريق التفسير المادي أبداً، وإنّما الطريق الوحيد هو تعبير فلاسفة الروح والإعتقاد باستقلال الرّوح، ومن مجموع هذهِ الأحلام يمكن أن نستفيد أنّها شاهدة على استقلال الروح.

نلاحظ في سورة يوسف عليه السلام أنّ يعقوب عليه السلام كان بالإضافة إلى تحذيره لولده يوسف من أن يقصّ رؤياه على إخوته، فإنّه عبر عن رؤياه بصورة إجماليّة وقال: ﴿ ***وكذلك يجتبيك ربّك ويعلّمك من تأويل الأحاديث ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب*** ﴾[1].

ودلالة رؤيا يوسف على أنّه سيبلغ في المستقبل مقامات كبيرة معنوية وماديّة يمكن دركها تماماً، ولكن هنا يبرز هذا السؤال وهو كيف عرف يعقوب عليه السلام أن ابنه يوسف عليه السلام سيعلم تأويل الأحاديث في المستقبل؟ أهو خبر أخبره يعقوب ليوسف مصادفة ولا علاقة له بالرؤيا؟ أم أنّه اكتشف ذلك من رؤيا يوسف؟.

الظاهر أنّ يعقوب عليه السلام فهم ذلك من رؤيا يوسف ويمكن أن يكون ذلك عن أحد طريقين:

الأوّل: إن يوسف عليه السلام في تلك السن والعمر القصير وقد نقل لأبيه خاصة بعيداً عن أعين أخوته (لأن أباه أوصاه أن لا يقصّها على أخوته) وهذا الأمر يدلّ على أن يوسف نفسه كان له إحساس خاص برؤياه بحيث لم يقصها بمحضر الجميع. ولأن مثل هذا الإحساس في صبي قصير العمر كيوسف عليه السلام

---

(١) سورة يوسف: ٦.

يدلّ على أنّ له استعداداً روحيّاً لتعبير الرؤيا، وإن أباه قد أحسّ بهذا الاستعداد وبالتربية الصحيحة سيكون له في المستقبل حظ زاهر في هذا المجال.

الثاني: إنّ ارتباط الأنبياء بعالم الغيب له عدة طرق، فمرةً عن طريق (الالهامات القلبيّة)، وتارة عن طريق (ملك الوحي)، وأخرى عن طريق الرؤيا.

وبالرغم من أن يوسف عليه السلام لم يكن نبياً في ذلك الوقت، ولكن وقوع مثل هذهِ الرؤيا ذات المعنى الكبير له يدلّ على أنّه سيكون له ارتباط بعالم الغيب في المستقبل، ولا بدّ أن يعرف تعبير الرؤيا طبعاً حتى يكون له مثل هذا الارتباط.

يقول أحد المفكرين: إننا ملزمون بالاعتقاد بأن بعض الرؤى تحمل نبوءات عن المستقبل القريب أو البعيد، ملزمون بهذا لسببين:

أولاً: من ناحية ما ورد في هذهِ السورة من وقوع مصداق رؤيا يوسف عليه السلام ورؤيا صاحبيه في السجن ورؤيا الملك في مصر.

وثانياً: من ناحية ما نراه في حياتنا الشخصيّة من تحقق رؤى تنبؤية في حالات متكررة بشكل يصعب نفي وجوده لأنّه موجود بالفعل.

والسبب الأول يكفي ولكننا ذكرنا السبب الثاني لأنّه حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها إلاّ بتعنت.

من الدروس التي نستلهمها من الآيات التي وردت في سورة يوسف عليه السلام أن نحفظ الأسرار، فدائماً تقع في حياة الإنسان أسرار لو أذيعت قد تهدد مستقبله بالفشل وقد تهدده بالخطر، وقد ورد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: (سرّك من دمّك، فلا يجرينّ من غير أوداجك)[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٧٢/ ٧١/ ح١٥ ، باب فضل كتمان السر.

حقيقة الرؤيا:

ما منا واحد إلاّ وقد شاهد من نفسه شيئاً من الرؤى والمنامات دله على بعض الأمور الخفيّة أو المشكلات العلميّة أو الحوادث التي ستستقبله من الخير أو الشر، أو قرع سمعه بعض المنامات التي من هذا القبيل، ولا سبيل إلى حمل ذلك على الاتفاق وانتفاء أي رابطة بينها وبين ما ينطبق عليها من التأويل. وخاصة في المنامات الصريحة التي لا تحتاج إلى تعبير.

ومما لا سبيل له أيضاً إلى إنكاره أن الرؤيا أمر إدراكي وللخيال فيها عمل، والمتخيلة من القوى الفعالة دائماً ربما تدوم في عملها من جهة الأنباء الواردة عليها من ناحية الحس كاللمس والسمع، وربما تأخذ صوراً بسيطة أو مركبة من الصور والمعاني المخزونة عندها تتحلل المركبات، كتفصيل صورة الإنسان التامة إلى رأس ويد ورجل وغير ذلك، وتركب البسائط كتركيبها انساناً مما اختزن عندها من أجزائه وأعضائه فربما ركبته بما يطابق الخارج، وربما ركبته بما لا يطابقه كتخيل إنسان لا رأس له أو له عشرة رؤوس.

وبالجملة للأسباب والعوامل الخارجية المحيطة بالبدن كالحرّ والبرد ونحوها، والداخلية الطارئة عليه كأنواع الأمراض والعاهات وانحرافات المزاج وامتلاء المعدة والتعب وغيرها تأثير في المتخيلة فلها تأثير في الرؤيا.

فترى أن من عملت فيه حرارة أو برودة بالغة يرى في منامه نيراناً مؤججة أو الشتاء والجمد ونزول الثلوج، وإن من عملت فيه السخونة فألجمه العرق يرى الحمام وبركان الماء ونزول الأمطار ونحو ذلك، وأن من انحرف مزاجه أو امتلأت معدته يرى رؤيا مشوشة لا ترجع إلى طائل.

وكذلك الأخلاق والسجايا الإنسانية شديدة التأثير في نوع تخيله، فالذي يحب إنساناً أو عملاً لا ينفك يتخيله في يقظته ويراه في نومته، والضعيف النفس الخائف الذعران إذا فوجئ بصوت يتخيل إثره أمور هائلة لا إلى غاية، وكذلك البغض والعداوة والعجب والكبر والطمع ونظائرها كل منها يجر

الإنسان إلى تخيله صور متسلسلة تناسبه وتلائمه، وقلّ ما يسلم الإنسان من بعض السجايا على طبعه.

ولذلك كان أغلب الرؤى والمنامات من التخيلات النفسانية التي سقاها إليها شيء من الأسباب الخارجية والداخلية الطبيعية أو الخلقية ونحوها، فلا تحكي النفس بحسب الحقيقة إلاّ كيفية عمل تلك الأسباب وأثرها فيها فحسب لا حقيقة لها وراء ذلك.

وهذا هو الذي ذكره منكروا حقيقة الرؤيا من علماء الطبيعة لا يزيد على تعداد هذهِ الأسباب المؤثرة في الخيال العاملة في إدراك الإنسان.

ومن المسلم ما أورده غير أنه لا ينتج إلاّ أن كل الرؤيا ليس ذا حقيقة، وهو غير المدعى وهو أن كلّ منام ليس ذا حقيقة، فإن هناك منامات صالحة ورؤيا صادقة تكشف عن حقائق ولا سبيل إلى إنكارها ونفي الرابطة بينها وبين الحوادث الخارجية والأمور المستكشفة كما تقدم.

فقد ظهر مّما بيّنا أن جميع الرؤى لا تخلو عن حقيقة بمعنى أن هذهِ الادراكات المتنوعة المختلفة التي تعرض النفس الإنسانية في المنام وهي المسماة بالرؤى لها أصول وأسباب تستدعي وجودها للنفس وظهورها للخيال، وهي على اختلافها تحكي وتمثل بأصولها وأسبابها التي استدعتها، فلكل منام تأويل وتعبير غير أنّ تأويل بعضها السبب الطبيعي العامل في البدن في حال النوم، وتأويل بعضها السبب الخلقي، وبعضها أسباب متفرّقة إتفاقية كمن يأخذه النوم وهو متفكر في أمر مشغول النفس به فيرى في حلمه ما يناسب ما كان ذاهناً له.

وإنّما البحث في نوع واحد من هذهِ المنامات، وهي الرؤى التي لا تستند إلى أسباب خارجية أو طبيعية، أو مزاجية أو إتفاقية ولا إلى أسباب داخلية خُلقية أو غير ذلك ولها ارتباط بالحوادث الخارجية والحقائق الكونيّة[1].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١١ / ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

بحث فلسفي في علّة التغاير والتخالف بين صور الأشياء في عالم المثال والطبيعة

إنّ علّة الاختلاف الحاصل بين صور الأشياء في عالم المثال وصورها في عالم الطبيعة بحيث استدعى فهمها الإحاطة بأساليب وطريق التعبير كامنةً في أمور ذكرها المحدث النوري في دار السّلام وهي كالتالي:

الأوّل: إنّه قد يكون للشيء صورة في عالم المثال وليس له صورة في هذا العالم كالشجاعة التي صورتها الأسد، والحيلة والخديعة فإن صورتها الثعلب، والجهل فإن صورته الخنزير، ومتاع الدنيا فإنّ صورته العذرة وغير ذلك. وقد يكون للشيء الواحد صور متعددة بإعتبار جهات متعددة فيها، كالعلم فإن صورته الماء من حيث كونه سبباً لحياة النفس وبقائها، والعسل لكونه أحلى الأشياء عندها وألذّها، واللبن لكونه من عالم الصفاء والضياء، والأجسام النورية كالشمس والسراج لكونه سبب تنوير النفس وتفرقتها بين الحق والباطل. وقد تختلف صورة الشيء باختلاف الأشخاص الذين يرونه، وقد يكون الشيء الواحد مثالاً لشيئين مختلفين باختلاف الأشخاص كالماء فإنّه مثال للعلم الذي فيه الحياة الحقيقية للنفوس، للعلماء والمتعلمين.

الثاني: أن يكون سببه الإختلاف في المدرك وهو الروح إذا كان ضعيفاً وناقصاً من جهة العلم والاعتقاد بل مريضاً ومتشكلاً بصورة ما غلب على طبيعته من الأخلاط البدنية، فإنّه يدرك حينئذ الشيء متكيّفاً بما هو عليه ويخرجه عن الصورة التي تقوم فيه، وقد منعنا سابقاً كونه كذلك دائماً غير انه مما لا يمكن منعه كلياً لقيام التجربة ومساعدة حالات الحواس الظاهرة، فإنّ

الإنسان يرى الشيء الواحد مختلف الهيئة واللون والحجم باختلاف عينه بالصحة والمرض وقوة النور وضعفه بل قرب المرئي وبعده وغير ذلك.

الثالث: أن يكون ذلك من مقتضيات وجود الشيء المرئي في هذا العالم كالأعمال الحسنة والقبيحة فإنّها أعراض في الدنيا وجواهر في تلك الدار، كما جاءت في متواتر الأخبار، ومثلها الكعبة والقرآن وشهر رجب وشعبان ورمضان بل جميع الساعات والأزمان وخصوصاً يوم الجمعة وليلة القدر ويوم الغدير وغيرها في إطلاعه على ذلك، وكشف الغطاء عن عين قلبه ورؤيته حقائق تلك الأشياء ما مرّ من الإنذار والبشارة والعقوبة والاختبار حسب ما قدمت يداه، وقد تكون صورة عمل حقيقة عمل آخر فيرى في المنام تلك الصورة إذا صدر منه أو من غيره هذا العمل مثل ما ورد من أن من فعل كذا كان كمن عمل كذا، هذا إذا كان المقصود إزالة الريب عن قلب الرائي في كون عمل كالزيارة والحج مثلاً وإلاّ فلا يرى حقيقة الحج.

الرابع: أن يكون السبب فيه الشيطان بأن يتصوّر في عينه الشيء المرئي في غير صورته كالمشعبذ الذي يصرف الأبصار بحركات سريعة وخفة يلتبس على الحس التفرق بين الشيء وشبهه لسرعة الانتقال منه إلى شبهه ومنه بعض أنواع السحر.

الخامس: أن لا يكون المرئي هو أصل الشيء الخارجي أو صورته بل شيء آخر يشارك الخارجي في بعض الصفات الحسنة أو الذميمة الذي أريد تنبيه الرائي عليه ليترتب على الخارجي بعد الكشف عنه ما يترتب عليه بملاحظة هذهِ الصفة من فعل أو ترك أو زيادة أو نقصان أو حب أو بغض كالعذرة والقاذروات التي يراها الإنسان في المنام، فيصيب مالاً حراماً أو حلالاً، واللباس الذي رأى أنّه لبسه أو خلعه فيتزوج أو يطلقها. وهذهِ الأسباب وغيرها يحتمل في المقام ولا يبلغه عقول ذوي الأفهام قد يجتمع في

شيء واحد في منام واحد أو متعدد أو في أمور متفرّقة كذلك. وهذه الأمور قد تكون من الأمور الماضية أو المستقبلة أو الحالية والجميع قد يكون مما يتعلق بنفس الرائي، أو المكان الذي نام فيه، أو يرى الذي نام فيه أو يرى فيه الرؤيا، أو بجملة ما وجد أو يوجد في العالم، فإنّ الإنسان قد يرى حقيقة أعماله السابقة والعاكف عليها وما يبتلي بها بعد حين من الحسنة والقبيحة والمركّبة منها في نوم واحد، وقد يرى دفعة في مكان معيّن ما فعل فيه في السابق أو حال نومه أو يفعل فيه بعد امة من الأقسام الثلاثة من غير ارتباط لتلك الأفعال به، وإنّما انكشفت له لبشارة أو انذار أو امتحان أو غير ذلك، وقد يرى أموراً سلفت في العالم أو ستظهر فيه مما لا تختص بهما وإذا ضممت بعض ذلك بالآخر.

ثم بما ذكرنا من أقسام مباني اختلاف الصور تاقت الأجسام وأوجبت جملة منها توهم كونها من الأضغاث والأحلام، كما وقع لجلساء ملَك مصر في رؤياه في قصّة يوسف عليه السلام مع أنها كانت من الأمور المستقبليّة المتعلقة بكلية العالم، فلو كان معها شيء مما تقدم كانوا أولى بهذا المقال.

ومن هنا تعرف أن كثير من المنامات التي تحمل على الأضغاث لعدم التمكن من ضمّ أجزاء بعض المنام إلى بعض ومعرفة المناسبة بينها[1].

---

(١) بُلغة الشيعة الكرام في تعبير رؤيا المنام: ١٣٦ ـ ١٣٩.

الأحلام من وجهة نظر علماء النفس

يعتبر علم النفس الفردي كلاً من الوعي واللا وعي وحدة لا تتجزأ، لذلك يمكننا أن نعد حياتنا اللا وعية أو الشبيهة بالوعيّة، فالأحلام التي نتعرض إليها كجزء من أسلوبنا في الحياة، وينطوي على المثال الأول منها على الدوام، والحق أننا لن نفهم حلماً من الأحلام فهماً صحيحاً إلاّ إذا أدركنا كيف يرتبط المثال الأول بهذا الحلم، كما أننا إذا عرفنا شخصاً معرفة صادقة كان في إستطاعتنا أن نهتدي إلى الطابع الذي تنطبع به أحلام هذا الشخص، ولما كنا نعرف أن الخوف صفة عامة في جميع أفراد الجنس البشري، ومن هذه الحقيقة العامة يمكننا أن نفترض أن عدداً كبيراً من الأحلام يكون أحلام خوف، أو قلق وحيرة، وكذلك إذا عرفنا أن هدف شخص ما هو الهرب من مشاكل الحياة مثلاً، استطعنا أن نحرز أنّه كثيراً ما يحلم أنه قد سقط على الأرض، وكأن هذا الحلم إنذار له معناه (إيّاك أن تتقدم وإلاّ حلّت بك الهزيمة)، وإذن فهو يعبر عن نظره إلى المستقبل بهذه الطريقة، طريقة السقوط، ولذلك نرى الكثرة الغالبة من الرجال يحملون هذا النوع من الأحلام وهو أحلام السقوط.

ولابدّ لنا من تقديم بعض الأمثلة عن بعض الحالات الخاصة، وهي حالة طالب مهمل في دروسه في اليوم السابق لامتحانه، إن في وسعنا أن نعرف ما يقع لهذا الشخص فهو يظل طوال يومه مهموماً، غير قادر على إستجماع فكره، وينتهي به الأمر إلى أن يقول لنفسه: (إنّ الوقت جداً قصير) فكأنّه يريد أن يؤجل الامتحان إلى آجل، وإذن فهو يرى في الحلم أنّه واقع، وفي حلمه

هذا تعبير صريح عن أسلوب حياته، فلابدّ له أن يرى هـذا النوع من الأحلام ليبلغ به هدفه.

وإليك مثال آخر طالب آخر ناجح في دراسته، شجاع ذكي غير هيّاب ولا مختال، إنّ في وسعنا أن نعرف أيضاً أحلام هذا الشخص فهو يرى نفسه قبيل الامتحان، كأنّه يتسلق جبلاً شاهقاً فيسره المنظر الذي يشرف عليه من فوق قمة الجبل ثم يستيقظ وبذلك نلمس تعبيراً صادقاً عن حياته العادية، كما نرى أن حلمه ينم عن هدفه الأخير في هذهِ الحياة.

وهنالك الشخص المحدود القدرة وهو الذي تقف همته عند حد محدود لا تتعداه، ومثله يحلم بالحدود والموانع تعترض سبيله، وبأنّه غير قادر على تخطيها والتغلّب على الواقفين في سبيله من الناس، وكثيراً ما يرى في حلمه كأنّ شخصاً يتعقّبه ويريد اقتناصه.

وقبل أن ننتقل إلى لون آخر من ألوان الأحلام يجب أن نشير إلى حقيقة هامة، وهي أننا لا نرى عالماً نفسانياً يتولاه القنوط إن قال له زيد من الناس: إني لا أستطيع أن أقص عليك أي حلم من أحلامي، لأنّ ذاكرتي لا تعيها ولكني أستطيع أن أصطنع بعض الأحلام. إذا هو سمع ذلك فلن يقنط لأنه يعلم أن خيال زيد هذا لا يستطيع أن يبتكر شيئاً خلاف ما يوحي به أسلوب حياته. ولذلك فإن أحلامه المصطنعة لا تقل شأناً عن أحلامه الحقيقية التي تعيها الذاكرة، وإن خياله وقصوره ليعبران أيضاً عن اسلوب حياته. وليست المخيلة في حاجة إلى أن ترسم صورة طبق الأصل من حركات الإنسان الحقيقية لتعبير بها تعبيراً صادقاً عن اسلوب حياته. ألسنا نشاهد مثلاً ذلك الرجل الذي يعيش في الخيالات اكثر مما يعيش في الحقيقة؟ فهو النمط الصادق للجبن البالغ نهاراً والشجاعة المفرطة في الأحلام. ولكنا لابد وأن

تكون فيه من المظاهر ما يدلّ على أنه لا يريد أبداً إتمام عمله، وهذه المظاهر نفسها تكون واضحة كلّ الوضوح حتى في أحلامه الباسلة.

وغرض الأحلام على الدوام هو تمهيد الطريق لهدف التفوّق، نعني هدف التفوق الخاص بهذا الفرد نفسه. والحلم لا يعبّر عن الهدف الذي يرمي إليه تعبيراً منطقيّاً ولا صحيحاً، وهو إنّما يخلق إحساساً أو حالة وجدانية لا تدوم.

أمّا من الناحية التأريخيّة فقد كانت الأمم البدائية على الدوام ترى في الأحلام غموضاً ألجأها إلى أن تؤولها بأنّها تنبؤات بالمستقبل، أي أنّهم نظروا إليها كأنها أخبار عن الحوادث المقبلة، وقد كانوا في ذلك في منتصف الطريق إلى الصواب، فالواقع أنّ الحلم هو البرزخ الذي يصل بين ما يواجه الحالم من مشكل وبين هدفه النهائي، وبهذا المعنى يصدق الحلم في كثير من الأحيان، لأنّ الحالم في أثنائه يدرب في الواقع جانباً من نفسه أي أنه يمهد السبيل لأن يحقق حلمه ويصدق، ومما يساعدنا على فهم منطق الأحلام إلاّ نوازن هذا المنطق بحركات اليقظة في حياتنا المعتادة، بل نوازنه بذلك النمط من مظاهر الذكاء الفردي الخاص[1].

فوائد الأحلام في نظر علماء النفس

يقول علماء النفس: الأحلام ضرورية بصورة مطلقة للتوازن العقلي والسيكولوجي. وهي أساسية كالتغذية والنوم سواء بسواء، فالحلم شبيه بقرن التوازن[2]، أو بجيرسكوب[3] يصوننا على الحبل المشدود، حبل التوازن،

---

(١) راجع كتاب التنويم المغناطيسي: ٩٤ ـ ٩٦.

(٢) قرن التوازن: عضو خيطي الشكل في رؤوس ذوات الجناحين، يساعدها على التوازن.

(٣) جيرسكوب: كلمة معرّبة تعني أداة لحفظ توازن الطائرة أو الباخرة وتحديد الاتجاه.

وهكذا يمكن لنقص الأحلام أن تؤدي إلى اضطراب وجدانية أو نفسيّة، وإلى عوز في البروتين الحيواني، مع ما يرافق ذلك من كوارث يفترضه.

والحلم ضرب من التنفس السيكولوجي، إنه قبل كل شيء (صمام) لاندفاعات عديدة مقموعة خلال النهار، ويتيح الحلم تحرير الهموم والعداوات والفظاظات والآمال والمطالب والرغبات، إنها على وجه الخصوص تعيد إلى السطح صعوبات داخليّة، وتوحي لنا على الغالب بحلول، وذلك بواسطة هذهِ الناظمة الآلية الهائلة التي تتصف بأنها لا شعورنا.

إنّ غالبية الشخصيات التي تبدو في حلم من الأحلام تتصف على الغالب بأنّها مظاهر أنفسنا، وهكذا نفهم بصورة مسبقة إلى أي حد يتسم بالأهمية أن نفك رموز الأحلام حتى نفهمها ونصغي إلى رسائلها[1].

ثمة أحلام بوسعها أن تكشف إلى حد يتصف بعضهم ـ بصورة لا شعورية أحياناً ـ بأنّهم غير راضين في حياتهم وتكشف بعض الأحلام الأخرى عن العداوة، بل عن الحقد الذي يكابده بعض الناس إزاء أنفسهم، ولكن الحلم يقوم كذلك مقام آلية تعويض، فيناقض الحلم ضروب الحنين والأسف والضعف.

والأحلام العظيمة تبعث رموزاً صادرة بصورة مباشرة عن إحساسات عميقة تنتمي إلى الإنسانية برمّتها وهذهِ الأحلام قويّة، لا تنسى في الغالب، وقد تكون مشحونة بطاقة هائلة وتجعل فرداً من الأفراد ينقلب صوب مناخ إيجابي جداً أو سلبي جداً. هكذا يرى علماء النفس أهمية الأحلام من الناحية السيكولوجيّة وتأثيرها على الإنسان، بعد أن عرفنا نظر علماء النفس

---

(١) تفسير الأحلام (بحث في سيكولوجية الأعماق): ١٤.

في خصوص الأحلام، وكذلك الفوائد المترتبة من هذهِ الأحلام من وجهة نظرهم، نود الإشارة هنا إلى أن هذهِ الأحلام التي يراها الإنسان في منامه من صور سيئة أو رائعة، وميادين موحشة أو مؤنسة، وما يثير السرور أو الغم في نفسه هل هي مرتبطة بالماضي الذي وجد عشاً في أعماق روح الإنسان وأظهر بعض التبديلات والتغيّرات؟ أم هي مرتبطة بالمستقبل الذي تلتقط صوره عدسة الروح برموز خاصة من الحوادث المستقبليّة؟ أو هي أنواع مختلفة منها ما يتعلق بالماضي، ومنها ما يتعلق بالمستقبل، ومنها ناتج عن الميول النفسيّة والرغبات وما إلى ذلك[١].

إنّ القرآن الكريم يصرح في آيات متعددة أن بعض هذهِ الأحلام على الأقل انعكاسات عن المستقبل القريب أو البعيد، ومثال ذلك ما جاء في سورة يوسف عليه السلام إنّ الرؤيا تحققت في وقت بعيد نسبياً حيث يقال: إنّ رؤيا يوسف عليه السلام تحققت بعد أربعين سنة وبعضها تحقق في المستقبل القريب، كما في رؤيا عزيز مصر ولمن كان في السجن مع يوسف كما سيأتي ذلك ذكره في موضوع لاحق.

وفي غير سورة يوسف إشارات إلى الرؤيا التي كان لها تعبيراً أيضاً، كما ورد في سورة الفتح عن رؤيا النبي محمد صلى الله عليه وآله وما ورد في سورة الصافات عن رؤيا إبراهيم الخليل عليه السلام حيث أن هذهِ الرؤيا كانت وحياً إلهياً بالإضافة لما كانت تحمل من تعبير، كما أننا نقرأ عن نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله من كلامه عن الرؤيا في بعض الروايات قوله صلى الله عليه وآله: (الرؤيا ثلاث: بشرى من الله، وتحزين من الشيطان، والذي يحدّث به الإنسان نفسه فيراه في منامه)[٢]. وعن أبي

---

(١) تفسير الأحلام: (بحث في سيكولوجية الأعماق): ١٥.

(٢) بحار الأنوار: ٥٨/ ١٨١.

عبدالله عليه السلام قال: الرؤيا على ثلاثة وجوه: بشارة من الله للمؤمن، وتحذير من الشيطان، وأضغاث أحلام[1].

وواضح أن أحلام الشيطان ليست شيئاً حتى يكون لها تعبير، ولكن ما يكون من الله جلَ وعلا في الرؤيا، فهي تحمل بشارة حتماً ويجب أن تكون رؤيا تكشف الستار عن المستقبل المشرق.

هذا ما أردنا الإشارة إليه من أن الرؤيا وبحسب التقديرات الإلهية تطابق الواقع الذي نعيشه كما ورد ذلك في القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام.

المنامات الحَقّة

المنامات التي لها إرتباط بالحوادث الخارجيّة وخاصة المستقبلة منها لما كان أحد طرفي الإرتباط أمراً معدوماً بعد كمن يرى ان حادثة كذا وقعت ثم وقعت بعد حين كما رأى، ولا معنى للارتباط الوجودي بين موجود ومعدوم، أو أمراً غائباً عن النفس لم يتصل بها من طريق شيء من الحواس، كمن رأى أن في مكان كذا دفيناً فيه من الذهب المسكوك كذا ومن الفضة كذا في وعاء صفته كذا وكذا ثم مضى إليه وحفر كما دل عليه فوجوده كما رأى، ولا معنى للارتباط الإدراكي بين النفس، وبين ما هو غائب عنها لم ينله شيء من الحواس.

ولذا قيل: أن الارتباط إنما استقر بينه اوبين النفس النائمة من جهة إتصال النفس بسبب الحادثة الواقعة الذي فوق عالم الطبيعة، فترتبط النفس بسبب الحادثة ومن طريق سببها بنفسها.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨/ ١٨٠ عن روضة الكافي: ٩٠.

توضيح ذلك أن العوالم ثلاثة:

أولها: عالم الطبيعة وهو العالم الدنيوي الذي نعيش فيه، والأشياء الموجودة فيها صورة مادية تجري على نظام الحركة والسكون والتغير والتبدل.

وثانيها: عالم المثال وهو فوق عالم الطبيعة وجوداً، وفيه صور الأشياء بلا مادة منها تنزل هذه الحوادث الطبيعيّة وإليها تعود، وله مقام العلّية ونسبة السببية لحوادث عالم الطبيعة.

وثالثها: عالم العقل وهو فوق عالم المثال وجوداً، وفيه حقائق الأشياء وكلياتها من غير مادة طبيعية ولا صورة، وله نسبة السببيّة لما في عالم المثال.

والنفس الإنسانية لتجرّدها لها مسانخة مع العالمين عالم المثال وعالم العقل، فإذا نام الإنسان وتعطلت الحواس انقطعت النفس طبعاً عن الأمور الطبيعيّة الخارجيّة ورجعت إلى عالمها المسانخ لها، وشاهدت بعض ما فيها من الحقائق بحسب ما لها من الاستعداد والإمكان.

فإن كانت النفس كاملة متمكنة من إدراك المجردات العقليّة أدركتها واستحضرت أسباب الكائنات على ما هي عليها من الكليّة والنورية، وإلاّ حكّتها حكاية خيالية بما تأنس بها من الصور والأشكال الجزئية الكونية، كما نحكي نحن مفهوم السرعة الكلية بتصور جسم سريع الحركة، ونحكي مفهوم العظمة بالجبل، ومفهوم الرفعة والعلو بالسماء، وما فيها من الأجرام السماوية، ونحكى الكائد المكار بالثعلب والحسود بالذئب والشجاعة بالأسد إلى غير ذلك.

وإن لم تكن متمكنة من إدراك المجرّدات على ما هي عليها والإرتقاء إلى عالمها، توقفت في عالم المثال مرتقية في عالم الطبيعة، فربما شاهدت الحوادث بمشاهدة عللها وأسبابها من غير أن تتصرف فيها بشيء من التغيير، ويتّفق

ذلك غالباً في النفوس السليمة المتخلفة بالصدق والصفاء وهذهِ هي المنامات الصريحة.

وقد تبين مما قدمناه أن المنامات الحقّة تنقسم إنقساماً أولياً إلى منامات صريحة لم تتصرف فيها النفس النائم، فتنطبق على ما لها من التأويل من غير مؤنة، ومنامات غير صريحة تصرفت فيها النفس من جهة الحكاية بالأمثال والانتقال من معنى إلى ما يناسبه أو يضاده، وهذهِ هي التي تحتاج إلى التعبير بردّها إلى الأصل الذي هو المشهود الأولي للنفس كرد التاج إلى الفخار، ورد الموت إلى الحياة، والحياة إلى الفرج بعد الشدة، ورد الظلمة إلى الجهل والحيرة أو الشقاء.

ثم هذا القسم الثاني ينقسم إلى قسمين: أحدهما: ما تتصرف فيه النفس بالحكاية فتنتقل من الشيء إلى ما يناسبه أو يضاده، ووقفت في المرّة والمرتين مثلاً بحيث لا يعسر رده إلى أصله كما مرّ من الأمثلة، وثانيهما: ما تتصرف فيه النفس من غير أن تقف على حد كأن تنتقل مثلاً من الشيء إلى ضده، ومن الضد إلى مثله، ومن مثل الضد إلى ضد المثل وهكذا بحيث يتعذر أو يتعسر للمعبر أن يرده إلى الأصل المشهود، وهذا النوع من المنامات هي المسماة بأضغاث الأحلام ولا تعبير لها لتعسره أو تعذّره.

وقد بان بذلك أن هذهِ المنامات ثلاثة أقسام كليّة: وهي المنامات الصريحة ولا تعبير لها لعدم الحاجة إليه، وأضغاث الأحلام ولا تعبير فيها لتعذره أو تعسره، والمنامات التي تصرفت فيها النفس بالحكاية والتمثيل وهي التي تقبل التعبير.

هذا إجمال ما أورده علماء النفس من قدمائنا في أمر الرؤيا واستقصاء البحث فيها أزيد من هذا المقدار موكول إلى كتبهم في هذا الشأن[1].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١١ / ٢٧٠ - ٢٧٣.

بحث في الرؤيا الصادقة والكاذبة

قال المجلسي تتئُ في موضوع الرؤيا الصادقة والكاذبة: فأمّا الحكماء فقد بنوا ذلك على ما أسسوه من إنطباع صور الجزئيات في النفوس المنطبعة الفلكيّة، وصور الكليات في العقول المجردة، وقالوا: إنّ النفس في حالة النوم قد تتصل بتلك المبادئ العاليّة فتحصل لها بعض العلوم الحقّة الواقعة، فهذهِ هي الرؤيا الصادقة، وقد يركب المتخيّلة بعض الصور المخزونة في الخيال ببعض فهذهِ هي الرؤيا الكاذبة.

وقال بعضهم: إن للنفوس الإنسانية إطلاعاً على الغيب في حال المنام وليس أحد من الناس إلاّ وقد جرب ذلك من نفسه تجارب أوجبته التصديق وليس ذلك بسبب الفكر، فإن الفكر في حال اليقظة التي هو فيها أمكن أن يقصّر عن تحصيل مثل ذلك فكيف في حال النوم، بل بسبب أن النفوس الإنسانية لها مناسبة الجنسية إلى المبادئ العالية المنتقشة بجميع ما كان وسيكون وما هو كائن في الحال، ولها أن تتصل بها إتصالاً روحانيا، وأن تنتقش بما هو مرتسم فيها، لأن اشتغال النفس ببعض أفاعيلها يمنعها عن الاشتغال بغير تلك الأفاعيل، وليس لنا سبيل إلى إزالة عوائق النفس بالكليّة عن الانتعاش بما في المبادئ العالية، لأنّ أحد العائقين هو إشتغال النفس بالبدن ولا يمكن لنا إزالة هذا العائق بالكليّة ما دام البدن صالحاً لتدبيرها إلاّ أنّه قد يسكن أحد الشاغلين في حالة النوم، فإن الروح ينتشر إلى ظاهر البدن بواسطة الشرايين، وينصب إلى الحواس الظاهرة حالة الانتشار ويحصل الإدراك بها، وهذهِ الحالة هي اليقظة فتشتغل النفس بتلك الادراكات، فإن انخنس الروح إلى الباطن تعطلت هذهِ الحواس، وهذهِ الحالة هي النوم، وبتعطلها يخف إحدى

شواغل النفس عن الإتصال بالمبادئ العالية والانتقاش ببعض ما فيها، فيتصل حينئذ بتلك المبادئ اتصالاً روحانياً ويرتسم بالنفس بعض ما انتقش في تلك المبادئ مما استعدت هي لأن تكون منتقشة به، كالمرايا إذا حوذي بعضها ببعض، والقوة المتخيلة جبلت محاكية لما يرد عليها، فتحاكي تلك المعاني المنتقشة في النفس بصورة جزئية مناسبة لها. ثم تصير تلك الصور الجزئية في الحس المشترك فتصير مشاهدة، وهذهِ هي الرؤية الصادقة.

ثم أن الصور التي تركبها القوة المتخيلة إن كانت شديدة المناسبة لتلك المعاني المنطبعة في النفس حتى لا يكون بين المعاني التي ادركتها النفس وبين الصور التي ركبتها القوة المتخيلة تفاوت إلاّ في الكليّة والجزئية، كانت الرؤية غنية عن التعبير وإن لم تكن شديدة المناسبة إلاّ أنه مع ذلك تكون بينهما مناسبة بوجه ما كانت الرؤيا محتاجة إلى التعبير، وهو أن يرجع من الصورة التي في الخيال إلى المعنى الذي صورته المتخيلة بتلك الصورة، وأما إذا لم تكن بين المعنىالذي أدركته النفس وبين الصورة التي ركّبتها القوّة المتخيلة مناسبة أصلاً لكثرة انتقالات المتخيلة من صورة إلى صورة لا تناسب المعنى الذي أدركته النفس أصلاً، فهذهِ الرؤيا من قبيل أضغاث الأحلام، ولهذا قالوا لا اعتماد على رؤيا الشاعر والكاذب، لأن قوتهما المتخيلة قد تعودت الانتقالات الكاذبة الباطلة[1].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨/ ١٩٦، باب حقيقة الرؤيا وتعبيرها.

الرؤيا في القرآن الكريم وروايات أهل البيت ﷺ:

كان الناس كثير العناية بأمر الرؤيا ومنذ عهود قديمة لا يضبط لها بدء تاريخي، وعند كل قوم قوانين وموازين متفرّقة متنوعة يُزنون بها المنامات ويعبرونها، ويكشفون رموزها ويحلّون بها مشكلات إشاراتها، فيتوقعون بذلك خيراً أو شراً أو نفعاً أو ضراً بزعمهم.

وقد اعتنى بشأنها في القرآن الكريم وذكر الرؤيا في بعض الآيات القرآنية والتي سنذكرها هنا، ونذهب إلى بعض ما ورد فيها من تفسير على ما ذكره العلاّمة المجلسي ﷺ في كتابه البحار:

قال تعالى: ﴿ ***الذين آمنوا وكانوا يتّقون * لهم البشرى في الحياة الدّنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم*** ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ ***إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنّي رأيتُ أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين * قال يا بنيّ لا تقصص رؤياك على إخوتك*** ﴾ إلى قوله: ﴿ ***وكذلك يجتبيك ربّك ويعلّمك من تأويل الأحاديث*** ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ ***ولنعلّمه من تأويل الأحاديث*** ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ ***ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنّي أراني أعصر خمراً وقال الآخر إنّي أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبّئنا بتأويله إنّا نراك من المحسنين * قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلاّ نبّأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذالكما ممّا علّمني ربّي*** ﴾ إلى قوله: ﴿ ***يا صاحبي السجن أمّا أحدكما فيسقي ربّه خمراً وأمّا الآخر فيصلب فتأكل الطّير***

---

(١) سورة يونس: ٦٤.

(٢) سورة يوسف: ٨.

(٣) سورة يوسف: ٢٣.

الطّير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ إلى قوله: *﴿وقــال الملـك إنّــي أرى سـبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيّها الملأ افتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون ❊ قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعـالمين ❊ وقـال الـذي نجا منهما وادّكر بعد أمّةٍ أنا أنبّئكم بتأويله فأرسلون ❊ يوسف أيّـها الصدّيـق افتنـا فـي سـبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلّي أرجع إلى الناس لعلّـهم يعلمون ❊ قال تـزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلاّ قليـلاً ممّـا تـأكلون ❊ ثمّ يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدّمتم لهنّ إلاّ قليلاً ممّا تحصنون ❊ ثمّ يـأتـي مـن بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾*(١).

وقال تعالى: *﴿وما جعلنا الرّؤيا التي أريناك إلاّ فتنة للناس﴾*(٢).

وقال تعالى: *﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله﴾*(٣).

وقال عزّ وجلّ: *﴿قال يا بنيّ إنّي أرى في المنام أنّي أذبحك﴾*(٤).

وقال تعالى: *﴿لقد صدق الله ورسوله الرّؤيا بالحق﴾*(٥).

وقال تعالى: *﴿إنّما النجوى من الشيطان ليحزُن الذين آمنوا وليس بضارّهم شيئاً إلاّ بإذن الله وعلى الله فليتوكّل المؤمنون﴾*(٦).

وقال تعالى: *﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾*(٧).

قوله تعالى: *﴿لا تقصص رؤيـاك﴾* قال البيضاوي: الرؤية كالرؤية غير أنها مختصة بما يكون في النوم، وفرق بينهما بحرف التأنيث كالقربة والقربى،

---

(١) سورة يوسف: ٣٥-٤٩.

(٢) سورة الإسراء: ٦٠.

(٣) سورة الروم: ٢٣.

(٤) سورة الصافات: ١٠٢.

(٥) سورة الفتح: ٢٧.

(٦) سورة المجادلة: ١٠.

(٧) سورة النبأ: ٩.

وهي انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك، والصادقة منها إنّما تكون بإتصال النفس بالملكوت لما بينها من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ، فتتصور بما فيها مما يليق من المعاني الحاصلة هناك، ثم أن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها إلى الحس المشترك فتصير مشاهدة، ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلاّ بالكليّة والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير وإلاّ احتاجت إليه.

قوله تعالى: «من تأويل الأحاديث» أي: من تعبير الرؤيا لأنها أحاديث الملك إن كانت صادقة وأحاديث النفس والشيطان إن كانت كاذبة، أو من تأويل غوامض كتب الله وسنن الأنبياء وكلمات الحكماء.

قوله تعالى: «قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا». قال الطبرسي: هو من رؤيا المنام كان يوسف لما دخل السجن قال: لأهله «إني أعبر الرؤيا»، فقال أحد العبدين وهو الساقي: رأيت أصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وعصرتها في كأس الملك وسقيته إياها، وقال صاحب الطعام: إنّي رأيت كان فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز وأنواع الأطعمة وسباع الطير تنهش منه «نبّئنا بتأويله» أي: أخبرنا بتعبيره. وما يؤل إليه أمره «قال لا يأتيكما طعام ترزقانه» في منامكما «إلاّ نبأتكما بتأويله» في اليقظة، قيل: أن يأتيكما التأويل «أما أحدكما فيسقي ربّه خمرا» روي أنّه قال:

أما العناقيد الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تبقى في السجن ثم يخرجك الملك في اليوم الرابع وتعود إلى ما كنت عليه والرب المالك. وأما الآخر أي صاحب الطعام، روي أنّه قال: بئس ما رأيت، أما السلاسل الثلاث فإنها ثلاثة أيّام تبقى في السجن، فيخرجك الملك فيصلبك فتأكل الطير من رأسك، فقال: عند ذلك ما رأيت شيئاً وكنت ألعب، فقال يوسف: «قضي الأمر الذي فيه

تستفتيان» أي فرغ من الأمر الذي تسألان وتطلبان معرفته، وما قلته لكما فإنه نازل بكما وهو كائن لا محالة.

«وقال الملك» لما دنا فرج يوسف أراه الله في المنام سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس، وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها، وسبعاً أخر يابسات قد استحصدت وأدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها، فاضطرب الملك بسببه لأنّ فطرته قد شهدت بأن استيلاء الضعيف على القوي منذر بنوع من أنواع الشّر إلاّ أنه لم يعرف تفصيله فجمع الكهنة والمعبّرين وقال: «يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي» ثم أنه تعالى إذا أراد أمراً هيأ أسبابه فأعجز الله تعالى أولئك الملأ عن جواب المسألة وعماه عليهم حتى قالوا: إنها أضغاث أحلام ونفوا عن أنفسهم كونهم عالمين بتأويلها[1].

ثم يقول المجلسي ﷺ: واعلم أنّه سبحانه خلق جوهر النفس الناطقة، بحيث يمكنها الصعود إلى عالم الأفلاك ومطالعة اللوح المحفوظ، والمانع لها من ذلك هو اشتغالها بتدبير البدن، وما يرد عليها من طريق الحواس وفي وقت النوم تقل تلك الشواغل فتقوى النفس على تلك المطالعة فإذا وقفت النفس على حالة من تلك الأحوال، فإن بقيت في الخيال كما شوهدت لم تحتج إلى التأويل، وإن نزلت آثار مخصوصة مناسبة للإدراك الروحاني إلى عالم الخيال، فهناك يفتقر إلى المعبّر، ثم منها ما هي منتسقة منتظمة يسهل على المعبر الانتقال من تلك المتخيلات إلى الحقائق الروحانيات، ومنها ما تكون مختلطة مضطربة لا يضبط تحليلها وتركيبها لتشويش وقع في ترتيبها وتأليفها فهي المسماة بالأضغاث، وبالحقيقة الأضغاث ما يكون مبدءها تشويش القوة المتخيلة لفساد وقع في القوى البدنية.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨/ ١٥٣ ـ ١٥٤، باب حقيقة الرؤيا وتعبيرها.

ولو ورد أمر غريب عليه من خارج لكن القسم المذكور قد تعدى الأضغاث من حيث أنها أعيَت المعبر عن تأويلها.

قوله تعالى: «وقال الذي نجا منهما» قال البيضاوي: أي من صاحبي السجن وهو الشرابي «وادكَر بعد أمّة» وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة أو مدة طويلة. «فأرسلون» إلى من عنده علمه أو إلى السجن. «لعلي أرجع إلى الناس» أي إلى الملك ومن عنده. «لعلهم يعلمون» تأويله أو فضلك ومكانك. «دأباً» أي على عادتكم المستمرة وانتصابه على الحال بمعنى دائبين أو المصدر بأضمار فعله أي تدأبون دأباً وتكون الجملة حالاً. «فذروه في سنبله» لئلا يأكله السوس. «إلاّ قليلاً مما تأكلون» في تلك السنين. «ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن» أي يأكلن أهلهن ما ادخرتم لأجلهن، فنسب إليهن على المجاز تطبيقاً بين المعبر والمعبّر به. «إلاّ قليلاً مما تحصنون» أي تحرزون لبذور الزراعة. «فيه يغاث الناس» أي يمطرون من الغيث أو يغاثون من القحط من الغوث. «وفيه يعصرون» ما يعصر كالعنب والزيتون لكثرة الثمار، وقيل: يحلبون الضروع.

وقال المجلسي تتئُ في تفسير: «وما جعلنا الرؤيا» المراد رؤية العين والأكثر على أنه رؤية المنام.

وقال الطبرسي تتئُ روي عن ابن عباس: أنها رؤيا نوم رآها أنه سيدخل مكة وهو بالمدينة فقصدها، فصدّه المشركون في الحديبية عن دخولها حتى شك قوم ودخلت عليهم الشبهة، فقالوا: يا رسول الله أليس قد أخبرتنا أنا ندخل المسجد الحرام آمنين؟ فقال: أو قلت لكم أنكم تدخلونها هذا العام؟ قالوا لا، فقال: لندخلنها إن شاء الله ورجع ثم دخل مكة في العام القابل فنزل ﴿ *لقد صدق الله ورسوله الرّؤيا بالحق* ﴾[1].

---

(١) سورة الفتح: ٢٧.

وقيل: رأى ﷺ في منامه أن قروداً تصعد منبره وتنزل، فساءه ذلك واغتم به، فلم ير بعد ذلك ضاحكاً حتى توفي ﷺ[١].

وجاء في تفسير: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: منامكم في الزمانين لاستراحة القوى النفسانية وقوة القوى الطبعية، وطلب معاشكم فيهما أو منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار، فلف وضم بين الزمانين والفعلين بعاطفين إشعاراً بأنّ كلاً من الزمانين وإن اختص بأحدهما فهو صالح للآخر عند الحاجة ويؤيده سائر الآيات الواردة فيه[٢].

هذا ما أردنا بيانه في مجال القرآن الكريم، أما في ما ورد من روايات حول الرؤيا:

روى المجلسي تدّس نقلاً عن مجالس الصدوق بعد ذكر السند عن علي عليه السلام قال: سألت رسول الله ﷺ عن الرجل ينام فيرى الرؤيا فربما كانت حقاً، وربما كانت باطلاً، فقال رسول الله ﷺ: يا علي ما من عبد ينام إلاّ عرج بروحه إلى ربّ العالمين، فما رأى عند ربّ العالمين فهو حق، ثم إذا أمر الله العزيز الجبار وبرّد روحه إلى جسده، فصارت الروح بين السماء والأرض، فما رأته فهو أضغاث أحلام[٣].

وجاء نقلاً عن كتاب المحاسن بعد ذكر السند عن عبد الله قال: بعثني إنسان إلى أبي عبد الله عليه السلام زعم أنه يفزع في منامه من امرأة تأتيه، قال: فصحت حتى سمع الجيران، فقال أبو عبد الله عليه السلام: إذهب فقل: إنك لا تؤدي الزكاة، قال: بلى والله إنّي لأؤدّيها فقال: قل له: إن كنت تؤدّيها لا تؤدّيها إلى أهلها[٤].

---

(١) مجمع البيان: ٦/ ٤٢٤.

(٢) بحار الأنوار: ٥٨/ ١٥٤ ـ ١٥٦.

(٣) بحار الأنوار: ٥٨/ ١٥٨/ ح ١.

(٤) المصدر نفسه: ٥٨/ ١٥٩/ ح٥.

وجاء كذلك نقلاً عن كتاب المحاسن بعد ذكر السند قال أبو عبد الله عليه السلام: إنّ المؤمنين إذا أخذوا مضاجعهم صعّد الله بأرواحهم إليه، فمن قضى عليه بالموت جعله في رياض الجنّة بنور رحمته ونور عزّته، وإن لم يقدّر عليه الموت بعث بها مع أمنائه من الملائكة إلى الأبدان التي هي فيها[١].

ونقل المجلسي قدس سره من كتاب الاختصاص[٢] قال: قال الصادق عليه السلام إذا كان العبد على معصية الله عزّ وجلّ واراد الله به خيراً أراه في منامه رؤيا تروعه، فينزجر بها عن تلك المعصية، وإنّ الرؤيا الصادقة جزء من سبعين جزء من النبوّة.

جاء عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الرؤيا لا تُقصّ إلاّ على مؤمن خلا من الحسد والبغي[٣].

وجاء عن الرضا عليه السلام قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أصبح قال: لأصحابه هل من مبشرات؟ يعني به الرؤيا[٤].

وجاء عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وآله في قول الله عزّ وجلّ ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾ قال: هي الرؤيا الحسنة يرى المؤمن فيبشّر بها في دنياه[٥].

ونقل المجلسي قدس سره عن الكافي بعد ذكر السند عن أبي عبد الله عليه السلام قال الرؤيا ثلاثة وجوه: بشارة من الله للمؤمن، وتحذير من الشيطان، واضغاث أحلام[١].

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨/ ١٦٥/ ح٥.
(٢) بحار الأنوار: ٥٨/ ١٦٧/ ح ١٩.
(٣) المصدر نفسه: ٥٨/ ١٧٤ عن الكافي.
(٤) المصدر نفسه: ٥٨/ ١٧٧ عن الكافي.
(٥) المصدر نفسه: ٥٨/ ١٨٠ عن الكافي.

ونقل كذلك عن الرضا عليه السلام عن علي عليه السلام قال: رؤيا الأنبياء وحي[٢].

وجاء عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: إنّ منّا لمن ينكت في قلبه، وإنّ منّا لمن يؤتى في منامه، وإنّ منّا لمن يسمع الصوت مثل صوت السلسلة في الطشت، وإنّ منّا لمن يأتيه صورة أعظم من جبرئيل وميكائيل عليهما السلام[٣].

وذكر المجلسي قدس سره كذلك: نقلاً عن كتاب المكارم قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله كثير الرؤيا، ولا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح[٤].

ونقل المجلسي قدس سره عن توحيد المفضّل: فكر يا مفضّل في الأحلام كيف دبّر الأمر فيها، فمزج صادقها بكاذبها، فإنّها لو كانت كلّها تصدق لكان الناس كلهم أنبياء، ولو كانت كلها تكذب لم يكن فيها منفعة، بل كانت فضلاً لا معنى له، فصارت تصدق أحياناً، فينتفع بها الناس في مصلحة يهتدى لها أو مضرّه يتحذّرمنها، وتكذب كثيراً لئلا يعتمد عليها كلّ الاعتماد[٥].

ونقل المجلسي قدس سره عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله قال: ألا إنّه لم يبق من مبشرات النبوّة إلاّ الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له[٦].

وعن أبي قتادة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الرؤيا الصالحة بشرى من الله، وهي جزء من أجزاء النبوّة[٧].

يتضح لنا من خلال هذا أن الرؤيا قد نالت اهتماماً بالغاً من قبل القرآن الكريم وكذلك روايات أهل البيت عليهم السلام.

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨/ ١٨٠/ ٤٢.

(٢) المصدر نفسه: ٥٨/ ١٨١/ ح ٤٣.

(٣) المصدر نفسه: ٥٨/١٨١/ ح ٤٤.

(٤) المصدر نفسه: ٥٨/ ١٨٢/ ح ٤٥.

(٥) المصدر نفسه: ٥٨/ ١٨٣/ ح ٤٩.

(٦) المصدر نفسه: ٥٨/ ١٩٢/ ح ٦٤ عن الدر المنثور.

(٧) المصدر نفسه: ٥٨/ ١٩٢/ ح ٦٦ عن الدر المنثور.

أما بالنسبة إلى موضوع الرؤيا والأحلام ككل يتّضح لنا من خلال البحث أن هذا الموضوع قد نال اهتمام العلماء والباحثين والمتخصصين في مجال الطب وعلم النفس والحكماء وغيرهم. وقد وضعوا لهذهِ الظاهرة تفسيراً وتحليلاً كلٌّ حسب اختصاصه. وقد ذكرنا جزءاً من هذهِ الآراء في بحثنا هذا، إلاّ أنني ومن خلال مطالعاتي لم أجد أن الطبّ الحديث قد عثر على تفسير وتحليل علمي لهذهِ الظاهرة، يعني بعبارة أخرى أن عالم الطب بتقدمه العلمي الحديث قد وقف متحيّراً أمام هذه الظاهرة ولم يستطيع أن يعطي لها أسبابها وكيفياتها ونحن لا زلنا ننتظر ما سيكشفه العلم في المستقبل في خصوص هذا الموضوع.

الخاتمة

وجدتُ نفسي في هـذا البحث أبحر في محيط واسع لا أرى له نهاية، وكلّما تعمقتُ في الكتب أجدها تتجاهل الإجابة عن أهم المسائل النفسية حساسية، وظلت هناك في مخيلتي غوامض لم أجد لها جواباً شافياً، وعندما توجهتُ إلى القرآن الكريم وجدتُ إنه يرشدني إلى حقائق ممتازة لكنها بحاجة إلى المزيد من التوضيح والتعمق، فالقرآن الكريم يتحدث عن القلب أكثر من حديثه عن العقل. هذا لأنّ موقعية القلب أعظم من موقعية العقل وإلاّ لماذا يعطي الغيب هذه الأهمية للقلب؟.

ولكن لا يوجد ما يرشدني من كتابٍ أو غيره إلى هذه الحقيقة، فقد كان هذا المصطلح مُستخدماً ومعروفاً في عهدٍ مضى، ولكن على الرغم من استخدامه فقد كان هناك تبايناً شديداً في آراء العلماء حيال تفسير معناه، وكذلك نفس المشكلة أيضاً واجهتها في مسألتي النفس والروح، فقد عدّ صاحب بحار الأنوار عشرات الآراء المتباينة في هذا الخصوص، وكذلك تقرؤون نفس الشيء بالنسبة للروح في كتاب دائرة معارف القرن العشرين، ويضيع المرء بين هذه الآراء المتضاربة، ولكني أخذت من القرآن والحديث مشعلان ينيران لي هذا الدرب المظلم، فعرفتُ النفس وأدركت بأنّ الروح هي من أمر الله، وأنّ مركز القيادة في الإنسان هو القلب، وأنّ الهوى منبع الأخطاء الفكرية والنفسية. فبعناية الله ومعونته استطعت أن أخرج من الدائرة المفرغة التي عجز امامها كبار العلماء وأتحول إلى ضياء المعرفة وهكذا بحمد الله تم الكتاب.

مصادر البحث

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ نهج البلاغة ـ الإمام علي عليه السلام: شرح الشيخ محمد عبده طبعة مصر.

٣ ـ بحار الأنوار ـ للشيخ المجلسي محمد باقر: دار إحياء التراث العربي ـ ط٣ ـ بيروت ١٩٨٣.

٤ ـ المحجة البيضاء ـ الكاشاني، محمد بن المرتضى: دفتر انتشارات اسلامي ط٣ ايران.

٥ ـ فلسفتنا ـ الشهيد الصدر، محمد باقر: دار التعارف للمطبوعات ـ ط١٢ ـ ١٩٨٢.

٦ ـ آداب النفس ـ العيثاني، محمد: المكتبة المرتضوية ـ طهران.

٧ ـ تفسير نور الثقلين ـ العروسي الحويزى، عبد علي بن جمعة، ط٢ ـ قم.

٨ ـ تفسير الميزان ـ العلّامة الطباطبائي، محمد حسين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت.

٩ ـ أسباب النزول ـ النيسابوري: أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي: انتشارات الرضي ـ قم ١٣٦٢ ه.ش.

١٠ ـ مع الطب في القرآن الكريم ـ للدكتور عبد الحميد دياب ـ والدكتور أحمد قرقوز ط٢ ـ ١٤٠٤هـ.

١١ ـ المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه ـ للسيّد المدرسي: محمد تقي: ط٢ ـ ١٩٨١.

١٢ ـ دراسات في علم النفس الإسلامي ـ د. عبد الرزاق عبد الغفور: مكتب الاعلام الإسلامي ط١ ـ قم ١٤٠٤ هـ.ق.

١٣ ـ الإنسان بين المادية والإسلام ـ سيد قطب، محمد: دار الشروق ـ ط٦ ـ ١٩٨٠ ـ بيروت.

١٤ ـ تربية المراهق بين الإسلام وعلم النفس ـ الزعبلاوي، محمد السيد محمد: مؤسسة الكتب الثقافية ط٤ ـ بيروت ١٩٩٨.

١٥ ـ أصول علم النفس ـ الدكتور أحمد عزت: المكتب المصري الحديث ط٨ الاسكندرية ١٩٧٠.

١٦ ـ علم النفس دار ـ د. فاخر عاقل: دار العلم للملايين ـ ط٧ ـ بيروت ١٩٨١.

١٧ ـ علم النفس التربوي ـ د. فاخر عاقل: دار العلم للملايين ـ ط٤٤ ـ بيروت ١٩٩٨.

١٨ ـ مدارس علم النفس ـ د. فاخر عاقل: دار العلم للملايين ـ ط٥ ـ بيروت ١٩٨١.

١٩ ـ التعلم ونظرياته ـ د. فاخر عاقل: دار العلم للملايين ـ ط٥ ـ بيروت ١٩٨١.

٢٠ ـ نمو الشخصيّة ـ جبرم كاعان: ترجمة صلاح الدين المقداد ـ منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ دمشق ١٩٨٣.

٢١ ـ علم النفس الفسيولوجي ـ كاظم ولي آغا: منشورات دار الآفاق الجديدة ـ ط١ ـ ١٩٨٠.

٢٢ ـ النمو النفسي للطفل ـ طاهر مزروع، (مترجم): الموزّع مكتبة النهضة المصرية القاهرة.

٢٣ ـ مذاهب علم النفس المعاصر ـ د. علمي، زنعور: دار الأندلس ـ ط١ ـ ١٩٧١.

٢٤ ـ دور اللاشعور في الحياة ـ يحيى محمد: ط١ ـ مطبعة اغونه.

٢٥ ـ مشاكلنا النفسيّة ـ معروف زريق: دار الفكر ـ ط٢ ـ سورية ـ ١٩٨٥.

٢٦ ـ المقتطفات السيكولوجيّة، محمد سليم باقي: دار الصادق ـ ط١ ـ ١٩٧٧.

٢٧ ـ علم النفس يدلّك على الطريق ـ رجيفالد وايلد ـ دونالد بنارد: الموسوعة النفسيّة دار احياء العلوم ـ بيروت عام ١٩٨٢.

٢٨ ـ سيكولوجية الإبداع ـ د. عبد الرحمن عيسوي: دار النهضة العربيّة ـ بيروت.

٢٩ ـ الكف والعرض والقلق ـ سيجمند فرويد: دار الشروق ـ ط٣ ـ ترجمة د. محمد عثمان نجاتي.

٣٠ ـ مشاكل الآباء في تربية الأبناء ـ د. سبوك: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ترجمة منير عامر ـ ط٣ ـ بيروت ـ ١٩٨٠.

٣١ ـ دائرة المعارف السيكولوجية، مجلّدات دار صادر ـ بيروت ـ توزيع دار صعب ـ عرض وتلخيص عبد اللطيف شرارة.

٣٢ ـ الاتجاهات والميول في التربية ـ ك م إيفاخز: ترجمة صبحي عبد اللطيف معروف، مكتبة التحرير.

٣٣ ـ دائرة معارف القرن العشرين ـ محمد فريد وجدي: ج٤ ـ دار الفكر ـ بيروت.

٣٤ ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ـ يوسف محرم: دار القلم ـ بيروت.

٣٥ ـ على حافة العالم الأثري ـ آرثر فندلاي: المترجم أحمد فهمي أبو الخير ـ ط٢ ـ النهضة المصرية ـ ١٩٩٥.

٣٦ ـ العلم يدعو للإيمان ـ كرس موريسون: ترجمة الأستاذ محمود صالح ـ القاهرة ـ ١٩٦٥.

٣٧ ـ المرشد الطبي الحديث ـ عدد من الأطباء والمتخصصين: المكتبة الحديثة ـ بيروت ـ مكتبة النهضة ـ بغداد.

٣٨ ـ بلغة الشيعة الكرام في تعبير رؤيا المنام للميرزا محسن العصفور ـ ط١.

٣٩ ـ خواطري عن القرآن للشهيد السيّد حسن الشيرازي ﷺ ـ ط١ ـ ١٤١٤.

٤٠ ـ تفسير الأحلام بحث في سيكولوجية الأعماق بييردا كو ـ ترجمة وجيه أسعد سورية ـ ١٩٨٥.

٤١ ـ التنويم المغناطيسي للدكتور مصطفى غالب ط بيروت عام ١٩٧٨.

٤٢ ـ سيد قطب في ظلال القرآن ـ ط ـ مصر.

٤٣ ـ الفقه العقائد للإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي ـ ط٢ ـ بيروت ـ عام ١٤١٢.

٤٤ ـ تنبيه الخواطر ونزهة النواظر ـ أبي الحسن ورام بن أبي فراس المالكي ـ مؤسسة الأعلمي بيروت ـ لبنان.

٤٥ ـ مفاتيح الغيب ـ صدر الدين محمد بن ابراهيم الشيرازي ـ ايران ـ قم ١٣٦٣هـ.ش.

٤٦ ـ غرر الحكم ودرر الكلم: تأليف عبد الواحد الغامدي التميمي ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٨٧.

المحتويات

المقدّمة ٥

الفصل الأول

النفس

معرفة النفس ٩
حقيقة النفس ١٤
المنظومة النفسية ٢٥
وحدة النفوس ٣٢
النفس والأمراض الجسدية ٣٦
النفس أمّارة أم مطيعة ؟ ٣٩
طبائع النفس ٤١
حالات النفس البشرية ٤٦
أوّلاً : النفــس الأمّــارة بالســوء ٤٨
ثانياً : النفس اللوامة ٤٩
ثالثاً : النفس المطمئنّة ٥١
متطلّبات السعادة ٥٤

الإصلاح النفسي ٦٢
المعرفة النفسيّة ٦٣
المراقبة النفسيّة ٦٦
الإعتقادات ٦٨
المنطوقات ٦٩
السلوك ٧٠
المحاسبة النفسيّة ٧١
التربية النفسيّة ٧٣

الفصل الثاني

النفس في التصوّر الإسلامي والتصوّرات البشريّة

النفس في التصوّر الإسلامي ٨٧
التصوّر البشري حول النفس ٩٤
المدرسة الوظيفيّة ٩٤
المدرسة البنائيّة ٩٧
المدرسة الربطيّة ٩٨
المدرسة السلوكيّة ١٠٠
المدرسة الشكليّة ١٠٥
مدرسة التحليل النفسي ١١١
المدرسة القصديّة ١١٧

الفصل الثالث

الروح والجسد

حقيقة الروح ١٢٣

تعلق الروح بالبدن ١٤٤

تجرّد الروح ١٥١

خلق الأرواح قبل الأبدان ١٥٤

متطلبات الروح والبدن ١٦١

الروح المكلّفة ١٦٩

قيمة الروح ١٧١

الفصل الرابع

الصراع النفسي

منبع الأمراض النفسيّة ١٧٧

صراع العقل والهوى ١٨٦

علاج الهوى ١٩٩

الغرائز ٢٠٦

الخير والشّر من منظور فلسفي ٢١٧

التجرّد لمحض الخير أو الشر ٢١٧

شبهة وجواب ٢٢١

مخلص عرفاني ٢٢٥
معنى الخير والشر ٢٢٥
النور والظلمة في كتاب الله ٢٢٧
الروايات في الخير والشر ٢٣٠
الخير والشر في القرآن ٢٣١
الفرق بين الفضائل والرذائل ٢٣٥
الشرور من محفّزات الخير ٢٣٧
أنواع النحوس والخير والشر ٢٤٢
ما يقال عليه الشر ٢٤٣
منهج الإسلام في الخير والشر ٢٤٤
هل الخير والشر تميّزهما وجداني أو برهاني ؟ ٢٤٧
الإنسان بين الخير والشر ٢٤٧
كيفيّة علاج الضمير حتى لا يموت ٢٤٩
الفطرة ٢٥٠
الكمال والخير بما يناسب الشيْء ٢٥٠
ماهو ملاك الخير والشر ؟ ٢٥١

الفصل الخامس

بين العقل والقلب

العقلُ دليلٌ مرشد والقلب زعيم مفكر ٢٥٥

النقاش في المراتب ٢٥٥
القوّة الوهميّة ٢٥٨
قوّة الحافظة ٢٦٠
القوّة المفكّرة ٢٦٤
الفطنة ٢٧١
الفهم ٢٧٣
العلم ٢٧٤
القلب مسكن العقل ٢٧٧
الخواطر الملهمة ٢٨٨
القلوب ثلاثة ٢٩٢
أوّلاً : القلب المزدهر بالعلم ٢٩٣
ثانياً : القلب المشحون بالجهل والبغضاء ٢٩٤
ثالثاً : القلب المتردد بين العلم والجهل ٢٩٤
سلامة القلب ٢٩٥
ذكر الله ٢٩٥
إنشراح القلب بالحكمة ٢٩٧
تنقية القلب من الريب والشكوك ٢٩٩
عدم التعصّب للجهل ٣٠٠
إصلاح النيّة ٣٠٠
التفكّر مفتاح الحكمة ٣٠١

تهذيب القلب من الأخلاق الذميمة ٣٠٢

خصائص القلب ٣٠٢

الفصل السادس

في تعريف النوم وبيان حقيقته

تعريف النوم وبيان حقيقته ٣١٣

علّة نشأة الأحلام ٣١٥

الفرق بين الحلم والرؤيا والطيف ٣١٧

هل من علاقة بين الأحلام والحوادث ؟........ ٣١٩

التفسير المادي للرؤيا ٣٢٢

التفسير الروحي للرؤيا ٣٢٣

حقيقة الرؤيا ٣٢٧

بحث فلسفي في علّة التغاير والتخالف

بين صور الأشياء في عالم المثال والطبيعة ٣٢٩

الأحلام من وجهة نظر علماء النفس ٣٣٢

فوائد الأحلام في نظر علماء النفس ٣٣٤

المنامات الحقّة ٣٣٧

بحث في الرؤية الصادقة والكاذبة ٣٤٠

الرؤيا في القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام ٣٤٢

الخاتمة ٣٥١

مصادر البحث ٣٥٣